

تأليف

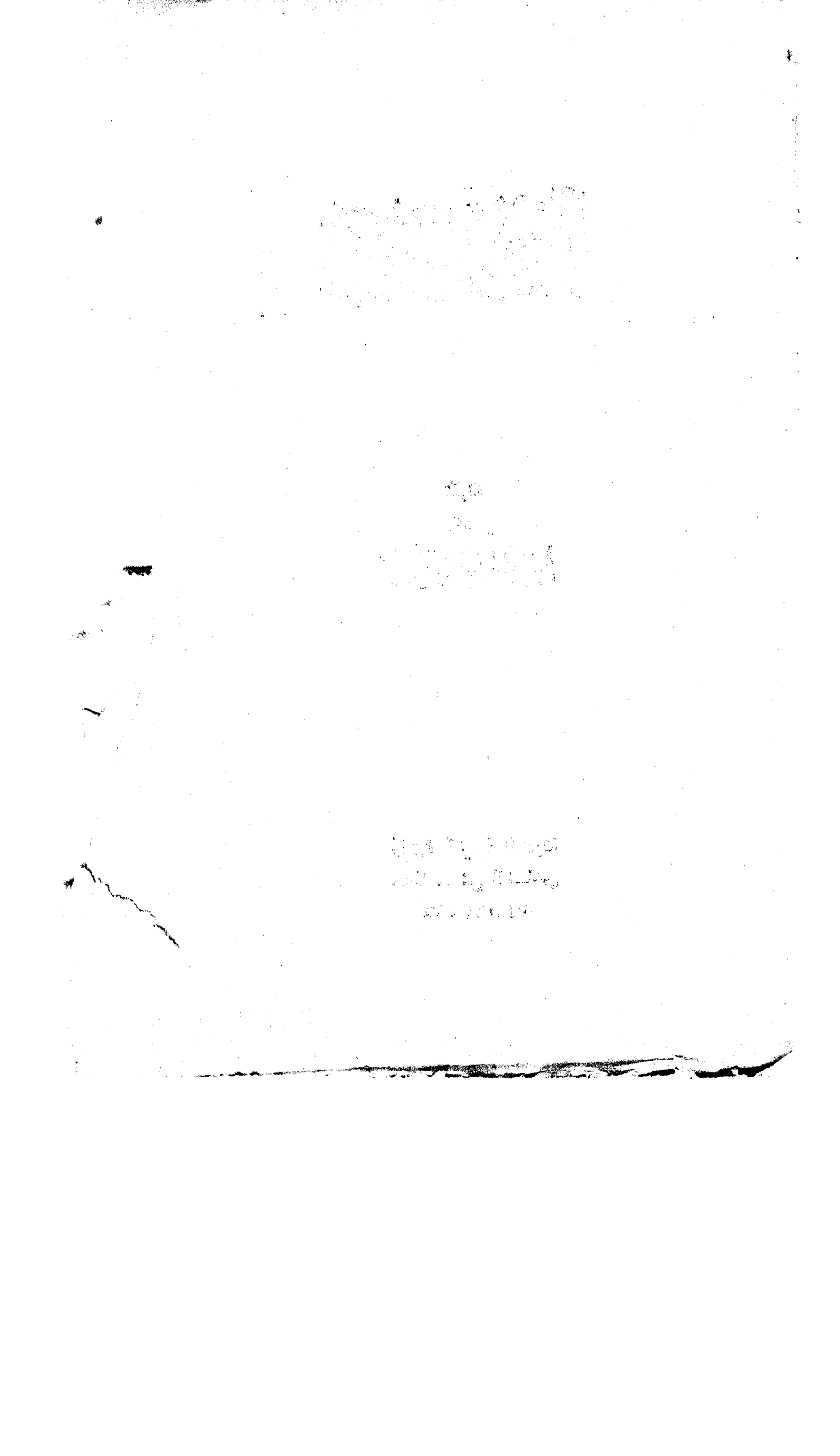
دكتور

عبد الله يوسف الشاذلي

المكتبة القومية الحديثة

طنطا ــ ش القــاضى

ت : ٣٤٩٠٦٩



بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

صدق الله العظيم

بين يدي الكتاب

تدور هـذه السطور حول محاور ثلاثة :

محور علمي يعرف ويحلل ويدلل .

ومحور واقعي يفهم ويصف وينبـه .

ومحور حركي يعـلم ويحفز ويدفع .

والله الموفق .

اهـــداء

الى الله رب العالمين ، الى الواحـد الأحـد ، الى البر الرحيم والى العفو الكريم ، الى من خلق وصور ، وأبدع وكور ، الى من أنزل الكتاب وأحكم ، وقضى ودبر ، أقـدم بين يديه هـذه الكلمات دعوة اليه واخلاصا فى سبيله راجيا منه القبول والرضا والى النبى المصطفى، والرسـول المجتبى ، والسراج المنير ، والداعى الى الحق والى طريق مستقيم ، من أوتى جوامع الكلم ، وفصاحة البيان ورجاحة الجنان ، وحكمة العقول ، ودقة المنطق ، ونور الحجة ، ومن وهب حياته للـه عابدا وداعيا ، وصادقا ومخلصا ، ومن جاء للبشرية من الضلال منقذا ، وآتاهم بالقرآن هاديا اليه أسوق هذه السطور منبعا ، وعلى طريقـه منتهجا ، وعلى سيرته العطرة سائرا ، وبصدق أقواله وأفعاله مؤتسيا ، وبصحابته الكرام مقتديا •

ومع الدعاة الأوفيـاء من أصحاب الكلمة الحرة المخلصة أسـير ولست مثلهم فانى ضعيف الحال واهيها ، والى هؤلاء أهدى هذه الجملة مشاركة فى النـداء ، واسهاما فى الصيحة ، وانصـياعا لأمر الحق فى وجوه الدعوة •

بســم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة :

الحمد لله حق حمده ، والثناء عليه وحده ، والشكر كما يستحق لذاته ، قصرت فهوم البشر عن ادراكه بحقيقته ، وكلف عقولهم أن ترد حياض ذاته ، أو تحيط بعلمه ، خر صعقا من قال أرنى أنظر اليك عندما رأى الجبل غائراً من بصيص التجلي ، وأدرك الخليل بعد المنال فى قوله « **رب أرنى كيف تحيى الموتى** » وأيقن أن الله « **عزيز حكيم** » **سبحانه** من تعالت ذاته أن تدرك بالأبصار « **وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » سبحانه من تنزه عن المشابهة والمماثلة لأن الأشباه والمتماثلات مخلوقات « **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » سبحانه من جعل العظمة ازاره والكبرياء رداءه ، سبحان الكبير المتعال ، سبحان الذى فى السماء عرشه وفى الأرض سلطانه وحكمه ، وبين الخلائق قضاؤه وقدره وفى الكون مشيئته وارادته ، وفى كل يوم شأنه وأمره ، صغائر الأشياء ككبيرها تحت علمه واحاطته ، وهى هى تحت تدبيره وتصريفه ، تنزه عن الشريك ذاتا وحكما .

فلا ذاته يمكن معها الشريك لكمال صفاتها وانفرادها بالوحدانية ، ولا هو يحتاج الى الشريك فى الحكم والتصريف واحد فى ذاته وحكمه وخلقه وابداعه وتدبيره وسلطانه ، ومن ثم اقتضت وحدانية الخــلق واحدية التوجه والعبادة فهو المعبود وهو المستعان وهو المقصد والملجأ والمنجى ، كما اقتضت احاطته فى علمه كفر أو فسق أو ظلم من حار عن حكمه وتشريعه ، لكونه عدل عن اليقين المطلق الى الظن والتردد ، وعن القول المبين الى الرأى والهوى ، وعن الحجــة الواضحة الى الظنيــة الحائرة ، ولكونه عدل عن حكم الذى خلق ويعلم السر وأخفى ، ويعلم

النفوس وطبائعها واختلافها وتنوعها الى حكم من لا يخلق ولا يعلم الا ظاهرا قليلا من القول الخادع .

سبحانك خلقت الخلائق وفضلت عليها الانسان تكرما منك ، وتفضلا من لدنك ، وأودعت فيه من القوى ما يستطيع معها ادراك وجودك ، والعلم بك ، وما يقدر بها على تحقيق الخلافة على الأرض، وواليت فضلك فواليت بين رسلك وأنبيائك بيانا وهداية ، وبلاغا ودعوة اليك ، ولم تكل البشر الى مداركهم ، ولو كانت عقولهم كافية في تحقيق مطلوبهم عقيدة وشريعة ، وخلافة وحكما ، وعلاقة وتنظيما لتركتهم لذلك ، وختمت الرسالات بأدقها وأشملها ، وأتمها وأكملها : وأوسعها وأعمها ، وأبهرها وأقنعها ، تبهر بالتحدى وتقنع بالحجة والدليل ، توسع الوجدان ، وتشبع العاطفة ، وتروى القلب ، وتبرهن للعقل ، وتملأ الكيان الانسانى كله افحاما واقناعا ، وقد ظمأ الظامئين برى العلم الالهى حكمة وايقانا ، واجمالا وتفصيلا وعقيدة وشريعة ، وايمانا وعبادة ، ودينا ودنيا ، وروحا وبدنا ، وفردا وجماعة وانسانية سبحانك واخترت لهذه الرسالة أفضل الرسل خلقا وخلقا ، وبيانا وعلما، وهداية ورحمة ، وسراجا ونورا ، ومنطقا وقولا ، وبلاغة وحكمة ، وعقلا وبصيرة ، ونفسا وروحا ، صلى الله عليه وسلم ، دعا الى دين الله ما فتر ، ارتاد كل ناد ، واقتحم كل عقبة ، وخاض كل معمعة حتى فتح الله له وبه قلوبا غلفا وأعينا عميا ، وآذانا صما ، وغدا الضال مهتديا ، والحائر متيقنا ، والمشرك موحدا ، والكافر مؤمنا ، وساد شرع الله حكما عدلا وقسطاسا مستقيما ، وصراطا مبينا .

وعظت فرققت قلوبا ، ورحمت فألنت نفوسا ، وحاججت فأقنعت عقولا ، وجادلت فأفحمت صنديدا ، وعبدت فعلمت رقابا ، وكنت على خلق عظيم فهذبت بالأسوة نفوسا ، وحكمت فبدلت الجور عدلا ، وشريعة الغاب قانونا ، وعرف الجهال نبراسا وميزانا ، وآخيت فتلاقى البعيد مع القريب اخوانا ، ووحدت فامتزج الجميع قوة ، وبنيت فتراص

الكل صفا ، وجاهدت فسرك شجعان من خلفك نبذوا حرب القبيلة الى جهاد الدعوة ، وقتال المراعى الى قتال الجنان ، وقتال الثأر الى قتال الايثار ، وقتال البغى الى قتال التوحيد والعدل وصلى الله عليك وعلى آلك وصحبك وكل من دعا بدعوتك وسار على طريقك ونهجك وبعد :

فالمحاولة التى اعتزم القيام بها ليست هينة ســهلة **لموضوعها ولمجالهــا** .

أما بالنسبة لموضوعها فانها تتناول المقاصـد الأساسية ، والحكم الدقيقة التى تتعلق بدعوة البشرية الى أسمى الغايات وأرقاها ، وأعمق المبادىء وأقومها ، وأوضح العقائد وأصحها ، وأحكم الشرائع وأتمها والدعاة وهم يتناولون ذلك يراعون شرائط معينة من التعبير والبيان ، وطرائق متنوعة من الاقناع والاستدلال ، وهم لا يغرضون فى أنفسهم باحثين عن الفكرة واللغــة ، وانما يغوصــون أولا فى أعماق نفوس الآخرين ويتغرسون طبائعهم ، ثم يردون موارد نفوسهم فيستخرجون من زادهم ما يناسب غــذاء صحيحا لمن يقف أمامهم أو يتصررونه سامعا أو قارئا ، وموضوع كهذا له شرف الغاية والوسيلة والمنهج ، وله سعة الفهم وحدة الفراسة : وقرة الحجة وبراعة الأسلوب يحتاج الى همة على نفس هــذا المستوى والى واحد من تلك الطرز التى عرفت بعلمها وصبرها وورعها .

وأما الصعوبة التى تنشأ من ســعة المجال ، فان الدعوة والدعاة اليوم على وجه خاص يجــدون أنفسهم رضوا أو كرهوا أمام ساحات وفئــات من أصــناف البشر تنوعت أفكارهم ، واختلفت مشــاربهم واتجاهاتهم . وتفرقت عقائدهم ، وهم لا يســلمون ولا يستسلمون بسهولة الى خصومهم ، ومن فضول العلم أن نقول : ان هؤلاء الأصناف مزودين بسلاك المقاومة لدعوتنا بصورة تفوق — من الوجهة المــادية — ما نحن عليه فى غالب الأمر ، وهم مستعدون لالقاء ما يمكن القاؤه فى

وجهنا أو علينا اذا اقتضت الظروف ذلك وكلما اقتضته ، ولا يجد الدعاة لأنفسهم تلك الدفاعات التى يتحصن بها للعـدو ، أو هـذه الأدوات التى يهجم بها ، ونصيبنا مقصور على ما لدينا من زاد الصدق والحق، وبين اليقين بأن دعوتنا هى الدعوة الحقيقية ، أو هى الفكرة الحقـة ، وهى النور الأبلج ، وهى الحق وما سـواها باطل ، وهم متحصنون بما لديهم من ثقة بلا حدود فى نصر الله الذى وعد المخلصين من عباده به ، وهو أقوى من كل عـدة ، وكل من الدعاة يضع نصب عينه قول الله تبارك وتعالى : « **أليس اللـه بكاف عبده** (١) » وقوله « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا** (٢) » « **لينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز**(٣)» ومن ثم يهتف الجميع من الأعماق « حسبنا الله ونعم الوكيل (٤) » .

ولمـا كان الأمر كذلك من ناحية الموضوع والمجال لزم لكل من يكتب فى هذا الجانب أن يضع فى اعتباره أمورا هامة :

منها طبيعة الدين الذى يدعو اليه . وكونه دينا شاملا يسـتوعب الحياة والآخرة ، وينتظم مشاكل الأفراد والجماعات ويضع لها الحلول، هو دين القلب والعقل ، وهو دين النفس والبدن ، وهو دين الـروح والمـادة وهو دين الحكم والنظام ، وهو دين السياسة والاقتصـاد ، وتصوره على هذا النحو ضرورى لمن يتصـدى للدعوة بلاغا أو كتـابة أو فنا كعلم من العلوم التى نشأت فى المـلة الاسلامية .

وأيضا فانه من أجل الأمور التى يجب أن تؤخـذ فى الاعتبار تلك الساحات الواسعة التى يجب أن يمتد اليها نشاط الدعـوة والدعـاة وتشكل مجالا حيويا لمهمتهم ، وهذه الساحات تشمل : الأعداء الحقيقيون

---

(١) الزمر ٣٦
(٢) سورة الحج الآية ٣٨
(٣) الحج ٤٠
(٤) آل عمران ١٧٣

من المــاديين والملحدين المنكرين للرســالات والرســل والألوهية وكل ما هو روحى ، ومن يساندهم ويؤازرهم فى عدائهم للاســلام بوجــه خاص من أهل الكتاب « اليهود والنصارى » وما يمكن من وسائل الحرب الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ٠

كما تضم تلك الساحات بعض المســلمين من الذين بهرتهم مادية الغرب وعلمانيته فراحو يناصرونهم فى أفكارهم ويروجون لها من قريب أو من بعيد حسب حالة كل ، وهم يقفون من الدعوة مواقف متنواعــة طبقا لظروفهم أيضا تبتدىء بالعداء وتصل فى أضعف مراحلها الى عدم التحمس لها ٠

ثم هناك جمهور المسلمين الذين يتسم تدينهم بالخمول والضعف ، وهؤلاء يتشبثون بظاهر من الدين لا يولد فيهم حسا دينيا رقيقا ، ولا يبعث فهم قيمة الاســلام ونشاطه ، ولا يغضــبون اذا انتهكت الحرمات ، ومشــكلات الدين لا تنال منهم قســطا كبيرا من الحماس أو الجهد ، وهم منصرفون بقواهم أو اهتماماتهم الى مشاكلهم الخاصة وأغراضهم الذاتية ، وربما كان هذا المسلك نتيجة الجهل ، أو لســــوء الأحــوال السياسية وضــغطها ، أو راجع الى الهموم الاقتصادية ، أو لمؤثرات اعلامية أو ثقافية مقصودة ، ولا أظن أننا بحاجة الى هذا العدد الضخم من الكسالى أو الحاقدين وهم الذين يتوجه اليهم بالدعوة يلقون من الجهد الكثير ، ويحتاجون الى عناء ومثابرة ودواء لجراحهم ، وحل لمعضلاتهم ريثما يستجيبون لنداء الصحوة الاسلامية الصحيحة ، ومتى ينصاعوا الى الدعوة ويتدينوا على وجه نقى ، ويزداد الجهــد ويضاعف اذا كانت أمراضهم راجعة الى البدع والأهــواء وقد عبثت المبتدعات بقلوبهم وسيطرت على أدمغتهم من هنا يقول الأستاذ سيد قطب فيما نقله عن أحمد فائز ملخصا (وليعلم الدعاة الى هذا الدين أن مكمن الخطر والضعف ، والخطر الكبير الذى يواجه المسلمين اليــوم هو تكوين أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذى منى به شــبابهم ،

وأكبر النوائب أن يصاب الفرد بنفسه ذلك أن معالجة أى خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد قوية نستطيع أن تجابه المصاعد ، ونصمد للحوادث أما اذا افقدت هذه التربية فهناك الطاقة الكبرى وهناك تتوالى المصائب ، وتتضاعف المصاعب) (٥) .

وعلى ما يبدو بوضوح فان دعوات الاصلاح لأصول التربية وفلسفتها فى بلداتنا ، وتحسين مسار المناهج ووسائلها تذهب كلما هبت الرياح ، فكم من الصرخات دوت فى الأفق وملأ طنينها أذان المسئولين عن التربية ، ومع ذلك أشاحوا بوجوهم عن مصدر الصراخ وبيت العلة ، واكتفوا بالقاء الوعود تهدئة للمشاعر ، وامتصاصا للغضب واشعارا بحاستهم نحو المرض ، وهم بذلك يريدون للجيل أن يظل هكذا على حالة من الضعف ليكون أسلس قيادا وأسهل انصياعا وتصديقا لما يقال ويلقى .

مثل هذه المشاكل المتداخلة و الملبدة يصير من المحتم تصورها لدى الدعاة وهم يشخصون أمراض مجتمعاتهم ويقفون منها موقف الطبيب الحاذق والمعالج الماهر ، يرقبون تطورها ، ويدركون بواعثها ونتائجها ، ويعدون الحلول المناسبة لها (فأول ما يجب على الدعاة عمله هو معرفة الضعف الذى يصيب المسلمين ... ثم بعد ذلك اصلاح هذا الضعف للنهوض ، وحمل الأمانة من جديد) (٦) .

ولا أكون مبالغا اذا قلت ان الانسان الجاهلى كان أخف فى علته من كثير من معاصرينا المتدينين ، لأنه كان من السهل أن تعرف مبعث العلة عنده ، وأن نأخذ فى علاجها ، وعندما نقترب من الحل ، ونستحوذ عليه بالاقناع ويؤمن لا نجد بعد مشاكل أخرى فى سلوكه أو شخصيته ،

---

(٥) احمد فائز : طريق الدعوة فى ظلال القرآن ٧

(٦) نفسه ٧

وكما أن أمـراض العصر البدنية كثـيرة فكذلك على النفس فى تدينها وأفكارها متعددة ، كلما وجدت جذرا لواحدة عهدته متشابكا مع أخرى ، من ثم تنشأ الصعوبات وتتكاثر ، ويحتتم الحذر ، ويتضاعف الجهـد ، ويلزم البذل والسعى ، هذا مع رفع المساواة بين الجاهلى والمسـلم المعاصر فى قبول الايمان عند الله ، ولنأت الآن الى ساحة من الساحات المعتبرة فى نظر الدعاة ، والتى تلعب الدور الرئيسى فى المواجهة المباشرة مع الدعوة والدعاة ، وتنظر الى الاسـلام بأكثر من عين ، فعين جاهله بطبيعة الاسلام ، وأخرى تتطلع اليه على ضوء الآخرين من أعدائه ، وثالثة ترقبه برؤية حزبية ، ورابعة تراه يحد من سـلطانها وتسلطها ، وخامسة جرفتها فلسفات مادية ، أو خصصت لطائفية منحرفة ، نجـد هذا كله فى عيون رجال السياسة والحاكمين فى معظم الدول الاسلامية ، وفى أسلوبهم ونظم حكمهم ، ومرجعه اما الى عدم الكفاءة السـياسية والجهل بالادارة وحداثة السن فى تولى الشئون ، وعدم الخبرة والدراية، او التربية المذهبية التى شب عليها ورضع من سموم لبانها أو الانتماء لأفكار لا تتلاءم مع تراثنا ، أو الارتباط بسياسات مفروضة ذات تأثير معين يخشى بأسها أو تملى عليه ما تريده •

كل هذا يجب اعتباره والنظر اليه بعين ثاقبة من الدعاة ، وبعين لا تمل التأمل ، وعقل لا يكل التدبر ، وفطنة لا تتورط •

وعلى الدعاة أن يدركوا وأن يشرحوا للغير بطريقة مقنعة طبيعة الصراع بين الحاكمين والذين يهمهم حال الاسلام وأن يكونوا على وعى كامل بمبعث العداء بين السلطة وأنصار الحق ، وان يحددوه تحـديدا واضحا ودقيقا لهم ولغيرهم أى ليكون مفيدا لهم فى دعوتهم ولغيرهم عندما يحدثونه ، والا ينزلون الدعاة وراء الحاكمين فى تصوير الصراع بين السلطة وبين رجال الدعوة وجنودها الحقيقيين على أنه صراع بـين جماعة حاكمة أخرى لها دينها وتسعى الى السيطرة بالقوة أو بالعنف الى آخر هذه الدعاوى ، وان نبين بتجرد وصدق ان الصراع انما هو

بين السلطة والاسلام ذاته ، ويتستر الحاكمون فى عدائهم ونفوذهم من الاسلام وراء الأشخاص ممن تسميهم بمسـميات تختارها وتبثها بين موجات وعلى صفحات اعلامها تنفيرا للشـعوب من هؤلاء الذين يدعون الى الاسلام وممن يستمعون لهم ، والحقيقة أن الاسـلام هو الطرف الثانى فى الصراع بينه وبين السلطة ، والعجيب أن كثـيرا من الأنظمة تتعادى فيما بينها وتلتقى معا فى عدائها للاسلام وتتعاون على ذلك على الرغم من تفرقهم أشتاتا وشيعا واندلاع الحروب بينهـم لاتفه الأسـباب .

وأن كلمة واحدة ربما تثير حفيزة هذا أو ذاك ، وتجعله يتحفـز بجاره ويعد العدة ، ويزج بالأبرياء فى ساحة القتال لمطمع ذاتى : أو نعرة سلطوية عارمة ، فاذا ما كان المجروح هو الاسلام مذعـة ينزف دما ، لا تتحرك فى واحد منهم نخوة ، ولا تثار فيهم حمية ، وكأنهم أصيبوا بالبلادة .. وحطفاهم كذلك — وربما والوا أعداء الله على أخوانهم كما هو الحال بالنسبة لأفغانستان عندما وقفت دول اسلامية جهارا فى وضح الشمس وعلى مسمع الدنيا تناصر قتل الأبرياء وتستحل الدماء المحرمة لاخوانهم من المسلمين فى هذا البلد المجاهد ، وكما يحصل بالنسبة الى أندونيسيا . ومتفارات الانذار تدوى تعلن اندلاع موجة التبشير بين الفقراء والمساكين من المسلمين الاندونيسيين ، وهو كثير فى بلدان اسلامية عديدة لا نجهلها ، كما نتعاون مع سلطة الفلبيين جزاء ما قتلت وسفكت وشردت من اخوننا بلا شعور بالأسى والعار من فعلنا وتصرفنا .

هذه الساحات بما فيها من علل تجعل مهمة الحديث عن الدعـوة والدعاة شاقة الى أبعد الحدود ، وتجعل رسم الطريق لسير الدعـوة فى عصرنا مليئا بالأشواك والعثرات ، ولكنه اقتحام مفروض ، وسـير ضرورى ليس لنا أن نتوانى ، ولا نكسل فهو حق الله وحق دينه ، وهو مقتضى الايمان وثمرته .

ولو أن الأمر اقتصر فى الصعوبات على هذا لكان هينا لكن أما وأن تنشأ الصعوبات من الساحة التى تدور معا عليها ، أو نتعاون فيهــا ، أو ننتمى اليها فهذا ما يقض المضجع ، ويؤرق العين ، ويثير الألم ويحمل على الحزن والأسف معا ، ومنشأ الضعف والداء على تلك الساحة التى تنتسب الى الاســلام هو ما نجده من اختــلاف فى الفهم بين الدعــاة وأنصارهم ، ومن تفرق فى الفكر ، وفى الوسيلة والأسلوب معا ، ومن اتهام بعضهم للآخر بالقصور أو سوء المسلك ، ومن رميه بالنكوص ، أو بالتهور ، وهذا كله معروف فى ساحتنا لمن كان له أدنى نظر • وهو التفرق الداخلى يهدم البناء من حيث لا ندرى أو ندرى ولا نلتئم ، أولا نستطيع علاج مشاكل الدعوة من داخل المهتمين بها ولا نظفر بذلك •

ثم ان كثيرا من علمائنا الذين يحسبون على الدعوة قد انصرفوا هم الآخرون عن مهمتهم الكبرى ، وراحــوا وراء الدنيــا ، ونالت من اهتمامهم النصيب الأوفر ، أوهم قد ضعف لديهم تصور الواقع الذى يعيشون فيه أو علموه وأثروا سلامتهم ودنياهم ، **(الا الذين آمنــوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم)** (٧) •

اذا كنت قد طوفت فى الساحات قليلا فلست أدعى أن أطلت عليها بما تستحق من نظر ولكنى أشرت بما يصلح دليلا على الصعوبات التى تواجه الدعاة أو الذين يكتبون فى هذا الموضوع ، وحسبنا الاجمــال قبل التفصيل فى هذا المقام ، وحسبنا الاشــارة قبل صريح العبارة وحسبنا البعض دون كل الصعوبات •

وأود أن أقول ان ما كتب فى هذا العلم عن الدعوة والدعاة لا يعدو وجهات نظر متفرقة ، ولمحات على طريق العلم الشاق من الناحية الفنية اذا استثنيا كتاب « تذكرة الدعاة » للبهى الخولى ، فهو حقــا

---

(٧) ص : ٢٤

المحاولة البكر فى هذا المضمار ، والى يومنا لم يخط أحد خطوات حثيثة وأصيلة على طريق تأصيل قواعد العلم ومسائله ، والنهوض به الى حد يتفق مع واقعنا وعصرنا منهجا وأسلوبا ووسيلة ، ومقاومة وجهادا ، وجل ما كتب هو شئ يتصل بخصائص الدعوة ، أو بزاد الداعية وثقافته، شئ مكرور ، أو يتصل بوصف الماضى ، ماذا كانت الدعوة سابقا ، وبم عاملت معاصريها قديما ؟ أو يرتبط بأصول الدعوة فى العقيدة والشريعة والأخلاق والنظم على أنها — أى الدعوة — رديفة للاسلام وليست فنا توصل اليه وتنادى من أجله .

أما الدعوة من حيث هى علم وفن وتطبيق فما زال الطريق وعرا ، واليون شاسعا ، والكتابة جد قليلة ومبعثرة وهزيلة ، ولا تعدو مجرد نظرات عابرة ، كما أنه ليست هناك دراسة منظمة لهذا العلم تأخذ على عاتقها تقسيم المسائل وسيرها ، وتحليلها ، وعلاج كل على حدة بحيث يبنى كل واحد على أثر ما أنجز الآخر حتى يكتمل العلم كما هو الحال بالنسبة للعلوم التى تنشأ من أى لون كانت : نظرية أو تطبيقية أو غيرهما .

ولست أدعى أننى سأقوم بتحقيق آمالى نحو هذا العلم الذى عشت فيه خمسة عشر عاما كاملة هى زهرة شبابى وعصب عمرى ابان تخرجى فى كلية أصول الدين مباشرة ، هذا العلم وهذه المهنة التى هى أشرف المهن وأسماها ، اذ يكفيها أنها مهنة الرسل ومهمتهم، وأن الله جعلها فوق كل قول (**ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين**) (٨) والتى هى ما أعطيها نفسى ووجودى وأسأل الله أن ألقاه عليها بصدق واخلاص ، وأن يرزقنا العلم والبصيرة .

أقول لست أدعى أننى سأنجز ما يحتمل فى خاطرى لكننى سأحاول الاقتراب من الموضوع قدر جهدى والله خير معين : وسأتوخى فى هذه

---

(٨) فصلت ٣٣

المحاولة الطريقة المعهودة فى تحديد الغاية والموضوع ، وسوف أرتكز على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأنهل من معينهما ، وأغرف من بحرهما قدر سعة راحتى من العلم ، وبسطة يدى من الفهم ، وعرض ثوبى من الادراك ، راجعا الى أقوال العلماء الموثون بهم فيما يعترضنى من فهم النصوص ، أو مستأنسا بأقوالهم ، أو مستدلا بها حسب الحاجة باذلا أقصى الجهد فى تصوير الواقع والتطبيق عليه أو أن أعمد الى ما نحن فيه فالقى عليه الضوء التحليلى بين الحين والحين ثم استرد من الأخبار والآثار أو أسوق من النصوص ما يصح علاجا لحالنا ، والله المستعان • وهو « نعم المولى ونعم النصير » •

د/ عبد الله يوسف الشاذلى

الرياض مساء الخميس ١٢ من ربيع الآخر ١٤٠٥
٣ من ينـــــاير ١٩٨٥

الباب الأول

الدعوة بين المفهوم والأفضلية

الفصل الأول

دلالة الكلمة ومضـــمونها

سعة الاستخدام الكلمة دعوة

ألفاظ اللغة العربية عائلات وسلالات، وبطون وأفخاذ، وأوجذع وفروع وسيقان ، وكما أن أفراد القبيلة يرجعون الى أب واحد ، فمعانى الكلمات مهما تنوعت تعود الى أصل واحد ، وترد الى معنى أصيل أو تدور من حوله ، وعائلات اللغة كعائلات البشر ، بعضها تضيق أفراده ، والبعض الآخر تتسع ، ومن الشجر ما هو خميلة ، ومنها أجدب متساقط الفروع والأغصان ، وكذا ألفاظ اللغة واستعمالها منها ما هو جواهر المفردات ، ومنها ما هو هيئهات جزئية تابعة لتلك الجواهر الكلية حسبما يصرح حاجى خليفة فى كتابه : كشف الظنون (١) مستحبا لغة التفلسف ومستعيرا اياها فى الرحاب اللغوى ولا عجب اذا وجدنا وجه شبه بين الانسان واللغة ، الانسان كسلالة ، واللغة هى الأخرى كذلك ، لأن الانسان هو الكائن الوحيد بين المخلوقات الذى أطلق على تعبيره لغة، بحيث صارت اللغة فى العرف الاصطلاحى الشائع لصيقة بالانسان لا بغيره ، فاذا استخدم اللغة فى التعبير عن مقصوده سميناه لفظا أو منطقا ، فيقال فى أداة التعبير عن المراد الانسانى لغة ، وفى تقطيعها وتركيبها لفظ ومنطق وكلام وقول الى آخر ، والقرآن الكريم قد أشار الى هذا كله ، فذكر يتكلمون وينطقون ، ويقولون ، كما ذكر اللسان دلالة على اللغة مما هو غنى عن البيان .

أما الكائنات الأخرى ذات الأصوات فقد أطلقت اللغة العربية على كل فصل منها لفظا محددا فيقال : صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، نقيق الضفادع ، تغريد العصافير ، هدير الرياح : حفيف الشجر ،

---

(١) مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة . كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ح٢ ١٥٥٦.

الى غير ذلك من الأسماء ، وقد يقال على الصوت لبعض الحيـوانات منطق ، كما جاء فى القرآن على لسان سيدنا سليمان « **علمناه منطـق الطـير** »(١) كما يقال له قول مثـل « **قالت نملة يأيها النمل ادخـلوا مساكنكم** » « **فتبسم ضاحكا من قولها** » (٢) ولا يقال على منطق الحيوان كلاما الا مجازا أو أعجازا كما جاء فى الحديث « بقرة تكلمت » فنظر الصحابة متعجبين فقال النبى صلى الله عليه وسلم « آمنت بهـذا أنا وأبو بكر وعمـر » .

تقول الا عجب اذا صارت لغة الانسان سلالات تضيق وتتسـع مثلها مثل صاحبها الذى خلق « **من سلالة من طين** »(٣) ويمكن أن ندلل على ذلك بما نجده من كلمة « **دعا** » حيث دارت الكلمة على معان كثيرا بعضها يقترب من الأرومة الأصلية أو الجذع الأساسى للفظة . والبعض الآخر يبتعد قليلا أو كثيرا ، فنراها تدور مع الدين دلالة على العبادة أو الدعاء والاستغاثة أو الدعوة اليه سبحانه توحيدا وربوبية . وقد تستخدم فى النسب والمـائدة أو الطعـام ، وبقيـة اللبن ، أو المـرة الواحدة ، أو الدعوى التى تقام من صاحب حق ، أو القدر والمسـافة والبعد ، أو النداء للاجتماع والتلاقى ، أو الدعوة بمعنى السوق ، أو الدعوة الأذان ، أو قيريح الخيل ، أو دعاك بمعنى حرك اليه واضطرك ، أو دعا بمعنى وجد . أو سأل والداعى كالمساعى والمكارم ، وادعى تمنى، ودعاه الله بما يكره انزله ، ودواعى الدهر صروفة ودعا دعوته بفـلان سماه ، ودعا يدعو جعل ، والداعى المعذب ، ودعاه الله أى عذبه والدعوة الحلف ، وتداعى أقبل أو تساقط ، وتداعت الابل أى تحطمت ، والتداعى التحابى ، وداعاه حاجاه وفاطنه ، والمداعاة المحاجاة .

فانظر كيف اندلعت المعانى من معنى واحـد هو دعو بمعنى امالة الشىء وانسابت منه انسيابا يطوف فى آفاق معنوية متشعبة ، ويتعرض

---

(٢)،(٣) سورة النمل ١٦ ، ١٨ ، ١٩.
(٤) المؤمنون ١٢.

للقاصى والدانى منها ثم يعود الى فصيـدة اللفظة وأصلها ، وبالقطع تكون اللفظة كالشخصية الانسانية التى تتسم بالخصوبة والنفع والعطاء تدر على المحيطين وغير المحيطين من بروزها ، وهى صاحبة امكانيات فسيحة ترج بها فى كل مجال ، وتشح بها كل ساحة ، فكلمتنا الحبيبة ذات ثراء عريض تجود به على الطالبين منوعيات شتى ، وهى من بين (٧٦٤٤٠) كلمة هى عـدد كلمات القرآن تقريبا حسب احصاء العاملين فى « الكشكول » (٥) تتميز بتلك الوفرة من الاستعمال والاستخدام الاشتقاقى والمعنوى ، وان كان لهـذا من مدلول فلن نجد سوى أصالة الكلمة لغـويا ، والاحتياج اليها فى بنود كثيرة من التعـابير المقصودة لمرادات عديدة •

ولولا أن جوف الكلمة يسع هذه المعانى ، وحروفها تسمح بتلكم الاشتقاقات ما حصلنا على هذا الحشد الضخم من المفهوم والتصريف •

ولأنها كذلك فقـد جاءت فى القرآن الكريم فى (٧٦) موضـعا تغطى على وجه التقريب المعانى الواردة فى المعاجم اللغوية ، وتحوى صيغا مختلفة من الاشتقاق مثل : دعا ، دعاكم ، دعان ، دعانا ، دعاه دعاء ، دعوت ، دعوتكم ، ادعوهم الى آخر ما هو موجود فى تلك المـادة من تصريف متنوع فى معاجم ألفاظ القرآن الكريم (٦) ، وبنفس الدرجة من الكثرة جاءت اللفظة فى أقوال النبى صلى اللـه عليه وسلم حيث سيقت فى (٢٨٦) (٧) ، مناسبة تعرض للمعانى المشار اليها : ولا بأس أن نلم بسرعة لأبرز الاستعمالات الموجودة فى القرآن والحديث ذات الصلة الوثيقة باللغة ودلالتها •

---

(٥) محمد بن حسين بن عبد الصـمد بهاء الدين العاملى : الكشكول المجلد الأول ط٢ ٤٢٠.

(٦) راجع : فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : مادة : دعا ، معجم الفاظ القرآن الكريم : ج١ ٤٠٨ طبعة مجمع اللغة العربية

(٧) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ج٢ ٧

فهناك دعا بمعنى نادى وطلب مثل قوله تعالى : **(ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون)** ١٥ الروم ، وكقول الرسول صلوات الله عليه وسلم (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله) « البخارى فى الزكاة ١٦ » ودعا الله سأله كشف الضر ، أو قضاء شىء أومغفرة ذنب قال تعالى **(هنالك دعا زكريا ربه ، (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما)** «١٢يونس»، و (كان رسول الله اذا دعا بدأ بنفسه) « أبو داود وابن ماجه وأحمد» وما كان النبى (يصلى صلاة الا دعا أو قال : سبحانك ربى) مسلم فى باب الصلاة ، ودعا العبد ربه بمعنى عبده **(وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا)** « الجن » **(انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم)** ٢٨ الطور ، ودعا بالشىء طلب احضاره كقوله تعالى **(يدعو فيها بفاكهة كثيرة وشراب)** « ٥١ ص » أى يطلبون احضارها ، ودعاه الى غيره ولغيره نسبه **(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)** ٥ الأحزاب (ومن ادعى ولدا من غير رشدة فلا يرث ولا يورث) أبو داود ا ودعاة كذا وبكذا سماه **(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)** ١٨٠ الأعراف **(قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى)** ١١١ الاسراء ، وادعى الشىء تمناه كقوله جل شأنه **(لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون)** ٥٧ يونس .

ودعا الى الشىء وللشىء حث عليه ودعاه الى الله أى الى عبادته مثل **(قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)** ١٠٨ يوسف ، و (ما قاتل رسول الله قوما حتى يدعوهم) أحمد ، وهكذا ترد متعدية بنفسها وبحرف الجر حسب الاستعمال ، وغالبا ما تأتى متعدية فى معنى الدعاء أو العبادة لأن العبد الذى آمن بربه تسقط الوسائط بينه وبين معبوده فلا يرى فاعلا ولا نافعا أو ضارا ولا مقصودا الا الله سبحانه وتعالى ، هذا حال المؤمن مع ربه عندما يطمئن قلبه بذكر الله ، ولذا ناسب فى السياق أن يحذف حرف الجر

دلالة على أمجاد الوسطاء أو رمزا لذلك (٨) .

ولقد تعرض ابن تيمية لهذه النقطة فقال (لفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين :

(دعاء العبادة ، ودعاء المسألة) وساق أدلة على ذلك منها قوله تعالى « **فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين** » ، « **ومن يدع مع الله الــا آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه أنه لا يفــلح الكافرون** » « **ولا تدع مع الله الهــا آخر لا اله الا هو** » « **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم** » « **ادعونى أستجب لكم** » « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان** » وقوله صلى الله عليــه وسلم « أفضل الذكر لا اله الا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا ، وروى الترمذى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (دعوة أخى ذى النون « **لا اله الا أنت سبحانك انى**

---

(٨) لتتميم الفائدة ارجع الى المعاجم الآتية :

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقى المصرى: لسان العرب ج ١٤ ، ٢٥٧ — ٢٩٢ بيروت
- اسماعيل بن حماد الجوهرى — الصحاح : تاج اللغــة وصحاح العربية تحقيق أحمد عطا و ح ٦ ، ٢٣٣٦ — ٢٣٣٧ ...
- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا : مفجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ : ٢٧٩ — ٢٨١.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادى : القاموس المحيط ح ٤ ٢٢٩ — ٢٣٠ ، خا ٩٢٧ — ٩٢٨
- وشرحه المسمى : تاج العروس من جواهر القاموس لمحب الدين أبى الفضل محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزيدى
- القاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمد فكرى : جامع العــلوم فى اصطلاحات الفنون « دستور اللماء » ج ٢ : ١٣.

كنت من الظـالمين » ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته) ويخلص ابن تيمية من وراء استدلاله السابق بأن دعاء العبادة والمسألة مثلا زمان ، وأن المعنيين يردان على كل نص ذكرت فيه كلمة دعوة أو دعاء ، لأنه يلزم من السـائل أن يكون مسـتجيبا للـه : متمثلا أمره حتى يستجاب له ، ومن العـار أن يكون راغبا راهبا راجيا ضارعا فهـو سائل ، وعلى حـد تعبير الشيخ (كل سـائل راغب راهب ، فهـو عابد للمسؤول ، وكل عابد له فهو أيضـا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل ، وكل سائل عابد ، فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه) بخلاف ما (اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذى يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وان لم يكن فى ذلك صيغ[٩] سؤال) بل حديث (ينزل ربنا الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول « من يدعونى فأسـتجيب له ، من يسـألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له ») فذكر أولا الدعاء ثم ذكر السؤال ، والأول بمعنى العبادة والثانى بمعنى الرجاء والطلب .

حول التصور والمفهوم :

لست أشك لحظة واحدة فى أن أى محاولة لوضع تعريف ما للفظ أو لحكم معـلوم هو تحصيل حاصـل وهو ضرب من فنون القـول لا تقتضيه طبيعة كثير من المسـائل المتصورة دهنا ، والمعروفة لدى القائل والمستمع على حد سواء ، ومثل هذا السير فى التعريف مجاوزة لحد البلاغة ، وزيادة على مطلوب العلم ورواده ، وانما تصير التعريفات ضرورية عندما يكون المعرف مجهولا لنـا لفظا ، أو حكما ، أو ، نوعا ، أو كيفا ، أو كما ، فنقوم بوضع تعريف يزيل ابهام اللفظ ، أو يوضح طبيعة الحكم من الوجوب أو الاستحباب أو الاباحة مثلا ، أو يحددنوع

---

(٩) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ج ١٠ — ٢٣٧ — ٢٤٠ ، ٢٤٣

تعلق الحكم بالبالغين أو الرجال أو النساء ، أو يبين الكيفية المخصوصة من بين الكيفيات المتعددة ، أو المقدار المطلوب تنفيذه أو تحصيله دون بقية المقادير .

وكلمة الدعوة الى الاسلام من النوع الذى لا يحتاج الى جهد يبذل فى التعريفات نظرا لحصول صورتها فى الذهن لفظا ، وللعلم بمقتضاها عملا وبلاغا ، وان كنا نؤثر أن نقف على شىء من تعريفاتها لا لعلة كونها غير معلومة الحقيقة بل للخلط الذى وقع بينها وبين كلمة الاسلام حيث جعلها البعض مرادفة له ومساوية فى الحقيقة والمطلوب[١٠] وأيضا فلأن هذه الكلمة يراد من ورائها أن تكون فنا من الفنون ، وعلما من العلوم التى تعنى بمخاطبة الناس لاقناعهم وتوجيههم الى فكرة واضحة ، وغاية جلية ، فلابد أن نضع لها تعريفا يناسب ما نريده منها فى هذا العصر الذى صار فن مخاطبة الجمهور والتعبير عنها علما له أصوله وقواعده وقبل ذلك تعريفه [١١] ، هذه الدواعى اقتضت أن نحاول وضع تعريف لكلمة يتضمن المراد منها فى وقتنا الحاضر وظروفنا الراهنة .

واذا سلكنا المسلك التقليدى فى البحث عن التعريفات ، وفتشنا فى كتب اللغة لعلنا نعثر على تعريف لغوى للكلمة يعيننا على وضع مشروع للتعريف الاصطلاحى وجدنا المعاجم غارقة فى استعمالات الكلمة المتعددة ، توضح معنى اللفظة ازاء كل اشتقاق أو استعمال دون محاولة تعريف أصل الاشتقاق ، أو القاء ضوء محدد على المادة الأصلية للكلمة ، وهى أمنية غالية جدا نبتغيها من المعاجم ، لأننا اذا وضعنا أيدينا على المعنى الأول لمصدر الاشتقاق استطعنا أن نحدد علاقة المعانى الجزئية المتفرعة عنه بهذا المضمون الأصلى ،

---

(١٠) اعنى بالحقيقة : ماهيتها ، والمطلوب : الماصدق والأفراد .

(١١) وهو علم الأعلام بوسائله .

واستطعنا فى الوقت نفسه أن نحصل على صورة معنوية للكلمة من بين عدد من الصــور المزاحمة (ليلتفت اليــه ويعلم أنه موضوع له اللفظ فمآله الى التصديق بأن هذا اللفظ موضوع بازاء ذلك المعنى فهو من المطــالب التصديقية) (١٢) ، وليس من قبيــل التصــورات أو الأقوال الشارحة التى لا يقصد بها الا تحصيل صورة غير حاصلة من ذى قبل فى الذهن .

وقد لا نجد ضالتنا المنشودة من تعريف لأصل المــادة يصح أن يكون آلة من جهة اللغــة توزن عليــه التعريفات الأخــرى الا عند أبى الحسين أحمد بن فارس المتوفى (٣٩٥) فى كتابه « معجم مقاييس اللغــة » اذ يقول : (دعــو : الدال والعين والحرف المعتل أصــل واحد ، وهو : أن تميــل الشىء بصوت وكلام مكون منك) (١٣) ، رحمك اللــه يابن فارس لقد كنت فارس اللغــة ترتيبا ، وبيانا للأصــل الأول ، وبمسلكك هــذا أزلت عن المعاجم السابقة واللاحقــة عارا طالمــا وسمت به : وهو عدم الاهتمام بالجــذور الأولى للكلمة وبيان معانيها الأصليــة ، كما يحــلو لبعض المستشرقين أن يوجهوه الى معاجمنــــا .

اذا تكون الدعوة عند ابن فارس هى : **فن الامالة للجمهور نحو شىء معين بأى وسيلة متاحة صوتية كانت أو كلامية** ، وهذا التعريف كما ترى صادر من عيون اللغــة **فهو تعريف أطلق على الكلمــة من الناحية** اللغــوية وهــذا يفيد التصديق لمــا يحوى من دقة وشمول .

وعندما نتجاوز الوضع اللغوى الى الاتفاق الاصطلاحى فلا نجد المهتمين بهذا العلم قد تواطأوا على تعريف معين لكلمة الدعوة باعتبارها

---

(١٢) حاجى خليفة : كشف الظنون ح ٢ : ١٥٥٦

(١٣) ابن فارس : مقايس اللغة ح٢ : ٢٧٩.

علما على علم معين هو علم التبليغ أو الوعظ أو الارشاد أمر التوجيه الى آخر الكلمات التى تدور فى فلك الكلمة وتصاحبها فى مهمتها وأداء رسالتها ، وتحقيق غاياتها ، ويرجع السر فى عدم اتفاق العلماء على تعريف اصطلاحى للكلمة أن المشتغلين بها تبليغا لرسالة الله من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو من سار على دربهم فى هذا الطريق لم يجهلوا مراد الكلمة ومقصورها حقيقة ومعنى أو حكما من جهة الشرع بالقيام بمطلوبها بلاغا وارشادا ، ولم يخف عليهم حقيقة الوضع اللغوى الذى ذكره ابن فارس فى كتابه ، ويبدو أنهم قد ارتضوا هذا المعنى لوضوحه ووفائه بالمقصود ، وان المراد بالكلمة من جهة الاصطلاح على فرض وجوده لا يعدو هذا المفهوم اللغوى المذكور ، من ثم انطلقوا يدعون الله سبحانه دون حاجة الى تعريفات أو وضع قواعد ومسائل ، وتحديد مجالات ووسائل وأساليب ، وأدركوا أن تلك الأمور من الوضوح الذى لا يحتاج معه الى بذل وقت ، فليكن الجهد منصرفا الى الأداء لا التعقيد ، والى الصدق فى الدعوة لا تدبيج المسائل ، والى الأعمال لا المجردات ، وأظن ظنا أو هذا هو أحد الأسباب فى عدم وضع تعريف اصطلاحى لكلمة الدعوة ، على أننى لا أدعى أنهم أغفلوا الآداب والضرورات التى تتعلق بانجاح هذه المهمة ، ولم يهملوا الصفات التى يجب أن تتوافر فى كل من يقوم بها أو يتعرض اليها •

والمهم أننا لم نرث تعريفا متفقا عليه لعلم الدعوة — كما نسميه اليوم — نزح الينا من أسلافنا العلماء والمشتغلين به ، كما ورثنا تعريفات فى علم الفقة ، وعلم الأصول ، وعلم النحو ، وعلم البلاغة ، وعلم الرجال ، ونحو ذلك من العلوم التى استقر العمل بها قديما ، وسرنا على دربها حديثا ، وربما نظر علماء هذه الفنون الى الدعوة على أنها رسالة كل عالم ، وأمانة كل صاحب فن ، وتكليف ملقى على عاتق كل مسلم فلا ينبغى أن توضع فى مصطلح وتحدد فى فئة بعينها تشتغل بهذا العلم ، وتكون مسئولة وحدها عن الدعوة الى الله ، بينما الآخرون منصرفون الى

فنهونهم وكفاهم ذلك أداء وأمانة ، فهم يخدمون الاسلام ببحوثهم التى يقدمونها الى المتخصصين زاد أو ثقافة كلا ، لم ينظروا بهذه العين بل أدركوا أن الرسالة عامة شاملة ، والتكليف على عاتق الجميع ، لذا لم يحددوا العلم فى تعريف بعزله أو يخصصه .

هناك سبب جوهرى صرف الاهتمام . قديما عن التعريفات المتعلقة بالحقيقة أو الماهية ، هو أن الاسلام بصفة أساسية لم يلفت الأنظار الى الماهيات المجردة ، والتصورات الذهنية البحتة ، بل وجه العقول والقلوب معا الى الآثار والأعمال المنوطة بالحكم الشرعى ، حتى لا يقع الناس فريسة للأعمال الفكرية الصرفة ، ويقطعون الوقت فى ذلك دون التقدم صوب الأعمال والسلوك ، والحقيقة الكامنة وراء هذا الاتجاه تعنى صرف البشر الى الأحكام الشرعية فهما لشروط الصحة العملية ، وتطبيقا لها ، وتحقيقا بها ، ولقد توجهت أسئلة الصحابة رضوان الله عليهم الى النبى صلى الله عليه وسلم استفسارا عن العمل لا طلبا للفكرة المجردة ، واستبيانا عن الكيفيات الصحيحة فى الأداء لا عوضا وراء المعانى الذهنية فحسب ، ولم يكونوا يسألون عن معنى الا اذا غم عليهم اللفظ فيسألون ، كما قالوا له وقد ذكر لهم « مخموم القلب » فقالوا وما مخموم القلب يا رسول الله قال « هو التقى النقى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة » فلننتظر معا لما سألوا عن المخموم كان الجواب بالصفات القلبية والنفسية والسلوكية لا بالمعانى التصورية التجريدية، وهكذا كل تعريفات تتعلق بالعبادات أو المعاملات أو غيرهما من أحكام الشرع تتجه الى الأعمال والآثار ولا تلقى بالا للتعريف بالحد المكون من جنس وفصل كما هو عند المناطقة ، ذلك لأن البشر يتوبون على العمل والتطبيق ، ولا يصلحون كثيرا على الفكر والعمل الذهنى المجرد من السلوك والفعل ، وحتى الأعمال الذهنية لا قيمة لها من الشرع مالم تكن خادمه لعمل نافع وسلوك قويم يخدم الفرد فى ذاته أو هو فى جماعة ، أو الجماعة ككل .

لهذه الدواعى لم تجد تعريفا محددا يمكن وضعه بسهولة ازاء

الدعوة ويريحنا من عناء الانشاء الجديد كمايريحنا منالتعريفات المتناثرة التى تتبع من تصور شخص للدعوة ، ومن فهم ذاتى لهذا أو لذاك ولأنه لووجد هذا التعريف المتفقعليه لحدد تحديدا قاطعا مراد الكلمة ،وماوقع بعض الكتاب فى الاختلاف حول مدلولها : فيجعلها البعض مرادفة لكلمة لكلمة الاسلام ، فيتحدث عن الدعوة كما يتحدث عن الاسلام سواء بسواء يبين خصائصها ومميزاتها وهى هى طبيعة الاسلام وحقيقته ، وغالبا ما يستعمل هذا الصنف كلمة الدعوة مضافة الى الاسلام فيقول « دعوة الاسلام » ويجعل المضاف والمضاف اليه شيئا واحدا ، ويعرفهما بتعريف واحد كما يقول الشيخ البهى الخولى (الاسلام الحنيف هو الدعوة العالمية الكبرى التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكون نظام الانسانية الكامل فى حياتها الروحية والمادية فى كل زمان ومكان) [١٤] ولسنا نعيب هذا الاستخدام بهذه الصيغة ، لكن نقول انه غير المطلوب من الدعوة كفن الامالة والتحويل الى الاسلام حسبما نفهم من أصول اللغة ، وكما نطلب الآن ، ولا شك أن عملية الامالة والتبليغ بشرائط معينة وأساليب خاصة ليست هى عين المدعو اليه وهو الدين الاسلامى ، وبالطبع فالتعريف الوارد فى هذا الصدد لا يعدل عليه ولا يلتفت اليه فى تعريف الدعوة من الناحية الفنية الاصطلاحية .

وهناك صنف من المؤلفين يستعمل كلمة الدعوة متعدية بحرف الجر، فيقول « الدعوة الى الاسلام » وقد يسلك نفس المسلك السابق فى جعل الدعوة رديفة للاسلام والكلام معه كالكلام مع من سبقه فى جعلها مضافة الى الاسلام .

بينما فريق آخر يستخدم الكلمة متعدية بحرف الجر على الصورة السابقة ويفرقه بينها وبين الاسلام فيعتبرها فنا دقيقا يهتم بتبليغ الاسلام ونشره بين الجاهلين به ، ووعظ وارشاد ونصح أهله والذين

---

(١٤) البهى الخولى : تذكرة الدعاة : ١٣

يدينون به ، حقا ان الداعية وهو يدعو الى الاسلام لا يرسم من الخطط والأساليب والمناهج ما يدعو به الى الاسلام كعنوان على دين فحسب بل يتطرق الى هذا الدين فى خصائصــه وســماته ، وأحكامه ومنهاجه ، فالدين بهذه النظرة غير منفصل عن نشاط الداعية ومهمته ، وهو لا يقول للناس تعالوا الى الاسلام ، دون ذكر لمـا يحمله الاسلام من هـداية وعلم ويقين ونظام وأخلاق .

نقول بضرورة التعرض أثناء التبليغ لكن نذكر بداية علم الدعــوة وما تحمل من ضرورة وضوح الهدف فى وهن الداعية ، ومن طريقة جيدة ومن منهج قويم يستخدمه الداعية بنبع من الكتاب والسنة ويقوم عليهما، ومن أسلوب مناسب ، وفهم دقيق للظروف المحيطة به ، ومن شخصية متميزة لها ثقافتها وحكمتها وخبرتها ، هذا كله ، يجب مراعاته أولا قبــل التعرض لشرح ما فى الاسلام من خصائص ودقائق ، فالدعوة فنــا ، والداعية ثقافة وخبرة وفطنة وبصيرة باب ندخل منه الى بيان الاسلام ، وبدون هذا الباب الجيد نسىء عرض الاسلام وبيانه للناس ونضر من حيث نظن أننا ننفع .

ومن الذين فصلوا بين الباب والدار الشيخ البهى الخولى فى موقف غير ما ذكرنا والشيخ أبو زهرة وآخرون ويهمنا الآن أن نستعرض بعض التعريفات للدعوة حسب منظورنا الخاص بفصلها عن الاسلام واعتبارها مهنة أو رسالة أو فنا يهتم بلفت الأنظار الى ما فى الاســلام من خــير للبشرية أفرادا وجماعات وشعوبا ، وجذبهم اليه .

يتساءل البهى الخولى (ما هى الدعوة مجردة عن التعريف الفنى والحد الاصطلاحى ؟) ويجيب (هى نقل أمة من محيط الى محيط . تلك هى مهمة الداعية ، ومنها يندرج مجمل منهاجه ، ومفصله ، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته [١٥] وهذا التعريف كما ترى قد ابتعد عن

---

(١٥) نفس المصدر : ٢٧.

الفنية والاصطلاحية حسبما صرح صاحبه علنا فى صدره ، وابتعاد الشيخ وهو صاحب أول محاولة جيدة فى مضمار علم الدعوة لم يلحقه بعده فيها لاحق — عن التعريف الاصطلاحى ليس عجزا أو جهلا بمضونها ، وانما فعل ذلك تمشيا مع خطته ومنهجه فى تأليف كتابه « تذكرة الدعـاة » وقد أخذ على عاتقه وأوصى الدعاة أن يتجنبوا الفلسفات النظرية والمعانى المجردة ، وأن يتناولوا الدعوة من الواقع العملى أو التطبيقى سواء فى ذلك ما يتعلق بالموضوع أو الأسلوب المعبر عنه •

واكتفى الشيخ أبو زهرة باشارة خفيفة حول تعريف الدعـوة ، وقال انها (طريقة توصل الى شىء هو الاسلام) ، وبنى الأستاذ فتحى يكن تعريفه للدعوة على ماقاله البهى الخولى وذكر أنها (تغييرواقع انسانى قائم بآخر منشود) (١٦) وهو لا يتجاوز تعريف الخولى الا من ناحيـة اللفظ فحسب ، وما فى التعريف الأصلى والصورة التى نسخت منه من قصور يعود الى أن البهى الخولى ويكن لم يبينا لنا الطريقة أو الطـرق التى يتم بها نقل المجتمع أو تغييره من محيط الى محيط منشود ، فهـل يعينان ان عملية النقل تتم بأى وسيلة ممكنة أو متاحة بشرط أن تكـون مشروعة من الناحية الاسلامية ، وأن عملية التغيير لا تخضع لطريقـة واحدة تفرض على كل الشعوب فى كل الظروف ، بل تخضع لطريقة مرنة تراعى وتراقب ، وتنتهز وتخترق ، وتستميل وتقرب ، وتتعلم ونجرب ، وتلين فى غير معصية ، وتضرب فى غير اعتداء ، وتنطق وتعمل ا وتذيـع وتعرض ، ربما كانت هذه الطريقة هى المقصودة فى نظر البهى الخولى ومن سار على دربه وهو فتحى يكن •

ويعرفها الشيخ محمد الغزالى بأنها (برنامج كامل يقيم فى أطواله جميع المعـارف التى يحتاج اليها الناس ليبصروا الغـاية من محياهم ،

---

(١٦) فتحى يكن : مشكلات الدعوة ص ١٢

وليستكشفوا معالم الطريق التى تجمعهم راشدين) (١٧) انه لا يريد أن تكون الدعوة قائمة على جهود فرد أو أفراد لأن العصر أوسع من ذلك ، انه لابد أن تكتل الجهود الفردية ، وأن تبنى تلك الجهود على أساس من الفهم الواسع ، والثقافة الجيدة والأسلوب المناسب ، كما يجب أن تكتل جهود الدول الاسلامية بما تملك من وسائل حرقوة لبناء نفسها وقوتها • ثم التوجه الى الآخرين للقيام بواجب دينهم ونشره ، ولعله لا يرى جهود الأفراد شيئا له بال فى أيامنا اذا انفصلت عنهم الدولة ولم تؤازرهم أو تمدهم وتساعدهم ، خاصة اذا عرفنا أن العصر يتميز بسيطرة الدولة على القوة المؤثرة فى احداث التغيير المنشود ، فلابد من يقين الدولة بالاضطلاع بمهمتها ، وما لم تفعل ذلك فقد خانت واجبها نحو دينها ونحو رسالتها العظمى ، ورسالة الانسانية كلها ، واذا قعدت فقد خانت فما بالنا وهى تتربص بالدعاة وتنكل بهم ، وتصدهم بما تملك من قوة التدمير والتضويب ، انها لخيانة أفظع ، وتقاعس أشد ، وموقف يثير الحسرة ، ويدعو للندامة ، وهذا هو سر تعبير الشيخ الغزالى بأنها برنامج كامل ، نظرا لأنه دائم النداء على الدعاة أن يتسلحوا بالعلم والثقافة وان يرفعوا من مستوى عرفهم للاسلام وأسلوبه فهو لا ينسى أن يضم « جميع المعارف » الى برنامج الدعوة المسئول عن نشر الاسلام والتبصير بالغاية •

أما آدم عبد الله الألومى فيعرفها قائلاهى : (صرف أنظار الناس وعقولهم الى عقيدة تفيدهم • أو مصلحة تنفعهم) (١٨) ومثلها الدعاية ، والوعظ والارشاد ، والتذكير ، والبشارة والتبشير ، والانذار وهذه كلها ألفاظ تفردى أغراضا عامة أو خاصة للدعوة الاسلامية ، وواضح أن الصرف للأنظار نحو الدين أو المصلحة يتأتى فالمنهج والطريقة والأسلوب الذى تقتضيه الظروف الواقعة •

---

(١٧) محمد الغزالى : مع الله : ١٧

(١٨) آدم عبد الله الألوري : تاريخ الدعوة ابى الله : ١٧ ، ١٨

ويرى الدكتور أحمد غلوش أن الدعوة كعلم مستقل يمكن أن تعرف بأنها (العلم الذى به تعريف كافة المحاولات الفنية المتعددة الراميــة الى تبليغ الناس الاسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق) (١٩) وأرى أن هذا التعريف هو أقرب التعريفات وفاء بمقصود الدعوة حيث ركز على فصل العلم عن المراد فة لكلمة الاسلام ، وتوسع فى ابــراز التعرف على كافة المحاولات وضرورتها بغية التعريف بالاسلام ، وبيان ما فيه من أصول وفروع وسلوك ، ولكنه أهمل مراعاة ان الدعوة قــد تتوجه الى المسلمين لحفظ دينهم وبيان أحكامه ، وتثقيفهم عليه ، ولـمـا كان الأمر كذلك فان الأمر يقتضى أن نقول فى التعريف بصورة واضحة : الدعــــوة هى •

(هى فن يبحث فى الكيفيات المناسبة التى نجذب بها الآخرين الى الاسلام أو يحافظ على دينهم بواسطتها) ومع أننى أحاول كغيرى ان أعرف العلم بالتعريف هذا الا أننى أرى تعريف ابن فارس أصلا صحيحا للمراد ، ويمكن اعتماده فى أيامنا ، حيث يكون مؤديا للغرض بوضــوح فلا بأس أن تذكره مع تعريفنا السابق ، وان ينطلق من كل من يريد أن يعرف مصدرا خاصا عن هذا العلم •

قضـــية التعريف فى الميزان :

يحاول الباحثون والمفكرون والكتاب بصفة عامة عنــدما يتناولون مسألة بعينها أو فكرة ما ، أو قاعدة ، أو علما من العلوم أن يتعرضــوا بادىء ذى بدء للتعريف ، وأن يتحروه مهما كانت درجة الاختلاف فيه ، وكثيرا ما يحاولون حل التعارض بين التعاريف المتعددة ، وأن يتلمســوا وجوه التشابه والاختلاف بينها ، بغية العثور على الروابط التى تربطها ، أو بعلاقة بين التعريفات وبين موضوع العلم أو الفكرة المرادة ، وكثيرا

---

(١٩) احمد غلوش : الدعوة الإسلامية : اصولها ووسائلها : ١٠

ما يبحثون الصلة بين التعريف الاصطلاحى واللغوى ، وصار هذا المسلك سنة من سنن الكتابة أو ضرورة من ضرورات البحث حتى ولو كان الموضوع المثار غنيا عن التعريف لوضوعه : أو للنص عليه شرعا ، ولو أن المجهود المبذول فى مثل هذه الحالات اقتصر على المسائل ذات الطابع الجديد ، أو القواعد المجهولة لكان الأمر مقبولا ، والمجهود محمودا ، أما وان يتناول المجهولات والمعلومات حتى يضطر القارىء فى كثير من المواقف أن يمر سريعا وبلا أدنى نظر عندما تقع عينه على مبحث التعريف فهذا ما يحتاج الى وقفة تقويم لمثل هذا المسلك ، والى لفت النظر للتخلى عند تلك الطريقة رفعا للعناء ، وتخفيفا على الدراسين ، وبعدا عن التعرض المسائل معلومة لا تحتاج الى أدنى نظر ، هذا من الواضح كما قلنا أن القرآن الكريم لم يعر مسألة التعريف على الطريقة المعهودة عند المناطقة التفاتا يذكر بالقدر الذى ازال اللبس عن كثير من الالفاظ بطريقة الكشف عن صفاتها وآثارها ، أو تعرض لها لبيان الأحكام المتعلقة بها طالما أنها معلومة لغة أو شرعا كما هو حال القرآن الكريم فى العدول عن بيان الحقيقة الذاتية فى قصة البقرة عندما سأل بنو اسرائيل المولى سبحانه عن طريق نبيهم موسى وقد أمروا بذبح بقرة فقالوا « أدع لنا ربك يبين لنا ما هى »[٢٠] يقول القرطبى (« ما هى » ابتداء وخبر ، وماهية الشىء وحقيقته وذاته التى هو عليها) وقد عدل القرآن فى الاجابة عن بيان الماهية الى بيان الصفة والحال والهيئة الخارجية المميزة للفرد بعينه أو لبقرة بعينها لا تلك الحقيقة التى يشترك فيها أفراد النوع ، ولما قصد القرآن ذلك عدل بكلمة « ما » أيضا عن استخدامها فى المفهوم الى استعمالها فى الصفة والحال ، قال أبو السعود (فان « ما » وان شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقية لكنها قد يطلب بها الصفة والحال ، تقول ما زيد ؟ فيقال طبيب أو عالم) .

---

(٢٠) الآيات (٦٧ — ٧٢ البقرة)

ولهذا العدول ترد أوصاف البقرة في السؤال الأول مبينة سنها ، وأنها « **لا فارض ولابكر عوان بين ذلك** » بمعنى أنها ليست مسنة ولافتية بل نصف لا فحل ولا ضرع ، وفي السؤال الثاني يرد الجواب منصبا على الهيئة والشكل فيبين أنها « **صفراء فاقع لونها تسر الناظرين** » لجمال لونها ، وحسن اصفرارها كأنه شعاع الشمس أطلعت من خدرها ، أو عادت الى مضجعها مساء ، أو كأنه بريق الذهب لم تحت الضوء الباهر .

ولم يتبين بنو اسرائيل تحديد البقرة من بين الأبقار ، وتحت عوامل اللجوج والمماطلة طلبوا زيادة في الصفة فسألوا من جديد « **ما هي ان البقر تشابه علينا** » فلا نستطيع تحديد البقرة المطلوبة بصفات سنها ولونها على النحو المبين في الجوابين السابقين . فكثير من الأبقار تشترك في هذه الصفة وهذا الحال من لون الاصفرار ، فجاء الجواب الثالث بزيادة للصفة التجريبية ، وأنها « **لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية منها** » أي ليست مدربة ولا معلمة فلا تحرث الأرض ولا تشترك في سقيها ، ومع ذلك لا يعتبر عدم تدربها نقصا بل هي سليمة من العيب ، سلمها الله وأخصلها ، كما أنها نقية اللون لا امتزاج فيه بلون آخر غير ما ذكر من الصفرار (٢١) .

وهذا العدول عن الماهية والحقائق الذاتية الى الصفات الظاهرة والأحوال الخارجية تناول عمر البقرة ثم لونها ثم خبرتها وعملها ، وكلها صفات وهيئات وخبرات وآثار لا مهايا مجردة ، ومع ذلك فقد توصل بنو اسرائيل من خلالها الى الحق المنشود فقالوا « **الآن جئت بالحق** » اني بينت الحق . أو جئت بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عما عداها ، ولم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا ، فالحقيقة وتجليتها ليست حكرا على المفهوم أمر الحقائق الذاتية ، أو الماهية التي يعبر عنها

---

(٢١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج١ : ٤٤٤-٤٤٥، ابوالسعود: ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ج١ : ١٨٧ — ٢٨٨.

الجنس والفصل ، بل قد يتضح بالصفات المتعددة والهيئات المتنوعة ، وعند كشف ذلك لا يقال اننا عرفنا المجهول ، أو أدركنا طرفا منه : وانما يقال أدركنا الحقيقة ، وعرفنا الحق في المسألة المطـروحة ، فالحـق أو الحقيقة تظهر بالمايا وبالصفات والهيئات كذلك ، وقد تظهر بغير ذلك ، فلنا حواسنا الباطنة ، والظاهرة التى ندرك بها الأشياء بلا حدود ولا أوصاف معينة ، وبلا حاجة الى تعريف يخص المسألة محل الدراسة .

حاول ابن تيمية هذه النقطة أثناء حديثه عن الألفاظ وحاجتها الى الاستدلال ، وعن الحدود ورد فيها على المناطقة وجاء حديثه شافيا للعله ، ومبينا وجهة النظر الدينية حول مسألة التعريف وضرورتها ، أو عـدم ضرورتها ومتى تكون مهمة ، أو لا تكون .

تنوع التعريفات بحسب العلوم

وفى البداية يجارى العلماء فى الحديث وأنواعها فيسوق رأى الفقهاء فى أن (الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف كلفظ القبض ، ولفظ المعروف فى قوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف » (٢٢) ونحو ذلك) فالحدود المعتبرة لدى الفقهاء ثلاثة : شرعية فى الدرجة الأولى ، ولغوية فى المرتبة الثانية ، وعرفية ثالثا ، وهذا الترتيب للحدود عند الفقهاء يتفق مع طريقتهم فى الاجتهاد والاستنباط ، لأنهم يعتمدون على النص الشرعى أولا عند وجوده ، ويرون أن تعريف الشرع للفظ أولى اعتبارا من أى تفسير آخر له ، ذلك لأن مراد الشرع من اللفظ قـد يكون على وجـه مخصوص يتفق مع الحكم المتعلق به ، فلا غرابة اذا ما جعله الفقهاء فى الدرجة الأولى للحدود اللفظية ، على أنه ينبغى القول بأنهم لا يعرضون كلية عن اللغة بل يعتبرونها ، مثلما نلحظ لديهم عند تعرضهم لتعريف أى

---

(٢٢) الآية ١٩ النساء .

اسم فانهم لا يغفلون اللغة ، وان جعلوا المقصود الشرعى هو المعتبر حكما وهناك بعض الألفاظ لم يتعلق بها الشرع تعريفا أوشرحا ، ممرجعنا فيها الى اللغة ، أو الى العرف ، وبناء عليه فالشرع واللغة والعرف هى مصابيح الألفاظ الكاشفة عن مدلولاتها ، وعلى ضوئها تقول : هذا تعريف شرعى ان كان مصدره الشرع ، أو تعريف لغوى ان استند الى اللغة ، أو عرفى ان كان العرف هو المرجع فيه ، ويمكن أن نقول أن تقسيم الفقهاء هذا تقسيم بحسب الأصل الشارح للفظ ، وأنهم محكومون فى تقسيمهم هذا إلى الشرع ذاته ، فهو الذى أمرهم أن يرجعوا الى الكتاب والسنة يسترشدون بهما ويحتكمون اليهما ، كما أن الشرع هو الذى رد الناس الى اللغة ، فعندما قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم « اذا كان عزير يعبد ، وعيسى يعبد ، وهما فى النار » مستندين فى ذلك — حسب زعمهم — الى قوله تعالى **«انكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم»**(٢٣) فقد رضينا أن نكون نحى وآلهتنا فى النار كما هو مشهور من حيلة ابن الزبعرى ، ولقد جاء فى روايات الرد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « ما أجهلك بلغة قومك ما لما لا يعقل » (٢٤) فأرشد ابن الزبعرى ومن معه الى اللغة فى فهم الألفاظ ومدلولاتها ، كما أن الشرع هو الذى أعتبر العرف فى قوله صلى الله عليه وسلم « ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن » وقال الشافعى (الخير كلمة يعرف ما أريد (٢٥) واذا كان الفقهاء وهم يتجهون الى الألفاظ الشرعية المحكمة لبيان ما تقتضيه من أحكام فقهية يرون أنه ليس هناك لفظ لايعرف حده فان المفسرين وهم يحاولون تفسير القرآن الكريم ومدلولات ألفاظه بما فيها المحكم والمتشابه ، وما يرتبط بعالم الشهود أو بالعالم الغيبى فانهم قد وجدوا من الآيات أو الألفاظ ما لا يستطيعون تأويله ، ومنها ما يمكن التوصل اليه باللغة أو بالآثار

---

(٢٣) الاية ٩٨ الانبياء
(٢٤) ابو السعود التفسير ح٣ ٧٢٧
(٢٥) احكام القرآن للشافعى ح٢ ١٦٧

لهذا قال ابن عباس رضى الله عنه (تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه الا الله من أدعى علمه فهو كاذب) (٢٦) فهناك لفظ نصل الى معناه من جهة اللغة ، وهناك اللفظ الواضح الذى يعرفه الجميع : اللغوى والعالم والعامى ، وهناك اللفظ الذى يتوصل اليه بالمعارف الأخرى وهو ما لا يتسنى فهمه الا بمجهود العلماء ، وهناك اللفظ الذى لا تسعفنا فى فهمه اللغة ، ولا تدركنا آثار توضح معناه ، وهذا التقسيم لحدود الالفاظ فى القرآن يتفق كما أشرنا الى طبيعة عمل المفسرين وعلمهم وقد كانوا أوفياء لتلك الفكرة السابقة حول تناول الألفاظ وعلى سبيل المثال فان أبا بكر بن العربى علق على بداية البخارى بالحديث عن فضل العلم دون بيان حقيقته فقال (بدأ المصنف بالنظر فى فضل العلم قبل النظر فى حقيقته ، وذلك لاعتقاده أنه فى نهاية الوضوح فلايحتاج الى تعريف أو لأن النظر فى حقائق الأشياء ليس من فن الكتاب ، وكل من القدرين ظاهر ، لأن البخارى لم يضع كتابه لحدود الحقائق وتصدرها : بل هو جار على أساليب العرب القديمة فانهم يبدأون بفضيلة المطلوب للتشويق اليه اذا كانت حقيقته مكشوفة معلومة) وأنكر ابن العربى على من تصدى لتعريف العلم وقال هو أبين من أن يبين) وهى طريقة الغزالى وشيخة الامام (٢٧) .

والمناطقة يرون من جهة ثالثة أن (كلامهم منحصر فى الحدود التى تفيد التصورات سواء كانت الحدود حقيقية أو رسميته ، أو لفظية) (٢٨) فالحد يبين الحقيقة الذاتية ان كشف عن الماهية ، وان كشف عن الصفات والآثار فهو حد بالرسم ، وان بين مراد الكلمة وأوضح مدلولها

---

(٢٦) ابن تيمية مجموع الفتاوى ج ٧ : ٢٨٦
(٢٧) ابن حجر : فتح البارى ج١ ١٤٠ — ١٤١
(٢٨) نفسه ج ٩ : ٤٢

الشكلى فهو حد لفظى ، وهكذا نرى أن العلماء لم يتفقوا على تقسيم محدد للحدود ، ولا على اسم لكل نوع منها ، وأن كل فريق يمثل علما من العلوم تحدث عن الحدود من وجهة نظر علمه ومصطلحاته حتى تكاثرت الحدود وكثر معها أنواعها ومصادرها ووجدنا من العلماء من يحكم بوضع حد أو تعريف بكل لفظ ، ومنهم من يفصح عن عدم وصوله الى تلك الغاية ، وأن من الألفاظ ما لا نستطيع تعريفه أو الوصول الى عنوان مدلوله موقف ابن تيمية النقدى للتعريفات ولما كان الأمر كذلك من الاختلاف والتنوع فى فهم الحدود والتعريفات ، وفى كثرتها وتشعبها وقف ابن تيمية من المسألة موقفا ناقدا ، وبصيرا : فبعد أن عرض لتقاسيم الفقهاء والمفسرين والمناطقة كنماذج للاختلاف فى الحدود لجأ الى الحديث عنها بشىء من التفصيل مبتدئا ببيان الألفاظ التى لا تحتاج الى تعريف ثم ناقدا لوجهة نظر المناطقة فى دعواهم بأن كل ما ليس بديهيا لا يدرك الا بالحد .

أما الألفاظ التى لا تحتاج الى تعريف بأى صورة من الصور فهى تلك التى عرفت من جهة اللغة أو الشرع واستقر فى الأذهان معانيها ومدلولاتها حسب مرتبة كل من السامعين أو القارئين ، بمعنى أننى وأنا أخاطب جماعة مثقفة ، أو أكتب بحثا لمتخصصين فلا بد أن أراعى درجتهم العلمية ، وأن ندرك جميعا أن كثيرا من الألفاظ لا تحتاج لدى هذا الصنف الى تعريف ، وتعريفها زيادة وتكلف ينبغى أن ينأى المتحدث أو الباحث عنها ، وأن كنت أخاطب أو أكتب لغير المتخصصين فلا بد أن أضع فى اعتبارى درجة معرفتهم بالألفاظ فاتجاوز ما يدركونه الى ما لا يدركونه ، وأقف عند المحتاج اليه دون أن ألتفت الى ما نستغنى عنه ، وهكذا علينا أن نرقب درجة المخاطبين أو القارئين ، وألا نتكلف ما يعرفونه ، والا وصمنا بالسمج فى للعبارة : والسخف فى القول ، وتعرضنا لحال من السأم ازاء أقوالنا وانتاجنا فى نفس اللحظة التى نكرر أمرا معروفا .

وعلى هذا فالكلمات التى عرفت لغة ، وتطابق مقصودها اللغوى مع مطلوبنا الاصطلاحى فى العلم الى حد لا يحتاج معه الى بيان

التطابق أو درجته لوضوحه فى الأذهان ، أو كان المراد من استخدام اللفظة هو ما اتفق عليه من جهة اللغة لا نتعرض لتعريفها بأن من الحدود السابقة أو المعتبرة لذى كل فن ، ونكتفى فى هذا الصدد بأن ننبه الى المقصود الاصطلاحى وأنه يتفق مع المعنى الذى وضعت له الكلمة ، أو نوضح أن المعنى اللغوى هو أصل الاستخدام عندما لا تكون العلاقة بين المعنى العلمى الاصطلاحى وبين المعنى اللغوى واضحة ومعتبرة فى أذهان الغير ، وأن ندرك فى الوقت ذاته أن الاطار اللغوى للألفاظ أوسع بكثير من أى مقصود اصطلاحى ، وأنه من الأفضل ترك التقييد بالتعريفات للكلمة المطروحة حتى يظل الذهن فى ساحة من المعانى الموضوعة للألفاظ ، يستمع لما يقال حول اللفظة ، أو يقرأ ، ثم يحيل المعانى المناسبة لكل لفظة بدافع من خبرته ومعرفته وذوقه الخاص ، وليس هناك شخص حتى ولو كان عاميا لا يتصور جملة من المعانى للألفاظ بل للفظ الواحد ، والذوق اللغوى يلعب دورا رئيسيا هنا ، واللغة لها تأثيرها على الأفراد ، وطبعهم بمعانيها ، ولها تكوينها الفكرى للناطقين بها ، ولا غرو فأى لغة هى الأحكام اللفظية ، أو الأصوات الحرفية للفكر الانسانى لأى جماعة ينطقون بها ، وهى قوالب معانيهم ، صاغوها هم بأنفسهم ، وتواطأوا عليها اتفاقا وعرفا ، فلا نتصور جهلهم بمدلول الألفاظ الا فى القليل النادر ، وهذا هو السر فى أن العامى يدرك الكلام الفصيح ويقف على مراميه دون حاجة الى تعريف بكل كلمة تلقى اليه ، وقد يختزن فى نفسه معانى ما سمعه دون القدرة على ترديده أو التعبير عنه ، فيجب أن نفرق بين الفهم والاختزان وبين القدرة على التعبير ، واعادة ما ألقى عليه

والسياق نفسه بعد كل هذا هو الذى سيحدد المعنى المقصود من اللفظة حتى ولو لم نلق تعريفا للكلمة فلا نلجأ الى التعريف الذى يحدد أو يقيد المعنى اللغوى الا اذا توقف العمل على هذا التحديد أو التقييد سواء من جهة الشرع أو الأخلاق ، أى سواء كان العمل منوطا بحكم

شرعى ، أو مرتبطا بصفة أخلاقية قد نص الشارع عليها أو لم ينص وتركها لاستحسان المسلمين •

وفى هذه الحالة التى تتطلب حكما شرعيا يتكفل الشرع ببيان المقصود من اللفظة ، فيلقى الضوء الكافى على مغزاها فى الاطار الشرعى القرآن فى قوله سبحانه « **فتيمموا صعيدا طيبا** » (٢٩) فانما يقرر المعنى منفصلة عنه وهو مما يسهل فهمها داخل الاطار الشرعى ، وعلمنا بالكلمة لغة هو الأساس الأول فى فهمنا لها شرعا ، ومثل كلمة « التيمم » التى تعرف من جهة اللغة بأنها أمر بتيمم الصعيد ، فاذا ما ذكرها الشرع فى والكلمة عندما تدخل دائرة الشرع تظل مستندة الى الأصل اللغوى غير اللغوى المعروف عند العرب ، ثم يعطى حكما آخر يتبع المعنى اللغوى فيقول ، والتيمم للصعيد يجب أن يكون التراب فيه طاهرا ، وأن يمسح الوجه والأيدى منه ، واشتراط الطهارة ، والنص على مسح الوجه والأيدى أمور شرعية اعتبرها الشارع انبثاقا من المعنى اللغوى ، وعرض القرآن للفظ جاء متسلسلا من نقطة المعرفة اللغوية به الى ما بعدها من المراد الشرعى ، وذلك لينتقل الذهن من المعلوم اللغوى الى المقصود الشرعى ، وهى الطريقة أقرب الى الفهم وأعمق فى قبول العقل، وأثبت فى قواعده ، وهو الترتيب الذى يتفق مع حكمة ارسال الرسل بلغة أقوامهم حيث اعتبرت لغة القوم لسانا للرسالة المبعوثة فيهم ، فمن ثم يكون المعنى اللغوى أساسا ومفتاحا يعقبه المقصود الشرعى ، ولا أقصد أن المعنى اللغوى حاكم ودال للمعنى الشرعى ، وحشا لله أن تحكمه دلالات لغوية أو ظواهر طبيعية ، بل القصد هو أن الحكمة الالهية التى تقتضى هداية الناس تأتيهم من قبل معرفتهم بلغتهم ، وتدخل عليهم من فهم لمدلول الألفاظ ، تقريبا للحكم الشرعى ، وتيسيرا لفهمه •

ومن المفيد أن نتعرض للعلاقة بين المعنى اللغوى للفظ ، والمعنى

---

(٢٩) الآية ٦ المائدة وانظر الفتاوى ج٢ : ٢٩٩

الشرعى المقصود منه ، هل الشارع نقل الكلمة عن مسماها فى اللغة الى مسمى شرعى ؟ أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة مع زيادة فى الأحكام لا فى معنى الأسماء ؟ أو أن . الكلمة بعد نقلها الى المعنى الشرعى تصير دلالتها عليه حقيقية بينما دلالتها على المعنى اللغوى مجازية كما هو الحال عند أرباب العرف وحسب منطوقهم ، حول هذه الآراء الثلاثة تنازع الناس واختلفوا .

واذا استحضرنا ما قلنـا وقريبا أدركنا جيدا أن المعنى اللغوى قائم ، وأن الكلمة لم تنقل منه ، ولم تغير الى معنى شرعى يصير حقيقة لها ، وانما بقى المعنى اللغوى مع شىء من تأييده بالشرع : لأنه كما قلنا تسبح الكلمة اللغوية فى مساحة واسعة من المعانى ، وعندما يتخير الشرع كلمة لتكون من بين قاموس الألفاظ الحكمية لا يبطل معنـاها اللغوى كلية ، ولكنه يعتبره من خلا عاما ، واذا علمنـا مع هـذا أنه حتى فى الأساليب العادية نتناول الكلمة بمفهوم محدد يعتبر وجهـا من وجوه المعنى المطلق للكلمة فنقول مثلا : مسكت القلم ، وركبت السيارة ، وكل من مسك ، وركب تدل على معنى مطلق عام يشمل النبض والاستحواذ بشكل كلى ، كما يشمل الركوب لأى شىء ، لكن عندما أقول مسكت القلم يصير المفعول به مقيـدا للفعل وحاصرا له فى دائرة محددة هى اللم ، وكذلك يقال فى السـيارة وأنها حددت من اطلاق الركوب وعمـومه ، اذا كلمات اللغة من حيث وضعها تسمح باحتواء كثير من المعـانى ، وتناولها لهـا فى دائرة الأحداث الجزئية هو الذى يحددها حينا بمعنى معين ، وحينا آخر بمعنى يختلف عن المعنى الأول دون أن يتجاوز كل من المعنيين ما اشتملت عيه الكلمة وضعا ، اذا علمنا هذا كله وجب أن نعلم فى الدرجة الأولى أن الشرع حكم بوجه من الوجوه فى مناسبة أو قضية ما حال كونه يسـتخدم لفظة من الألفاظ تخدم هـذا الحكم وينحصر معناها أو يضيق ليؤدى غرض الحكم المطلوب دون نظر الى وجوه الكلمة التى يمكن أن تستوعبها من جهة عموم معناها .

يقول ابن تيمية فى هذا الصدد (والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ـــ

أى الكلمة عن معناها اللغوى — ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة ، كما يستعمل نظائرها (٣٠) ، وساق للتدليل على مقولته تلك بعض النماذج مثل كلمة الحج ، وأنها تعنى فى اللغة القصد ، والعرب يدركون ذلك ، ويدركون حقيقة أخرى هى أن اقصد كلمة مطلقة تشمل كل قصد لأى مكان أو جهة ، والسياق هو الذى يحددها فيقال حججت الى بيتك أى قصدته ، والى البادية أى قصدتها الى آخره ، وحججت البيت العتيق أى قصدته ، واذا تعلق معنى شريف له قدر ومنزلة فى النفوس لكلمة غلب على استعمالها حتى ولو أطلقت لانصرفت اليه خاصة بحكم تلك الغلبة ، وهذا هو المتبع فى الألفاظ الشرعية التى استخدمت فى أحكام خاصة ، فقول الله سبحانه « **ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا** »(٣١) يذكر (**حجا خاصا ، وهو حج البيت** ، وكذا قوله « **فمن حج البيت أو اعتمر** » (٣٢) فلفظ الحج ليس (متناولا لكل قصد بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة) (٣٣) وتقييد القصد الذى هو معنى الحج (دلت عليه الاضافة ، أو التعريف باللام ، فاذا قيل الحج فرض عليك كانت لام العهد تبين أنه حج البيت (٣٤) وكذا يقال فى الزكاة والصوم والايمان وغيرها .

وبالتامل تدرك أن حكم التقييد فى القصد لكلمة حج ، أو فى زكاة المال والحرث لكلمة زكاة ، أو فى صوم رمضان خاصة لكلمة صوم الشاملة لكل امساك جاء بأمر الشارع ولكن الأداة التى حكمت بالتقييد، وحددت المطلق كانت هى اللغة فى أسلوب الاضافة ، أو أداة التعريف، الأمر الذى يجعل المعانى مهما دارت ترتبط باللغة فى ألفاظها وأحكامها

---

(٣٠) الفتاوى ح٧ : ٢٩٨ (٣١) الآية ٩٧ آل عمران
(٣٢) الآية ١٥٨ البقرة
(٣٣) مجموع الفتاوى ح٧ ٢٩٧ — ٢٩٩.
(٣٤) نفسه

دون أن ينقل اللفظ أو يغير بعيدا عن معامل التحليل لتراكيبها . وكون اللغة لهـا دخل فى عملية الاختصاص بمعنى دون بقية المعانى يسهل فهم الألفاظ دون حاجة ماسة الى وضع حدود وتعريفات لها ، لا سيما اذا اعتمدنا أساسا علمنا بمقصود الشرع وبيانه فى تلك العملية التى تتشكل الكلمة من خلالها تشكيلا مخصوصا تصير فيه عنوانا لحكم شرعى .

وعند هذا الوضوح من الشرع وأداته من اللغة ينبغى (أن يعلم أن الألفاظ الموجودة فى القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها ، وما أريد بها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم) (٣٥) فلسنا بحاجة الى حدود وتعريفات لغوية أو اصطلاحية طالمـا أن (النبى صلى الله عليه وسلم قـد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه الى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ، ونحو ذلك ، فلهذا يجب الرجوع فى مسميات هذه الأسماء الى بيان الله ورسوله فانه شاف كاف ، بل معانى هـذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة) (٣٦) ، وكل جهـد يبذل فى تعريف كلمة عرفت لغة أو شرعا فهو جهد زائد ولا قيمة له من النـاحية العلمية ، وهـو تكلف فى العلم لا طائل من ورائه ولا ثمرة ترجى منه .

ولنأت الآن الى دور ابن تيمية باعتباره ناقدا لموقف المناطقة من مسألة الحدود تعليقا على قولهم (ان التصور الذى ليس ببديهى لا ينال الا بالحـد) أى أن كل لفظة ليست بديهية واضحة الدلالة بشكل ملحوظ لا نصـل الى معرفتها الا بالحـد أو بالتعريف المكون من جنس عام وفصل مميز قريب مانع من اشتراك الغير فى المعرف .

---

(٣٥) نفسه ٢٨٦ — ٢٨٧

وللرد على العبارة السابقة للمناطقة يركز ابن تيمية نقــده فى صورتين •

الصورة الأولى اجمالية ، والثانية تفصيلية •

أماالصورة الاجمالية فانه قــد تعرض فيها لمسلكهم بصورة عامة واتهمهم فيها بالتكلف ، والتعرض لمسائل أو ألفاظ واضحة لا تحتاج الى تعريف بحيث يكون (الشىء معلوما لهم فيتكلفون من بيانه ما هو زيادة وحشو وعناء وتطويل طريق وهذا من المنكر المذموم فى الشرع والعقل، قال الله تعالى **« قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين »** (٣٦) ويقول (وهؤلاء كلامهم فى الحدود غالبه من الكلام الكثير الذى لا فائدة فيــه) (٣٧) فالأولى طرح ما هو معلوم كما سبقت الاشارة اليه سواء كان علمه من جهة اللغة أو الشرع ، والا نذكر من التعريفات الا ما خفى تصوره حقيقــة•

وأما الصورة التفصيلية : فقد نقدهم ابن تيمية من وجوه عدة: منها أن الحــد الذى هو دال على ماهية المحدود قول الحاد أى الذى قام بصياغة التعريف أو الحــد ونحن لا نعــرف المحــدود الا بعــد وضع الحــد ، فان كان الحاد كذلك فقد عرف الحــد بعد أن وضعه ، فكيف يكون جاهلا بالشىء واضعا له ؟ هــذا ما لا يجوز وان كان يعرف المحــدود قبل وضــع الحــد له فما فائدة الحــد والحال أننا قد عرفنا المحــدود بحقيقته أو بصفاته ، أى أن الحد تحصيل حاصل سابق •

ومن جهة ثانية فان الحــدود لااتفاق عليها ، ولم يسلم لهم حد لشىء معين ، فاذا ما سبق حــد أقره بعضهم وأنكره آخرون ، وبناء على تلك القــاعدة فانه يلزم أننا لا نعرف شيئا طالمــا نحن مختلفون

---

(٣٧) مجموع الفتاوى ح ٩ : ٤٢

فى تصور الجسد الذى يعينه ، والقول بأننا لا نعرف أصلا من الأصول لنفس السبب جهل ومغالطة ،

وأيضا فان القائل بضرورة الحـدود هو أرسطو ، وباطل أن نسلم لهم بتوقف المعرفة عليها من ناحية العلوم ، ومن ناحية العالمين وهم البشر ، أما من ناحية العلوم فانها حاصلة قبل أرسطو بكثير ، وتكونت معارف بشرية لا تستند الى فكرة أرسطو فى توقف المعرفة على الحدود، ولو أخذنا بفكرتهم ما صح أن تقوم علوم بنى آدم قبل وضع الحـدود فى القرن الرابع قبل الميلاد على يد هذا المعلم ، لكنها قامت ، ونشأت حضارات علمية ومادية بدون حدود ، وبعد أرسطو قامت علوم مثل الطب ، والحساب ، لا يعتمد أئمتها على الحـدود ، وفى أيامنـا هذه لا يعتمد علم من العلوم التجريبية على تلك الفكـرة ، بل وكان سر تقـدم تلك العـلوم راجعا الى نبـذ منطق أرسطو كلية بحـدوده وأقيسته ، واعتماد الاسـتقرار والملاحظة والتجربة فى ميدان البحث العلمى بديلا ، ويعتبر ابن تيمية النحو من العلوم التى لم تقـم على فكرة الحـدود مثل كتاب سيبوية الذى حوى حكمة لسـان العرب (لم يتكلف فيه حـد الاسم والفاعل ونحو ذلك) والحـدود فى العلوم التجريبية سابقا وفى النحو والفقه لم تأت الا متأخرة ، ولم يتداولها (الا من ليس بامام فى الفن) •

ومن ناحية العالمين من بنى البشر فان الأنبياء وأتباعهم من العلماء والعامة ، وعلماء المسلمين فى القرون الثـلاثة الأولى لم يتجهوا الى الحـدود وكانوا مستغنين عنها حتى عربت العلوم الفلسفية فقلدوا اليونانيين فى وضع الحدود ، وكذلك قلنـا ان العلماء قبل أرسـطو ما اتجهوا هذه الوجهة ، ويخلص ابن تيمية من وراء كلامه هذا بأنه (اذا كان حذاق بنى آدم فى كل فن من العلم أحكموه بدون هذه الحدود المتكلفة بطل دعوى توقف المعرفة عليهـا) ويردف قائلا (وأما علوم بنى آدم الذين لا يصنفون الكتب فهى مما لا يحصيه الا الله ولهم من

البصائر والمكاشفات ، والتحقيق والمعارف ما لبس لأهل هـذه الحدود المتكلفة فكيف يجوز أن تكون معرفة الأشياء متوقفة عليها) (٣٨) ٠

ويضيف أن الله سبحانه زود الانســان بأدوات ادراك حسـية ظاهرة ، وباطنية داخلية ، وكل من القوتين يستطيع أن يدرك ما يعرض عليه ، فنحن نعرف بسمعنا وبصرنا وشمنا وذوقنا ما جربناه بهـا ، وما ذقناه بواسطتها ، ونعرف بما نشهده بنفوسنا وقلوبنا ما وجدناه فيها مثل الغضب والفرح والحزن والغم والعلم ونحوذلك ، واذا لم نذق الأشياء بحواسنا الظاهرة ، ولم ندركها بحواسـنا الباطنة فاننـا لا نستطيع تصورها على وجه صحيح مهما حاول الغير تشبيهها بأشياء ادركناها ، فمن لم يذق طعم العسل فلا يجدى فيه الحد أو تقريبـه الى الذوق وأنه يشبه السكر ، وكذلك لا يتصور الأكمه الألوان بالحد ، ولا يتصور أحد شهوة الجماع بالحـد أو بالتشبيه تصورا يتفق مع حقيقتها ما لم يكن قـد جربها والمقصـود بعد هذا أن الحقيقة (ان تصورها بباطنه أو ظاهره استغنى عن الحد القولى ، وان لم يتصورها بذلك امتنع أن يتصورها بالحـد القولى ، وهذا أمر محسوس يجـده الانسان من نفسه) والقائل بأن (الحـدود هى التى تفيد تصـور الحقائق قائل للباطل المعلوم بالحس الباطن والظاهر) (٤١) ٠

وهـذا الوجه من نقـد ابن تيمية فيـه نظر ، لأنه لا يعقل أننى أذوق بحسى الظاهرى ، وأدرك بحواسى الباطنة كل ما يدور من حولى، واذا كان الأمر كذلك بقيت معارفى محدودة عاجزة عن تصـور كثير مما يصادفنى لأول مرة أو لا أستطيع تذوقه ، أو ليس فى حوزتى ،

---

(٣٨) نفســه ٤٣ — ٤٧
(٣٩) مجموع الفتاوى ح٩ : ٤٧ — ٤٨
(٤٠) راجع نفس المصدر ونفس الجزء ح٩ : ٤٣-٦٦ ومن٨٣-١٠٣، ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٨٣ — ١٨٤

وما دمت كذلك فأنا محتاج الى الآخرين فى تعريفه لى على وجه يحدث به الادراك ، ثم ان الذى يقوم بهذه المهمة ربما يكون معرفا للشىء حسب تصوره وادراكه وهذا يعنى أن البشر يعرف بعضهم بعضـا ، ويتمم بعضهم ادراك بعض وتصوره حسب ما يصل اليه ، أو يقع تحت خبرته ، فينقل بعضهم معارفه وتصوره عن الأشـياء الى بعض آخر لم ينـل هذه الأشـياء بحاسة من حواسـه ، وبهذه الطريقة تكتمل المعارف وتتم •

ويواصل ابن تيمية نقـده قائلا : ان الحدود أقوال كلية ، والقول الكلى لا يمنع من وقوع الشركة مع الشىء المعرف باعتبار الحد الكلى ، كذلك فالمعانى فى الكلية موجودة فى الذهن لا فى الخارج ، والخارج لا يتعين ولا يعرف بمجرد الحـد ، فما فى الذهن وهو كلى لا يعتبر حقائق الأشياء الخارجة التى لا تقبل التعين ، فالحـد بناء على هذا لا يفيـد تصور حقيقة أصـلا ، ثم ان الحـدود ألفاظ ، والألفـاظ لا تعرف بدون تصور معانيها ، والمعانى لا تدرك الا بنفس الألفـاظ ، وهـذا دور •

ونقتصر على هذه الوجوه من نقـود ابن تيية للحدود ، وقـد بلغت ستة عشر وجها ، تحدث عنها مرارا فى مناسـبات عدة ، بألفاظ مغايرة لا تخرج عن المضمون اللعام (٤٠) ، وان كان لى من تعليق على هذه النقود فأول ما نلحظه هو أن ابن تيمية سـلك مسلك الجدل الذى ينهجه الخصوم فى مثل هذه المواقف ، والأحرى أن نتأمل سعة ثقافة الرجل ، فهو لا ينسى سلفيته ، ولا إنتماءه الى مدرسة تؤثر النص ، وتبتعد عن طريقـة المتكلمين الجدلية ، وطريقة الفلاسفة فى التحليل اللفظى والفكرى واشتقاقاته الكثيرة ، ولذا يبدأ أولا بنقـد اجمالى يرفض فيـه الحـدود جملة مستندا فى ذلك الى أن الألفاظ التى عرفت لغة وشرعا لا ينبغى الخوض فى حدودها ، وقـد عرفت من القرآن أو الحديث أو تصورناها من جانب اللغة ، وجاء رده هـذا مقتضبا

مبسطا ليتفق مع المنهج الاسلامى فى التيسير وعدم الاغراق فى المسائل والتعمق فيها الى درجة تخرجها عن بساطتها التى تعين على فهمها لدى العقول مهما تفاوتت درجاتها هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى ليفسح المجال أمام النقـد التفصيلى المطول الذى أسهب فيـه وأطنب ، وان دل هـذا المسلك النقدى التفصيلى على شيء فانما يدل على أن ابن تيمية يقتحم مع المتفلسفين عرينهم ، ويجاهدهم بسيوفهم ، ولا يرى فى ذلك بأسا أو حرجا طالمـا أنه يخدم حقيقة علمية ، أو غرضا شرعيا ، وكم أعلن عن ذلك ، وأفصح فى مجالات أخرى أنه لا بأس من خطاب هؤلاء بلغتهم ومنهجهم ما داموا يتشبثون به ، ويتعصبون له ، وما دام الاسلام لا يمنع من ذلك خاصة اذا كانت النوايا حسنة ، والقصـد هو الحق ، فعلى أبنـاء تلك المدرسـة أن يستوعبوا الدروس جيدا ، وأن يهضموا المنهج « التيمى » على وجه صحيح •

وينبغى أن ننظر الى وجوه النقد مجتمعة على أن كل واحد منها يشد أزر الآخر ، لاننـا لو فرقناها الى وجوه متفرقة قـد لا تحقق غرضها المنشود ، وأرى أن ابن تيمية توسع فيها من أجل تثبيت فكرته عن امكان حصول المعرفة بوجوه شرعية لا تستند الى الحدود المنطقية، وتعبيرا عن منهجه الذى يتحمس كثيرا لطريقـة السلف ، ومهما بدا الأمر المخالف بسيطا فانه لا يدع الفرصة تمر من يده دون أن يكيل له الكيل بصاع واف ، وهو لا يجب •

— فى كثير من الأحيان — أن يحيل السائل الى ما قاله فى مناسبة سابقة بل يأخذه فى البيان من جديد ، وينشىء الرد انشاء ، كما يظهر من حديثه عن مسألة واحدة فى مناسبات متكررة وبأجوبة متقاربة ان لم تكن هى هى ، ولنفس هذا السبب جاء نقـد ، للحدود فى أماكن عدة من مؤلفـاته •

الى الشـــاطىء

أحس أننـــا سبحنا فى خضم التعريف طويلا ، وكدنا من فرط السباحة أن نغرق فى محيط يبعد بمسافة شاسعة عن موضوعنا الرئيسى الذى نحن بصدد الحديث عنه وهو الدعوة وتعريفها ، ثم اننا نجدف فى النقطة السابقة بمجاديف تختلف خشونة عن تلك التى ينبغى أن نحركها ونحن نتهادى فى ثبات واطمئنان على سفينة النجاة عبر المياه العـــذبة متجهين الى الله ، داعين له ، وانى لفى شوق أن أعود من جـــديد الى حرفاء السلامة ، وأن أركب الزورق الحبيب تدفعه نســـائم اللطف الالهى ، وترطب حرارة النفس مما يصيبهامن حمى الزمان ، وحرارة المكان ، ومرارة الخلان ، أحب أن أعود قبل أن تتوارى الشمس فى برجها العاجى ، وأن تتدثر بردائه الأحمر القانى ، وينشر من حولها قطعان الذهب تناثرت من جبلها الأصفر ، أحب أن أعود من هذا الخضم الى الشـــاطىء المنشود لعلى أجـــد رفاقا أوفياء ، واخوانا أصـــفياء يصحبوننى فى رحلتى على الشاطىء بين الوديان والكثبان ، والمـــدر والحضر ، والكوخ والقصر والناى والسيف ، وشقشقة العصفور ، وصوت المدفع ، وأزيز الطائرة ، وقطرات النـــدى ودموع الطفل ، وطوفان السيل وبكاء الثكلى ، وبسمات الأم وهى تحنو على جنينهـــا البكر ، وصرخات الأرمل على زوج مفارق ، أو عويل الأخت على عزيز غادر ، وضحكات الاتراك فى حانات اللهو ، وتشنجات الأم على فلذتها فى ساحة الرثاء وقد راح يائســـا مظلوما ضحية الغـــدر والعدوان ، وتأفف المـــدللين على الموائد الممدودة ونظرات الجياع وتطلعهم الى الفتات بعيون مرمودة ، وغطرسة الضالين الملحـــدين وعزة المؤمنين المهديين ، أحب أن أعود الى دنياى هذه بما فيها من كل تلك المظـــاهر داعيا مع الصحب ، مؤذنا فى تلك الشواهد المتنافرة لتتحد ، مناويا على الجميع ضـــمدوا الجراح ، وكفكفوا الدموع ، وامسحوا عار الظـــلم وأطعموا البائس الفقـــير ، وتعهدوا اليتيم والأرامل ، ودعوا اللجاج والعناد ، والغـــدر والخيانة ، دعوا العيون تنظر بلا شذر ، والأفواه

تبتسم لا تتوعد ، والأيدى تتصافح لا تفتك ، والقلوب تحنو لا تقسوا والجباه تسجد لا تتكبر ، والظهور تركع لا تتسمر ، والعقول تؤمن لا تكفر ، تلك مقطوعتى أضرب عليها سيمفونية عذبة الرنين ، وايقاعا رقيق الأوتار ، وأداء صادق اللحن ، وكلمات مخلصة التعبير ، وهذا فن الهداية ، يقدمه فنان عابد فى محراب الطهر والقداسة ، بعيدا عن صالات العبث والمجون ، هذه حياتنا الحاضرة ، وهذه دعوتنا فيها بلغة الفن الذكى ، وعبقرية الفنان المؤمن •

أما أنا فدورى فيها هناك فى ركن من الأركان أرقب الحياة وهى تسير ، وأطالع المشهد من بعيد ، أطرب لكل جميل ، وأسبح عند طلوع شمس الهداية ، ومن قبلها كنت أستغفر ساعة السحر من ظلم نفس لنفس ومن طغيان وجود على وجود ، فلما أذن الفجر قمت للصلاة أقرأ القرآن المشهود ، وأطيل الصوت لعله يخترق الوجود كله الى كل موجود ، يذكره بالعهود ، ويحذره من يوم اللقاء الموعود ، فلما طلعت الشمس سبحت كما قلت وتأملت ونظرت من أين جاءت ، وكيف خرجت من باطن الأرض من ركن شرقى ، وكيف كانت فى رحلتها السابقة ، ومن قابلت ، ومن أضاءت ، وما ذا عساها فاعلة فى رحلتها الحاضرة ، ورحلاتها المستقبلة ، وهى ليست الفلك الوحيد هناك عشرات مثلا أصغر أو أكبر ، تجرى بحسبان ، وتسير لمستقر لها ، تجد السير باستمرار لا انقطاع ولافتور كأنها تجرى على عيال تكفلهم ، والوجود كله عيال ، لكنهم ليسو عيالها ، بل هى وهم عيال لقوة، وخلق لخالق ، وموجودات لموحد، ومسيرات لمسير ، ومدبرات لمدبر ، حكيم أبدع ، وباطن أظهر ،وقوى أنشأ ، وعليم أتقن ، نحن فى فلك الحياة نسير ، ومن ورائنا مسير ، ونحن بعقولنا — أحيانا — نفكر ومن ورائنا مقدر ، ونحن فى غمرات الحياة نلهوا ونغفوا ومن ورائنا محيط ،

على هذا الشاطىء أحب الجلوس ، وعلى هذا البر أعشق المضى أنادي غيرى وأتودد اليهم لعلهم يصحبوننى فى رحلتى ، وأيا خائف

وجل أدعو الله وأسأله وحده أن يعيننى ويوفقنى ويهدينى ويهـدى اخوانا لى فى الدين ، وأفرادا يشبهوننى فى الانسـانية ، لعلنا جميعـا نسير صفا واحدا وأمة واحدة تعبد ربا واحدا وتخضع لدين واحد ، ويحكمنا كتاب « **احكمت آياته** » **هو العـلاج للحياة ، وهـو الدواء** للمرضى ، وهو الرى للظمأى .

معذرة أيها الأصحاب ، فما دريت بقلمى وهو يسبح على صفحته البيضاء ، وانى لصادق فى أننى قـد أوقفت دفته بقسر ، ولو تركتـه لسار الى حيث شاء الله أن يسير وأن يقف ، وما أحب أن أسجله فى هذه الوقفة هو أن أنصـح الباحثين والدارسين ألا يسرفوا فى التعريفات والحدود ، وأن يميزوا بين الواضح المفسر من قبل اللغـة أو الشرع فيجتنبوه ، وبين الغامض المجهول فيحـدوه ويعرفوه ، وأن يعى تلك الحقيقـة الدعاة على وجه خاص . فـلا يهتمون بالجوانب الفنيـة الاصطلاحية بالقدر الذى يتناولون المسـائل بأحكامها الشرعية ، انما ينبغى أن تكون القواعد الشرعية وما تتطلب من علم وعمل وحركة هو الهدف الأسمى والشغل الشاغل ، ان الدعوة الى الله ليست قوالب اصطلاحية ، وليست نمطا من الفكر التقصيرى ، ولا أسلوبا من أساليب البحث التقليدى ، انما هى فكرة مؤمنة انصهرت بخلجات نفس صافية، ومرت على صفحة قلب أبيض ، واحتكمت الى عقل ذى لب مستنير ، ورقرقتها عاطفة مشحونة بالخوف والرجاء والحب والأنس ، وتحولت الى عمل مستقيم يتولاه بدن لين خاضع ، وراكع ساجد ، عينه فى الآيات ناظرة ، ويداه فى الخير جوادة ، وأقدامه الى مواطن البر سـائرة ، هى فكرة نبعت من وحى ، واسـتقرت فى قلب ، ورقرقت عواطف ، وزكت نفسا ، وأحكمت عقلا ، وأخضعت بدنا ، وأنطقت لسـانا بها داعيا ، وسيطرت على حياة ، وملكت رقابا ، وهان فى سبيلها كل غال ورخيص ، بعيدا عن التعقيد وعن القوالب ، وعن الأشكال الفنية التى تطمس جمالها وتذهب رونقها ، تستمد بريقها من نور الوحى وقوتها من الحق ، وجرأتها من العبودية . هذا تعريفها ، وهذا نمطها وحدها .

الفصل الثاني

الدافعية في الدعوة

تمهيـــــد

ان الدين الحق ليس مبـــدأ من المبادىء التى يمكن للانســـان أن يطوى عليها صفحة فكره ، وأن يحبسها ، بين صدره ، ويمكن له مع ذلك أن يطيقها سلوكا أو لا يطيقها ، فالمبادىء الانسانية لا تحمل الزاما لأربابهاما لم يقم البشر على تقنين خاص يعطى لهـــا صيغة الالزام ، وحتى في هذه الحالة لا تكون درجة الالزام بنفس القوة التى عليهـــا الالزام النابع من قوة الحق وســـلطانه ، وجبروت المولى ســـبحانه وقهره ، أو حكمته وتقـــديره ، وخضوع الانسان لدرجة الالزام البشرى محكومة بالعين الذى ترقبه فان غفلت تفلت من هذا الالزام حينا ، لا سيما اذا كانت فكرة الالزام ليست متوافقة مع رغباته الذاتيـــة ، كما أنها سلطة تتطلب الخضوع الظاهرى حتى ولو كان الواقع تحتها لا يؤمن بها قلبـــا ، ولا يقرها صحة ومنطقا ، ، وهى فى الوقت نفسه لا تلزم الفرد بالدعوة لهـــا والترويج لحيثياتها •

أما الفكرة الدينية — خاصة تلك التى توجد فى الاسلام — فانها نابعة من سلطة عليا فوق مستوى البشر قدرة علما واحاطة •

وهى قوة الخالق المدبر الذى « أحاط بكل شىء علما » ، والاسلام منهذه النقطة ليس دينا يطلب الخضوع بالجوارح فحسب ، انما هو طريق يمهـــد النفس البشرية أولا ، ويثبت القلب بالاعتقاد ، ويريح العقل بالمنطق الحكيم المقنع والمعلل ، ثم ينطلق منهذه الأصول بعد أن يكون قـــد وحـــد بين قوى النفس والعقل والقلب فىوحدة داخلية ولا أمراض ، ينطلق الى البدن ليكمل عمليـــة الخضـــوع ، ولا عـــلل ولا أمراض ، ينطلق الى البدن ليكمل عمليـــة الخضوع والانقيـــاد الداخلية فى صورة جديدة ظاهرة يقوم الانســـان فيهابأعمال وطاعات وسلوك واخلاق ، وتدعوه الفـــكرة الدينية الواضحة والثابتة فى قلبه الى التحمس لهـــا ، والجهر بها ، والدعوة من أجلهـــا ، والذود عن

حياضها وهو لا يهدأ نفسا حتى يراها فى قلب الآخرين وفى ضمائرهم ، ينم عنها لديهم أعمال وصفات بارزة ، والتزامه القوى بهذا كله ينبع من القوة العليا التى أوحت بهذا الدين الى النبى صلى الله عليه وسلم ومن خبرته بدقـــة أحكامه ، ومن تجربته بنفعها وثمارها وصلاحيتها المستمرة ، ومن يقينه بعلاقة الارسال بين الموحى وهو اللـــه والموحى اليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوته لهذا الدين ليست تبرعا قام به المسلم وفاء لحق الدين عليه وفاء المنتفع للنافع ، انما هى فرض مقرر ، وحكم ملزم لكل من دان بهـــذا الدين • وبما أنه ليست هناك فكرة ما ، أو مبـــدأ ما يمكن أن ينتشر من تلقـــاء ذاته دون أن يحمله على كتفه أفراد يعمـــلون على ذيوعه ، فانه من باب أوجب لا ينتشر الدين الا بحواريين وصـــديقين وربانيين ومخلصين ، وعلماء عاملين ، ودعاة صـــادقين يوقنون به فى قلوبهم ، ويدعون اليـــه بأعمـــالهم وكلماتهم ، ويهمنا وقبل أن نتعرض الى وجهـــة نظر الاســـلام فى بيان نوع الحكم التكليفى المتعلق بالأمر بالدعوة أن ننظر فى بواعث هذا الحكم ، وأن نقف على الدوافع الحقيقية وراء التركيز القرآنى على الدعوة الى الله والى دينه وسبيله أو صراطه وطريقه •

لمـــاذا نبحث عن الدوافع ؟

نحن نؤمن فى البـــداية بقضية التوحيد ، وربما تحمل من عبودية حقة لله سبحانه وتعالى ، عبودية يوقن فيها المؤمن بربوبية الله وألوهيته وهيمنته ، ويرى الله قيوما على النفس والوجود ، فليس هناك خالق لمـــا نشاهده من حولنـــا أو مدبر له الا الله ، ومالك الخلق هو صاحب الأمر التصريفى والتكليفى ، ومن ثم نلجأ اليه فى كل شئوننا وأحوالنا•

وكان من الممكن بحكم هـــذا الاعتقاد ألا نبحث عن علل الأوامر الالهية أيا كانت تلك العلل : داغعية أوغائية ، وأن نكتفى بمطلق الايمان بأنه سبحانه اذا فعل فعله لحكمة ، واذا أمر أمر لعلة ، دون أن نحاول معرفة الحكم ، أو الوقوف على علل الأحكام •

ولكننا دأبنا على البحث لمعرفة أسرار الظواهر الكونية ، ولفقه العـلل في الأحكام الشرعية وللدراية الكافيـة بمجمل تلك الأحكام ومفصلها ، ولا نفعل ذلك الا لأن الله سبحانه أمرنا أن نستخدم مواهبنا الفكرية ، وملكاتنا الفطرية للنظر في الكون ، وللتفقه في الدين •

وانطلاقا من الأمر بالسير والنظر ، والتدبر والتفقه صـح أن نتجه الى الكون فهما ، والى الدين فقها ،وأن نحاول معرفة العلل والغـايات للأحكام الشرعيـة ، مدركين أن الوقوف على الدوافـع والبواعث ، أو العـلل والغايات يفيـدنا كثيرا في الجوانب النظرية والعمليـة :

فمن الناحية النظرية يتوقف كثير من فهم الأحكام ونوعها على تلك العلل ، ومعرفتها يفيـد في الحكم الخاص بها ، وفي استنباط حكم لأمر لم يرد فيه نص بقياسه على أمر فيه نص لاشتراكهما في العلة ، وبمقدار حصولنا على كم من العلل تكون درايتنا بدقة الأمـر الالهى ، وهـو ما يزيد نا ثقة على ثقة ، ويقيننا بالله بعـد يقين ، واطمئنانا على أن ما نعتقـده ، ونقوم بمحاولة تطبيقه على غاية من الاتفاق والأحكام ، فيزداد حماسنا ويقوى نحو التنفيذ •

ومن النـاحية العملية تنفعنا معرفة العلل والبواعث في ضـبط الأعمال التكليفية حتى تقع موافقة لمـا بنيت عليه ، وقامت من أجله ، وكي تكون أفعالنا مناسبة لبواعثها وأغراضها التى فرضت من أجلها •

وسوف نقتصر هنا على بيان الدوافع الذاتية التى بنى عليهـا حكم الدعوة •

ونعنى بالدوافع شـيئا قريبا جدا من مفهومها عنـد أرباب الاصطلاح ، اذ نقصد بها هذا النداء الداخلى الذى يحسه الانسـان

فى أعماقه ، وهذه الأهلية الفطرية التى تستحثه على القيام بمناصرة الفكر التى يدين بها ، وتحفزه حفزا على الوفاء لمطلوبها دعوة وتنفيذا ، فكلنا بحكم طبائعنا نحمل دوافع نفسية نبعت من الفطرة ذاتها ، أو اكتسبتها النفوس بفعل عوامل خارجية ، وهذه وتلك تحرك فينا الارادة نحو فعل شىء ما يتفق وطبيعة هذه الدوافع ، وتظل جياشة مثارة حتى تحصل على حالة الاشباع المناسبة لها •

والدوافع بهذا المفهوم تختلف عن الغايات منحيث ان الأولى صوت نفسى فى داخلنا يطالبنا بأمر ما ، فهو سابق على كل فعل ، وهو أولى بالنسبة اليه ، والغاية نهائية ، والدافع شىء نجده قبل القيام بأى نشاط ، والغاية مغنم نحصله ثمرة لنشاطنا ، والدافع حالة تنبع من أعماقنا ، وعندما نلبيها نستجيب لمطالب ذواتنا ، سواء كانت استجابتنا تلك لها فوائد تعود علينا أم على غيرنا ، أم لم تحقق منفعة تذكر ، والغايات هى منافع نلمسها بأنفسنا لنا أو لغيرنا أو للجميع •

وبيان الدوافع على هذا النحو ، وابرازها فى مجال التكليف بالدعوة ، أو بغيرها يجعلنا مستريحين لاعتبار أن ما نقوم به من نشاط نابع من هتافاتنا العميقة نحن فى الدرجة الأولى ، وتلك النداءات الداخلية هى المبررة لأفعالنا فى ضوء الحكم الشرعى المحدد لها ، وهى التى تجعل الفعل التكليفى ملائما للطبائع النفسية واستعدادها • بحيث يكون الفعل الشرعى استجابة لفطرنا ، وهو فى الوقت ذاته تكليف ربانى ، ومن تلك النظرة تتضح العلاقة الوثيقة بين أحكام الدين وصلاحية الطبائع ومواهبها ••

والآن نعرض لبيان الدوافع الذاتية الخاصة بالنشاط الدعوى •

الدعوة تعبير عن الذات :

المتأمل قليلا فى طبيعة النفس البشرية يدرك بجلاء أنها تميل الى افشاء ما فى داخلها ، والتعبير عنه بأى صيغة من صيغ التعبير القولية

أو الاشارية ، ولكن تحتفظ بسر يخصها، أو يخص أحدا قد استأمنها عليه ، وأخـذ من المواثيق ما أخـذ حتى لا تفشيه فانها تجاهد مجاهدة كبيرة وتكابد النفس رغبات الاعلان الجامحة بين حناياها من أجـل الاحتفاظ بسرها أو بما استؤمنت عليه •

وحتى فى تلك اللحظات التى يبـدو لصاحبها أنه قد انتصر على كتمانها ،فينطق بالقول الصريح ، أو تظهر حركاته وملامحه أن لديه شيئا ما ، فطبيعتنا غلابة للافصاح عما بنا ، هـذا يحدث بالنسـبة لأفكارنا الخاصة التى قـد يسبب ذيوعها خطرا أو جرحا شديدا بالنسبة لنـا حقيقة أو بالنسبة لغيرنا فى علاقتنا به •

والأمر يختلف بالنسبة للأفكار التى تعتبر عملا مجيدا ، أو ذا شأو وقيمة حية ، نحن ازاءها نجد أنفسنا مدفوعين بأسباب عـدة للتعبير عنها ، ويتنوع الدافع لاذاعة مثل هذه الأفكار تبعا لشخصية صاحبها ونواياه ، فهناك الدافع المجرد ، وهناك الدافع المعلول ، ويوجد الدافع النزيه لدى البعض ، كما يوجد الدافع النفعى عند الآخرين •

وكل من دوافع الافصاح عن أسرارنا أو أفكارنا التى نعتنقها يدخل فى اطار التعبير عن الذات ، لما سلف ولأن ذواتنا ليست متوجهة فى التعبير عن نفسها الى نفسها ، ونحن لا ندلى بآرائنا لذواتنا لأننا نعلم حقيقة ما نحن عليه ، فلا يريحنا أن نتحدث عنا لنـا ، خاصـة ان كان ما بداخلنا مشكلة تتطلب حلا ، فالمحاورة النفسية اذن لا تعين كثيرا على ايجاد الحل ، أو كان العالق بنا فكرة شريفـة فذكرها فى النفس لا يحقق الأريحية المنشودة فى التعبير عنها ، والدوافع النفسية فى هذا المجال تشبه الصفات العليا فى النفس كالشجاعة ، والقوة ، والكرم ، فلا تظهر الشـجاعة والقوة الا فى نصرة المظلوم ، واغاثة الملهوف ، واعانة الضعفاء ، وغيرها من مواطن بروز هاتين الصفتين ، وكذا يقال فى الكرم ، وكلها مواقف تعبيرية تتعدى حدود الذات المعبرة،

وهكذا يكون تعبيرنا عن ذواتنا بأى شكل من الأشكال تحت أى دافع من الدوافع ، أو صفة من الصفات متوجها الى خارجها فى صورة مواقف متعددة النوايا والأساليب .

وبناء على تلك الطبيعة التى خلقنا الله عليه فان النفس عندما تدين بوجود الله دينونة كبرى وتجد فى قرارتها حلاوة هذا الاعتقاد، وتذوقه يقينا ووجدانا ، وتخالط بشاشته القلوب تنفعل به النفس انفعالا متوازيا مع عمق هذا اليقين وقوته ، ودرجة استيلائه على المشاعر والأحاسيس ، وعندئذ تتحرك الدوافع نحو الاعلان عن الدين الذى انشرح له الصدر ، وأضيئت به جنبات النفس ، فيقوم الانسان بالافصاح عما انعقدت عليه النية ، واستقر عليه الخاطر ، وما انقدح فى الذهن صحته ، وانفعلت النفس بقبوله ، وهشت لوجوده ، وأثيرت حماسة لبيانه .

والى هذا الدافع الذاتى نحو الاعلان عن المثل العليا عامة والدعوة بصفة خاصة يقول ابن تيمية : « ان الانسان فيه داع يدعوه الى الايمان والعلم والصدق والعدل وأداء الأمانة ، وهذا الداعى يحفزه على دعوة الآخرين ، وجذبهم الى مايحب بفطرة وتلقائية » (١).

والعبارة واضحة لا تحتاج الى تعليق ، فالفطرية الخيرة التى جبلنا عليها هى التى تنادى على الآخرين أن يسيروا على الطريق معها ، وأن ينحازوا الى صف المبادىء الفاضلة ، وأن يتحللوا بالصفات الراقية وقد يتم هذا النداء بصورة تلقائية بحتة تحت قوة الدافع النفسى الممتازة ، وتحت وطأة الالحاح لهذا الباعث الدفين ، وهذا يعنى أن النفس التى اكتملت بالايمان تتحرك دوافعها لجذب الآخرين نحو اعتناق الفكرة موضوع الايمان .

---

(١) الحسبة فى الاسلام ٩٧.

فالمؤمن الحق لا يقف عند حـد كماله الذاتى بالايمان ، والاعتقاد بربوبية الله وسلطانه ، ولكنه يتجاوز هـذا الى محاولة هداية الآخرين ودعوتهم كى يحصـل على كمال اضافى آخر فوق كماله الذاتى الذى حصله فى نفسه ، وهو فى هذا شأنه شأن بقية الموجودات التى تتصف بالكمالين معا •

ومثال ذلك الشمس فهى مضيئة فى ذاتها ، وهذا كمالها الذاتى ، وتضىء للآخرين وهذا كمالهـا الاضافى ويقال ذلك فى القمر والمصباح والشموع ، والثلج هو الآخر بارد فى ذاته وهو كماله الأول ويبرد غيره وهو كماله الاضافى ، وهكذا يقال فى بقية الموجودات ، حتى الكافر من وجهة نظره ، فيه صفة الانكار ، وصفة الصد ، وهما حالان لنهـاية الاتصاف بالكفر (٢) •

ولـما كانت تلك هى طبيعة الموجودات ، لا تقف عندحدود الصفة الذاتية ، ولكن تنتقل ساعية الى تحقيق صفاتها فى الغير ، وهذا السعى يتم بلا قصد من الموجودات التى لا تعقل ، وبقصد وشعور من الكائن الانســانى العاقل ، وقـد يتم ببطء من بعض الموجودات فى حال ، وبسرعة فائقة من نفس تلك الكائنات فى حال آخر ، كالنـار والمـاء ، فطورا تحرق أو تروى ببطء ، وآخر تلتهم أو تغرق بشهوانية منقطعة النظير ، والانســان بحكم تمييزه عنـدما يدعو الآخرين الى مبدئه يسرع أو يبطىء ويتحمس أو يهـدأ حسب ظروفه الاعتقادية هو ، وحسب الظروف المحيطة به بالنسبة للآخرين •

---

(٢) راجع أبو الأعلى المودودى ، مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة ٨٣ — ٨٥

خصائص الدافع الذاتي :

ونستطيع أن نجمع في أيدينا خصائص هـذا الدافع ، وطبيعة تأثيره على أصحابه ، ومدى تغلغله في أعماقهم ، واستجابتهم له ، فنرى ان أهم خصائصه :هو الذاتية ، تلك الصفة التي تدفع الانسان الى بذل الجهـد دون أى اعتبار خارجي ، واثارتها في نفس المؤمن بقدر يتلاءم مع ايمانه يعطينا خاصتين هامتين يتصلان بمزاولة الداعي لدعوته .

أولاهما : ان الداعي عندما يحس بقوة الدفع الداخلية هـذه يتجه صوب دعوته في همة ونشاط بالغين ، وهو اذ يعمل هذا العمل لا يفكر : هل هناك حكم ملزم للقيام بعبء الدعوة أولا ؟كما لا يتطرق ذهنه الى نوعية الحكم ، ودرجة الالزام التابعة له ، وانما يستغرقه دافعه النفسي استغراقا ينسى معه التفكير في الأمر المنوط بما هـو سائر فيه .

ويمكن أن يكون حال أبى ذر الغفاري عند اسلامه موضحا لنـا ما نحن بصدده ،ومبينا قوة الدافعية النفسية التي عملت عملهـا في مسلكه منذ اللحظة الأولى التي شرح الله صدره فيها للاسلام ، فانه عندما التقى بالنبي صلى الله عليه وسـلم ، وأعلن اسلامه قال له الرسول (ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى) فرد أبو ذر معبرا عن ذاته بدافع نفسي هادر (والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم) فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته (أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله) ثم عاد من الغـد ففعل مثل الذى فعل ، وفى كل كان يلقى من الضرب ما يلقى ، ولم ينقـذه في اليومين سوى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يذكر قومه بمكان غفار من طريق تجارتهم الى الشام (٣) .

---

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ٣٨، ٤٠.

وبهذا الدافع الخالص ، والجهد المتواصل كان يدعو أبو ذر حتى أسلم أخوه « أنيس » وأمه ، وأسلمت قبيلته ، كما أسلمت قبيلة « أسلم » على الذى أسلمت عليه « غفار » (٤) .

فلنتصور معا هذا الموقف البطولى الرائع الذى وقفه هذا الغفارى فور اسلامه ، فى الوقت الذى استحثه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم على الرجوع الى قومه ، حتى لايعلم به أحد من القرشيين ، ويفهم ذلك جيدا أبو ذر ، ويعلم مغزاه والنتائج التى تترتب على اعلان اسلامه ، ولكنه امتلأ يقينا فى لحظة ، وغمرته أنوار الهداية من أول لقاء ، وأفعمت ذاته بكلمات قلائل ، وصلت الى سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وحفر لها فى قلبه حيث استقرت ايمانا وعقيدة ، وثارت من أجلها نفسه ، وتحركت ، فأقسم ليصرخن بها فى أى مكان معلنا عن حقيقته الجديدة ، وكيانه الذى تبدل من الظلمات الى النور ، ومن الضلال الى الهدى ولا يبالى عند الاستجابة لصوته الداخلى بوقع الحوادث عليه ، يضرب يوما فيوما ، وحلاوة التعبير عن الذات المستنيرة يدفعه الى المزيد من الافصاح ، والمزيد من الضرب ، والمزيد من السعادة بما وجد من حلاوة الايمان .

ويمكن أن نضيف الى هذا المثال أمثلة كثيرة : الطفيل بن عمرو الدوسى ، سعد بن معاذ ، وغيرهما ، أما الأول فقد طلب آية تؤيده فى مهمته ، ودعا له النبى صلوات الله عليه فجعل الله له نورا فى وجهه حول بعد ذلك الى سوط ، وهدى الله به قبيلته ، وأما الثانى فبمجرد سماعه من مصعب بن عمير الداعية الأول الى يثرب ذهب سعد ودعا بنى عبد الأشهل فى حماسة واصرار وتولية اذا أسلموا ، وبراءة منهم اذا لم يسلموا ، فما مضت ليلة اسلامه حتى أسلموا جميعا (٥) ،

---

(٤) الامام احمد ومسلم .

(٥) انظر : السيرة النبوية للذهبى والبداية والنهاية لابن كثير : المجلد الثالث .

ولم يكن مصعب يطمع فى أكثر من أن يكف سعد عنه ويتركه يعلم المسلمين الجدد ، ويقوم بمهمته التى نيطت به ، واذا ما رجا مصعب شيئا فهو اسلام هذا الفتى وحده ، وعندما تحقق ذلك لم يكلفه الأستاذ دعوة أو بلاغا ، ولكن التكليف جاءه من داخله هو ، فلباه سعد برجولةفائقة واستجاب له بشهامة عديمة النظير .

ثانيهما : وأما عن الخاصية الثانية للنشاط المستجيب للدافع الذاتى فان نفس الداعى وهى تعبر عن ايمانها ومعتقداتها فى صورة مواقف محددة ، بعضها يخبر عن يقينه ، وبعضها يدعو الآخرين الى دينه ورسالته لا تبالى بما تلقاه من مشقة وعناء أو بما يوقعها فىمواطن الشدة والألم .

وهذا يؤكد لنا أنه ليس من الضرورى لدى النفس وهى تعبر عن ذاتها فى أحيان كثيرة أن يتحقق لها من وراء تعبيرها مكسب أو مغنم نفعيين ، بل قد تستريح النفس لما تجده من عذاب أثناء تعبيرها عن مكنونها راحة لا يجدها الأريحيون فى كسب المحامد الشكلية ، ويشعر المفصحون عن الاعتقاد الصحيح وهم يئنون تحت العذاب أنهم فى أوج السعادة النفسية ، وبمقدار قوة التأثير الايمانى على النفس تكون السعادة ودرجتها .

والكبار من النفوس يرون النكال فى سبيل الاعلان عما يدينون به فى ذواتهم شيئا هينا اذا قيس بحجم السعادة التى تغمرهم ، وتحيط بهم من حولهم ، وآلام الأبدان ، وما تلقى من اضطهاد لا تتجاوز القشرة الجلدية الى سياج النفس وعزتها بماتؤمن وتدين ، والناس فى تلك الحالة درجات أدناها من تنهار عزيمته وهو يتناول ذاته بالبناء والتعبير عند أول جرح يصيبه حتى ولو كان بالكلمة ، أو النظرة الساخرة ، وسلم الترقى بعد ذلك منصوب لمن يصعد ، وكلما نحاول الصعود ، ونلقى من عوامل الجذب والاهباط أو الابتلاء ما نلقى سنجد

أمام أبصارنا على نفس السلم فريقا أرقى على رأسهم الأنبياء لأنه (يبتلى المؤمنون على قدر ايمانهم الأمثل) و (أكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) كما جاء فى حديث رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم •

ومن روائع الأمثلة التى عبرت عن ذاتها أصدق تعبير بلا خوف أو جبن ، بل بشجاعة مذهلة ما نجده لدى ياسر وسمية وعمار وبلال ابن رباح ، وهم من البيد الذين سبقوا الى الاسلام ، وقد أشـــعل دافعهم من قوة اليقين لديهم • فحركهم نحو الافصاح حركة جريئة أطاشت بلب أسيادهم ، وأفقدتهم صوابهم ، حتى زاحوا يصبون عليهم صنوف العذاب والتنكيل ، والمساكين البواسل لا يكترثون بالطواغيت المعذبين ، ولا ينصاعون لمطالبهم فى التخلى عن دينهم الذى صـــار حقيقة ذاتهم ، وكل كيانهم ، وفى الوقت الذى يمطرهم فيه الأسياد الجهال بوابل من الضربات يرشقهم العبيد الأحرار بصوب من نظرات الازدراء والمقت ، والسخرية وعدم المبالاة ، ويظهرون بنفسية حديدية لا تلين ، وبعزيمة فولازية لا تستكين وبهمة لا تقبل الضيم • وبعقيدة رسخته فى القلب لا يزعزعها عن مكانها ما يلقاه الجلدمن آلام وتمزيق، والحق يقال بأن هؤلاء العبيد قـــد منحوا الرق فهما أصـــبرهم على ما بهم ، وعلم الآخرين ممن يأتون بعـــدهم من أضرابهم •

لقـــد فرقوا بين رق الرقاب ، وعتق النفوس ، فجعلوا حالة الرق خاصة بطاعة الرقاب لحاجات المـــالكين الدنيوية واليومية ، وعلى هذا الاعتبار يقع البيع والشراء ، فاذا بيع العبـــد أو اشترى فقـــد بيعت خدماته واشتريت ، أما نفس العبيد وقلوبهم فقـــد أعطى لها هؤلاء مفهوما لا يختلف عنه لدى نفوس الأحرار لو درست المســـائل على حقيقتها ، وقدموا لنـــا صورة مشرقة من الفهم الواقعى ، والتصوير التنفيذى قـــد انفردوا به فى هـــذا الباب ، يدلنـــا هذا التطبيق على أن الرق أمر ظاهرى يقع على ظاهر العبد دون باطنه والطاعة المفروضة

من العبيد لمـالكيهم هى طاعة الجارحة ، أما النفس والقلب والرضا والانكار الباطنيان فهذه كلها أمور للعبـد الحرية كل الحرية فى أن يدبرها الى وجهة تختارها ارادته الذاتية ، تلك الارادة التى ليس لها من الأمر الظاهرى شـيئا ، ولها كل سلطان على قلبها وخواطرها ، ومعتقداتها ، وحقوق كل من السـيد والقلب مفصولة ، فله حقوقه المكفولة ، ولباطن العبر حقوقه المرعية ، وقـد نبه الى ذلك الرسـول صلى الله عليه وسلم .

وطبقا لهذا فان بلالا وأمثاله أسلموا أبدانهم لجلاديهم، يضربون، ويعـذبون ، ويفتكون ، يحرقون أو يكوون بالنـار ، يصـنعون بهم ما يصنعون ، فهذا البـدن لهم ، وللعبيـد المؤمنين باطنهم ، فليكن البدن فداء لتلك الحقيقة التى استقرت فى القلوب ، وسرت فى جميع شعاب النفس ودروبها حتى روت الكيان الذاتى كله ، وراح هـؤلاء يعبرون عن ذواتهم بكل طريقة علنية ممكنة تحت ضغط الدافع النفسى لديهم وبشحنة روحية هائلة ، مميزين بدقة بين حالة اليهودية الظاهرة والحرية الكامنة ، ومدركين أن لكل منهما لغـة تعبير تخصها ، فاذا كان للسيد البشرى أن يطاع فى حاجاته ، فللسيد الاله جل جلاله أن يعبد بالأحرى فى الخضوع لعظمته وربوبيته ، والوقت متسع للطاعتين معا .

هـذا فهم العبيد الذكى ، على عكس عقلية المـالكين التى فهمت العبودية ملكية لكيان الأرقاء كله .

وبعد فما أقسى التعبـير عن الذات المؤمنة وهى تواجه أعاصير الكفر ، أو جبابرة الصـد ، وأبالسة الباطل وأباطرة الجهل ، وعنفوان الظلمة ممن لا يقـدرون دنيا ولا انسانية ، وفى الوقت نفسه ما أحلى ما يعانيه المتدينون فى سبيل ما تحمله ذواتهم من قيمة وقـدر ، وشعور باليقين ، واحساس بالطمأنينة فى رحاب الايمان ، ولقـد كان أعذب عبارة انتقاها بلال ليرد بها على قسـوة سيده ، معبرا بها عما بداخله

هى « أحـد أحـد » وهى أدق لفظة معبرة عن الحقيقة المستقرة فى باطن العبـد المعذب وهى سهم ممشوق الى صدر السيد المعذب ٠

وفى النهاية أيضا لا أحـد يتصور وجوب الدعوة والافصاح عن هؤلاء فماالذى دفعهم الى ذلك سوى النـداء الداخلى فى أعماقهم ؟؟

نتائج تتعلق بالدافع النفسى :

انما تعمدت اظهار الدافع الذاتى فى الدعوة كباعث أول على القيام بهذه المهمة ، وبينا قوته ونزاهته وأثره فى تحريك النفوس وتحملها ، لأنه هو الذى ظهر واضحا مؤثرا فى بعث الهمم نحو دعوة الآخرين قبل أن يرد الأمر بالدعوة جهرا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تنزل الآيات التى تبين فضل الدعوة على النبى ، ويخبر بها الصحابة ، وقبل أن تنزل آية (آل عمران ١٠٤) التى تأمر بالدعوة الى الله سبحانه ، والتى جال فيها المفسرون وصالوا حول نوع الفرضية ٠

ومن ينكر هذا فليفسر لى موقف أبى بكر منذ أن أسلم وقد استثمر كل مقوماته الشخصية ، ومكانته فى قريش وعلاقاته الشخصية فى جذب عدد كبير ممن كانوا على قدر ومنزلة الى الاسلام ، والحال أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يلق اليه أمرا مباشرا بمزاولة هذه المهمة ، وما كان الوحى يطـالب بهذا بقـدر ما كان يطالب بمطلق الايمان ، ثم انه ليس من الحكمة التركيز بشـدة على هذا المطلب الدعوى فى البـداية نظرا لحداثة الدعوة وأهلها وظروف المحيطين بهم ، ولذا لم يضغط النبى صلوات الله وسلامه عليه على هذا المبدأ بين السابقين الى الاسلام ، وتركها لفعل الدافع الذى ذكرناه ، ولهمم الصـحابة وادراكهم الخاص حسب امكانية كل منهم ٠

وأيضا فان الدافع النفسى المتولد من بشاشة الايمان هو دافع جياش ، وملح ، ويستمد قوته من قوة العقيدة ووضوحها وبساطتها ،

ومن ملاءمته للفطرة النقية ، والانسجام معها ، فان تلك الفطرة بحكم جبلتها مستعدة لقبول الايمان ، ومتهيئة له ، وتقوم بدور رئيسى فى توجيه الانسان نحو الاستجابة لا القبول ، واذا ما تحقق ذلك نشطت الفطرة من جديد ، واستنفرت كل مواهبها وبواعثها فأطلقت دافعا جادا يعلن عما بها ويحاول دعوة الآخرين اليه ، وبذا تقوم الفطرة بعملين : الأول هو التهيئة لقبول الايمان ، والثانى هو تسخير المواهب وشحذ الدوافع لخدمة هذا المبدأ ، فلا غرر بعد ذلك ان قلنا ان حكم الدعوة جاء فى وقته مراعيا هذا الاستعداد الجبلى فى الانسان وأنه ارتكز على أن البشر العاديين مزودين بمواهب ترشحهم للقيام بهذه المهمة ، وبالتالى لا ينبغى التعلل بأنها مهمة مقصورة على الأنبياء الذين وهبوا ملكات أقرى ، بل اننا جميعا قادرون عليها بحكم طبائعنا مع الفارق بيننا وبين الرسل لما ميزوا به من خصوصيات ، وتميزوا به من فطر .

أين دوافعنا الآن ؟

قد يقول قائل اذا أبرزت الدافعية الفطرية فى الدعوة على هذا النحو ، وأنها هى التى قامت بالجهد الشاق فى بداية البعثة المحمدية ، ومن المعروف أن طبائع البشر واحدة ، وهم يشتركون فى الملكات الرئيسية ، وأن السابقين الى الاسلام برزت دافعيتهم تحت ضوء الهداية ، فلماذا لا نحس بدافعية شديدة تحفزنا على الدعوة كما حفزتهم ؟

وبعبارة أخرى : أليست فطرنا واحدة ؟ ألسنا جميعا مسلمين ؟ واذا كان الحال كذلك فلماذا فتر الدافع عندنا ونشط عندهم ؟

والسؤال يتركز حول نقطة ضعف أو فتور الدافع نحو الدعوة لدى الغالبية ، وما السبب فى ذلك مع وجود الاشتراك فى الجبلة والاسلامية .

ونبدأ بالاجابة على دعوى عناصر الاشتراك :

أما القول بأن طبائعنا واحدة فهى كذلك ، وأننا نشترك فى مواهب عامة فهــذا حق ، ولكن النظرة الدقيقــة تلحظ فروقا بين الأفراد فى القدرة : على التفكير ، وفى الميول والرغبات ، وفى المواهب والاستعدادات، وفى السلوك والأخلاق ، وحتى فى البنية الجســدية ، فعلى المستوى الفردى لسنا جميعا متساوين فى القدرات المشار اليها وان اشتركنا فى أصل كل منها ، فى أصل التفكير وأصل الميول ، وأصــل التمييز بين الخير والشر •

وكذلك يقال على المستوى الانسانى عامة ، فليست الانســانية واحدة فى جميع أطوارها ، بل جاءت عليها أزمان كانت ملكاتها مطمورة تحت ركام من التصورات الفاسدة ، والخيالات المضحكة ، ثم كشفت عن نفسها ، وأبانت عن معدنها فبدت أعجوبة من الأعاجيب ، والتاريخ الانسانى يدلنــا على أن الانسانية تتقلب فى أطوار عــدة بين التدنى والترقى بفعل عوامل متعــددة وظروف متنوعة •

وبناء على المشاهدات اليومية للفروق الفردية ، وعلى مشاهدة التاريخ الواقعى فليست البشرية أفرادا وجماعات نسخة واحدة فى كل طور وعصر

ونقول مع هذا ان نقــاء الفطر ، وتسامى الدوافع ونشــاطها لا تخضع لحركة الترقى والتــدنى ، بمعنى أنه كلما تقدم الانســان صفت فطرته ، وسمت دوافعه ، وكلما تدنى فى ســلم التحضر تكدرت الفطر وركدت الدوافع ، بل تخضع الفطر والدوافع الى المبادىء التى يقوم عليها التطور الانسانى ، فاذا ارتقت تلك المبادىء ، واتســمت بالمثالية الفاضلة ، واهتمت بتكوين الجوانب العليا فى الانسان جذبت اليها الفطر الملائمة ، واستدعت الدوافع الرقيقة المناسبة ، واذا انحدرت المبادىء لتلبى حاجات الانسانية المــادية دون اعتبار للأسس الروحية

البشرية خبت أنوار الفطر النقيـة ، وحلت الدوافع الدنيـا محل الدوافع العليـا .

واعتبار المبادىء هو الاعتبار الرئيسى فى الحكم على نوعية الفطر وشفافية الدوافع بصرف النظر عن التقدم المـادى : ومن ثم قـد يكشف الانسان عن فطره الراقيـة ، ودوافعه السامية فى ظل المبادىء العليا وان كان الطور الحضارى المـادى ما زال متخلفا ،

فنحن وان كنا نعيش فى عصر أكثر تقدما من الناحية الحضارية الا أن الفطر الصافية خبت تحت أكوام من المبادىء المـادية والأهواء الفردية ، وبرزت الدوافع النفعية والأنانية لتحل محل الدوافع النزيهة المجردة ، والرقراقة الشفافة ، ومن هنا جاء الاختلاف بيننـا وبين السابقين فى مسألة الفطرة والدافع .

وفى المسألة الاسلامية التى تشكل الشطر الثانى من السؤال ، نحن نختلف عنهم وان كنا قـد ولدنا مسلمين ، وقد ولدوا هم كفاراً ، فبالنسبة اليهم كان ميلاد الواحد منهم يوم اسـلامه ، وبقوة الدفع الروحى فى الاسلام ، وبقوة الاقناع العقلى التى أزالت أولا حجب التقليد ، وقصمت بين عقلية مغلوبة وأخرى متسلطة ، وبنهت العقـل الى فساد التصور الفكرى فى الوثنية ، بتلك القوة الروحية والفكرية استعاد الانسان فى ظل الاسلام جوهره النقى ، وعادت قواه الروحية والعقلية تعمل فى نسق بديع ، وانتظام دقيق ، وشفت الروح ، وصفت الفطرة ، ورق الدافع .

وأما بالنسبة الينا فاننا نولد مسلمين ، وهذا ظاهر ، ولكننا نولد فى بيئة لا تحتكم الى قواعد الاسلام الصحيح ، ولاتتخلق بأخلاقه ، تربتها مادية ، وهواءها سموم من الفكر القاتل ، فأقدامنا تخوض فى أوحال المـاديات ،وعقولنا تتغـذى على مبادىء لا تنبع أسـاسا من الدين ، وتحوطنـا من كل الجهات عادات وتقاليد ، وتتربص بنا قوى مدمرة بعيدة كل البعـد عن الاسلام ، بهذا تتغير فطرنا ، وتخمـد

دوافعنا المتحمسة نحو ديننا ، وبتلك النظرة ندرك أن الكفر أو الالحاد ليس هو العامل الوحيد المدمر للروح والفطرة ودوافع الخير ، بل يمكن أن تطمس الملكات الانسانية العليا بفعل عوامل أخرى تنتمى الى المادية بأواصر متينة وان لم تتخذ الكفر شعارا ، ولا سبيل الى تحديد ذواتنا الا بالعودة الصحيحة الى المبادىء الاسلامية العليا التى يحتكم اليها الأفراد وينضبط عليها المجتمع .

الفصل الثالث

الحكم والأقسام

قواعد ثلاثة قبل الحكم :

يسهل على من يتتبع الآيات القرأنية التى تتحدث عن الدعوة ، أو الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يتبين بسهولة من خلال سياقها أنها وردت أثناء حديث القرآن عنطبائع المنكرين وصفاتهم ، وجهودهم فى الصـد ، والكيد ، والنفور والبعـد ، وعدم الاستجابة للوحى ، وما يتتبع ذلك من التزيين واتباع الهوى ، والميل عن الحق ، والاقبال على شهوات الدنيا ، وايثار المتع والزينة ، وحب الدنيا على الآخرة مع التربص الكامل لأهل الحق والكيد لهم ، والعمل على اضعافهم والفرقة بينهم وحربهم بشتى الطرق •

نتبين ذلك منخلال سورة (آل عمران) حتى نصـل الى الآية (١٠٤) التى تتحدث عن الأمر بالدعوة حيث نجـد أن تلك السورة تناولت الحديث عن أهل الكتاب من اليهود والنصـارى ، وعرضـت وعرضت لعقائدهم وأخلاقهم ، وكفرهم ، وصدهم ، ومحاجة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما عرضت بعض مواقف الكفار وطلاب الدنياء ونفس الشىء يرد فى سورة التوبة حتى الآية (٧١) التى تتحدث عن الأمر بالمعروف •

ونظرا لأن طبائع الأقدام ومواقفهم سترد عنـد الحديث عن أصناف البشر فنكتفى هنا بالاشارة الى تلك القاعدة العامة التى سار عليها النهج القرآنى من ذكر حكم الدعوة بين ثنايا الحديث عن الانكار والمنكرين ، وحيلهم ومكرهم ، وتحريضهم أو قتالهم ، وتجمعهم على مقاومة الحق •

وتلك هى القاعدة الأولى •

أما القاعدة الثـانية فتترتب على الأولى ترتبا ضروريا ومنطقيا لأنه اذا كان الكفار وأهل الكتاب يقاومون بضراوة الحق وأصحابه ، ويعملون جاهدين لاضعاف المسلمين من داخلهم بالتفرق ، ومن خارجهم

بالقتال أو اثارة الشبه والدعاوى الكاذبة فان على المسلمين أن يدافعوا هؤلاء ، وأن يردوا كيدهم فى نحورهم ، وأن يكونوا على وعى بمايجرى حولهم ، ويقظين لما يحاك بالاسلام وأهله ، ولذا تأتى الآيات عقب ما سبق من بيان طبائع الكفار ترسم الخطة التى تكفل القوة للمسلمين ، والتفوق على أعدائهم سواء فى مجال القوة القائدية والسياسية والاجتماعية للأمة ، أو القوة العلمية والدعوية لها •

والقرآن الكريم فى مثل هذه المناسبات يستوفى عوامل التحذير والتربية والتكوين والاعداد للأمة على وجه أتم ما يكون وأوضحه ، ففى السورة التى معنا (آل عمران) يعقب كشف حال المنكرين ببيان الغرض الذى يسعون لتحقيقه وهو أن يتبع المسلمون ملة اليهود والنصارى ، أو يضلونهم أو يردوهم بعد ايمانهم كافرين [1] ، ويحذر القرآن من ذلك أشد التحذير •

ثم يرسم الوحى للمسلمين خطة القوة التى تتكون من مرحلتين يسيران معا بلا سبق لواحدة عن الأخرى ، أما الأولى فتتناول بناء الأمة العامة من حيث مصادر عقائدها وفكرها ، ويحيلها الله الى آياته المتلوة ، والى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغت أنظار الجميع الى ضرورة الاعتصام بالله وحده دون ما سواه ، وبهذا الاعتصام تتحقق الهداية الى الصراط المستقيم ، ويستمد منه المسلمون التأييد والنصر فى ساحة الصراع بين الحق والباطل ، وفى مجالات الحوائج والمطالب •

---

(١) ١٢٠ البقرة ، ٦٩ ، ١٠٠ — ١٠٠ آل عمران ، والآيات هى (يأيها اللذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ، يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) •

وأيضا فى المرحلة الأولى من بناء الأمة العامة يربى أخلاق الأمة وسلوكها على التقوى الحقة ، والخضوع الكامل لله سبحانه والدوام على ذلك حتى النهاية ، ثم يختم تلك المرحلة بالتنبيه على وحدة الأمه السياسية ، وحدة تقوم على الاعتصام بحبل الله، والتآخى فى سبيله، كما يحذرها من التفرق الذى يؤدى الى الضعف •

وطبقا لهذا التوجيه الربانى فتنحصر عناصر القوة للأمة العامة فى ثلاثة عناصر :

بناء العقيدة والفكر على الكتاب والسنة ، والاعتصام بالله فى كل حال وأمر دون ما سواه •

بناء السلوك على أســاس من التقوى الشاملة لعلاقة العبــد بربه وبالبشر ،

بناء النظام السياسى على وحدة تستمد دستورها من حبل الله القويم ، وتحتكم اليه فى كل ما يحزبها أو يعين لها ، وتشد من أزرها بالاخاء والتعاون والايثار •

وفى المرحلة الثانية يتنــاول القرآن الحديث عن أمة الدعــوة ، وضرورة قيامها باعتبارها الجهاز الواعى والمستنير ،والمعد والمدرب ، والفاهم والفقيه ، والناقد والبصير ، والعالم والفطن الذى يفتح عينه على ما يجرى من حوله داخل أراضى المسلمين ، فيراقب الأمة العامة فى عقائدها وأخلاقها وقوانينها مراقبة تامة ، ويقــدم ما يلزم عنــد اللزوم ، ويتابع بدقة فائقة أحوال المسلمين ، ويعالج ما يجب علاجه يعلم ويربى ، وينصح ويعظ ، ويرشد الرعية كما يقدم النصح والتقويم للراعى سواء بسواء ، فهى أمة الذكر ، وأهل الحل والعقد ، لا تداهن ولا ترائى ، ولا تبرر ، ولا تخشى فى الحق لومة لائم ، وهى أمة ثاقبة النظر لمــا يجر خارج حدود المسلمين تتلفت يمينا وشمالا وشرقا وغربا

لتقف على خطوط السير لأعدائها ، وهى باللغة الحديثة جهاز الاعلام فى الداخل والخارج •

والعلامة أبو السعود يرى أن تلك الأمة التى تقوم بالدعوة بين المسلمين وخارجهم تكمل نفوس الأمة العامة وتهذبها بالحث على الأوامر والتحذير من اقتراف النواهى ، وتناشد الجميع المحافظة على الحقوق والحدود كما تقوم بتكميل الغير وارشاده (٢) ، فيها يكمل نظام الأمة الاسلامية ويرتفع سنامها على حـد تعبير الامام الشوكانى (٣) •

وأخيرا فتأتى القاعدة الثالثة مترتبة على الثانية تماما ، ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، وفيها نقف على أن الحث على الدعـوة ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يأتى أى واحد منهما منفصلا عن الروح الاسلامية الأصيلة التى يجب أن يتحلى بهـا المؤمنون عامة ، ويمتاز بها الداعون بصفة خاصة ، نرى هذا سواء ورد الأمر بالدعوة مفردا ، أو جاء بصيغة الجمع يخاطب الأمة الدعوية ، وأبرز تلك الصفات التى تأتى فى السياق هى الايمان ، والعمل الصالح ، والأخلاق الفاضلة ، والاخلاص والصدق ، والصبر واللين والرحمة الى آخره ، وهـو ما ندرك معها طبيعة التكوين التى يكون عليها الداعية ، أو الأمة التى تقوم بالدعوة •

مغزى تلك القواعد :

ان القرآن الكريم وهو يعرض لأمر ما ، أو مشكلة معينة يحيطها من جميع جوانبها ، فيتحدث عن أسسها ودواعيها ، والظروف المحيطة بهـا ، وطبيعة التكوين النفسى عنـد كل طرف من أطراف المشكلة ، ثم الحل الصحيح وكيفية القيام به •

---

(١) أبو السعود : التفسير ج١ ٥٢٨ •

(٣) فتح القدير ج١ ٣٦٩ •

وفى المسـألة المتعلقة بحكم الدعوة يبين قبل أن يصـدر الحكم الدواعى التى اقتضته والجو المشحون بالباطل والحنق والغيظ فى مواجهة الحق ، واصرار المعـاندين على أن يسلكوا كل طريق لمقـاومة الاسلام والصد عن سبيله ، وذكر هذا الطرف والغاية الخسيسة التى ينشدها تعطى المسلمين والدعاة انطباعا واضحا عن أعدائهم ومايبتغون، كما تثير حفيظتهم بشكل جاد نحو الدفاع عن دينهم الحق ، ورسالتهم الخالدة ، أى أن عرض القرآن لحكم الدعوة بين هذا السياق يعطى فائدتين هامتين :

الأولى : التعريف بالجو الذى سيعمل فيه الدعاة ، وبيان الواقع المحيط بهم ، وفهم الواقع من أهم الضرورات التى يجب أن يقف عليها الداعية ، وأن يتحسسه فى كل عصر وبيئة .

الثانية : بعث الهمم فى نفوس القـادرين على الدعوة لخوض هـذا الواقع ، واقتحامه ، والتصـدى لمحاولاته بالاقناع والحجة ، والتركيز على أن الأمة الاسلامية لا ينبغى أن تخلو من أمة الدعوة فهى سـلاح القول بالافحام والرد على الغير ، أو محاولة جذبه الى رحاب الحقيقة ، وهى لغة التهذيب والتربية للأمة المسـلمة ذاتها ، وكما لا تخـلو الأمة من قوة تدافع فى ساحة الجهاد فلا تخلو من دعاة يبينون الحق ويوضحونه فى ميدان الاقتناع والتربية .

والقرآن وهو يشحذ الهمم الى ذلك لا يثير الغوغاء أو رعاء الأمة انما يستنفر أرباب العـلم والعقيدة والفهم والعمل والفطانة والخلق والوعى الشاسع ، والنظرة بعيدة المدى ، والعقلية الحصيفة ، والعزائم التى لا تلين .

والى هنا يكون القرآن قـد هيأ النفوس لسماع الحكم فى قضية الدعوة ، والقيام بتنفيذه على نحو مرضى ، وبشكل جيد ومثير .

الحكم ودرجتـه :

تعتبر الآية (١٠٤ من سورة آل عمران) ونصها : **(ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** هى المحور الرئيسى الذى دار حوله فهم المفسرين لحكم الدعـوة ودرجته •

وبادىء ذى بدء لا يختلف هؤلاء على أن الأمر فى الآية للوجوب، وبذلك يلبسون الدعوة ثوب الفرضية حكما ، ولكنهم يختلفون فى درجة الحكم هل هو فرض عين ، أو فرض كفاية ؟

لم يقطع أحد من المفسرين بأن الفرضـية عينية ، ولم يجـدوا ما يستندون اليه من النـاحية اللغوية أو المعنوية فى هذه الآية أو فى غيرها لو أرادوا تعميم الحكم ، لذا وجدنا البعض يصرف النظر تماما عن القول بالعينية ، مثلما فعل جلال السيوطى فى كتابه « الاكليل » ووجـدنا الفريق الأكبر يتعرض للحكمين ، ويرجح فرض الكفـاية على العين ، ويبنون الترجيح هذا على عدة أدلة :

الدليل الأول : ويقدم هذا الدليل على الجانب اللغوى ، وعلى الأخص كلمة (من) الواردة فى الآية اذ يفهمها المفسرون على أنهـا للتبعيض لا لبيان الجنس ، وهو أصح فى نظر القرطبى ، ويدل على أن الأمر فرض على الكفاية ، كما أنه رأى الزمخشرى والسيوطى بالطبع والشوكانى ، ويضيف الجصاص (ولولا أنه فرض على الكفاية لمـا سقط عن الآخرين بقيام بعضهم به) •

وعلى الرغم من الآية مع وجود كلمة (من) فيها يشم منها الخطاب العام الا أن أبا السعود جعله تأكيدا على اسناد الخطاب الى البعض ، لتحقيق معنى الفرضية على الكفاية ، وكل ما يفيـده معنى الخطاب العام هو (أنها واجبة على الكل لكن بحيث اذا أقامها البعض سقطت عن الباقين ، ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل

اقامتها) وهى فى ذلك كالجهاد ، خطابه عام وحكمه كفاية • وأبو السعود رجل علامة ، يفرق بين تبعة الحكم ومسئوليته ، وبين تنفيذه وتطبيقه ، ويجعل تبعة الدعوة عامة على الأمة حتى لا تفرط فى الاحساس بأدائها والقيام بهـا ، واختيار الدعاة المتازين لتلك المهمـة ، وهم آثمون اذا لم ينيبوا عنهم من يقوم بالدعوة ، فاذا أنابوا عنهم جماعة سقط الاثم وثبت الأجر ان شاء الله ، فالتبعة عامة والانابة خاصة ، والدعوة واجبة على العموم من حيث المسئولية الملقاة على جميع أفراد الأمة ، وواجبة على الكفاية من حيث الأداء والتنفيذ لمن له أهلية ودراية •

واذا كان الأمر كذلك فان الدعوة تجب عينا على كل قادر (عرف من نفسـه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال ، أو عرف ذلك منه) ولم يكن هناك من يقوم به سواه ، والى ذلك أشار أبو بكر بن العربى وابن تيمية •

الدليل الثانى : ويعتمد هذا الدليل على الاستئناس بقوله سبحانه **(الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهـوا عن المنكر)**(٤) ، وليس (كل الناس قـد مكنوا) كما يقول القرطبى أيضا (٥) •

الدليل الثالث : وهو دليل استنباطى ، يرى فيـه أصحابه أن الداعين ، والآمرين بالمعروف والنـاهين عن المنـكر يجب أن يكونوا علماء ، وليس كل الناس علماء ، والدعاة لا بد أن يوصفوا بالحكمة ،

---

(٤) الآية ٤١ الحج •

(٥) القرطبى : جامع احكام القرآن ج٤ ١٦٥ ، والجصـاص احكام القرآن ج٢ ٢٩ ، وابن العربى : احكام القرآن ج١ ٢٩٢ ، السـيوطى : الاكليل فى اسـتنباط التنزيل ٥٦ ، الشوكانى : فتح القدير ج١ ٣٦٩ وابن كثير : التفسير تلخيص الصابونى ج١ ٣٠٦ ، ابن تيمية : الحسبة ١٢ ، ٧٢ ومجموع الفتاوى ج١٥ ١٦٥ — ١٦٦ •

ووضع الطريقة المناسبة في موضعها ، ولا يصلح لمثل هذه (الا من علم المعروف والمنكر ، وعرف كيف يرتب الأمر فى اقامته ، وكيف يباشر ، فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم فى مذهبه ، وجهله فى مذهب آخر لصاحبه فنهاه من غير منكر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده انكاره الا تماديا ، أو على من الانكار عليه عبث (٦) •

هذا بالاضافة الى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالدعوة واختار لها صحابة بعينهم دون الكل مما يدل على كفايتها

وينبغى أن نفهم أن تفصيل المفسرين للحكم والاستدلال على وجهة نظر مبينة بعد ترجيحها ينبع من احساسهم بمسئوليتهم ازاء بيان الحقيقة ، واستخراج الأحكام من مصادرها حسب قواعد العلم وشرائط الاستنتاج ، ولم يقدموا مبررا لهذا أو لذاك يمكن أن يستخدمه الكسالى للتقاعس عن تلك المهمة •

عموم الدعوة قدر الاستطاعة :

هذا فهم آخر لا يبعد كثيرا عن تقرير ما سبق من كون الدعوة فرض كفاية بل يصرح أصحابه بأنها كذلك ، وأنصار هذا الرأى ممن يشتغلون بالدعوة قديما أو حديثا يرون أن كل انسان مطالب بأن يدعوا قدر استطاعته ، لا فرق فى ذلك بين العلماء والعامة •

أما العلماء فهم مكلفون بها كل فى مجال تخصصه ، وحسب استعداده ، فالفقيه ، والمفسر ، والمحدث واللغوى ، والمؤرخ ، والمتكلم ، والطبيعى ، والطبيب ، كل عليه أن يدعو فى دائرة اختصاصه ، وأن يقدم (من الدعوة بما يقدر عليه اذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره

---

(٦) الزمخشرى : الكشاف حا ٤٥٢ ، وابو السعود : ارشاد العقل السليم ح١ ٥٢٨ •

سقط عنه ، وما عجز لم يطالب به وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لم يجب على هذا وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة ، وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هـذا الى اعتقاد الواجب ، وهذا الى عمل ظاهر واجب ، وهـذا الى عمل باطن واجب ، فتنوع الدعوة يكون فى الوجوب تارة وفى الوقوع تارة أخرى (٧) •

وهـذا فهم آخر يختلف عن ذى قبل لأن التقسط يجعل الدعوة شائع بين عموم الأمة كل يقوم بنصيب فيهـا حسب اسـتعداده ، وحسب الحاجة الى ذلك ، بخلاف عموم التبعـة الذى ورد فى كلام العلامة أبى السعود فان العموم شـعور واحساس ومسئولية تبحث عمن يقوم بلوازمها ، وعمن تكلفه ذلك نيابة عنها ، أما التقسط فهـو احساس والتزام ، شعور وتنفيذ ، مسئولية وتطبيق فى حدود الطاقة، ثم التنفيذ فى ظل التقسيط ليس نيابة ولكنه جهد يقوه به كل فرد ، ونصيب يؤديه حسب امكاناته وتخصصه •

وحتى العامة هم الآخرون لهم دورهم فى تلك العمليـة ، فهم مكلفون بالأمر بالمعروف وبالدعوة عند وضوحهما فى أذهانهم ، وعند غياب العالم المتخصص فى ذلك ، ويزكى تلك التبعة لدى العامة ما نلمسه من أن كثيرا من الأوامر والنواهى ، وأفعـال الخير تعرفها الفطرة ، وتعلمها الطبائع الانسانية بحكم جبلتها ، أو بحسها الداخلى ، وقـد تكون من قبيل المتعارفات الحسنة التى استقر عليها العرف الاسلامى فمن من العامة لا يدرك خيرية الكرم ، وشرية نقيضه ، وأفضلية البر والتعاون والاحسان والايثار والتصدق ، وبذل العون الى الملهوفين ، والشفاعة عند أرباب الحاجات ، ونصرة المظلوم ، والعمـل على رد الحقوق الى آخر ما يرد فى هذا الباب وهو كثير ؟

---

(٧) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج١٥ ١٦٥ — ١٦٦ .

لــا كان الأمر كذلك كان للعــامة جهــود داخل مجال الدعوة واطارها العام .

لهذه الدواعى ذاتها أثر بعض الدعاة المحدثين كا الأستاذ ســيد قطب رحمه الله أن يبقى الأمر على اطلاقه دون تقييده بقيد الكفاية ، ولم يمس هذه النقطة فى تفسيره الا مسا رقيقا ، وأحب أن يظل الأمر سابحا فى درجة من اللا تقييــد كى يكون تأثيره على النفوس أقوى وأشد ، اذ النفس المؤمنة الصادقة عندما تسمع الأمر الالهى تسارع الى الاستجابة والطاعة بمجرد سماع الأمر ، ويصير شغلها هو المسارعة فى تنفيذ ما ألقى اليها دون أن تفكر قليــلا أو كثيرا فى درجة الأمر ، أو مراتب الأحكام ، ويعبر أحدهم عن هذا المعنى بقوله (ويعبر أحدهم عن هــذا المعنى بقوله (وعلى أى ظل من الظلال حملنا معنى الآية الكريمة هذه فان النداء هو نداء الله ، وأن ميدان الدعوة ميدان متسع للجميع) (٨) ليؤدى فيه جهدا مناسبا لكفاءته وقدرته .

طابع الأسلوب القرآنى فى الآية :

بان لنا أن فهوم العلماء قد تنوعت الى ثلاثة : فهم يحصرها فى الكفاية ، وفهم يقسط الدعوة وثالث يطلق الأمر ولا يقيــد بالكفاية أو العينية ، وطبيعة الأسلوب فى الآية القرآنية هى التى وسعت من دائرة الفهم ، ونوعت فيــه ، ويمكن أن يقال فى هــذا الصدد بأن القرآن يسلك فى التعبير عن المراد مسالك تتفق مع خاصية الحكم والغاية من تشريعه ، فاذا كانت الغاية التيسير ، ورفع الحرج جاء الأسلوب دالا على ذلك ، ويســمح بدرجات متعددة من الأراء مثل قوله تعــالى **(يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين)** (٩) فلما أراد

---

(٨) ظلال القرآن ح١ ٤٤٤ ، عدنان النحوى : المنهاج الربانى ٨١،٨٤

(٩) المــائدة من الآية ٦ .

الله التخفيف فى الرأس جاء الأسـلوب بالباء الزائدة مخالفا بذلك ما قبلها وما بعدها من الأعضاء التى عدى الفعل اليها بنفسه مباشرة ، فجاء الحكم بغسلها جميعها محددا ، أما الرأس فلظروفها الخاصة فى البدن جاء الأسلوب على النحو المشار اليه مما جعل الفقهاء يختلفون حولها من الكلية الى البعيضـة ، وهو اختلاف يسـمح به التعبير القرآنى ، ويرفع كثيرا من الجرح عند المسلمين ازاء هذا العضو •

وقـد تكون الغاية من الأسلوب ابراز الضرورة والأهمية مع الاحتياط واعتبار الاستطاعة ، كما فى الآية التى معنا ، فالضرورة تقتضى وجود الدعوة واستمرارها ، وتقتضى قيام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بصفة دائمة ، لذا جاء الأسلوب بشكل يسمح بفهم الحكم على الكفاية ، وفى الوقت ذاته يفسح المجال للاطلاق ، وللفهوم التى توسع من دائرة التكليف بالدعوة على نحو ما رأينا ولو جاء الأسلوب محددا على غرار قوله سبحانه **(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)**(١٠) ما كان هناك مجال للاختلاف ، ولحكموا بفرض الكفاية دون تجاوزه الى أى فهم آخر •

أقســام الدعوة :

من يقـرأ مادة (دعا) فى القرآن يجـد أنها أحيـانا تتجه الى الكفار والمنـافقين فى محاولة لجذب القـلوب المنكرة الى الربوبية ، أو الألوهية الواحدة ، أو الايمان بالله ، أو الى صراط الحق المستقيم أو الى العمل الصالح للنجاة فى الآخرة والفوز برضا الله ، الى آخر هذه الأهداف التى سعت الدعوة لتحقيقها بين المنكرين ، وانقاذهم من الظلمات الى النور ، وسوف نفصل هـذه الغايات فى موطنها من باب الأهداف ان شاء الله •

---

(١٠) التوبة من الآية ١٢٢.

والدعوة ان توجهت الى الكفار يمكن أن تسمى **دعوة النشر** ، أى الدعوة التى تأخذ طريقها بين المعارضين بالنصح والارشاد ، والحجة والاقناع ، والمجادلة والبرهان ، أو الترغيب والترهيب الى آخر ما هو معروف من وسائلها ومناهجها وأساليبها بالقصة أو المثل أو غيرهما .

والسياق نفسه هو الذى يحدد نوع الدعوة وهل هى دعوة نشر أولا ؟ وهو الذى يحدد طريقة الاقناع وأسلوبه المناسب له ، فان جاءت الدعوة بين سياق غاص بالحديث عن الكافرين أو أهل الكتاب ، أو المنافقين، وتوجهت الدعوة اليهم بالانتقال من حالة الانكار الى الايمان بواحدية الحق وألوهيته ، والانصياع لتوجيهات الوحى وتشريعه ، فمن المناسب أن نطلق على هذا اللون من الدعوة اسم دعوة النشر ، وهى رديفة لكلمة الاعلام الخارجى لدى الاعلاميين المعاصرين من ناحية التسمية فحسب بغض النظر عن الفروق الجوهرية بينهما من حيث الأصول والغايات التى يسعى كل منهما لتحقيقه ، خاصة عندما ينسلخ الاعلام من وظيفته الرئيسية فى المجتمعات الاسلامية ، تلك الوظيفة التى تعنى الخضوع الكامل لقواعد الاسلام وأهدافه .

ومن أمثلة دعوة النشر قوله سبحانه **(قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)** ، وقد جاءت تلك الآية عقب قوله جل جلاله **(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين ، وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون)** (١١).

فوسط الأكثرية غير المؤمنة الذين لا يعتبرون بآيات الله الكونية فى السماء أو فى الأرض ، والذين قد غفلت قلوبهم ، وتبلدت أذهانهم، ومات حسهم وشعورهم ، بين هذا الجو يأمر الله نبيه أن يعلن أنه

---

(١١) يوسف ١٠٣ — ١٠٨.

سيظل قائما بالدعوة على وعى وبصيرة هو ومن يسلك طريقه ونهجه ، لعل هؤلاء المعارضين يستجيبون لدعوة الحق ، ونداء الايمان •

ونفس الشىء نجده فى سورة الرعد ، اذ يتوجه الخطاب الالهى الى الكفار تارة ، والمشركين ، أو المستهزئين بالرسل أو أهل الكتاب ممن ينكرون بعض ما أنزل الله تارة أخرى ثم يأمر النبى صلى الله عليه وسلم قائلا **(قل انما أمرت أن اعبد الله ولا اشرك به اليه أدعو واليه مآب)** [١٢] وكذلك نقرأ نفس السياق ونفس الأمر باستمرارية الدعوة فى سورة الحج والقصص[١٣] ، وفى كل موقف ينوع الله سبحانه طرائق الدعوة وأسلوبها فى محاولة لاقناع هؤلاء وجذبهم الى ساحة الهداية ، ويلفت أنظار الدعاة الى طرح السآمة والملل ، وأن ينشروا على الناس دعوة الله ، ويبينوا منهاج التوحيد والعبادة مهما أنكر المنكرون أو تشدد المعارضون •

وأحيانا تتجه الدعوة الى تصحيح موقف بين المؤمنين ، والى تربيتهم تربية منهجية تقوم على شريعة الله وحكمه ، وفى هذه الحالة ترد كلمة الدعوة بين حوادث ايمانية صرفة ، ويكون الخطاب منصبا على المؤمنين وحدهم ، اما لبيان حكم من الأحكام ، أو لتجلية حكم الله فى موقف معين ، أو لتهذيب نفوس المؤمنين ازاء حادثة بعينها ، ويمكن أن تسمى فى هذه الحالة بدعوة الحفظ •

ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك • يقول سبحانه **(يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)** •

وواضح من الآية ان الخطاب موجه الى المؤمنين ، وأن المطلوب منهم هو الاستجابة والخضوع الكامل لله ولرسوله ، وأن دعوة النبى

---

(١٢) الرعد ٢٧ — ٣٦

(١٣) الحج ٦٧ ، القصص ٨٧

صلى الله عليه وسلم لهم حياة وبقاء على الخير ، وفى مثل هذه الحالة تكون الدعوة تربية لجوانب نفسية هامة ، ولكى نتبين صحة ذلك نرجع الى الحادثة التى كانت سببا فى نزول سورة الأنفال والتى ضمت الآيه السابقة بين توجيهاتها .

لقــد تطلعت بعض نفوس الصحابة الى ما خلفه الكفار فى غزوة بدر ، كل يريد نصيبا يحدده لنفسه وذلك قبل أن ينزل التشريع بتقسيم الغنائم ، فلما تطلعت النفوس الى ذلك ألقى الله على أسماعهم درسا مفيدا ومهذبا ،

ويبدأ الدرس بالحديث عن التقوى ، واصلاح ذات البين ، ورأب الصدع ، وربط الايمان بالذكر والوجل القلبى ، وترقى القلب مع آيات الوحى فى نزولها وتلاوتها ، ولقــد عمد القرآن الى تهيئة القلب تهيئة قوية ، ونزع ما علق به من الميل نحو العرض الدنيوى ، واحلال الرقائق الملطفه له من التقوى والوجــل ، والترقى بالزيادة فى الايمان وكثرة القربات والانفاق والبذل والوجود ، والغرض من تلك المقــدمة التى تناولت القلب تتجلى فى اعداد القلب واصــلاحه أولا قبل أن يأخــذ الدرس مجراه فى التأثير والبيان ، وهو أمر ضرورى لأن القلب اذا تهيأ وصفا اســتعد لقبول ما يلقى عليه ، ورق للأوامر الصادرة اليــه ، واستجاب لها استجابة مفعمة بالرضــا والتأثر والخضوع الكامل ، فلينتبه الدعاة الى تلك الخطة .

وبعــد أن أعد الوحى القلب ووجهه الوجهة الصحيحة أخذ مرة ثانيــة يبين له فضــل اللــه عــلى المؤمنــين فى عــونهم ونصرهم ويشرح الوحى تتفصيل ترتيبات النصر الالهى، وامداد المؤمنين بالملائكة فوجا بعد فوج ، وطائفة تردف أخرى تحارب جنبا الى جنب معهم ، وتثبت قلوبهم ، وفى الوقت ذاته يأمر الله ظواهر كونية أن تهب لنجدة المؤمنين ونصرتهم ، فينزل المطر ليروى الظمأ ، ويطهر البدن ، ويثبت الأقدام ، وأيضا فان الله تعالى يغشى المؤمنين بالنعاس ليصبحوا يوم

لقاء العــدو فى قوة ويقظة ، ويربط على قلوبهم ، ليحاربوا فى ثبــات وأمان ، ونلاحظ أن الخطاب كان موجها الى المؤمنين بأسلوب الجمع لأنهم جميعا هم المعنيون بالتربية والتهذيب ، مع أن أفعالا معينة قــد صدرت من النبى صلى الله عليه وسلم وحده مثل الاستغاثة والدعاء ، ومع ذلك جاء الخطاب كله بصيغة الجمع لنفس السبب سابق الذكر •

ثم فى مرحلة تالية لهذا مباشرة يقول : حتى مسألة الرمى ذاتها ، والتصــويب ، وما ترتب على ذلك من قتل لم تفعلوا فيها شــيئا على الحقيقة لا الظــاهر ، حقا انكم قمتم بالرمى والتصويب لكن وصول أسهم الى اصابة الهدف تم بتقدير الهى فأوصله الى من يريد الحق جل جلاله تصفيته ، ويعلل هذا بقوله **(ليقضى الله أمرا كان مفعولا)** وفعلا لقــد صوب القدر الالهى سهام المؤمنين التى أطلقوها ظاهرا الى صدور بعض الكافرين من الرؤساء الذين كانوا يقومون بدور الكفر والصــد ، كى يريح الجو منهم ، ويفسح الطريق أمام الفئات التى كان يرهبها سلطان هؤلاء •

وبعــد المرحلة الأولى فى تهيئة القلب ، والثانية التى كشف الله فيها عونه ، وأظهر لهم أنهم وحدهم ما كانوا قادرين على احداث هذا التأثير أصــدر اليهم الأمر بالاستجابة لله ولرسوله لأنه لا يدعوهم الا لمــا يحييهم ولا شك أن طلب الاستجابة بعد هذا الدرس الرقيق والشديد ما يكون ذا أثر بالغ فى نفوس المؤمنين خاصة اذا أردف هذا الطلب بنهيه عن السماع المجرد من الانصياع والخضوع والا كانوا كشر الدواب الذين يسمعون ولا يعقلون ولا يستجيبون ، أو كانوا كأهل الكتاب ممن قالوا **(سمعنا وهم لا يسمعون)** [١٤] وكلنــا يدرك بعــد هذا أن الدعوة وطريقتها فى هــذا السياق تتصــل بتهذيب المؤمنين ، وتوضيح الطريق لهم •

---

(١٤) انظر سورة الأنفال ٢١ — ٢٩.

وهكذا تكون الدعوة قسمين :

قسم يتصل باقناع المنكرين ، له منهاجه وأسلوبه ويمكن أن يسمى بدعوة النشر .

وآخر يتصـل بأمور تخص المؤمنين وفقههم ، وتربيتهم ، وله منهجه وأسلوبه ويمكن أن يسمى بدعوة الحفظ ، وتشمل دعوة الأفراد والجماعات والحكام وتربية الجميع .

وداخل كل قسـم تراعى الدعوة ظروف كل جمـاعة وأحوالهم وطبائع النفوس والعقـول الى آخر ما سـوف نبينه ان شاء اللـه فى المنهج .

علاقة الدعوة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

القرآن الكريم والسنة النبوية يتحدثان عن الدعوة ، وعن فضيله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهل هما شىء واحد ؟ أى متطابقان مفهوما ، أو بينهما عموم وخصوص ، أى واحد من الأمرين عام والآخر خاص ، واذا كان كذلك فأيهما عام وأيهما خاص ؟

وبعبـارة أخرى ، هـل يتفقان حكما ومفهوما ؟ وسنجيب على السؤال فى صورته الأخيرة لسهولته ووضوحه .

أما من ناحية الحكم فانهما يتفقان فى الحكم بالفرضية الكفائية كما ثبت من آراء المفسرين الذين سبقت الاشارة اليهم .

ومن ناحية الاتفاق فى المفهوم ، والتطابق فيـه ، أو الاختلاف وكون أحدهما عاما والآخر خاصا فهذا ما يحتاج الى وقفـة موجزة نتبين خلالها مدى العلاقة بينهما .

وبالنظر فيما أثر عن المفسرين خاصة الذين تعرضوا لتلك النقطة نجـد أنهم قـد ميزوا بين الدعوة والأمر بالمعروف ، وبنوا هـذه

التفرقة على فهمهم لكلمة الخير حيث جعلوها شاملة للتكاليف المتعلقة بالأفعال والتروك ، ولكل ما فيه صلاح دينى ودنيوى ، ومن ثم حكموا بأنه أعم من المعروف ، وبما أن الدعوة جاءت فى آية آل عمران السابقة مع الخير ، وجاء الأمر مع المعروف فهذا يعنى أن الدعوة عامة ، والأمر بالمعروف خاص ، والخاص مندرج فى العام ولكنه عطف عليه من باب مزيد العناية والاهتمام ، واليك نص عبارة كل من أبى السعود والزمخشرى •

يقول الأول (والدعاء الى الخير عبارة عن الدعاء الى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى ، فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه•• مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام بالاظهار فضلهما وعلوهما على سائر الخيرات ، كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام) (١٥) •

ويقول الثانى (الدعاء الى الخير عام فى التكاليف من الأفعال والتروك ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خاص ، فجىء بالعام ثم عطف عليه الخاص ايذانا بفضله كقوله « **والصلاة الوسطى** ») (١٦) التى عطفها الله سبحانه على قوله (**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**) ، والى هذه التفرقة يذهب الشوكانى كذلك (١٧) •

وربما يؤيد هذه الوجهة مانراه من التفوق العددى لكلمة الدعوة فى القرآن عما جاء فى الأمر بالمعروف حيث جاءت الدعوة بالمعنى المقصود هنا فى (٣٦ آية) بينما جاء الأمر بالمعروف فى ثلث هذا العدد

---

(١٥) ارشاد العقل السليم ح١ ٥٢٨ — ٥٢٩ جاء ذلك فى شرح قوله تعالى « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر » •

(١٦) الكشاف ح١ ٤٥٣ (١٧) فتح القدير ح١ ٣٦٩

أى فى (١٢ آية) فقط ، والتفوق العددى يعطى مؤشرا للسعة والسعة فى المفهوم عند فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن ناحية ثالثة فان الدعوة تكون بين الكافرين اقناعا وهداية ، وبين المؤمنين تثقيفا وتربية وتهذيبا ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عندما نحتكم الى الشرع فى تحديد المعروف والمنكر الشرعيين لايكون هذا الفعل الا بين مؤمنين بهذه الشريعة الحاكمة ، فالدعوة من تلك الزاوية الثالثة أوسع مجالا ، وأعم استخداما ، والأمر بالمعروف أخص منها ، وفى رأيى أن هذا هو الفهم المقبول والمتطابق مع مهمة الرسل ، اذ جاءوا دعاة قبل أن يكونوا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، وعلى هذا فبينهما عموم وخصوص مطلق .

رأى ابن تيمية فى العلاقة :

انما أفردت مفهوم ابن تيمية فى العلاقة مع اتفاقه الى حد كبير فى القول بما قال به أبوالسعود وغيره ، وذلك لانفراد شيخ الاسلام بمزيد تفصيل لم يعرج عليه من سبقه ، فهو يرى أن الألفاظ الشرعية التى تفيد معانى متشابهة قد تكون مطلقة أو مقيدة .

وتطلق اذا ذكرت مفردة ، أى جاءت كل لفظة من الألفاظ التى يمكن أن تتشابه وحدها دون ذكر الأخرى ، مثل كلمة الايمان ، فاذا جاءت مفردة عمت التصديق والعمل ، واذا ورد معها العمل قيدت بالتصديق فحسب ، ومثل كلمة المنكر اذا سيقت وحدها صارت مطلقة، تشمل الاثم والذنب والفحشاء وغيرها من هذا القبيل ، واذا جاء بعدها لفظ من جنسها قيدها بمعنى خاص مثل قوله تعالى **(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)** .

وكذلك لفظة الدعوة اذا نطق بها وحدها عمت المعروف ، والأخير اذا عبر به وحده شمل الدعوة ، والخير ، وأما فى حالة ذكر الدعوة

مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فانها تصير مقيــدة لا مطلقة ، ويكون معناها أضيق مما لو ذكرت وحدها ، ويكون الأمر بالمعروف هو الآخر فى تلك الحالة التى يجىء فيها مع الدعوة مقيدا لا عاما شاملا .

ويتضح من حديثه عن الاطلاق والتقييد أن العامل الحاسم فيهما هو أسلوب اللغة العربية فى العطف المحقق للمغايرة ، وهناك عامل آخر أشد حسما فى العموم والخصوص ، هو القصــد الشرعى من وراء اطلاق اللفظة ، فلا بد أن نراعى المعنى الشرعى عندما نحاول الوقوف على دلالات الألفاظ وتعميمها أو تخصيصها ، اذ أن هذا العامل الهام من أنفع الموازين فى معرفة دلالات الألفاظ (مطلقا وخصــوصا ... وبه تزول شبهات كثيرة ، كثر فيها نزاع الناس) ، ولقد مر طرف غير يسير من هذه المعايير عند الحديث على تعريف الدعوة .

وعلى الرغم من أن ابن تيمية يتحمس أحيانا الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويعتبرهما الحق الذى بعث الله به رسوله ، وأنهما من أعظم الواجبات ، وأفضل الطاعات لكنه على مايبدو فى هذا الموقف كان يتحدث عنهما بمعنى الدعوة بدليل استشهاده بآية آل عمران نفسها ، وهى تحمــل الدعوة مع الأمر بالمعروف ، ولو أراد الأمر بالمعــروف والنهى عن المنكر دون اعتبار الدعوة لاستدل بالآيات الخاصة بهما ، والتى لاترد فيهما كلمة الدعوة ،وأيضا فان ابن تيمية ركز على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكــون المجتمع فى عصره كان يؤرقه حبرا لمــا يحمل من بدع تحتاج الى الاحتساب القوى ، والضبط الشــديد من الأفراد والولايات طبقا لمــا عليه الأمر والنهى المذكوران .

وينتهى ابن تيمية تعد هــذا كله الى ما انتهى اليه أبو الســعود والزمخشرى فيقرر بوضوح تام أن (الدعوة الى الله تتضمن الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر) [١٨] وبه يحدث اتفاق الجميع ممن

---

(١٨) مجموع الفتاوى ج٧ ١٦٠ — ١٧٠، ج١١ ٥١٠ ، ج١٥ ١٦١، ٢٤٧

دكرنا على عمول الدعوة وخصوص الأمر ، الا أن ابن تيمية يميل الى القول بأن بينهما عموم وخصوص من وجه اجتماعهما فحسب ، على حين يرى غيره أن العموم والخصوص من كل وجه حسب فهمنا لأقوال أبو السعود والزمخشرى والشوكانى •

حدود الفرد والدولة فى القيام بالدعوة :

انتهينا الى أن الأمر بالدعوة يرد فى سياق الحديث عن المنكرين ، أو عن المؤمنين ، وأن أهل العلم قد اتجهوا فى الحكم نحو القول بالوجوب الكفائى ، ومنهم من توسع وترك الأمر على اطلاقه كى يؤثر فى النفوس ، ويدفعها دفعا الى الحركة والتفانى فى سبيل الرسالة الخالدة ، وفرغنا من تحديد العلاقة بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

وبقى أن نحدد المهام المنوطة بالأفراد القادرين ، وبالدولة المسلمة للعمل فى هذا المجال الحيوى والهام وتحديد المهام لا يعنى توزيع أجزاء المسئولية بين جماعة الدعوة والدولة ، أو بين أمة الدعوة والأمة العامة ، وانما يعنى أن تلك المهمة بكامل حيثياتها منوطة بالقادرين عليها من الأفراد ، كما أنها مسئولية كاملة على جميع ولايات الأمة ، واذا ما فرط طرف من الطرفين فلا يجوز أن يتذرع الطرف الآخر بهذا التفريط ، خاصة اذا كان التفريط من جانب الدولة أو الأمة العامة كما هو حاصل فى عصرنا الحاضر •

وبناء على هذا فان الأفراد مكلفون بتبليغ الدعوة للمسلمين وغيرهم بكافة وسائلها وأساليبها ومناهجها حسب استطاعة كل واحد من الدعاة سواء كلفوا من قبل الدولة أم لم يكلفوا ، لأن جهة الالزام فى هذا الحكم ليست صادرة من سلطة الولايات فى الأمة وانما هى صادرة من الحق جل جلاله ، والحكم بفرضية الدعوة لا يتوقف على موافقة الحاكم أو عدم موافقته ، وطبيعة الأداء وكيفية التبليغ لا دخل

فيها لسلطان أو أمير ، بل الدعاة من الأفراد يؤدون مهامهم الدعوية بحكم الأمر الصادر اليهم من المولى عز وجل ، وبشعور الخوف منه سبحانه لو كتموا ولم يبينوا كما فعل أهل الكتاب (١٨٧ آل عمران) وبالكيفية والمنهجية اللتين نبه اليهما الكتاب والسنة ، وفهما من التطبيق العملى للصحابة والتابعين ، وبالحكمة المناسبة للظروف والوقائع ، وهم مكلفون أن يوصلوا دعوتهم الى المحكومين والحاكمين على حد سواء .

وعلى الدعاة أن يبذلوا قصارى جهدهم فى ذلك ، وتزداد التبعة عليهم فى أيامنا هذه ، حيث يلزم الدعاة أن يناقشوا الطبقة المستنيرة التى وقفت ثقافتها حجابا بينها وبين فهم الاسلام على وجه صحيح فى أحيان كثيرة ، وعلى الدعاة أن يشرحوا دعوتهم بفهم ثاقب ، وعقل مستوعب ، وأن يطبقوه عمليا بصورة دقيقة حتى تأتى دعوتهم حية بالقول ومشخصة بالعمل فتكون أدعى الى القبول ، وأخفر على الاستجابة ، وأن يتوجهوا الى الرأى العام فيستميلوه لدعوتهم ، ويجذبوه الى ساحتها النظرية بالتثقيف والتنوير ، والعملية باقامة الشعائر وضبط السلوك والتقاليد ، وأن يديموا الالحاف على الحكومات كى يدرك رجالها عظمة الاسلام وعدالته وشمول نظرته ، وقدرته على معالجة الحياة فى شتى جوانبها .

ونحن ان فعلنا ذلك تمهد الجو لتغيير المؤسسات التعليمية والتشريعية والاقتصادية ، والاجتماعية حتى تكون على صورة تتفق والنظرة الاسلامية .

وأود أن أقول انه فى المجتمعات التى تطبق النظم الاسلامية ، وتأخذ بالاسلام عقيدة وشريعة . يكون نشاط الدعاة فيها محدودا بحدود القول باللسان والقلب ، وباليد فيمن يملك الداعية سلطانا أدبيا أو شرعيا عليه ، ويترك للدولة المسلمة أن تغير باليد ما يستحق

ذلك ، فهذا العمل من أهم اختصاصها • يقول الزمخشرى (وأما الانكار الذى بالقتال ، أو باقامة الحدود فالامام وخلفائه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها) (١٩) هذا ما يتعلق بالأفراد الدعاة •

وأما مايتعلق بالدولة التى تؤمن بالاسلام وتعترف به — ولو لم يكن القائمون عليها من الطراز الأمثل ، فانه يجب عليها أن تقوم بالدعوة على الوجه اللائق بامكاناتها الواسعة ، وسلطانها الممتد ، وقوتها الرادعة، وعليها أن تعى جيدا أن أول اختصاصات الدولة الاسلامية التى أسست من أجله هو القيام بعبء النبوة فى الدعوة ، وامتداد التبليغ واستمراره ، ثم ادارة دفة الأمور على المنهاج النبوى ، وطبقا للتشريع الاسلامى ، وتحقيق هذه المسئولية يتم بقيام الدولة بتنفيذ فرض الدعوة بين رعاياها قولا وعملا وتشريعا وأخلاقا ، وتبليغ ذلك الى الأمم الأخرى، وأن تقوم الدولة الاسلامية الحديثة باعداد الدعاة ، وتكوينهم تكوينا يتلاءم مع طبيعة العصر ، وتسخير أجهزة الاعلام لهذا الغرض ذاته ، وأن تكون أنشطتها المتنوعة خاضعة لقواعد الاسلام وروحه العامة •

وعلى الدولة من جهة التطبيق أن تضع من التشريعات والقوانين ما ينبع أصالة من نصوص الكتاب والسنة وفهوم العلماء المجتهدين ، وأن تقيم نظامها علــى العدل الالهى ، وتنفذه بين الرعية ، ومجمل ما ذكرناه هو ما تشير اليه الآية **(لقد أرسلنا رسلا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز)** (٢٠) فمنهاج الدولة المسلمة يقوم على بينات الحق جل جلاله التى ساقها فى كتابه الخالة ، تلك البينات التى تحمل ميزانا مضبوطا لكل الأمور ، يتحقق به القسط والعدل ، ولكن هذا المنهاج بكل مؤسساته لا بد له من قوة تحميه نشرا وتنفيذا ، والله

---

(١٩) الكشاف ح١ ص٤٥٣ (٢٠) الحديد ٢٥

اذ يمن على خلقه بذلك يعلم من ينصر دينه ، والحق الذى أرسل به رسوله ، ومن يقوم بمراعاة ذلك فى جميع المجالات ممن لا يخضع لذلك عنقا ، ولا يحنى لهـا رأسا ، ولا يعبأ بها دستورا للحياة ، وميزانا للحركة الاجتماعية ولذا يختم الحق الآية بالحديث عن قوته التى لا تدع رقاب العابثين ، وعن عزته التى تقهر بسلطانها غطرسة المتجبرين ، وتغلب بجبروتها صلف وعفو الباغين ، ولكم فعل لو اعتبر المعتبرون ؟

وحول هذا التكليف للدولة الاسلامية يقرر ابن تيمية أن جميع الولايات : ولاية الحرب الكبرى والصغرى مثل نيابة السلطنة والشرطة ، وولاية الحكم ، وولاية المال التى هى ولاية الدواوين وولاية الحسبة ، وفروع هذه الولايات ، الكل مقصوده (أن يكون الدين كله لله ، وأن يكون تكون كلمة الله هى العليا) بل ما شرعت هذه على اختلاف اختصاصها الا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقامة الحدود والزواجر والتعاذير [١] حسبما يرى شيخ الاسلام .

واذا لم تقم الدولة المسلمة بهذا فقد فقدت خيريتها فى ذاتها وخيريتها بين الأمم ، وتخت عن أفضل مهمة ينطق بها ، ولنعلم بعد ذلك أمرين :

أولهما : أنه ليس ينفع ماتقوله بعض الدول الحديثة التى لا تلتزم بالاسلام منهجا كاملا من أنها تعمل بولاياتها المتعددة على اقامة العدل وتطبيق الحدود ، ذلك لأن هذا النشاط لا يقوم على البينات المشار اليها فى آية الحديد السابقة ، والعدل البشرى مهما حاول واضعوه التحرى لن يقترب كثيرا عن عدل الحكيم الخبير ، ولن يكون الا وجهة نظر قاصرة ومحدودة ومن ثم تتغير من حين الى آخر ،

---

(١) الحسبة فى الاسلام ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٠ .

والقوانين التى تقام الحـــدود على ضوئها لا تجـد أدق الجرائم فيها مادة للتجريم الواضح ، ولا نصا للعقاب الرادع كما هو الحال فىجريمة الزنا مثلا ، وتربية الوجدان والضمير الحى لا يتم فى ظل العـدل الانسانى ، والتشريع البشرى كما يتم فى ضوء المنهاج الربانى ، وأكبر دليل على ذلك شـــيوع الجريمة بشتى أشكالها ، وبتعدد مستوياتها بصورة يندى لها الجبين ، وتحاول كثير من الدول التى لا تأخذ بالتشريع الالهى علاج الموقف ، ولكن الخرق يتسع كل يوم على الراقع حتى تهلل الثوب الاجتماعى بشكل فاضح ، وانتشر افســاد بين الدواوين بصورة مخزية ، ومل الفساد من كنا نتصور منهم الاصلاح •

وثانيهما : أنه ليس يكفى فى مجال الدعوة تلك الصـــورة الباهتة التى تظهر فى تعيين دعاة : أئمة ووعا ظ، والانفاق على مؤسساتهم ، وتركهم يصرخون فى فضـــاء ، أو ينفخون فى رماد ، ودعوتهم نـــداء بلا الزام ، وصوت بلا حركة اجتماعية ، ونظريات بلا تطبيق ، ومبادىء مع ايقـــاف التنفيذ ، والجو من حولهم جحيم يتسعر ، ونار تتقــد ، الغش والخداع ، والزور والبهتان ، والشباب الضائع كالذباب لا يقع الا على ما قــذر وانحط ، والفتيات العاريات من الفضيلة ، والتجار الأنانيون ، والموظفون المرتشون ، والحكام المستبدون ، يرى الدعاة كل هذا فأين تذهب كلماتهم ، وأى درب يمكن أن تسلكه ، والدروب قد امتلأت بالأشواك والسبل قــد أقيمت فيها المتاريس ، والنفوس قــد تلبدت ، وليت الأمر يقتصر على هـــذا بل يراد من الدعاة أن يقولوا هـــذا ويتركوا ذلك والا فالويل كل الويل لمن يعصى للطاغوت أمرا ، أو يخالف له رأيا والدعاة المســاكين هم الصـــورة المحقرة فى أعلام المستبدين ، ويقال بعـــد ذلك جهـــاز للدعوة ولدينا ولدينا ، وماهى الا صورة مبتورة عاجزة ، وأما الأحرار فيذوقون ما يذوقون جزاء جرأتهم وثمنا لحريتهم ، وفـــداء لكلمة الحق •

الفصل الرابع

فضل الدعوة ومنزلتها

دوران افضل مع الحكم :

ماانتهينا اليه فى الفصل السابق من بيان الحكم يسلمنا الى مكانة الدعوة بين الأوامر الربانية ، ومنزلتها فى التكاليف الشرعية ، وهـو ما نتناوله هنا بشىء من التفصيل ، كما نبين معه فضل الدعاة ، ودرجتهم عنـد الله .

وفى البداية ندرك سويا أن منزلة أى فعل شرعى مرتبطة بطبيعة الحكم ، ودائرة العمـل التى ينفذ من خلالها ، وضيق الفائدة التى يحققها أو اتساعها .

فان كانت طبيعـة الحكم هى الايجاب الذى يعـرف من خلال النصوص الدالة أو القياس أو الاجتهاد نال العمل الشرعى منزلة أعلى تتفق مع قوة الوجوب فيه ، وفى الحديث القدسى (**ماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه**) (١) ، وان خرج الحكم عن حدود الواجبات الى السنن أو المستحبات اكتسب الفعل درجة تتناسب مع هذا النوع من الأحكام ، وهكذا تتناسب الدرجة فى الفضل مع النوعية فى الحكم تناسـبا طرديا ، كلما قويت درجة الأحكام ارتقت المنزلة وعلا الفضل .

وأما من ناحية الدائرة التى يطبق من خلالهـا الحكم الشرعى فان كانت الدائرة فردية ، أو المجال الذى يعمل فيه محدود كما وكيفا وقفت درجته فى الفضل عنـد حدود تلك الدائرة أو هـذا المجال ، واذ اتسع المجال وعمت الفائدة ازدادت رقعة الفضل ، وعلت القيمة ، ومن ثم تتناسب المنزلة مع الحكم ضيقا وانتشارا .

---

(١) رواه البخارى فى باب الرقاق ٢٨.

ولما كانت الفرضية قد ثبتت للدعوة حكما ، وأن الدعاة يقومون بتحقيق ذلك نفعا لذواتهم ، وأداء لمهمة النصح والبلاغ لغيرهم ، ومحاولة لهداية الآخرين ، ونشرا لرسالة الاسلام بين البشر ، وأعلاء لكلمة الله فقد اتسعت الدائرة التى يعمل فيها الحكم ، وخرجت من حدود النفع الذاتى الى ساحة النفع العام للبشرية ، مؤمنها وكافرها . وأى نفع هذا ؟ أنه هداية النفوس الحيارى الى الحق المبين والنور الأعظم ، والحجة البالغة ، والمبادىء العليا التى تحقق السعادة فى الدنيا والآخرة ، من هذا أيضا دار الفضل مع سعة الحكم ونفعه وتساميه .

ولبيان هذا الفضل سنرتكز على بعض آيات من كتاب الله نستضىء بهديها ، ونستلهم حكمتها ونستنشق منها رائحة زكية تملأ مسام القلوب ، وعطرا شجيا تتفتح عليه أزاهير النفس الصاغية ، وترتوى منه أودية الأفئدة الطامحة الى الحق ، وتسمو به الى رحاب الولاية أرواح صافية ، كما تتحد به الهمم المتحفزة ، وتنطلق منه الارادة المؤمنة الواعية ، تلكم الآيات هى قوله تعالى (**ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ، ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوه كانه ولى حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم (٢) واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله**) .

---

(٢) فصلت ٣٠ — ٣٧

وقفــة مع جو النص :

لو رجعت الى القواعد الثلاثة الواردة فى صدر الفصل السابق، وتأملت السياق الذى وردت فيه الآيات السالفة عالية تحققت من صحة القواعد الثلاثة واضطرارها ، وذلك لأن سورة فصلت محل الاستشهاد هنا تناولت المنكرين لنبوة النبى صلى الله عليه وسلم تحت زعم أنه بشر ، وردت السورة باثبات الرسالة ، وتصحيح نسبة نزول القرآن بلسان عـــبن على النبى المصطفى ، وتحــدثت عن المنكرين للألوهية الحقــة ، وساقت لهم أدلة كونية دقيقة ، تتصــل بخلق الســموات والأرض ، ثم هددت هؤلاء المعارضين والمعرضين بعــذاب من جنس ما لاقى قوم عاد وثمود ، ونبــه القرآن على خطورة الانصياع للذين يزينون السوء ، والتأثر بآرائهم الضالة ، وأخبرهم جميعا بشــهادة أعضائهم عليهم يوم القيامة .

فى هــذا الجو ينتقل السياق ليتحدث عن المؤمنين وصفاتهم ، وما يجدونه من عناية الله ، كما يتحدث عن فضل الدعاة ، وما ينبغى أن يتزودوا به على طريق دعوتهم ، وهــو ما يدأب عليه السياق عند الحديث عن الدعوة . وأسجل هنا ملاحظة لا بأس من ذكرها وهى أن هــذا الانتقال من المنكرين وأحوالهم الى المؤمنين وصفاتهم والدعاة وأخلاقهم ثم العودة الى الحديث عن العارضين ، هــذا الانتقال ليس قطعا لتسلسل الآيات فى تنــاولها للكفار ، وليس خروجا عن السرد الموضوعى للقرآن ، وانما هو شىءوثيق الصلة بالموضوع ذاته ، خاصة عندما ندرك أن القرآن يخاطب النفس البشرية فى صورها المتعددة ، الخارجة عن الحق والفطرة بالانكار ، والمتمشية معهما بالايمان . فاذا ماتناول القرآن النفس البشرية فى فجورها وسترها للحق ، وطمسها لمعــالم الفطرة النقية فى أعمــاقها ، وادعاءاتها الكاذبة ، أو تذرعاتها الواهيــة فلا بأس أن يرد الكلام عن الصــورة المشرقة من الطبيعة البشرية المتمــثلة فى النفس المؤمنة ، لا بقصــد اغاظة الــكافرين ،

واستدعائهم للتحسر والنـــدم فحسب ، ولكن كموضوع للاستدلال ، وكبرهان اقناعي نفسي جيد يتصل بعموم النفس الانسانية .

وينبني هذا على اعتبار وحدة الطبيعة البشرية نفســا وفكرا ، فلو أن مايذهب اليه هؤلاء المنــكرون من الكفر بالوحدانية والنبـــوة أمر بديهي ، ومنطق صحيح لكان من الطبيعي أن تتلاقى عليه النفوس المتفقة في خصائصها الفكرية العامة ، أما وأن يوجد صنف لا يوافقكم أيها المعارضون على ما تدعونه من الكفر والجحود ، ويؤمن بصـــدق الوحي والنبوة ، ويعمل بمقتضى ذلك فهذا ما يدل على أن قضية الانكار ليست محل اتفاق لدى عمـــوم البشر ، ويدل على أن بعض النفوس تسلك مسالك غير تلك التي تنتهجها الطبائع الكافرة ، الأمر الذي من شأنه أن ينبـــه أذهان الكافرين الى شيء جديد ويطلعهم على لون آخر من التفكير ، وعلى طريقة من التعقل تختلف عن تلك التي يعقلون بها ، ومن شأن الموقف الايماني ومايمتاز به من قوة وتضحية ووضوح أن يثير حفيظة الآخرين أحيانا الى النظر في موقفهم من جديد ، وأن يدعو كثيرا من الضالين الى التفكير بشكل جدي في مواقفهم ، واعادة تقويمها، وأن يفتح آفاقهم الى التغاير بين أحوالهم وأحوال المؤمنين ، ومن أين للذين استجابوا أن يصلوا الى ما وصلوا اليه والحال أن طبائعنا واحدة، فلم كانوا كذلك ؟ ولم كنا على مانحن عليه ؟

مسوغات الأفضلية :

نعني بتلك المسوغات الصفات التي ترشح الدعاة لتـــلك المنزلة الراقية التي يتمتعون بها ، ونستقي هذه المرشحات من النص السابق نفسه ، ولانتعداه ففيه غنى ، ووفاء بالمقصود ، واذا تدبرناه ألفيناه يحوي صفات عامة ، شاملة للمؤمنين والدعاة معا ، كما يحوي صفات خاصة بالدعاة ، تتطلبها مهمتهم ، ويسوق كذلك ثمارا جليلة لمن تحقق بالصفات العامة والخاصة .

وتعتبر تلك الصفات بحالتيها مسوغات صحيحة لتلك الثمار التى هى مشتهى كل نفس مؤمنة ، وسنلقى بعض الضوء على الشمائل التى تناولتها الآيات ثم نتحدث عن الأفضلية للدعوة والدعاة بتفصيل مناسب .

١ ــ المسوغات العامة :

تركز تلك الصفات على الجانب العقدى والعملى والشــعورى معا ، وتشير الآيات الى ضرورة وجودها فى قلب المؤمن وعلى جوارحه، وفى عواطفه ومشاعره فضلا عن ضرورتها لدى الداعية ، وتبدأ بالحديث عن أصالة العقيدة ، وأهمية رسوخها ، فتذكر الناطقين بربوبية الله المعترفين به الاها خالقــا ومالكا مدبرا ، وعلى الرغم من أن الآية تنص على القول دون التصديق القلبى (ان الذين قالوا ربنا الله) الا أنه من المعروف أن القول بدون تصديق باطنى لا اعتبار له شرعا ، فالقول متضمن للتصديق الباطنى اصطلاحا لا العكس، والتصديق والاقرار بربوبية الله يلزم منهما الايمان برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهما ركنان متلازمان عند القرطبى وابن العربى وأبى السعود (٣) .

وبالتصديق والنطق بالربوبية الواحــدة ، والاقرار بالرســالة الخاتمــة يكون قــد استقر الأساس المتين ، وثبت الركن الذى تبنى عليه الشخصية المؤمنة ، وينطق منه نشاطه ومجهوداته ، وتتولد منه حرارة الحركة الدافعة للكيان الانسانى كله فى صورة متطابقة مع مقتضى الايمان ومطالب الشرع ، وهذا الأصل بقوته ورسوخه يجب أن يكون لدى الداعية بصورة أقوى ثباتا ، وأرق شعورا .

---

(٣) تفسير القرطبى ح١٥ ٣٥٧ ، وتفسير أبى السعود ح٥ : ٤٥ ، واحكام القرآن لابن العربى ح٤ ١٦٦١.

وتلى تلك المرحلة من الاعتقاد حالة الاستقامة (ثم استقاموا) ، وهى الصورة النامية بذرة الايمان ، والثمرة من وراء اليقين ، وهى الضوء الدال على ما فى الايمان من طاقة دافعة ومثيرة ، والاستقامة لفظة جامعة تشمل عدم الشرك ، والنقاء من الذنب ، والتوجه اليه سبحانه بالطاعة ، والاخلاص فى العمل ، والزهد فى الدنيا والخوف والرجاء الى آخر المطالب الشرعية القولية والفعلية ، والشعورية والسلوكية ، والى هذا التشييد بصفة الاستقامة وشمولها يذهب كثير من المفسرين كالزمخشرى الذى يرى أن لها (الشأن كله) والجصاص الذى يفسرها قائلا : (أخلصوا له الدين والعمل والدعوة) أو (اعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا وداوموا على ذلك) بالسلوك والشعور(٤) كما هو رأى القرطبى وفهم سيد قطب .

واذا تعلقت الاستقامة بالمؤمنين فتعلقها بالدعاة أولى كما لايخفى، ولشدة هذا التعلق وضرورته بالنسبة اليهم عاد القرآن ينبه الى أهمية التحقق بهذه الصفات من الاخلاص للهفى الاعتقاد والدعوة وفى العمل الصالح ، ومن اعلان الخضوع والاستسلام لله رب العالمين ، فلا بد أن يتصف الداعون الى الله بهذه الصفات كى يكونوا على أهلية تسمح لهم عن جدارة بمزاولة هذه المهمة السامية ، وهو ما تقرأه بوضوح فى الآية (٣٣) من النص السابق ، ويلاحظ أن القرآن لم يكتف بشمول اليقين والاستقامة للمؤمنين والدعاة معا مع مجيئهما فى سياق واحد ، وركز على الدعاة بما يفيد ضرورة اتصافهم بهذه الحقائق ، وطالبهم بها من جديد مع دخولهم فى الخطاب العام لمزيد اهتمام بهم ، ولمراعاة اعدادهم اعدادا صحيحا ، فالدعاة أرباب يقين ، واستقامة ، واخلاص ، وعمل صالح ، وخضوع وتسليم ، وهذه هى مرشحات الأفضلية من الناحية العقدية والشرعية .

---

(٤) الكشاف ح٣ ٤٥٣ وفتح القدير ح٤ ، والجصاص : احكام القرآن ح٣ ٣٨٥ وسيد قطب فى ظلال القرآن ح٥ ٣١٢١.

٢ — المسوغات الخاصة :

ونقصـــد بها تلك الصفات التى يجب أن تكون متوفرة فى الداعية بشكل خاص ، وهى وان كانت فضائل عامة ينبغى أن يتحلى بها جميع المؤمنين الا أنها فى الداعية أكبر وألزم ، وأشد وأقوى ، وأبرز هـذه الصفات ثلاثة : مقابلة الاساءة بالاحسان ، والمدافعة به فى كل موقف ، والصبر ، ومراقبة النفس فى خواطرها وجوانبها ، وهذه الثلاثة من ألزم اللوازم للدعاة ، فالاحسان يلين القلوب ويرقق نفوس المتشددين، ويحيل الأعداء الى أصدقاء من الدرجة الأولى ، ورد الاساءة بالاحسان والأذى المتـكرر من الأقوام ، ومواقف العنت والصلف ، والغلظة والنكران ، وتحمل المشاق فى سبيل التبليغ كلها أمور تستدعى صـفة الصبر ، ولكن الدعاة اذا انتصروا على أنفسهم حينا ازاء حالة معينة قـد ينهزمون فى أحوال معينة ، وقديوسوس لهم شيطانهم بسـوء مما يلزم معه مراقبة النفس دائما ، والانتباه الى ما يدور فى داخلها ، والاستعانة بالله سبحانه عليها ، والاستعاذة باللـه سبحانه عليها ، والاستعاذة من العـــدو اللدود الذى لا يترك الدعاة سالمين يؤدون مهامهم دون محاولاته الشريرة ، فلننظر كيف أوجـز القـرآن أهم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها الداعون الى الحق ، وكيف جاءت مرتبة ومتسلسلة ، طبقا لحاجة الداعى وما يصادفه ، وأدق ما توصف به أنها ذو سمة نفسية بارزة ، وأنها تشير الى أهمية الجانب النفسى واعتداله ، وتهذيبه عنـد الدعاة ، ومقدار تأثيره على الآخرين •

الأفضلية العامة ونصيب الدعاة منها :

رتب الله سبحانه على ما سبق من اليقين والاستقامة منحا ربانية، يزجيها الى الخلق عن طريق الملائكة ، أو من لدنه جل جلاله •

وأما ما جاء عن طريق الملائكة فان يرسلهم الى الخلق لتطمئن قلوبهم وللدعاء لهم ، ويأمرهم أن ينادوا فى أعماق قلوب المؤمنين بأن لاتخافوا عند الاقدام على المهام الواجبة دينا ، ولاتخافوا يوم الموت،

أو يوم اللقاء ، ولا تحزنوا على ما يفوتكم من منافع دنيوية ، وعلى ما يلحقكم من مضار ، وعلى ما تتركون من أولاد بعــد رحيلكم ، وعلى قبول أعمالكم ، وعلى ذنوبكم فان الله يغفرها لكم ، وأنعموا بالجنة التى كنتم توعدون ، وامداد الملائكة للمؤمنين فيما يعن لهم من أمور دنيوية ودينية يكون بطريق الالهام ، ويكون بالتنزل الدائم والمستمر، وهو المناسب لجود الحق ، ولحاجتنا الى استمراره لضعفنا وغفلاتنا، وتقلب قلوبنــــا ودوام التنزل هــو اختيــار أبى بكر بن العربى والشوكانى (٥) وجمهرة من المفسرين .

وأما المنح الالهية اللدنية فانها تظهر فى قوله ســبحانه **(نحن أوليــاؤكم فى الحياة الدنيــا وفى الآخرة)** أى المتولون لحفظكم ، ومعونتكم فى أمور الدنيــا والآخرة ، ومن كان الحق وليه فاز بكل مطلب ، ونجا من كل مخافة ، وتحقق له كل ما يشتهى ، ونالما يدعيه ويطلبه ، وهذا التفسير بناء على أن العبارة من قول اللــه لا من قول الملائكة ، وهو اختيار القرطبى وغيره .

وهذه الدرجات من التنزل والخطــاب الالهى بالولاية يحصــل عليها المؤمنون بايمانهم وأعمالهم ، كما يحصل عليها الدعاة بما اشتركوا فيه مع المؤمنين ، وبما امتازوا به من صفات ودقائق ، وجهاد فى سبيل الحق ، ومما لا شك فيه أنه اذا كان المؤمن الذى اقتصر نشاطه على ذاته ينال هذه الدرجات فمن باب أولى ينالها من كمل ذاته ، ويحاول بكل ما أوتى أن يكمل غيره ، ويدعوه الى الدين الحق ، ويتحمــل فى سبيل ذلك المصاعب ، ويتجشم كثيرا من المتاعب .

ومن ناحية أخرى فالداعية أحق بالتنزل ، وبتولى الله له ، ليكون ذلك عونا له على ما يلى ، والا فمن يعين الدعاة اليوم وهم يســيرون

---

(٥) أبو السعود : التفسير ح٥ ٤٥ ، والشوكانى فتح القدير ح٤ ٥١٥ ، وتفسير القرطبى ح١٥ ٣٥٨ — ٣٥٩ وأحكام القرآن لابن العربى ح٤ ١٦٦١ .

على أشواك ونيران ، ويذوقون أقسى أنواع المجالد ، وأعتى صنوف العذاب ، ويتعرضون للتنكيل والتشريد بلا ذنب ولا جريرة ، من يثبت الغصون الطرية وهي تنمو وارفة فى ظلال الاسـلام ثم تعصف بهـا الأيدى بلارحمة ولاشفقة ، ومن يرحم الشيوخ الذين شابت رؤوسهم فى الاسـلام وهم يسحبون الى غياهب السـجون فى غير ما توقير ولا انسانية ، من يكافىء الرقاب التى تسقط شـهيدة الحق فى ساحة الجهاد أمام جبار ظالم ، كل هذا وغيره يجعل الدعاة أحق من غيرهم بالهامات الملائكة ، وولاية المولى وتثبيته •

الأفضلية الخاصة بالدعوة والدعاة :

ماذا للدعاة على وجه خاص بعـد ما نالوا من درجات أهـل الاستقامة ؟ وفى صف من يكونون ؟ وعلى من يتفوقون ؟

لا نضع هذه الأسئلة بطريقة تحزبية ، أو عاطفية ، تستثار فيها النفس الى ما تحب ، وتتحنى نحو المرغوب ، أو تنجذب نحو موضوعها الذى تتناوله بشعور أو بلا شعور ولسنا نضعها تحت تأثير الموضوع ذاته ، وسـموه فى خصائصه وغاياته ، كلا اننا نضـعها تحت تأثير النصوص التى قادتنا الى تلك المجموعة من الاستفسارات ، وجدت بنا الى تناول الأفضلية بشكل تفصيلى ،اذ أن الانسـان — أحيانا — يقف أمام الشواهد بين مفرقين : أحدهما يعرج به نحو الاختصار ، والثانى تضغط فيه الحقيقة لاحداث تفصيل ما ، والناظر فيهما مقهور فى النهاية على أن يخضع للأقوى ، ويسلك الطريق الذى تغريه دلالاته، واشاراته ، وها أنذا أجد من العلامات ما يقسرنى على أن آخـذ فى طريق التفصيل بعض الشىء مبينا درجات الفضل للدعوة والدعاة ، ومنزلتهم ، وموضحا عناصر كل منزلة ، والاسـم الذى يتسمى به الدعاة ازاء كل درجة ، ونضع هذه فى نقاط محددة •

١ — الدعوة والداعون على أحسن قول ٠

قصر بعض المفسرين قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا ٠٠٠) على النبى صلى الله عليه وسلم ، او على المؤذنين ، واليه يذهب ابن سيرين ، والسدى ، والحسن ، وعائشة رضى الله عنها ، وجمهور المفسرين يرون مع هذا أن الآية (عامة فى كل من دعا الى الله) سبحانه وتعالى ، أو فى كل من جمع بين التوحيد والخضوع لدين الاسلام وعمل الخير ، والدعوة الى الله ، ويؤكدون على أن التعميم هو (مايقتضيه اللفظ ويدخل فيها من كان سببا لدخولها دخولا أوليا) (٦) وعلى ذلك فالعموم هو الحق عندهم ٠

واذا كان الأمر كذلك فاننا نلحظ من ألفاظ الآية هو أن حديث القرآن جاء شاملا لفضل الدعوة والدعاة معا ، حيث جمع الله فى الآية القول الذى هو الدعوة ، والقائلين الذين هم الدعاة ، فالقول المذكور فيها اشارة الى الدعوة ، و (من) التى هى بمعنى الذى اشارة الى الداعى ، و (الى الله) اشارة الى الغاية ، وحتى لو جاءت العبارة فى الآية تقول مثلا : ومن أحسن ممن دعا الى الله ، فتسقط القول المشير الى الدعوة فان ذكر الداعى يستلزم الدعوة ، اذ لا داعى بدون دعوة ، وذكر الدعوة المجردة لا يستلزم الداعى ، وذكرها فى المجال التنفيذى يستلزمه ، بمعنى أن الحديث عنها وعن فضلها لا يستلزم الدعاة ، والحديث عنها فى الواقع التطبيقى يستلزمهم بداهة ٠

والآية لم تسلك طريق الالزام — انما آثرت التصريح لما للدعوة والدعاة من أهمية وقيمة ، ولما كانت الدعوة قولا مبنيا على اعتقاد وعمل وسلوك أخلاقى فقد نص على كل ذلك ، كما تقرأ فى النص

---

(٦) تفسير القرطبى ج٥ ٣٦٠ ، والكشاف ج٣ ٤٥٣ ، وتفسير أبى السعود ج٥ ٤٦ ، وفتح القدير ج٤ ٥١٥

الذى معنا بتمامه ، وجاءت الأحسنية مع قول الدعاة ، على حين نبـه الحق سبحانه على الشرائط الأصولية والشرعية والسلوكية التى يجب توافرها فى الدعاة ، لأن الدعوة تكون بالقول ، وبالقدوة ، والقدوة لها أهمية كبرى فى جعل القول مقبولا ، وفى التـأثير بذاتها على الآخرين ولو بدون قول ، ومن هنا بنى القرآن الأحسنية على القول والاعتقاد والعمل الصالح والسلوك الفاضل ، أى على القول والقـدوة ، فكل (من جمع بين دعاء العباد الى ما شرعه الله ، وعمـل عملا صالحا ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليـه ، وكان من المسلمين دينـا لا من غيرهم فلا شىء أحسـن منه ، ولا أوضح من طريقته ولا أكثر ثوابا من عمله) (٧) •

ويرتفع شأو الدعوة ، وقيمة الدعاة معا حسب الظروف والعصور التى تؤدى فيها ، فكلما تلبدت نفوس المخاطبين وأظلمت وطغت عليها المـادية ، وكلما قويت المواجهة بين الدعاة وأقوامهم ، واحتدم الموقف آل أمر الدعوة والدعاة الى المنزلة العليا والدرجة القصوى ، فالفضل والأجر على قدر البذل والتضحية والمعاناة يقول المرحوم سيد قطب (ان النهوض بواجب الدعوة الى الله فى مواجهـة التواءات النفس البشرية ، وجهلها ، واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها ، وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها وعلى مركزها الذى قـد تهدده الدعوة الى اله واحد — ان النهوض فى مثل هذه — الظروف أمر شاق ولكنه شأن عظيم) ويقول (ان كلمة الدعوة حينئذ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب الى السماء ، ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة ، ومع الاستسلام لله الذل تتوارى معه الذات ، فتصبح الدعوة خالصة لله ، ليس للداعية فيها شـأن الا التبليغ) وبذا صعدت الدعوة فوق مصاف التكاليف ، وقفز الدعاة الى الصف الأول من صفوف العاملين •

---

(٧) راجع القرطبى فى التفسير وغيره من التفاسير السابقة •

٢ — والدعاة خير الناس :

وانما ينالون تلك الدرجة من الخيرية المتفوقة لكونهم يدلون البشر على الله ، ويعرفونهم بجوانب الخير النظرية والعملية ، ويتواصون عليها ، وهم يجمعون بين معرفة الخير وعمله والدعوة اليه ، والحث على تطبيقه ، ومحاولة اقتلاع الشر من النفوس والمجتمع ، وبهذا استحقوا الخيرية ، سئل النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر « من خير الناس ؟ فقال (آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم) ، وفى لفظ الامام أحمد (خير النــاس أقراهم ، وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم) وأخرج ابن جريج عن قتادة أن عمر بن الخطاب لــا قرأ هذه الآية (كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس) قال (يأيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها) وعلق عليها أبو هريرة قائلا (كنتم خير اناس للنـــاس تأتون بهم فى الأقياد والســـلاسل حتى تدخلوهم الجنـــة) (٨) .

٣ — وهم خلفـــاء :

لا نقول خلفاء امارة ، ولكن خلفاء دعوة ، ولا خلفاء سياسة ، وانما خلفاء تربية ، ولا خلفاء دولة وانما هـــداة أمة ، ولا رؤســـاء يحكمون ، وانما علماء يقضون ويفقهون ، وعلى هذا فالخلافة نوعان : خلافة سياسة ، وخلافة دعوية ، وهما ضروريان لقيام المجتمع الاسلامى شريطة أن يعملا سويا فى خط واحد ، ونهج واحد ، وأصول واحدة ، ويسعيان لتحقيق غايات واحدة ، والا فشتان اليوم بين حكام يحكمون نيابة عن ذواتهم واستجابة لنزواتهم ، وتعبيرا عن دوافعهم ، لا عقد لسلطانهم من شرعية دينية ، و ميثاق لتنصيبهم من اجماع أمة ، أورغبة شعبية ، اللهم الا سلطان المدفع فى الأرض وأزيز الطـــائرات ترمى

---

(٨) البخارى ج٦ ٣٧ — ٣٨ .

بالجحيم من السماء ، والكل يصب على الرؤوس حتى تخضع راغمة ، وتنقاد مكرهة ، والحرية الحقيقية سجينة ، والشورى شعار لا شعور.

ويحتكمون الى القانون الوضيع . لا الى عدالة الحق جل جلاله وميزانه ، ويتخيرون فقاقيع البشر بطانة ، وذيولهم حاشية وامعاتهم مستشارين ، ألا ما أتعس البشرية وهى تترنح فى دياجير الظــلم البشرى ، وأضاليل العقول الخادعة ، وتتنكب طريق الحق ، وتدير ظهرها الى الخير ، وتحاول أن تطىء النور الباهر بيدها .

شتان بين خلافة على هذا النحو، وأخرى تسعى لتحقيق حكم الله ، وتدعو الى عمارة الأرض بالعلم والعــدل والميزان والقسطاس المستقيم ، وتنادى على البشرية أن تسلك ســبيل الله وســبيل نبيه صلى الله عليه وســلم ، وتخضع لتشريعه سبحانه ونهجه ، وتأتسى بسيرة نبيه ، وما أسعدها من بشرية تدين دين الحق ، وتستبدل الذى هو أدنى ، ولا ننسى أن سندنا فى تسمية الدعاة بالخلفاء ما جاء على لسان رسول الله صلى الله علي وسلم فى قوله (من أمر بمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه).

٤ — وهم مجاهدون وشــهداء :

مما لا شك فيه أن جهاد النفس والمجتمع أشد من جهاد العدو ، بل هو الباب الصحيح قبل الدخول فى ســاحة الجهاد مع الأعداء ، واذا لم ننتصر على أنفسنا ، وعلى ســلوكنا الفردى والجماعى فلن ننتصر على عدونا ، ولقد نصح عمر بن الخطاب أحد قواده والعاملين معه فى ساحة القتال أن ينتصروا على أنفسهم أولا بترك المعصــية ، والاتصاف بالطاعة والصدق فانه بهذا ننتصر على أعدائنا ، وبمعصيتنا ينتصر عدونا علينا ، وكانت هذه الوصية التى بعث بها عمر هى الرد على القائد بطلب الامداد لجيشــه . والدعاة فى الســاحة الداخلية يجاهدون الأفراد والجماعات والحكام على السواء .

ولا غـرو فالداعون وهم يحاولون اقتلاع الشر محاربون ، وهم يجتثون منابت السـوء مدافعون ، وهم يفتشـون عن دواعى الهوى منقبون ، وهم يتتبعون أرباب الجريمة والكبائر سائحون ، وهم يبذلون القول فى ساحات النصح مرابطون ، وما أشد هذا الجهاد فى وقتنـا الحـاضر .

انه جهاد للعامة الذين انفرط عقـد أخلاقهم ، وتبرأوا من البقية الباقية من المثل العليا ، وانطمست فطرهم النقية التى كانوا يتمتعون بها ، وتكبر الحقير ، وترأس الخفير ، وتعالى الدنىء ، وتطاول البذىء وتطاحت أنفسهم ، وتصارعت دوافعهم الحقيرة ، وغيرت أوائل التمدن نفوسهم ، وقست قلوبهم . وتطلع الفقير الى الغنى ، وازداد الغنى شراسـة ، استدرجوا الى الصراع فدرجوا ، واستميلوا عن الدين فمالوا ، وبهرتهم الشعارات فانقادوا ، وغرتهم الوعود الكاذبة فسلكوا ، وما أشق أن تعالج جماعة من هذا النوع الا بصبر ، ومثابرة ، والحاح وجهاد مستميت .

وهو جهاد للمثقفين المغرورين الذين وقعوا صرعى لأفكار جافة ، وخالية من الروح والرقة ، أفكار مادية لا تتحدث الا عن الكم والرقم ، والحس والمحسوس ، ولاتتناول الا قوانين المادة وعلاقاتها وكيفياتها ، ولقد سحبت المثقف من حيث يدرى أو لا يدرى الى النزعة الطبيعية ، وجففت فيه رحيق الروحية والمثـالية ، وأبعدته بمسافة شاسعة عن ينابيع الربوبية ، ووقع فريسـة لتيارات ثقافية تهب عليه من خارج محيط المنطقة التى يحيا عليها ، وتجد لها أنصارا ومتحمسين ، وللأسف قـد ينشطون أكثر من دعاتنا ، وقـد تتاح لهم الفرص بصورة تفوق الفرص الممنوحة للصادقين من الدعاة ، وعلى الفريق المخلص المتحمس أن يصارع فى هذا المضمار كذلك .

والدعاة يجاهدون فى مجال السلطة والحكم ، ويجابهون قـوة

تملك وسائل الدمار ، وعتاد القمع ، وهى قوة تحكم بالهوى والفردية ، وتنحاز عن المبادىء الصحيحة الى الشعارات المزوقة ، وفى أغلب الأحيان هم سذج غير ناضجين ، يحيون فى أطوار المراهقة الفكرية والسياسية ، وغير متدينين ، يجهلون أحكام دينهم ، وطبيعته ، وشموله واستيعابه ، ويخافون عدالته أن تحد من سلطانهم ، أو توقف من جنوحهم •

وفى هذا الجو كله يدعو الدعاة اليوم بين المسلمين فما بالنا بالجو من حولهم انه أشد وأفظع ، وأنكى وألذع •

لهذا كله ، وبين هذه الأجواء كان لزاما على الدعاة أن يقفوا من أحداث عصرهم تلك موقف الحذر والتبين ، والتفتيش عن كل أمر ، وأن ينافحوا عن الحق مهما كانت سلطة خصومه ، والا يشتغلوا بتبرير المواقف ، وانتحال العلل الواهية دفاعا عن الحاكم ، رمرضاة له ، والا اشتروا رضاه بغضب الله ، وان هم فعلوا ذلك فقد خرجوا عن السنة ، روى النسائى عن كعب بن عجرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (اذا سيكون بعدى أمراء من صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى ، وأنا منه ، وهو وارد على الحوض) (٩) •

وتلك حالة أقرب ما يكون الى الموقف السلبى من الدعاة ، وهو ما لا يرضاه الاسلام ، ولذا يطالبهم بحالة ايجابية أخرى اذ يأمرهم النبى صلوات الله عليه فيقول (ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة، ان الدين النصيحة) • فقالوا لمن يا رسول الله ؟ قال (لله وكتابه

---

(٩) النسائى السنن ج٧ : ١٦٠

ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم ؛ وأئمة المسلمين وعامتهم) (١٠) وهنا يدخل الدعاة فى طــور ايجابى مع الأئمة والعــامة بالنصح والوعظ والارشاد.

ثم يصعد الاسلام الموقف الايجابى الى حــد الجهاد ، أى ينقله من طور النصح المجرد الى الجهاد بالالحاح والاصرار والمقاومة الجادة بكل وسيلة ممكنة طبقا للظروف والواقع ، يروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه قال (أفضل الجاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، أو أمير جائر) (١١) وفى رواية النسائى (ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم وقد وضع رجله فى الغزو أى الجهاد أفضــل : فقال : كلمة حق عند سلطان جائر) (١٢) ويقول الامام على (أفضــل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن شنأ الفاسقين ، وغضب لله غضب الله له) .

وان بذل الدعاة النصح ، وجاهدوا الأمير بالكلمة والحجة فركب الحاكم رأسه ، وأخذته العزة بالاثم واستعلى وأغلق عقله وقلبه عن سماع النصيحة ، ثم أشار الى رقبة الداعية ، وجاء جلادوه لينفذوا حكما ظالمــا فليعلم الداعية أنه فى مصاف أعظم الشهداء فعن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (سيد الشــهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله) (١٣) فاللهم اهــد ، واللهم سلم .

وبنــاء على كل هذا فالدعاة مجاهدون على الساحة الاسلامية ،

---

(١٠) أبو داود : السنن ح٤ ٢٨٦
(١١) نفسه ح٤ ١٢٤ .
(١٢) السنن ح٧ : ١٦١ .
(١٣) سنن أبى الدرداء ح٤ ٢٠١.

وقــد أمروا أن يجاهدوا الأعداء بالسيف والكلمة ، روى أنس عن النبى صلى الله عليه وســلم قال (جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم) ويقول النبى (ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه) ، فهم مجاهدون فى الساحتين على حد سواء •

٥ ـ الدعاء متصدقون :

الصدقة اما صــدقة مادية تعطى للمحتاجين ، ويظهر أثرها على الانسان فى ملبسه أو مطعمه ، واما صدقة معنوية كالدعاء للأخ بظهر الغيب ، أو اسداء النصح له ، أو بذل التعــليم والارشاد له ، وأثر هذه الصدقة لايتعلق بالمحسوس ، انما يتعلق بالقلب أوالروح والنفس، ولذا فالدعاة يبذلون الزاد لطلابه والغــذاء للجياع ، لا نعنى جياع البطون ، ولكن جياع القلب والنفس الى العلم والهدى ، والتهذيب والبر وتقــديم الدين بكتابه وسنته زادا للبشرية الفقيرة اليه •

والتصدق على النفس والقلب ، والعقل بما ذكر أفضــل من التصدق على البدن فى قوته ، لأن صدقة الأبدان تربى جسما أو تسد جوعا ، أو تكسو عريانا ، وصدقة العلم على النفس تربى قلبــا وعقلا وروحا وضميرا وشعورا وعاطفة ووجدانا ، والصدقة المــادية تبــلغ الانسان للعيش فى الدنيا ، وصدقة الهداية تعد كيان الانسان الروحى ليسعد فى الدنيا والآخرة ، وفى النهاية هل الانســان بما هو انســان الا نفسه وروحه وعقله ، وضميره ؟ وهل الســعادة الحقيقية الا تلك التى تمتد فى الأولى والآخرة ؟ ، واذا كان الأمر كذلك فان ابن تيمية على الرغم من أنه يجعل الانسان محتاجا الى العلم فى القلب كاحتياجه الى الطعام للجسم ، وأن الكائن البشرى بالغــذاء العلمى والروحى كما يحس بالغذاء البدنى من الطعام والشراب الا أنه مع ذلك لا يسوى بين الغذاءين ، بل يرفع من قيمة الغذاء العلمى والقلبى عن نظيره الحسى المتعلق بالبدن (١٤) •

---

(١٤) مجموع الفتاوى ج٤ ٤١ •

وتلك الأفضلية ليســت مبنية على اجتهادنا نحن البشر فحسب بل قائمة على تفضيل النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الجانب ، ليرفع من قيمة العلم فى حــد ذاته وليبين أثره على الانســان ، وليستحث العلماء المهديين على البذل والتصدق لغيرهم ، ونجد هذا فى قوله صلى الله عليه وسلم (أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علما ، ثم يعلم أخاه المســلم) (١٥) •

وحول هذا الحديث وردت الأخبار من الصحابة والتابعين تنبــه الى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول معاذ بن جبــل (عليكم بالعلم فان طلبه عبادة ، وتعلمه حسنة ، وبذله لأهلة قربة ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، والبحث عنه جهاد ، ومذاكرته تسبيح) ويقول أبو الدرداء (ما تصدق عبــد بصدقة أفضل من صدقة يعظ بها اخوانا له مؤمنين فيتفرقون وقــد نفعهم الله بهــا) أما أبو الحسن البصرى فيقول : (ان من أعظم النفقة نفقــة العلم) وفى أثر آخــر (نعمت الهداية ونعمت العطية ، الكلمة من الخير يسمعها الرجل فيهديها الى أخ له مسلم) (١٦) •

ومن الملاحظ أن حالة التصدق العلمية لا تكون الا من مســلم لمسلم ، وكما أن الصدقة المــادية لا تكون بصورة مفضلة الا للمسلمين فكذلك صدقة العلم ، وللتنبيه على هــذه الملحوظة وردت كلمة الأخ المسلم فى الحديث والأخبار السابقة •

ولهذه الاعتبارات المتعلقة بالهداية والتعليم ، والتهذيب النفسى والأخلاقى ، وبذل النصح والتوجيه صعد الدعاة الى الدرجة المثلى ، وصاروا من أجود المنفقين والمتصدقين •

---

(١٥) رواه ابن ماجه فى سننه •

(١٦) مجموع الفتاوى ج٤ ٤١ — ٤٢ •

٦ ـ استمرار العمل والأجر للدعاة :

من القواعد الاسلامية العامة أن الفعل الانســـانى مقصور على صاحبه ، وأن فوائد الأعمال تعود على العامل وحده لاتتعداه الى غيره، وينطبق هذا على أعظم الفرائض الدينية كالصلاة والصيام والحج ، وعلى غيرها من القربات كالذكر والتسبيح والتـــلاوة ، وأيضـــا فان الأعمال ونتائجها منوطة بحياة الانسان ووجوده ، تسجل له أو عليه طول بقائه ، وحال استمراره فى العمـــل وقيامه به ، فاذا توقف عن العمل لفتور فى همتـــه ، أو لانتهاء وجوده توقفت عملية التســـجيل بالثواب أو بالعقاب ، بالأجر أو بالوزر ، والى تلك القاعدة تشير الآية الكريمة **لهـــا ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت)** (١٧) •

ولكننا ندرك مع تلك القاعدة حقيقة أخرى ، وهى أن الأعمال التى يقوم بها الانسان اما أنها تحمل طابعا ذاتيا صرفا فهذه هى التى تخضع للقاعدة العامة السابقة ، وتقتصر فوائدها على صاحبها وترتبط نتائجها بحياته ووجوده ، واما أنها تحمل طابعا ذاتيا وآخر اجتماعيا ، أى تصدر منفرد أو بعض الأفراد لكن يتعدى نفعها الشخص أوالأشخاص الذين صـــدرت منهم ، فهـــذه الأعمال التى تتســـم بالطابع الذاتى والاجتماعى تعتبر مستثناة من قاعدة القصر المشـــار اليها ، وينـــال صاحبها من الحســـنات والسيئات طوال قيـــامه بالعمـــل ، أو قيام الآخرين به ، وذلك حال وجوده ، أو بعـــد انقطاعه عن الحيـــاة ، طالمـــا أن مجموعة من البشرية قـــد تأثرت بهذا الفعل وقامت به ، ونفذته على الوجه الذى سنه صاحبه •

والقاعدة العامة التى تحصر الأفعال فى حدود الذوات والآجال ، والحقيقة المصاحبة لها التى تعـــدى بعض الأعمـــال الى الآخرين ،

---

(١٧) البقرة من الآية ٢٨٦ •

ويغنم من كان سببا فيها ربحا مركبا ، ينتج من مضاعفة العاملين طبقا لمـا قدم ، أو خسارة مركبة تنجم عن الفعل السيء الذى تسبب فيه ، وقلده الغير فى القيام به ، أقول تلك القاعدة وهذه الحقيقة من أجل النظرات الاسلامية ، ذلك لأن الاســلام يريد أن يدعم مركز الفرد الذاتى بنشاط هام مقصور عليه وعلى حياته وحده ، وأن يشجعه على الترقى بذاته ، والانهماك فى تربيتها وتساميها ، وتهذيبها ، حتى يعدها اعدادا جيــدا يمكن أن تصلح بعده للقيام بأعمــال خارج حدودها ، وبدون اعدادها فى ذاتها لن تصلح لمهمة القيــام بأعمال خارج نطاق الذات ، أو بعيــدا عن دائرة الفردية ، فالأعمــال الخيرة التى تهذب النفس اعداد لهــا لمرحلة تليها ، والتنبيــه الشرعى الشــديد على المسئولية الذاتية المحدودة كبح لجماح النفس عن أن تســلك طريق السوء فتفسد ذاتها التى يدخرها الاسلام لمراحل عامة تالية ، وهــذا يعنى أن تشجيع النفس على عمل يخصها يرضى ذاتها ، ويدعم موقف الخير فيها ، وأن اشــعارها بمسئولية فعل الشر ، وقصره عليهــا فى المرحلة الذاتية يزجرها بشدة عن اقترافه ، والجانبان يعدان الذات البشرية لكى تكون عنصرا خيرا فى حــد ذاتها ، وعضوا هاما ونافعا فى المجال الاجتماعى .

والتركيز على الذات أولا من ناحية تربيتها على الطاعات وفعل الخير ، ومن ناحية زجرها عن الشر والبعــد عنه يؤدى بالضرورة الى تربية نفوس الأفراد كل واحد على حدة ، فان جاء الاسلام وطالبها بأن تنشر الخير الذى حققته فى داخلهــا بين المجتمع كانت نفســا صالحة لذلك ، جديرة بأن تقوم بتلك المهمة من واقع استجابتها للعمل الصالح ، وتجربتها الذاتية فى التحقق به .

ومن جهة أخرى فان تشجيع الاسلام للروح الفردية لأن تعمل على بث الخير ، وسن الحسنات ، وأن لها مثل أجور من عمل بذلك ، وأن زجره لها عن أن تكف عن فعل السوء والدعوة اليه ، والتهديد بأن

عليها وزره ووزر من عمل به الى يوم القيامة ، هـذا التشجيع وذاك الزجر من شأنهما أن يشجعا على نشر الخير بين أفراد المجتمع ، وسن الفضائل ، وأن يحفز أرباب النفوس القوية والمهذبة على أن يقوموا بنشاطهم فى اصلاح المجتمع الذى يعيشون فيه ، وأن يسعدوا بتحقيق الفضيلة فى ذواتهم — وفى غيرهم ، ولسوف يؤجروا على فعلهم الذاتى وتأثيرهم السامى فى الآخرين ، ومن شأنهما أيضا أن ينذروا النفس الانسانية بأن تبتعد عن السوء وعن نشره بين الغير والا تحملت الوزر الذاتى ، وأوزار من قلدوها فى فعل الشر أيا كان نوعه •

وان تم هذا الاعداد الفردى ، وقام القادرون على حث الغير من أجل أن يفعلوا الخير ، وانتزعت الرزيلة من الأفراد ، وقاموا بتنفير الغير من فعلها تكون المجتمع المثالى بأفراده وهيئته الاجتماعية ، وهذه هى الغاية من وراء دعوة الاســلام الى استمرار العمل الخير وعدم انقطــاعه بموت صــاحبه ، والنهى عن العمل السىء وعدم اذاعته بين الآخرين ، ولنصغ معا الى قول النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبين بعض الأعمال المستثناة من الانقطاع بوفاة صاحبها يقول (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له) ويقول (من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) [١٨] وجاء فى رواية (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا) [١٩] •

---

(١٨) سنن أبى داود ج٤ ٢٠١ •

(١٩) صحيح مسلم ج٤ ٢٠٥٩ — ٢٠٦٠ ورواه النسائى وابن ماجه والدارمى •

وروى أحمد وابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان الدنيا لأربعة منهم : (رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل فيه بطاعة الله) فقال رجل : لو أن لى مثل فلان فقال الرسول (فهما فى الأجر سواء) ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة ، وأن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة ، وروى أبو داود عن أبى مسعود الأنصارى (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) .

وأعود فأسجل فى النهاية أنه ليس هناك أعمال هى ذاتية محضة ، وأخرى مشتركة بين الذات والغير ، أى تتحقق بين الأفراد والهيئة الاجتماعية ، ولكن أعمال الاسلام كلها تقريبا تتحقق فى الفرد ويطالب بها المجتمع ، فهى أحكام ذات طابع ذاتى واجتماعى معا ، فالصلاة مثلا تكفر الذنوب الفردية وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، أى تطهر المجتمع من خلال الطهر الفردى ، وكذا يقال فى القربات كلها ، والفارق بين كونها ذاتية ، وكونها ذاتية اجتماعية يتوقف على الشخص نفسه ، فان اقتصر فى تطبيق الأحكام والتكاليف على ذاته فهى مقصورة محدودة ، وان طبقها فى نفسه ودعا اليه الآخرين فهى ذاتية واجتماعية، وله ثواب الفعل الخاص وأجر الدعوة العامة ، وأجر من عمل بدعوته الى يوم القيامة ، ويقال ذلك فى الأعمال المضادة التى هى شر وسوء ، ولا ننسى أن القول بالذاتية والاجتماعية هو باعتبار الأفراد لا باعتبار الأحكام والا فهى فردية واجتماعية فى حد ذاتها .

---

(٣٠) ورواه الترمذى مطولا وقال حسن صحيح .

الباب الثانى

الغاية والكون

الفصـــل الأول

مفهوم الغـــاية وتنوعها

دلالة الألفاظ الغائية فى الاستعمال اللغوى :

نتناول فى هذه الجزئية من الدراسة الألفاظ التى تستخدم للتعبير عن الدوافع الغائية التى تستحث الانســان على الوصول اليها ، ومن هذه الألفاظ كلمة : الغاية ، والهدف ، والغرض ، والأمل •

أما كلمة الغاية فانها أصيلة من ناحية اللغة العربية وان ضاقت المساحة التى تشغلها فى المعاجم، ذلك لأن العبرة ليست بكثرة الاشتقاقات والتفريع حتى نحكم على كلمة ما بالأصالة أو بعدمها ، بل العبرة فى الحكم على اللفظة أن نجد لها جذرا بين الجذور العميقة فى كتب المعاجم اللغوية ، ومع أننى سبق أن ذكرت أن كثرة الاشتقاق والتفريع دليل على حيوية الكلمة ونشاطها اللغوى الا أننى أضيف هنا أن تلك الملحوظة ليست مطردة ، وقد نجد من الكلمات ما قل اشتقاقه وعمق استعماله ، وسمت منزلته بين الألفاظ كتلك الكلمة التى معنا •

واذا تصفحنا معجما كالقاموس المحيط لا نجـد صاحبه قـد أفرد لهـا بين سطور كتابه سوى بضعة سطور لا تصـل الى أصابع اليد الواحدة ، وقـد جاء فيها (الغياية ضوء شعاع الشمس ، وقعر البئر ، وكل ما أظل الانسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوها ، وغايا القوم فوق رأسه بالسيف أظلوا ، والغاية المدى والراية ، غاي وغيتها نصبتها ، وأغيا السحاب أقام) (١) •

وعنـد تحليل هذه العبارات تتضح لنا ثلاثة أمور ترتبط بالغاية ومهمتها ارتباطا وثيقا الى أقصى حـد ممكن •

الأمر الأول : يشير النص أن الغاية هى المطلب الرئيسى الذى يطمح الانسان الوصول اليه أو ادراكه ، وأنها العـلة الأخيرة التى

---

(١) الفيروز أبادى القاموس المحيط ج٤ ٣٧٢ •

تدفع على العمل ، وترغب فيه ، وتحفز الهمم سعيا اليها ، كما يفهم من كلمة المدى ، والنهاية ، وقعر البئر الذى هو آخره ، ولا شـك أن التعبير اللغوى هذا يتفق مع الاستعمال الاصطلاحى الذى قـد يطلق على الغاية اسم « العلة الغائية » .

الأمر الثانى : ويفهم من عبارات الفيروزأبادى أيضا أن الغايات البشرية لا توجـد بالمصادفة لا تبدو أمام عيوننا وعقولنا اضطراريا ، وانما هى ترسم وتحـدد بطريقة دقيقة حسبما تدل كلمة (نصبتها) الموجودة فى النص ، بعكس الغايات الكونية فانها قـد حددت للظواهر الطبيعية وهى تسير نحوها باتقان عجيب ، وأظن أن شعاع الشمس ، والسحابة يرمزان الى ما فهمناه .

الأمر الثالث : ويقودنا النص السابق على ما للغاية من منزلة هامة ، حيث أن العبارات التى عبرت عنها هى منتقاة من الآفاق العلوية كالشعاع والسحب ، والراية والسيف اذا علا فوق الرأس ، وكلهـا ألفاظ لها منزلة وقيمة ، بالاضافة الى أنها تنتمى الى جهة الفوقية .

وما دام الفيروز أبادى قـد أفرد للكلمة هذا الجزء من كتـابه فانها عريقة فى اللغة العربية ـــ خلافا لمـا يدعيه الأستاذ يوسف الصديق فى كتابه (٢) من أنها معربة عن اليونانية .

واذا انتقلنا الى الكلمات التى تدور فى فلك الغاية وجدنا لفظة الهدف تعنى : كل مرتفع من بنـاء أو كثيب أو جبل ، وكلمة الغرض تدل على المكان الذى تصوب اليه السهام أو الطلقات ، بينما تفسر كلمة الأمل بالرجاء .

---

(٢) المفاهيم والألفاظ فى الفلسفة الحديثة ٢١٢ .

موازنة بين الكلمات الغائية في اللسان العربي :

لو وقفنا قليلا عند تلك الشذرات اللغوية لاستطعنا أن نتبين بعض الحقائق :

منها دقة الدلالة اللفظية على طبيعة التفكير لدى جماعة ذات لغة معينة ، وأنه عندما يتم تقسيم الكلمات اللغوية الى أطوار آخذة في التدرج من القديم الى الحديث يمكن معه بسهولة اكتشاف التطور الفكري لتلك الجماعة محل النظر .

وانطلاقا من هذا فان المتأمل في الكلمات الأربعة السابقة التي هي : الغاية ، الهدف ، الغرض ، الأمل يجد أن احداها قد تستعمل مكان الأخرى ، فتستخدم كلمة الهدف مكان الغاية ، والغرض بدل أي منهما ولكنه استخدام غير متكافيء اذا طبقنا المعنى الحرفي للغة ، ذلك لأن الألفاظ ليست متساوية المفهوم تماما ، فكلمة الغاية تعلو ليرمز اليها بالشعاع والسحاب والراية ، والمدى البعيد ، وينزل الهدف الى مستوى الكثيب من الرمل أو الجبل ، وتصغر لفظة الغرض ليحدد لها مكان على الأرض ليكون علامة للتصويب ، وتبقى كلمة الأمل التي هي رجاء مظنون تختلف عن الكلمات الثلاثة الدالة على حقائق مؤكدة .

وعلى هذا فالفارق كبير بين كلمة يعبر عنها بضوء الشمس ، وأخرى تقبع فوق الكثيب ، وثالثة تستقر على الأرض في مواجهة الانسان وهو يصوب سهمه ، أو ترتفع عنه بقليل ، الأمر الذي من شأنه أن يجعل كلمة الغاية أرقى الكلمات استعمالا ، يليها الهدف ، يليها الغرض ، وأي استخدام للهدف أو الغرض مكان الهدف غير دقيق طالما كانت الغايات ذات شأو ، فان ضعف مستواها صح أن تستخدم لفظة الهدف أو الغرض مكان الغاية لهبوط مستوى الأهداف التي نتناولها ، ومسايرة لهذا الفهم آثرنا كلمة الغايات بدل الأهداف لسمو الغايات الشرعية التي حددتها الدعوة وطالبت أرباب التكليف بها .

الألفاظ الأربعة فى الاستعمال الشرعى :

انما آثرنا تقديم هـذه النقطة على التعريف الاصطلاحى الذى سيرد بعدها مباشرة لارتباط الاستعمال الشرعى بالمعنى اللغوى ، لأننا عندما نتتبع استخدام الألفاظ الأربعة فى الكتاب أو السنة نجـد أنها لا تعـدو المفهوم اللغوى الذى وضعت الكلمة من أجله ، فلفظة الغاية مثلا لا نكاد نعثر لها على أى شكل حرفى بين كلمات القرآن الكريم ، على حين ترد فى السنة بمعنى الراية فى قول النبى صلى الله عليه وسلم (يأتيكم بنو الأصفر فى ثمانين غاية مع كل غاية اثنا عشر ألفا) (٣) قال الراوى قلت : وما الغاية ؟ قال (الراية) •

وقـد تأتى بمعنى نهاية الشىء كقوله صلى الله عليه وسلم (من قال البتة فقـد رمى الغاية القصوى (٤) أى نهاية الطلقات الثلاث ، وجاءت بمعنى المدى فى قوله صلوات الله عليه (سبق بين الخيل ، وفضل القرح فى الغاية) (٥) وهـذه الاستعمالات الثلاثة لا تخرج عن حدود الوضع اللغوى •

ونفس الشىء بالنسبة لكلمة الهدف فلم ترد الا مرة واحدة فى تسع منكتب السنة ، ودلت على الشىء المرتفع الذى يستعمل ساترا ، روى عبد الله بن جعفر قائلا (أردفنى رسول الله صلوات الله عليه ذات يوم خلفه فأسر الى حديثا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل) (٦) والهـدف ما ارتفع من الأرض ، ولم نعثر على تلك الكلمة هى الأخرى فى القرآن •

---

(٣) مسند الامام أحمد ج٢ ١٥٧ ورواه البخارى فى كتاب الجزية

(٤) الموطأ كتاب الطلاق •

(٥) مسند الامام أحمد ج٦ ١٥٧ ، راجع المعجم المفهـرس لألفـاظ الحديث ج٥ ٣٨ •

(٦) صحيح مسلم والنووى ج٤ ٣٥ ورواه ابوداود وابن ماجهوالدارمى واحمـد •

أما لفظــة الغرض بمعنى الهدف الذى يرمى فيــه ، فهى أكثر الكلمات شيوعا فى كتب السنة حيث وردت فى تسعة مواضع ، وهــذا العدد أكثر من استعمال كلمة الغاية التى ذكرت فى أمهات كتب السنة خمس مرات تقريبا ، ولم تذكر كلمة الهدف سوى مرة واحدة ، ومثال استخدام الغرض بمعنى الهدف الخاص بالتصويب قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الدجال وأنه يدعو رجلا (ممتلئا شــبابا) فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، فيقبل ، ويتهلل وجهه يضحك) وذلك من باب الافتتان والابتلاء ، قال النووى ومعنى رمية الغرض (أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته) [٧] وروى النسائى عن ابن عمر قال (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخــذ شيئا فيه الروح غرضا) ويفسره السيوطى والســندى بالهدف الذى يرمى فيه [٨] ، وكذلك لا توجد اللفظة بهذا المعنى ولا بغيره فى القرآن الكريم •

هــذا وتوجد كلمة الأمل فى كتاب الله بمعنى الرجاء الصادق ، والرجاء الخادع •

أما استعمالها فى معنى الرجاء الخير فمثل قوله تعالى (**والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا**) ١٨ الكهف وفى نفس المعنى يقول النبى صلى الله وسلم للأنصار وقــد تطلعوا الى الجزية التى قدم بها أبو عبيدة من البحرين (أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين) ؟ فقالوا أجل يا رســول اللــه ، قال (أبشروا وأملوا ما يسركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم) [٩] •

(٧) مسلم شرح النووى ح ١٨ : ٦١ .
(٨) سنن النسائى ح٧ ٢٣٨ — ٢٣٩ •
(٩) صحيح مسلم بشرح النووى ح٨ : ٩٥ .

ومثال استخدامها فى الرجاء الخادع قوله سبحانه عن أمل الكفار **(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل)** ١٥ الحجر وأحيانا يأتى فى السنة على هذا المعنى .

ولا يخفى بعـد ذلك أن الألفاظ الأربعة قـد وردت كما ترى متطابقة مع الوضع اللغوى ولا يعنى هذا أن حافز الغائية معدوم فى الخطـاب الشرعى ، أو أن حديث الوحى خلا من الدفع القوى نحـو تحقيق أهداف معينة ، كلا بل صرح بالعلل الغائية التى تحث على العمل وتشجع عليه ، واستعمل وسائل لغوية وضعت خصيصا ليكون ما بعدها علة لـما قبلها ، وذلك مثل لام التعليل فى قوله تعالى **(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)** [١٠] ومثـل كى التعليلية ، وحتى الغائية .

ومن ينعم النظر يجـد أن القرآن أشار اشارات واضحة تماما للغـايات المعروفة ، وميز بين القريب منها والبعيـد ، وألمح الى أن القريب هو عبارة عن غايات مرحلية توصـل الى الغايات البعيـدة ، والغاية القريبة تكون هدفا يسعى اليه قبل تحقيقه ، فان تحققت صارت وسيلة للمراحل التى تليها ، والتى نعمل لتحقيقها واحدة تلو الأخرى حتى نصل الى الغايات الكبرى ، وتعرف الغايات القريبة فى المصطلح الحديث باسم (التكتيك) والبعيدة باسم (الاستراتيجية) .

ومن أمثلة الغايات البعيدة آية التوبة السابقة ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) وقوله تعـالى **(وليس بأن تأتوا البيوت من ظهـورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون)** [١١] .

---

(١٠) التوبة : ٣٣

(١١) البقرة من الآية ١٨٩ .

وأما الغايات القريبة فكقوله جل شأنه (**وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم**) (**واذن يريكموهم اذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا**) (١٢) .

والفرق كبير بين ما بعد اللام فى قوله سبحانه (**ليظهره على الدين كله**) وما بعد حتى فى الحديث السابق وما بعد لعل فى آية البقرة ، وبين ما بعد اللام فى آيتى الأنفال ، ويعمق الفرق بين الطائفتين من الغايات نظرا لأن اظهار الدين الاسلامى على جميع الدين ، وشيوع التوحيد بين الناس أهداف بعيدة لا تتحقق الا بعد جهد جهيد ، بخلاف ما بعد اللام فى آيتى الأنفال فان تطمين القلوب المسلمة فى ساحة القتال واهلاك طائفة من الكافرين فى بدر من شأنه أن يمهد السبيل لتحقيق غايات أخرى غير ذلك ، فتطمين القلوب يساعد على تحقيق النصر ، واهلاك زعماء الكفر يزيل حواجب الاقبال على الدين أمام الراغبين ممن يخشون بأس هؤلاء .

الغاية فى الاصطلاح :

ما هى الغاية من الناحية الاصطلاحية ؟

يعرفها الجرجانى فيقول (ما من أجله يكون الشىء أو العمل) وقد تعرف بأنها (ما ينزع اليه الانسان أو الكائنات قصدا أو عن غير قصد) (١٣) والتعريفان لايختلفان منحيث المضمون اللهم الا ما يمتاز به التعريف الثانى بشىء من التفصيل المتعلق بوعى الغاية، وادراك الطريق الموصل اليها ، أو عدم ادراكهما مع القيام بالنشاط المتجه صوب الغاية.

والتفصيل الذى تعرض له التعريف الثانى يفتح علينا بابا لا بأس

---

(١٢) الأنفال ١٠ ، ٤٤ .
(١٣) المعجم الفلسفى ١٣١ .

أن نلجه قليلا ، خاصة فى نقطتى القصد وعدم القصد ، ومع من يكون كل واحد منهما ؟

ان وعى الغاية ، وقصد العمل الموصل اليها يتحقق فى الكائن الذى يحمل أدوات ادراكية قادرة على تمييز الأهـداف واختيار الأعمـال الملائمة لها ، وتنطبق هـذه الخصائص على الانسان وحـده من بين المخلوقات ، فهو الذى يعرف غاياته مسبقا ، ويرسم السـبل المؤدية اليها ، أو يقسمها الى مراحل معينة ، كل مرحلة تحقق جزءا من الطريق العام الموصل الى المطلوب ، وهو يرتب الأجزاء حسب تصوره الخاص بالهدف وبالطريق المناسب له ، ولا يفتأ يفعل هـذا مع كل الأعمـال الارادية والاختيـارية التى تدخـل فى دائرة اختصاصـه الفردى أو الجماعى .

والانسان عندما يتفحص الغايات ، ويتخير الوسائل لا يفعل ذلك عبثا ، ولا يبذل الجهد العقلى أو العملى هباء ، وانما يسعى من وراء تلك العملية الواعية النشـطة الى حفظ حياته ، والتكييف الوجودى فى هذا الكون ، والى تحصيل مطالب مادية ، أو كمالات ذاتية ليست موجودة ، أو موجودة ولكنه يسعى الى تنميتها ، أو كمالات يحصلها للآخرين ويعاونهم فيها وهو مغتبط كل الاغتباط بما يصنع ، فنشاطه وادراكه فى هذا الصدد يعود عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

ولقـد احتطنا عندما قلنـا ان خصائص التمييز والاختيـار للغاية والطريق تنطبق على الانسان من بين المخلوقات ، ولم نقـل تنطبق على الانسـان وحده فحسب ذلك لأننا نعلم أن الله جل جلاله قـد أوجـد الكائنات وحدد لها غاياتها ، وخلق فيها الحركة الملائمة لتحقيق الغـاية المنوطة بها دون أن يعـود ذلك عليه سبحانه بكمال أو فائدة ، لـما يتصف به من كمالات لا تتناهى ، ولا تقبـل الزيادة أو النقصان ، ولـما يتصف به من غنى ذاتى لا يحتاج معه الى شىء

من مخلوقاته ، اذا أوجد الكون وغايته وحركته المناسبة فلكى يؤدى نشاطا حيويا يخدم الانسان ، ويقودنا الابداع الكونى ، والاتجاه بدقة صوب غايات مرسومة بحكمة الى عظمة المبدع جل جلاله .

فالفعل الالهى للكون مقصود ، والغايات محـددة منه ، ولكن فوائدها لا تعود عليه ، بل تعود علينا نحن بالمنفعة الحيوية ، أو المعرفة اليقينية والعلمية . ومن هذه الزاوية صح قول القائل (ان أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض وان كانت فيها فوائد ومنافع ومصالح وغايات) ونفى تعليلها بالأغراض على اعتبار الاستغناء الذاتى له ، والا فهى معللة بأغراض تتعلق بمصالحنا ومنافعنا وحاجاتنا لافتقارنا الذاتى لهذه الأشياء .

ويبقى بعـد ذلك أن نقول ان هناك أنشطة تؤدى لتحقق غايات بدون وعى ادراكى ، وبدون قصـد ارادى ، وهى منضبطة جدا الى حـد يفوق أنشـطة الوعى والقصد لدى الانسـان ، تلك الحركات التى تشـق طريقها الى الغايات المرسومة لهـا توجد فى الكون كله كما توجد فى أجهزة هامة الى أقصى حـد فى الانسان ذاته .

الصلة بين النشاط والغاية :

اتضح لنـا ما يلى :

هناك غاية ، وهناك عمل يبذل من أجلها ، وهناك بعض المخلوقات من يعى الغاية ويرسم الأنشطة الموصلة لها ، وهناك أجهزة وكائنات كبرى لا تدرك غاية ولا تحـدد حركة ، ومع ذلك هى تتحرك صـوب أهداف محددة لها ، والسؤال الذى يطرح الآن هو :

ما علاقة العمل بالغـاية ؟ هل هى علاقة لزومية ؟ كلمـا وجدت الأنشطة تحققت الغايات باطراد أم هى لزومية حينا وغير لزومية حينا آخر ؟ ، واذا كانت كذلك فمتى تكون لزومية ومتى لا تكون ؟

يبدو لنـــا عند النظر الدقيق أن العلاقة بين الأعمال والغايات ليست لزومية أبدا ، ولكنها تتلازم أحيانا ولا تتلازم فى أحيان أخر ، والذى يميز بين الحالة الأولى التى يتم فيها التلازم والحالة الثـانية التى قـد لا يقع فيها هو الوقوف على مصـدر النشـاط ، والمحرك الرئيسى له ، أوالمدبر الحقيقى للحركات السائدة والمتجهة نحوالغايات.

فعندما تكون الحركات متصلة بالكون الصامت أو بأجهزة داخلية فى الانسان كالقلب والرئة الى آخرة فان علاقة التلازم أو السببية هى التى تحكم الأنشطة مع غاياتها ، وذلك لأن مبدع هـذه الحركات ومسيرها هو الله سبحانه حسب اعتقادنا نحن المتدينين ، وما دام هو الفاعل الحقيقى لتلك الأنشطة المشار اليها وهو حكيم خبير فان صفة الاحكام ، وعنصر الاتقان سيتوافران مع سير هذه الحركات ، ولاشك فى أنه سبحانه يخلق الحركة المناسبة جـدا للغاية التى تسعى نحوها ، والدقة المتناهية فى الملاءمة بين الحركات والغايات ، والعنـاية البالغة التى يوليها المولى عز وجل لهذا الكون تجعل عنصر التلازم أو السببية قائما ومتوفرا ، ومن الخطل الشنيع أن يدعى أحـد أن خلق الحركة ومناسبتها مع الغاية من فعل الطبيعة فهذا ما لا يتفق مع أبسط قواعد العقل والمنطق ، لسبب واحد هو فقدان الطبيعة للعقلانية التى تهيىء ظروف الفعل ، وتناسب بينه وبين الغاية ، بعد أن تكون قـد حددتها ووضحتها مسبقا ، وهو ما لم يقل به أشد الطبيعيين والمـاديين ادعاء وتمسكا ، فأنى لهم بعـد أن جردوا الطبيعة من التعقل أن يقولوا ان قوانين حركتها وجدت منها ، وكيف يتكون الوعى من اللاوعى ، هذا غير معقول .

وقـد تختل علاقة التلازم أو السببية بين الأفعال والغـايات عندما يكون المصدر الفاعل للحركة هو الانسان والعلة بسيطة جدا ، وتتلخص فى ضعف القدرة الانسانية : الادراكية والارادية على اختيار أنسب الطرق المؤدية الى الغايات الأمر الذى من شـأنه أن يحدث

خللا فى عملية الاختيار من أساسها ، أو فى عملية التنفيذ بعـد ذلك ، وحتى فى تلك الحالة التى يدع الانسان فيها اختياره ، ويلتزم بتنفيذ الطريق الشرعى الذى حدده الله سبحانه وتعالى تكليفا للبشر ليقوموا به وصولا الى غايات دينية تتعلق بالعقائد أو بالفروع • وتؤتى ثمارها علاجا للنفس البشرية فى الدنيا ، ونجاة لها فى الآخرة ، حتى فى تلك اللحظة لا يمكننا أن نقول دائما ان العلامة بين قيام الانسان بالتكاليف الشرعية وثمارها القلبية أو النفسية أو الأخروية هى علاقة التلازم أو السببية ، لأن الانسان قد لا يؤدى بالفعل التكليفى بشرائطه المبينة من جهة الشرع ، سواء منها ما يتصل بشروط الصحة أو شروط الكمال ، أو ما يتعلق بشروط الفعل من ناحية الظاهر أو من ناحية الباطن ، وأى نقص فى الأداء يعرقل عملية الحصول على نتائج الفعل ، ويجعل الأداء غير مقبول ، وعلى سبيل المثال فان أدنى درجة من الرياء تفسد أجل الأعمال الشرعية قيمة •

وعلى هذا فالخلل يقع فى الأنشطة الانسانية التى تسعى لتحقيق غاياتها بقصد وبوعى دائمين لعدم قدرة الانسان فى كثير من الأحيان على الدقة فى اختيار السبل المناسبة •

مصـــدر الغاية :

اذا الانسان وحده هو المدرك لحركته بين الكائنات ، وهو البصير بغايته ومع ذلك هـو الوحيد الذى يحدث له الخلل ، ويتعـثر كثيرا لعدم وضوح رؤيته للغاية ـ أو لعدم حبكه للوسيلة الموصـلة اليها ، ويترتب على هذا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة أيضا :

ما الذى يحـد من انتشار الخلل ؟ أو يقلل من خطورته ؟ وهل نخضـع دائما فى معيار الغـاية وتحديدها لذواتنـا أو من الأوجب والأفضل أن نخضع لمصـدر آخر غير تلك الذوات ؟ لعله يكون من المؤكد أن اختياره وتحديده أدق من تصرفاتنا •

قبل أن نجيب اجابة قاطعة على تلك الأسـئلة نلمس حقيقتين هامتين يحدثان فى الجانب النظرى والعملى للانسان وهو يهدر بحركته فى الكون .

وأولى الحقيقتين تنحصر فى أن الكائن البشرى وهو يحدد غايته ويرسم طريقها من بين عدة طرق محتملة قـد يتباهى جدا بما يصنع ، ويبدو سعيدا كل السعادة بالبرنامج الذى حـدد معالمه لنفسـه ورسمه وانتقاه ، وعندما يجـد فى السير نحو تنفيذه تراه يمشى وكله أعجاب واختيال رضا بما يصنع وثقة فى الخط الذى ينتهجه مهما كان مليئا بالعيوب أو المخاطر والمزالق ، ومهما ينبهه الآخرون الى فساد ما هو سائر فيه .

ولا يضيق من سلطان هذا التصور ، وينتبه لفسـاده الا بعـد ما يصطدم بحقيقة الفشـل الذريع ينتظره هناك خلف سـتار قريب أو بعيد من بداية رحلته ، وسواء طال المشوار أو قصر فانه يكتشف أحيانا خطأه ، وقـد يعاود المحاولة مرات ومع تكرارها تطل ظاهرة الفشـل يراسلها مع كل محاولة غير عابئة بوخز النـدم الذى ينتاب الفاشلين ، وتكرار المحاولات ، ومعاودة الفشل تدل على فساد التصور الذاتى فى كثير من الأحيان .

وصحيح قـد ينجح الانسان فى محاولات عدة لتحقيق أهداف نظرية أو عملية ، ولكن نجاحه يأتى بعـد تجارب مريرة من الفشل ، وتاريخ الانسانية ملىء بالشواهد الدالة على ذلك ، وعموما فخطـأ بعض المحاولات يكفينا فى الحكم على مدى القصـور الذى يصيب الانسان عندما يعتمد على ذاته وحدها دون ركائز قوية يستند عليها من خارج تلك الذات ، ودون اشارات هادية له على طريق السـير نحو الغايات المرسومة .

وتعتبر حقيقة «الفشل هى أولى الحقيقتين الهامتين المشار اليهما سـابقا .

وأما الحقيقة الثانية فتتعلق بالقصور فى تصور المجال الغائى ، والذى غالبا ما يرتبط بدائره المحسوس أو العالم المشاهد ، ويحـد بحدود زمانية أومكانية ، أوكمية وكيفية ، ومثل هذه الغايات المحدودة لا تمدنا الا بنوع ضيق من السعادة ، تلك الســعادة التى هى ثمره تحقيق غاياتنا ، فاذا ما ضاقت دائرة الغاية ، أو انحصرت فى بيئـة أو زمن ، أو متع حســية وبدنية ضــاقت بالتالى جوانب الســعادة والشعور بها .

والانسان منا غالبــا ما يتجه فى تحديد غاياته الى هذا النوع الضيق من الغايات ، أو الهابط الذى تفرضه علينا شهواتنا وأهوائنا ، وماديتنا وحواسنا ، وفى هذه الحالات لا توجد الســعادة التى تغمر الكيان الانسانى كله ، وتشمله من جميع جوانبه ، والدليل على ذلك ما نراه لدى الانسان الأوربى الذى أعتمد على فكره فى تحديد الأهداف والطرق الموصلة اليها ، والتى نحت فيهــا تصوراته المنحى المــادى الصرف ، فحققت له قدرا من السعادة والملذات المحسوسة ، ولم تشبع كيانه البشرى الباطنى كله ، فأحس بفقر رغم ثراه المــادى ، وضيق على الرغم من يسره فى مجالات حيوية متعددة ، وصار يشكو من آثار تلك الحضارة على نفسه ، ولم يجــد منها السعادة كل السعادة التى تحقق اليقين والراحة النفسية الكاملة .

واذا كان الحال كذلك فلابد من مصدر يخرج عن ذواتنا ، ويرسم لنــا الغايات المحددة والواضحة بطرقها ومراحلها وخطورتها ، ولقد قام الاسلام ببيان المطلوب ، ورسم معالمه ، والســبل التى تكفله ، فأوضح الغايات المنوطة بالانسان ، وشرع الأفعال التكليفية المؤدية اليها ، وأعلن بدقة أن الفلاح منوط بأداء هذه النسك الشرعية ، والحق يقال : ان توضيح الحق جل جلاله لهذه الغايات وطرقها يطلعنا على عدة أمور هامة :

منها أن راعى طبيعة الانسان من حيث الرغبات والمتع البدنية.

ومنها أنه راعى طموح الكائن البشرى فأمد فى الغـايات حتى جعلها شاملة للعالم المشاهد ، والعـالم الآخر ، فهناك الغايات التى تنظمها السلوك الموصل اليها لاسـعاد البشرية فى دنياها ، وهنـاك الغايات التى تدفع الانسـان الى الاجتهـاد فى الطاعات كى يفوز بالسعادة الأبدية .

وأيضا فانه يتبع ذلك مباشرة أن الغايات التى نيطت بالانسان من جهة الاسلام هى من النوع الراقى الذى ينظر الى البشرية نظرة فردية وجماعية شاملة ، نظرة تهتم بالحس والعقل ، والبدن والروح والمـادة والشعور ، ولا تترك جانبـا من جوانب الانسـان دون أن تضع له اعتبارا فى الأهـداف التى يقوم بتحقيقها اشـباعا لكل كيانه واسعادا له فى الحالتين معا .

وكذلك فان القرآن قـد حدثنا عن متع هامة نحصل عليها من وراء سلوكنا المستقيم فأخبرنا عن الحور العين والجنات والأنهـار والسرر والأرائك والاسـتمتاع بالخلان والأحباب الى غير ذلك من أصناف السعادات الحسية ، كما أخبرنا عن متع لا نظير لها فى عالم الحس كالتمتع بالنظر الى وجه الله سبحانه وتعالى وغير ذلك .

وتحصيل هذه السعادات ميسور لكل من التزم طريق الحق وسار عليه سيرا حسنا مستقيما ، مخلصا العمل لوجه الله ، فان فعل ذلك صادقا من قلبه فلا مجال لقاعدة الخطأ ، ولا احساس بمرارة الفشل التى يحسها الانسان عندما يعتمد على ذاته .

والى هنا تمت الاجابة على الأسـئلة المذكورة وبان المصـدر الحقيقى الذى نلجأ اليه أو نستضىء بقواعده العامة أثناء السير فى الحياة لتحصيل معاشنا أو نحتكم اليه احتكاما كاملا ونحن نعمـل لنعمر أخرتنا .

ضرورة الغـــاية :

هناك عدة عوامل هامة تجعل تحديد الغاية أمرا ضروريا :

أولها : هو العلم بأن تحديد الغاية ووضوحها يتمشى مع الطبيعة الانسانية التى تحبذ الأعمال الغائية ولا تهتم بالمسالك التى لا تحقق نفعا على أى وجه •

وثانيها : لابد أن يكون تجـديد الغايات خاصة الدينية من الله (حتى لا يزيغ بنا هوى أو تنحرف بنا رغبة) (١٤) •

وثالثها : ان جلاء الغاية ورسوخها فى ذهن الداعية يحمسه الى التقـدم صوبها ، ويحفزه على الاخلاص لها ، والتفانى فى سبيلها • واذا عرف الداعية غايته معرفة صحيحة (فقد عرف واجبه ، وادرك أن عليه أن يركز همته ، ويحصر كل ما له من جهـد فكرى وعاطفى وبدنى فى بلوغها ، وقطع مراحل الطريق اليها) (١٥) •

ورابعا : فان ظهور الغاية بشــكل محدد يعين على اختيـار أفضـل الوسائل المناسـبة . ذلك لأن الغايات والوسائل متضامنان ومتلازمان ، ولا نستطيع تحديد الوسيلة ما لم ندرك بوضوح الغاية • يقول الشيخ أبو زهرة (ومما لا ريب فيه أن الغايات هى الصـورة المطلوبة بالذات والأصل والوسائل مطلوبة تبعا للغايات ، والمتبوع دائما خير من التابع وأفضل ، والغايات هى المقصد الأول والوسائل مقصودة بالقصد الثانى) (١٦) ويقول البهى الخولى (على الداعية فى ميدان التنفيذ والعمل أن يعرف غايته أولا وأن يفهمها حق الفهم ، فاذا تأتى له هـذا استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التى تحقق له

---

(١٤) فتحى يكن : مشكلات الدعوة والداعية ١٢٢ ، ١٥٣ ، ١٣٤

(١٥) البهى الخولى : تذكرة الدعاة ١٧٦ — ١٧٥ .

(١٦) محمد أبو زهرة : الدعوة الى الاسلام ٣٢ •

هذه الغايات وتصل به اليها) (١٧) ومالم يبصر غايته لم يعرف لهـا سبيلا ، ولم يدرك لهـا جمالا على حد قوله .

وخامسا : وعن طريق تحـديد الغاية يمكن للانسـان أن يدخل الأجزاء تحت كلياتها التى تحتويها وأن يضع المسـائل الفرعية تحت القواعد العامة الجامعة لها ، وأن يصنف موضوعاته تصنيفا مناسبا .

لهذه الدواعى يصـير من الضرورى معرفة الغايات (أو يكون تصور الغرض مما لا بد للفاعل منه) (١٨) ويقول الحسـن البصرى (العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على ما يريد يفسد أكثر مما يصلح) ، ومع ابراز الضرورة يظهر معها ضرورة ان تكون الغايات خاضعة للتقدير الالهى لقصورنا عن القيام بهذه المهمة كما سبق .

أقسـام الغاية :

للغاية أقسام باعتبار ذاتها ، وتنوع باعتبار الفاعل نفسه .

أما أقسامها باعتبار ذاتها فهى اما خارجية ، أى يتحقق وجودها خارج حدود الذات الفاعلة لهـا ، سواء درت على الفاعل فائدة هـو الآخر أم لا ، ويمكن أن تكون أهداف الدعوة كنصرة الحق ، والايمان ، واصلاح نفوس الآخرين ، أو اصلاح المجتمع الى آخر الأهداف من هذه الأنواع التى تتحقق فى ذوات أخرى ليست هى عين ذات الداعية، أو فى اطار أنشطته الخاصة ، وفى هذه الحالة التى تدعى الغاية فيها بالخارجية يكون اعتبار الحكم فيها بالخروج هو تحققها — كما قلنا — خارج الذوات الفاعلة وتكون العلاقة بينهـا وبين الفاعلين هى نفس العلاقة بين العلة الفاعلة والعلة الغائية ، أى هى عبارة عن العلاقة بين الفاعل والنتائج المترتبة على فعله ، وبما أن تلك النتائج لا تحصـل

---

(١٧) تذكرة الدعاة ١٧٥ .

(١٨) الاحمد فكرى — جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ح٢ ٣ق .

عليها الا بفاعلين فلا نحصل على غايات مهما كانت خارجة عنا تدبيرا ووقوعا الا بأفعال نقوم بها ، ولهذا تكون العلاقة وطيدة جـدا ، ذلك لكون الذوات الفاعلة هى التى قامت بكافة الوسائل والأساليب المؤدية للغايات •

ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من أن الغايات الدينية قـد تقع خارج ذوات الدعاة التى يتحمسون لهـا ويعملون جاهـدين لنشرها وتحقيقها بين الآخرين فان الداعين لا يحرمون كلية من ثمار تعـود عليهممن جراء أفعالهم التى أدوها ، وهـذه الثمار تتمثل فى الراحة النفسية التى يحسها الداعى عندما يجـد المبادىء التى يؤمن بها ، ويدين بها عقيدة وسلوكا قـد شقت طريقها الى قلوب الغير ، وأيضا فانه يشـعر أن تحقيق تلك الأهداف الدينية ، وما تحدثه من تقويم لنفوس الآخرين وسـلوكهم ، وتهذيب الأخلاق المجتمع ونظمه يعود عليه فى النهاية باعتباره عضوا فى تلك الجماعة التى أخذت بالعقيـدة الصحيحة والشريعة العادلة ، وانضبطت عليها فى كل مجالاتها وأنشطة الحياة فيها •

وفوق هذا كله فان الدعاة يحسون بأريحية جمة بما وعدهم الله به من ثواب ونعيم نظير جهدهم فى التبليغ والعمل على اظهار دينـه سبحانه ، وهذا النصر بالذات هو الذى يجعلهم يتفانون فى سـبيل الدعوة الى الله ، ويتحملون أقسى المصاعب ، وأشـق المواقف ، ويقدمون ما يملكون حينا وهم يدركون أنهم حققوا الغايات الدينيـة فى أنفسهم ، وطبقوا مقتضياتها فى أوجه متعددة من أنشطتهم ، ومع هذا الادراك لا يقف نشاطهم عنـد حدود ذواتهم ، وانما يحاولون جاهدين الى شيوع تطبيق تلك الأهداف بين جميع من يعرفون ، وفى قدرات الداعين والمدعوين معا •

وقد تكون الغاية باعتبار النظر الى ذاتها مطلقة ، كلية ، أونسبية مشروطة ، أو جزئية ، وكل من النسبية المشروطة أو الجزئيـة تدعى

بالمرحلية ، أو بالأهداف القريبة ، وهى فى الحقيقة موصلة الى المطلقة أو الكلية ، وتعتبر كل حلقة من حلقات النسبية ، أو الجزئية أو القريبة مرحلة فى اطار السلسلة الموصلة الى الغايات الكلية العليا ، وقد سبق أن أشرنا الى طرف من الأمثلة الموضحة لكل منهما عند الحديث عن الألفاظ الأربعة فى الاستعمال الشرعى .

وأما الحديث عن الغاية باعتبار الفاعل نفسه فان تحققها ان ارتبط بالذات الفاعلة بحيث تكون تلك الذات هى التى سارت على الوسائل الصحيحة المؤدية الى الغاية ، وهى نفسها المستفيدة كلية من الغاية المتحققة فتسمى فى تلك الحالة بالداخلية ، ويمكن أن ينطبق هذا على حال رجل مال الى معرفة الحقيقة حتى صارت بالنسبة اليه هدفا أو غاية ، وأخذ يبحث عن الطرق القويمة التى تؤدى اليها ثم سلكها بدقة حتى حصل على غايته المنشودة ، وأفعمت ذاته بها ، وتفتح قلبه على تلك الحقيقة الجديدة ، عندئذ نقول ان الغاية داخلية، ولنتذكر حال سلمان الفارسى شاهدا على هذا النوع من الغايات .

التنوع الغائى والطبيعة البشرية :

الكون مظاهر متعددة ، وحالات وجودية مختلفة ، ونحن خلقنا لعمارته ، وللاستخلاف فيه ، وطبيعتنا مكونة من مادة وروح فهى مزدوجة ، وطبقا لما كلفنا به فى الكون ، ولما تحمله طبائعنا فالحكمة تتطلب فروقا فردية لدى الأفراد ، بها يتحقق الانتشار فى الكون ، والتعامل مع ظواهره المادية ، وقوانينه الطبيعية ، فلو كانت الانسانية صورة شخصية واحدة لا نطبع ذلك على الحد من نشاطنا فى الكون ، ولوقفنا عند بعض الظواهر التى تتفق مع محدودية شخصيتنا ، ولجهلنا بقية الجوانب فى الكون ، وبناء على هذا ، وعلى ما لدينا من اختلاف فى الطبائع ، وتفاوت فى الفروق بين الأفراد تنوعت اتجاهات الانسان فى الحياة ، وتعددت الغايات .

وبعبارة أخرى ، الكون متعدد الظواهر والقوانين ، والانسان

المزدوج فى طبيعته هو الخليفة فيه ، والخلافة تقتضى الانتشار فى هذا الكون المترامى الجنبات ، والانتشار الواعى لا يتحقق الا بملكات متعددة لدى الكائن البشرى ، وبفروق فردية لدى أفراده ، وبتلكم الملكات وهذه الفروق تتنوع الاتجاهات ، وتختلف الغايات المرغوبة ، فهو تنوع يتمشى مع مهمة الخلافة ، ومع الطبيعة الانسانية فى الغالب، وفى بعض الأحيان يتمشى مع الظروف البيئية الضاغطة •

وما دام الأمر كذلك فان مسالك البشرية ستختلف وتظل كذلك ، وسنلحظ فى كل آونة أو بقعة أن ما يثير نشاط هذا قد لا يثير همة ذاك ، وما يلهث نحوه فلان قد لا يتحرك اليه فلان ، وما يستحوذ على تفكير فريق قد لا يلقى أدنى حماس لدى فريق آخر ، ويتبين لنا بصورة واضحة من خلال هذا كله اختلاف فى الغايات التى ينشدها الأفراد ، أو تبتغيها الجماعات ، ونتأكد من تلك الحقيقة عندما نتدبر حديث القرآن عن الاتجاهات الانسانية القائمة على الطبيعة البشرية ذاتها ، تجده يضع يدك على الكثير من ألوان البشر ، كل له مشرب ، وله هدف ، ويتجه صوب غاية قد اختارها من تلقاء ذاته ، ولا يفرق القرآن فى هذا التنوع بين الساحة الايمانية ، وبين سبل ودروب الكفر والضلال ، الكل يتنوع فى مجاله ، ويختلف على أرضه •

ومن أمثلة التنوع فى المجال الايمانى قوله سبحانه عن صحابة النبى صلى الله عليه وسلم أنفسهم **(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)** (١٩) ، وهذا التنوع وان كان مؤقتا ثم رجع عنه الصحابة وتابوا وعفا الله عنهم لكنه قد حدث بفعل الطبائع البشرية ، ويقول الله سبحانه مرة أخرى عن التنوع بين علماء الأمة الاسلامية من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير سيرتهم ، وعن الأمة جمعاء **(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل**

---

(١٩) آل عمران من الآية ١٥٢ •

الكبير) (٢٠) والدرجات الثلاث فى الآية حاصلة للعلماء ولعموم الأمة(٢١) . والعدد هنا لا يفيد الحصر ولم يقل المفسرون ذلك ، فيجوز أن يزداد التنوع الى أكثر من ذلك كما جاء فى آية آل عمران السابقة، ومثل قوله جل جلاله (**فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخره من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)** (٢٢) .

يقول الشوكانى (لما أرشد سبحانه عباده الى ذكره وكان الدعاء نوعا من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسما الى قسمين : أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت الى الآخرة ، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعا) ثم يقول(٢٣) (وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا ، والذم لمن جعلها غاية رغبته ، ومعظم مقصوده) ويقول الزمخشرى (أكثروا ذكر الله ودعاءه فان الناس من بين مضك لا يطلب بذكر الله الا أعراض الدنيا ومكثر يطلب خير الدارين فكونوا من المكثرين) (٢٤) .

ومن أمثلة التنوع فى المجال الانكارى قوله سبحانه **(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله)** ١٦٥ البقرة **(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم)** ٦ **لقمان** (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ٢٠ لقمان ، وقوله عن المنافقين **(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخرة وما هم بمؤمنين) (ومن الناس من يعجبك قوله فى**

---

(٢٠) فاطر ٣٢ .
(٢١) تفسير أبى السعود ح٤ ٤٨٤ — ٤٨٥ .
(٢٢) البقرة ٢٠٠ — ٢٠٢.
(٢٣) فتح القدير ح١ ٢٠٤ .
(٢٤) الكشاف ح١ ٣٥٠ .

الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام) ٨ ، ٢٠٤ البقرة ، والقرآن ملىء بالحديث عن الأصناف الكافرة من وثنيين وصابئة ، وأهل كتاب ، ومنافقين كل له وجهة ، وكل له غاياته الدنيا وأهدافه الخسيسة المنحطة ، ولقد صور القرآن كثيرا من طبائعهم وأحوالهم ووجهاتهم مما لا يخفى على القارىء العادى بله كل مسلم ، وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله وسلم قال فى أطول خطبة (وان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى) (٢٥) ، وأحيانا يشبه دعوته بالغيث ، ويشبه الخلق بالأرض ، وبما أنها طبقات وعناصر مختلفة فى قبول الماء وانتاج الكلأ والنفع فكذلك البشر فى طباعهم (٢٦)، وسيأتى لهذه النقطة مزيد ايضاح عند الكلام عن أصناف البشر وموقفهم من الدعوة •

وأسجل هنا باختصار أن اختلاف فى المواقف والغايات شامل للمجالات الكونية والاجتماعية والدينية وغيرها ، فالانسان يشكل غالبا مواقف متضاربة فى كل منها •

التسامى بالغاية فى المنهج القرآنى

اذا كان الانسان هو الخليفة الذى كلف بعمارة الكون ، واذا كانت تلك المهمة تقتضى ملكات متعددة لدى الكائن البشرى ، واذا كان هذا المخلوق قد أودع الله فيه هذه الملكات حتى صار وحده هو (صاحب القدرة على التفكير فى العلاقات تفكيرا بنائيا موجها نحو هدف) كما يقول العالم الانجليزى (نايت) (٢٧) ، والذى ينظر فى المحتوى الانسانى

---

(٢٥) اخرجه احمد والترمذى وقال حسن صحيح ، وان كان فيه على بن زيد ضعيف لكن بقية رجاله ثقات : انظر شرح السنة للبغوى ج١٤ ٢٤٠ — ٢٤٢ •

(٢٦) حديث ابى موسى الاشعرى (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم) الى آخره •

(٢٧) د/ فاخر عاقل : طبائع البشر ١٨ كتاب العربى يناير •

خاصة ما يكمن فى أعماقه يجده حاويا لمجموعة هـائلة من المكونات وفيه الروح الصافى ، والقابلية الفطرية النقية وفيه مجموعة الغرائز الذاتية ، ففيه القوى العليا من الادراك الحسى والعقلى والقلبى ، ذات التأثير النفسى الفعال جدا ، وهى تكمن وراء التصرف الانسانى المتعدد بشكل مؤثر للغاية . حتى قيل ان غريزة واحدة كفيلة بتحريك النشاط كله ، والسيطرة عليه ، ويتحمس (فرويد) لغريزة الجنس ، ويخالفه تلميذه (أدلر) فيتعصب لغريزة (تثبيت الذات) (٢٨) وهناك مجموعة أخرى لها نشاط المؤثر القوى الذى لا يغفـل ، وتتمثل فى العواطف والشـعور والدوافع الى آخره ، ومن المعـروف أن تلك المجموعات هى التى تتحكم كلها مجتمعة فى توجيه الانسان ودفعه نحو غايات معينة تتفق والمحركات الرئيسية فى الداخل ، كما أنها هى التى تستحثه على أنواع كثيرة من السلوك والأعمال ، وتستخدم البدن للتعامل مع الكون فى صورة أنشطة عملية استجابة لرغبات داخلية .

وبحكم مشاهداتنا لتلك الأنشطة نستطيع الحـكم على نوع المحرك الداخلى الذى يقبع خلف شـعار البدن ، ويتحـكم التلقين للكائن البشرى وهو يقوم بالدور الذى يمليه عليه هذا الصـوت الداخلى ، ومن خلال ما نشاهده نقول هذا انسان تتحكم فيه قـواه العقلية العليا ، ويفعل الأشياء بحكمة فائقة ، ومثالية رائعة ، ونزاهـة منقطعة النظير ، وهذا آخر يستجيب لغرائزه ، وتعلوه أنانية وذاتيـة بارزتان ، وتسيطر عليه عنفوانية الشره والشهوات الجامحة ، وهـذا ثالث غارق فى عواطفه ، مشحون بوجـدانه ، خاضـع لانفعـالاته والوجدانية ، ويلعب الخيال دورا هاما للتعبير عن تلك الشحنة فى الشعورية ، لا ينظر الى الأشياء الا من خلال تلك الشحنة العاطفيـة الصور اللفظية والسـلوكية ، ومن المعلوم أن الغـرائز والعواطف لا يفعلان الا من خلال سيطرتهما على العقل .

---

(٢٨) المرجع السابق ١٤ .

والاسلام لا يلغى أى مجموعة من تلك المجموعات لحساب الأخرى لاقراره أن الانسان انسان بهذا المضـــمون الداخلى كله ، ولا يبنى أحكامه التكليفية ، أو الغايات التى نتاج لها على أساس أى جانب داخلى معين دون اعتبار للجوانب الأخرى ، وانما يحـــدد الأهـــداف ويرسم الطرق على اعتبار الانسانية فى حقيقتها الجامعة الشـــاملة ، ولا يريد أن يحدث انشطارا فى العناصر الانسانية الداخلية بين بعضها والبعض الآخر ، أو بينها مجتمعة ومن المطالب المـــادية للجسد الذى يعتبر الوعـــاء المـــادى الحاوى للمفهوم الانسانى الواسع •

وبناء على تلك النظرة الشمولية للاسلام فنراه يطالب الانسان بأن يتحمل مسئولية كاملة ازاء تحسين النشاط الفكرى ، وتوجيـــه القوى الادراكية التى تعمل فى اطاره ، وترقية هذا النشاط ، وجعـــله ممتدا فسيحا لينظر فى الكون ، ثم يتجاوزه الى ما وراءه ، ليـــدرك هل يمكن أن يتحرك الكون وحده أم هناك قوة أخرى خلقته وأبدعته وتسيره بانتظام ، واذا كانت العقلانية المحدودة تعمل فى اطار الكون وحده لا تتجاوزه الى ما وراءه ، وترفض هذا التجاوز مدعية أنه ليس وراء الكون المـــادى شىء كما هو الحال عند الدهـــريين القـــدامى ، والمـــاديين الحسيين فى القديم والحديث فان نظرة الاسلام فى تساميها ترفع من شأن العقلية الانسانية وأهدافها المـــادية الجافة لتخـــرج بها الى رحاب أفسح ، والى منطقة من الادراك أرقى فكرا ، وأسمى يقينا ، وأنبل غاية ، انها تحدد تلك العقلية الجامدة الى التفكير فيمـــا وراء المـــادة ، وفى الملأ الأعلى ، وفى سر الابداع الكونى ومصـــدره وبذا تكون نظرة الاسلام أكثر اتساعا • وتقديرا للقوى الادراكية ، وأرقى فى نظرتها للغايات بصورة تفوق نظـــرة المـــاديين التى تقف بأهداف التفكير عند المستوى المـــادى فحسب ، فانظر كيف تشـــبع النظرة الاسلامية الكيان العقلى وتفسح له المجال على حين تخنقـــه النظرة الأخرى فى منطقة ضيقة وتحد من امكانياته المتاحة له ، وقدرته التى يمكنها أن تتجاوز المـــاديات الى ما وراءها !

وما قيل عن نظرة الاسلام فى التسامى بالتفكير يقال عن نظرته للغرائز وأهدافها ، ان الاسلام لا يكبتها ، ولا يحرمها من حق الدفع والتأثير ، ولا من حق الطموح وابتغاء الآمال والأهداف ولكنه ينظمها ويرقيها ، بدلا من أن تنطلق الغريزة الجنسية لتسخر الغرائز الأخر لصالحها ، وتحيل الكائن الانسانى الى صورة بهيمة تميل الى أعراض الآخرين وتتهافت عليه الأعراض لتنطوى بين أحضانه فى غير شرعية صحيحة ، يعطيها الاسلام حق الزواج الذى يتلاءم درجة الاشباع لكل غريزة ، فانكان يشبعها زوجة واحدة فثم هى ، والا فاثنتان ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، فالتعدد من تلك النظرة منوط بالثورة الغريزية ، وفوارنها بهدف اشباعها ، حتى تخمد بتشريع ربانى ، فيتجه الانسان الى طاعة الله فى غير انشغال بأصوات شهوانية فى داخله ، وهذا هو التفسير الذى قدمه الحسن بن على عندما سئل عن سر كثرة الزواج لديه(٢٩) ، كما أنه مشروط باقامة العدل بين الزوجات .

والفارق كبير جدا بين هدف الاشباع فى الاسلام من وراء التعدد ، وهدف الاشباع من وراء الاباحية الجنسية أو شيوع النساء ، ذلك لأن التعدد يقوم على الحاجة القلبية والجنسية ، وعلى احترام قدسية الانسان فى عرضه وشرفه ، واعتباره انسانا له حرمته التى لا تستباح الا بحقها الشرعى وما يترتب عليه من شرائط ، ويضبط منابع النسل وشرعيتها ، ويربى فى ضمير الانسان التقوى وعدم الاعتداء والنزاهة والعفة ، والتعدد يخفف العبء النفسى والضغط العصبى على زوج وزوجة لم يوفقا فى حياتهما ، والشرعية الاسلامية فى الاشباع تقضى على الأسر حالة من الاستقرار ، بعكس الاباحية فانها على النقيض مما قلناه فى مميزات الشرعية الدينية .

ان الاباحية تستجيب للنداء الجنسى حتى ولو لم توجد العاطفة

---

(٢٩) انظر الحلية لأبى نعيم ترجمة الحسن بن على .

القلبية ، فيكون الانسان حيوانا يلتقى بآخر دون سابق صلة أو رابطة ، وهى تنتهك حرمة هذا المخلوق المكرم فى اسمى قدسياته وهو العرض ، وهى الأخرى تفرط فى أرق ممتلكاتها وهو شرفها ، والعجيب الذى يثير الحيرة والاشمئزاز لدى دعاة الاباحية فى الغرب أو الشرق هو أن الغربيين بالذات يحرصون كل الحرص على ما فى أيديهم من أموال ، ويضنون بها حتى على أولاده بينما لا ينظرون الى العرض نظرتهم الى المال ، ويضيق الانسان ذرعا بالانفاق على الآخرين ، ويسر سرور عظيما عندما يجد ابنته مستمتعه مع صديقها •

والاباحية الغربية لدى الوجوديين والشيوعيين والرأسماليين تهدر شرعية النسل ، وتفسد منابعه الضابطة ، وأيضا فان جريمة العرض لا تنفك عن بقية الجرائم كلها ، ذلك لأن أى جريمة تخل بانضباط الضمير ، وتقلل من نظرته باحترام الى أشياء الغير ، والى الأمور التى لا يملكها الانسان بوجه شرعى ، وبالتالى تضيع معانى كثيرة يمكن أن تحيا فى هذا الضمير أهمها العفة والنزاهة ، ثم ان تفكك الأسر ، وانقطاع الصلات بينها ، وضمور العواطف الأسرية والاجتماعية كلها نتيجة سوء الأخلاق التى سرت فى المجتمعات الغرائزية •

واذا انتقلنا الى غريزة حب الذات والتملك وجدناها تقوم فى أوربا على الربا والاحتكار ، وتطفيف حقوق العاملين للحصول على أكبر هامش ربح للرأسماليين ، وهى لا تميل كثيرا الى البذل والتضحية فى سبيل الآخرين ، وتندر حوادث المروءة بينهم ، تلك الأمور التى تنعدم فى النظرية الاقتصادية التى بمقتضاها يتحقق للفرد قدر كبير من التملك ، ويتكلف قسطا لا بأس به من التعاون والانفاق لاسعاد الغير ، فلا بأس أن يملك وينبغى أن يملك ، واذا ملك قام بحق الملك طبقا للتصور الاسلامى •

وتتميز الفكرة الاقتصادية الاسلامية بأنها تجمع بين الجـانب المـادى والروحى والأخلاص ، ذلك لأنها تبيح الامتلاك ، واشـباع الغريزة لذلك ، وفى الوقت ذاته تلزم الانسان ضرورة التحرى الدقيق لمصادر ثروته ، فلا يلج أى باب من أبواب المحرمات للحصول عـلى مغنم أيا كانت مبررات ذلك . وعليه أن يتحقق بالتقـوى والورع من المنبع الى المصب ، أى من بداية اتجاهه نحو مصادر الثروة ، وأثنـاء حصوله عليها وأثناء الانفاق . والاسلام يلفت نظر ذوى الأموال الى أنهم مسئولون عن أموالهم من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها ، وينبههم الى حقوق السائلين والمحرومين ، والفقراء والمساكين ، وأصـحاب الحاجات والمديونين والى جميع أوجه الخير التى ينبغى عليهـم أن يطرقوها ويتعاونوا فيها ، وربط الاسلام بين أوجه النفقات المـالية وبين التزكية النفسية والسمو الروحى ، وامتـدح جميع الخـلال النفسية المترتبة على الأموال مثل الجود والكرم والسخاء الى آخره . ومن ثم يمتزج الجانب المـادى بالعقيدة والتشريع والسمو الروحى والأخلاقى فى فكرة واحدة من أفكار الاسلام .

وهكذا يقال فى كل غريزة ، ان الاسلام يرقيها ويتسامى بهـا ويرسم الأهداف والغايات وصولا الى ذلك ،

وأما بالنسبة للجانب العاطفى والوجدانى فان الاسلام قـد شرع له من العبادات والقربات ؛ ومن الرقائق والصفات التى تسمو به الى درجات عليا من الشعور والاحساس ، فهناك الخشية والخوف والرجاء ، والرضـا والقناعة ، والزهد والمحبـة ، وهناك وسـائلها من دوام الطاعة والذكر والاستغفار والمراقبة والمحاسبة ، وكلها تنمية حساسة لدواخل الانسانية العاطفية والوجدانية .

وفى النهاية يتضح لنا أن الاسلام ينقذ البشرية من الانحطاط الغائى وقصوره ومحدوديته ، ويحول الغايات من مادية دنيوية وروحية

وأخروية ، ومن اشباع جانب انسانى على حساب آخر الى امتاع الجوانب كلها مع تهذيبها وتربيتها ، ومن تمسك الانسان فى أهدافه بذاته فحسب الى اعتبار **الذات** والاخرين ، **ويرفض الاسلام** الجنوح الى أى من الطرفين : **المادى أو الروحى ، ويوجه** الانظار الى العمل من أجلهما معا ، **وهذا هو عنصر القوة النفسية** والروحية ، وعنصر القوة الاجتماعية ، والجنوح الى المادية أو الروحية هو الفكرة التى حار بها النبى صلى الله عليه وسلم .

لقد رفض **فى** كثير من المواقف ميول بعض الصحابة واتجاهم الغالى نحو الآخرة فحسب ، ونصح مرارا عبد الله بن عمرو بن العاص الى الاعتدال فى القيام والصيام ، كما نصح ثلاثة من صحابته تقالوا عبادته ، وعزموا على الاكثار من الصلاة والصيام وعلى اعتزال النساء ، كل واحد مال الى جانب . ورفض فكرة خامرت ذهن أبى بكر وبعض الصحابة أن يجبوا المذاكير ويتفرغوا للعبادة ، وفى الوقت نفسه يستحث عبد الله بن عمر على قيام الليل لما رأى فيه من مواهب الصلاح البارزة والمبكرة ، وأحيانا كان يرقق قلوب الصحابة بالذهاب الى المقابر والاعتبار ، ويحذرهم من تسلط الدنيا عليهم ، وأنه لا يخاف عليهم شيئا أكثر من تسلط الدنيا واهلاكها ، كما يحذرهم من نفوسهم ، ويعتبرها أعدى الأعداء ، وبهذا يقيم الاسلام التوازن الغالى ، ويتسامى بالنزعات الانسانية الى درجة مثلى ، هى درجة الربية أو الربانية ، هاتان الدرجتان اللتان جاءتا فى سورة آل عمران (٣٠) ، وتحت تأثير هذه النصائح والتوجيهات ذاق الصحابة شيئا من هاتين الدرجتين حتى قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم (نكون عندك فتكاد تصافحنا الملائكة) وعن طبيعة الاعتدال والتسامى يقول المرحوم سيد قطب .

---

(٣٠) الآية ٧٩ ، ١٤٦ .

(ان الاستغراق فى شهوات الدنيا • ورغائب النفوس ، ودوافع الميول الفطرية هو الذى يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ، ويدفع بالناس الى الغرق فى لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ، ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الانسان العظيم فى هذه الأرض ، واللائقة كذلك بمخلوق يستخلفه الله فى هذا الملك العريض) •

ويقول :

(ولما كانت هذه الرغائب والدوافع — مع هذا — طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارى جل وعلا أن تؤدى للبشرية دوراً أساسيا فى حفظ الحياة وامتدادها فان الاسلام لا يشير بكبتها وقتلها، ولكن الى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ، والى أن يكون الانسان مالكا لها متصرفا فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ، والى تقوية روح التسامى فيه والتطلع الى أعلى) (٣١) •

ولا بأس بعد هذا أن نضرب على عملية التسامى مثالا واحد كى يتضح الفرق بين حالة الانحاط الغائى والتسامى المنشور •

صورة من صور التسامى فى القرآن

يقول سبحانه وتعالى : **(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (٣٢)** •

---

(٣١) فى ظلال القرآن ح١ ٣٧٣ •
(٣٢) آل عمران ١٤ — ١٧ •

ولتوضيح تلك الدقيقة من كتاب الله يجدر بنا أن نضعها في نقاط محددة •

أ — التوجيه القرآني العام في الصورة :

تحدد الآيات على نمط التوجية القرآني في مثل هذه المناسبات ، حيث يسوق الله حال الكافرين ، ويصف طبيعة تفكيرهم بما يناسب الموقف المذكور ، ويسوق في الموقف ذاته حال المؤمنين وما انطوت عليه نياتهم وما تميزوا به من مميزات ملائمة للموقف ذاته ، كل لوحة نقش عليها ما انطوت عليه هذه النفس من دوافع وأهداف ، وميول وغايات ، ومسالك واتجاهات ، ويكشف القرآن بدقة سوء فساد التصور للنفس الكافرة ، وانحراف مزاجها الفكرى أو منهجها العقلى ، وبالتالى انحرافها في كل ما تذهب اليه بعد ذلك من مطمح أو توجه ، ومن سلوك أو تعبير ، ويكشف التوجيه الربانى كذلك مصدر الخطأ في التصور ازاء كل موقف ، ويتوعدهم بالجزاء والنكال •

وفي المقابل لدى النفس المؤمنة يبين اعتدال تفكيرها ، وسلامة منطقها ، وصفاء فطرتها ، واستقامة الدوافع في نفسها ، كما يبين خيرية الأهداف ومنزلتها ، ويمتدح المسالك التى يتبعها المؤمنون وصولا الى أهدافهم الفاضلة ، ويعدهم بالفضل العميم ، والثواب الجزيل ، ولا شك أن عرض وجوه النفس البشرية على هذا النحو يبصرنا بطبائعنا ، ويعلمنا الدوافع الأساسية فينا ، ويحذرنا من التردى الطبعى وما يصير اليه حال هؤلاء ، كما يطلعنا على منابع الخير فينا لنزداد منها ، ويبشرنا بالمصير المشرق الذى ينتظر من استقام طبعا ، واعتدل سلوكا ، وسما غاية ، وهو عرض يفصل في كل موقف غائى أو سلوكى أو اعتقادى أو تشريعى دنيوى أو أخروى فصلا تاما، ويميز بين الفريقين تمييزا صحيحا •

وهو أمر لا ينتج تبشيرا وانذار فحسب بقدر ما يوضح للانسانية

تعدد نواياها ودوافعها واتجاهاتها ويعزل فى دقة وجوه الباطن عن الحق ، ولا نشك لحظة واحدة أن هذا يجعل الحكم على المواقف بالنسبة لنا أمر سهلا ، وقائما على اليقين لا على التخمين ، والداعية فى أشد الحاجة الى هذا الفصل بين المواقف ليتضح معالم الحق عنده، وليدرك بوضوح تام طريقة الذى يسلكه . ولا تختلط عليه المسائل ومنابعها ، وهى مسلك يزيده رؤية بدعوته التى يتحمس لها دائما بمقدار وضوحها فى ذهنه .

وانبثاقا من ذلك فان السياق الذى معنا يوقفنا على رغائب بعض النفوس الدنيئة ، ودوافعها الأرضية وميلها الى الحظوظ الدنيوية ، والى المتع الزائلة ، تلك المتع التى لا تسعد النفس فى الدنيا عند فهم الأمور على حقيقها ، ولا تسعدها فى الآخرة على القطع ، وفى مقابل هذه الصور يخبرنا المولى عز وجل فى يقين تام عن صور نفسية أرقى تطلعت الى الحقائق لا الى الزينة ، والى السعادة الدائمة لا الى المتع الفانية ، وهى نفوس استقر يقينها بالايمان ، وتهذبت بالتقوى والصبر والصدق ودوام الضراعة الى الله سبحانه ، وكثرة اللجوء الى جنابه العظيم بالاستغفار والانابة ، وبالجود والسخاء والانفاق .

ب — الغايات الدنيا وترتيبها النفسى :

والجانب الأول من تلك الصورة القرآنية التى معنا يتحدث عن غايات حسيسة يعيش عليها أرباب القصر النظرى ، وأصحاب الهمم المحدودة فمن يرون سعادة فى المطعم والمشرب ، والاستجابة للنفس فيما تشتهى ، وكل واحد من هؤلاء يلبى نداء حسه وأنانيته ، ويصغى لأصوات المتعة تصرخ فى أعماقه فيستجيب لها من غير وعى ولا يقظة ، وجل اهتمامه فى حياته منصرف الى المنافع واللذائذ الحقيرة ، ترى الواحد منهم يقظا لكل عاطفة رخيصة ، وأهداف دنيئة ، حيا مع ذاته ، حيوانى النزعة ، شهوانى السيرة خاضعا للدوافع الشريرة أو المنحطة.

ونجد أن ترتيب الغايات أو الشهوات التى جاءت فى الآيات هو ترتيب منطقى يتفق مع الطبيعة الانسانية ، تلك الطبيعة التى تتجه أولا الى شهوة النساء بالحاح شديد ، ويتفق القرطبى وأبو السعود والشوكانى على أن تقديم النساء يرجع الى كثرة تشوق النفوس اليهن ، ولأنهن حبائل الشيطان ، وفتنتهن للرجال أشد من جميع الأشياء (٣٣) ، وأخرج البخارى ومسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله (ما تركت بعدى فتنة أشد على الرجال من النساء) .

واذا ما حصل على النساء تطلع بعدهن الى الذرية لا سيما البنين ، ولقد جبلت النفوس على ذلك أيضا ، والوقائع أمامنا تنطق بذلك ، وعندما يجمع الحالتين تهفو نفسه الى المال الكثير ، ورغبته فيه لا تقض عند حد محدود ، فلو أعطى واديا لتمنى ثانيا (ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب) ولذا عبر القرآن معه بالقناطير المقنطرة ، وهو تعبير يدل على الرغبة العارمة فيه ، والنفس مع هذا طلعة الى الزيادة باستمرار كما أنها متطلعة الى تنوع الملكية من مال يكنى عنه بالذهب والفضة ، أو ملكية عينية كالخيل والأنعام والحرث ، وكلها صنوف من الأملاك ، تعود الى المال وتقوم به ، وهى رغبة ملحة فى الانسان .

والقرآن الكريم فى استخدامه للألفاظ الدالة على العلاقة بين العبد وأهدافه الدنيوية المذكورة وما تحققه له من راحة يستعمل لفظتى الزينة والمتعة .

أما لفظة الزينة فانها توحى بوضوح الى أن هذه المشتهيات من قبيل التزين لا الحقيقة ، وأن النفس حال اتصافها بهذه الآمال فانها

---

(٣٣) تفسير القرطبى ج٤ ٢٩ ، وتفسير ابى السعود ج١ ٤٥٠ ، وفتح القدير ج١ ٣٢٣ .

تتزيى بها فقط ، ونحن ندرك الفرق بين الزينة فى شىء وحقية هـذا الشىء الجوهرية ، ولفظة المتعة تشير الى سرعة الزوال لمـا يستمتع به ، لأن المتاع ما يتمتع به ثم يذهب ولا يبقى ، والتمتع به منـوط بتلك الحياة الدنيا كما يرى المفسرون (٣٤) •

جـ — منبع الغايات الدنيـا :

يحدد القرآن منبع الميول نحو الأهداف الوضيعة ، ويذكـر أن الشهوة هى المحرك الأساسى لكى يتجه الانسان الى هذه الغـايات السفلى ، ولكى نفهم معنى الشهوة الباعثة على هذا النوع من الغايات يلزم أن نقف عند معناها واستعمالها فى الشرع وقفة قصيرة ، وذلك لأننا بين الشهوة المحمودة والمذمومة الا بالوقوف على المعنى اللغوى والشرعى •

وبالنظر فى كتب اللغة نجد أنها تعنى الحب والرغبة فى الشىء(٣٥)، ويعرفها فيقول : (هى حركة النفس طلبا للملائم)(٣٦) ، ويقرر القاضى الشوق الى طلب أمر ملائم للطبع ، أو حركة النفس طلبا للملائم)(٣٧)، وهذه المعانى اللغوية والاصطلاحية لا تختلف عن بعضها فى تفسـير الشـهوة ، مما يشير الى أن المعنى الاصطلاحى بنى على اللغـوى كما ترى ، والمعنيان يعرفانها بأنها الحركة النفسـية المتمثلة فى الحب والرغبة والشوق والرامية الى طلب أمر ملائم لمـا فى الطبع • تلك الحركة التى لا توصف بأنها خارجية ولا عملية ، وانما هى نفسـية

---

(٣٤) تفسير أبو السـعود ج١ ٤٥١ ، والقـرطبى ج٤ ، وفتـح القدير ج١ ٣٢٣

(٣٥) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ج٤ : ٣٥٠

(٣٦) نقلا عن المعجم الفلسفى ٤٠١.

(٣٧) جامع العلوم اصلاحات الضنون ج٢ ٢٢٧

داخلية تتطلب أمورا تتفق مع الطبيعة البشرية ذات الميول والعشق ، وهى أقوى تأثيرا فى النفس والبدن من مجرد الميل لكونها حالة حب وعشق ، فهى ميل وزيادة ، ولا يخفى علينا أن تلك الحركة العشقية لشىء ما هى عنوان الطبيعة الانسانية ، والدالة عليها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فان الشهوة بهذا المفهـــوم السابق لا تفارق أى انسان ، ولا توجد لدى طبائع دون طبـــائع ، بل تعبر عن جميع الطبائع الانسانية على اختلاف مطالبها وأغراضـــها ، فأصحاب الطباع الخيرة يحبون ويعشقون المـــلائم لهـــم ، وأرباب الطباع الشريرة يتحركون فى رغبة ولهفة الى ما يلائمهم أيضا ، وبالتالى فالشهوة لا تفارق أصحاب الغايات العليا ، ولا طـــلاب الأهـــداف الدنيا ، وليست مذمومة أبدا أو محمودة أبدا بناء على مصـــاحبتها للانسان فى كل حالاته ، ولكن تذم باعتبار وتمدح بآخر .

أما ذمها فباعتبار المـــلائم الذى طلبته موافقا لانحدار النفس التى هى حركتها ، ولمـــا انحدر الطبع لدى فريق من البشر فعشـــق أمورا وضيعة النتائج ، قليلة السعادة صارت تلك الحركة النفســـية المسماة بالشهوة مذمومة ، ونحن نعرف تلك الحركة ، ونعرف معا طبعها من خلال التصرف الخارجى لهذا الفريق ، ومن خلال السعى الدائب ، وحصر الجهـــد فى أمور نراها نحن ليست على المستوى اللائق لأن يحصر الانسان كل همه ونشاطه فيها ، ويعدل هذا الفريق عن المطالب العليا والغايات المثلى التى تستحق كل همة ، ويصغر دونها كل جهد ورغبـــة .

والشهوة المذمومة الدالة على قصور فى مطمح أفرادها هى التى وردت فى السنة بمعنى الشهوة الخفية أو او الشهوة الطاغيـــة ، أو شهوة الغى[٣٨] ، وهى التى جاءت فى القرآن فى النص الذى معنـــا ،

---

(٣٨) راجع مادة : شهوة فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ج٣ ٢٠٨

وفى مثل قوله تعالى (**انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النســاء)** الأعراف ٨١ وفى النمل ٥٥ **(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)** النساء ٢٧ **(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** مريم ٥٩ ، وكلما جاءت تدل على حالة مذمومة وردت مقيدة بهذه المذمومات التى تخرج الشهوة عن المعنى العام لها ، والحالات التى تذم ، وتذم معها حركة النفس المسماة بالتشهى هى تلكم الحالات التى يتخلى فيها الطبع البشرى عن المحان ، وعــن الغايات العليا ، ويتجه الى ما سفل من الأهداف والى ما هو متعة مؤقتة ، عندئذ يصير الطبع وحبه وعشقه وحركته ، وأهدافه كلها مذمومة .

وأما اذا استقام الطبع فتوجه الى الأغراض النبيلة ، والمطالب الشريفة ، وعشقت النفس هذه الأشياء ، وعملت من أجل تحقيقها ، فتلك حركة نفسية محمودة ، وشهوة نحو الخير والحق والفضيلة فى أوج التسامى ، ومثل هؤلاء من أصحاب الغايات العليا لهم ما يشتهون عند ربهم ، ولهم مايشتهى أنفسهم من مختلف اللذائذ الحسية والمعنوية فى الآخرة ، ولفضل هــذا التشهى وســمو منزلته يذكر الله سبحانه مشتقات لفظة الشهوة مع المؤمنين عند الحديث عن اجابة ما يطلبون فى الآخرة ، بينما يذكر الشهوة مصدراً مع الفريق الهابط عندما يطلبون متعهم فى الدنيا .

والنتيجة النهائية تتلخص فى الآتى :

ان الشهوة عامة تدفع على الأعمال كلها ، وان ذمها أو مدحهــا لاعتبار معين .

• ان الشهوة المذمومة هى التى تهفوا الى الغايات الدنيا وتطلبها ملاءمة لطبعها .

• ان السنة قد سمت هذا النوع بالشهوة الخفية أو شهوة الغى، وبذا فقد فسر الحديث ما جاء من آيات تتحدث عن تلك الشهوة بصورة تشبه الاطلاق .

• ان الشهوة ضرورة لدفع الانسان الى العمل ، ولكنه ينبغى أن يتجه الى الغايات العليـا فان فعل ذلك فله ما يشتهى عنـد الله يوم القيامة •

(د) الصورة المشرقة من الغاية :

وتأتى الصورة المتسامية التى تحمل الغايات العليـا ، ويتطلع اليها النبلاء من البشر ، وتتحرك نحوها مشاعرهم وعواطفهم ، وتنعم بها قلوبهم وعقولهم ، وينصاع لها كل جانب من جوانب شخصيتهم ويندفعون اليها بكل قواهم فى حماسة وقودة ، وأرباب هـذه الغايات تواقون الى الحق ، وباحثون عن اليقين ، ونزاعون الى الخير الدائم ، ومشتاقون الى القربات ، يحسنون علاقتهم بربهم ، وعلاقتهم بالخلق ، ويحاولون تحقيق السعادة لأنفسهم ، ويسعون لاسـعاد البشرية ، يرون حياتهم لمهمات عليا لا لأهداف دنيا ، ويدركون بوعى أنه لا يمكن لهذا الانسان وهو كائن عظيم أن يخلق لمتع ذاتية محدودة ، وانما لابد أن تكون الغاية من وراء خلقه أسمى من هذا بكثير ، انها غاية ممتدة من الكون الى ما وراءه ، ومن البحث فيه الى معرفة خالقه ومبدعه ، وطاعته وعبادته على وجه يليق بذاته حسب ما شرع وأمر •

وبعبـارة أخرى ان فريقا من البشر قـد اعتدل ميزان عقـله وانضبط ، وصفا قلبه ورق ، وتهذب طبعه وارتقى ، فعشق بعد ذلك ألوانا أخر من الغـايات ، تتجه الى امتاع النفس بحقـائق اليقين والايمان ، واشباعها بموفور الطاعة وخالص الانابة ، ورأى هذا الفريق أن تلك الغايات هى اللائقة بقيمة الانسان وعظمته فى الحياة • فانتصروا لها على أنفسهم وشهواتهم ، وأنانيتهم وملذاتهم •

ان كل واحد من هذا الفريق جمع عقله وقلبه وشعوره وعواطفه ونوازعه النفسية فى قوة واحدة واستعان بها للانتصـار على النفس الخادعة ، وعلى الشيطان الذين يزين بالسوء للانسان ، واستقر بتلك

القوة على طريق التوحيد والطاعة والتقوى والصبر والصدق والانابة، ان كلا منهم يجمع عقـله وقلبه وشعوره وعواطفه ونوازعه النفسية فى مركز واحد يشعله بنور الوحى ، ويضيئه بسراجه وكل واحد منهم عندما يفتح كتاب ربه ليقرأه بعينه فاذا هو مطبوع على قلبه ، منبسط على جوانب نفسه ، واذا هو غذاء لفكره وعقله ، هاد لسيره ، حاكم على خطاه ، حاد لمسيرته ، ميثاق حياته ، ونبراس تأملاته ، ومتعته فى وحدته وخلوته ، يركن الى حقائق عقلا ويجـد حلاوته فى قلبه ذوقا ، ويطيب به نفسا ، وينفعل به سلوكا ، ويتحمس له دعوة ، يحيا به فى معاملاته ويجب أن يراه كذلك عنـد الآخرين .

ان الانسان الذى اتضحت له تلك الغاية يحيا فيها عبدا لله وحده لا عبدا لغرائزه ، عاملا لأخراه لا لدنياه ، يبصر ما حوله ومن حوله كما يبصر المستقبل لا أنه أعشى الرؤية فلا يرى الا موضع قدميه ، هذا هو انسان الغاية السامية ، وتلك هى غاية وأهدافه .

(هـ) منبع الغـايات العليا فى النص القـرآنى :

وكما أشار النص القرآنى الى منبع الغايات الدنيا وأنه الشهوات فقـد صرح بالأساس الذى تنبع منه الأهداف السـامية وهو التقوى وما يتبعها من مقتضى ، والمنبعان متقابلان تمام التقابل ، ووجه التقابل بينهما أن الانسان الذى يقع تحت تأثير الشهوات الخفية يجنح الى الذات ، وينحرف نحو اشـباع مطامعه ، كما أنه فى السـاعات التى تسيطر عليه شهوته يفقد سلطان الضمير ، ويتوارى عنصر المراقبة .

وأما فى الحالة الراقية فان التقوى تعبر عن طبيعة قانعة ، وعن نفس معتدلة القوى والغرائز ، وتدل على أن العقل الانسانى يتحكم بقوة فى ضبط الجوانب النفسية ، وتصير حالة التقوى بعد ذلك ضابطة للرغائب النفسـية وحافظة لها عن الميل والزيغ ، وموجهة للطبيعـة البشرية نحو المراقى العليا ، وبذا تكون هنـاك عوامل ثلاثة تعاونت لاحداث التسامى نحو الغايات الربانية .

العامل الأول : ويتمثل فى حسن الاستعداد النفسى ، وتوازن قواها ، بينما يظهر العامل الثانى فى احكام العقل لقبضته على النفس والزامها الأحكام الصائبة ، وتحت ضوء هـذه الأحكام العقلية التى ضبطت النفس على موازين هى أحكام الشرع فى الحقيقة تولدت حالة التقوى وهى العامل الثالث •

وعن طريقها صار الانسان يتوقف كثيرا أمام الأشياء ليميز فيها الخبيث من الطيب ، والحلال من الحرام ، والدنيء من الرفيع ، ثم بعد التمييز تكون عملية الاختيار والاستقرار على وضع معين ، والسير على الغايات التى انتقاها الانسان التقى ، ولقوة تأثير عنصر التقوى يقول سيد قطب ان الشعور بالتقوى هو دائما ((شعور مهذب للروح والحس جميعا ، شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وأن تنساق فيها كالبهيمة ، فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون الى هذا المتاع الحسى الذى يبشرون به يتطلعون اليه فى شفافية مبرأة من غلظة الحس ، وفى حساسية مبرأة من بهيمة الشهوة ، ويرتفعون بالتطلع اليه وهم فى هذه الأرض قبل أن ينتهى بهم المطاف الى قرب الله)) [٣٩]•

وهذا يعنى أن عنصر التقوى سما بالنفس عن المتع الحسية فى الدنيا والآخرة كذلك ، وكان من قبل قد سما بها عن الغايات الدنيا الى العليا •

من أوصاف المتقين أنهم يعلنون ايمانهم القوى بالله ، ويصبرون ويصدقون ويقنتون وينفقون ويستغفرون ويسعون الى تطهير الظاهر والباطن بصفة دائمة ، وأنهم يفعلون ذلك وهم يتجهون الى أسمى غاياتهم وهى مرضاة الله والانصياع لأمره وحكمه •

---

(٣٩) فى ظلال القرآن ج١ ص٣٧٥

(و) دلالات التسامى فى النص :

حكم القرآن الكريم بوضاعة الغايات الدنيا منبعا ونهاية وحقيقة أما وضاعة المنبع فيرجع الى حال الشهود ، ووضاعة النهاية فتعود الى المتعة الفانية ، ووضاعة الحقيقة فتنتمى الى الزينــة التى هى أمر عارض لا تمت الى الجواهر الراقية بصلة ، ولكن أحكام القرآن الكريم تشيد بالغايات العليا وترفع من شــأنها الى أبعــد الحدود ، وتتبنى الاشـــادة على الجوانب الثلاثة أيضــا وهى : المنبع ، والحقيقة ، والنهــاية .

أما المنبع فكلنا يعلم الفارق بين جنوح الشهوة وضابط التقوى وبين صـــلافة النفس وغرورها ويقين الايمان واشراقه ، ولمــا كان الفارق بعيــدا الى ما لا نهاية فان الله سبحانه قــد ساق للاعلام به لفظتى الانباء والخيرية .

والانبـــاء فى اللغة يأتى بمعنى الاخبار ، ويأتى من نبأ نبــوءا أو نبوة أى ارتفع (٤٠) ، واذا استعملت أى كلمة استعمالا اصطلاحيا حيا لأكثر من معنى فينبغى أن يصرف كل معنى اصطلاحى الى نظيره فى اللغة كلما أمكن ، وبنـــاء على هذا فان كلمة الانباء ترد أحيانا على لسان البشر ، كما ترد على ألسنة الرسل ، أو للدلالة على ما يوحيه الله للأنبياء من حوادث أو أختار خاصة .

فان جاء على ألسنة البشر مثل قوله تعالى (**فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض**) ٣ التحريم وكقوله (**أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض**) ١٨ يونس (**أنا أنبئكم بتأويله فارسلون**) ٤٥ يوســف (**يايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**) ٦ الحجرات فتنصرف فى تلك الحالات الى المعنى اللغوى الأول وهو المرادف للخبر المحتمل للصدق والكذب .

---

(٤٠) القاموس المحيط ج١ ٢٩ ، ودستور العلماء ج٣ ٣٩٥

وعندما تستعمل فى المجال الدينى على ألسنة الرسل أوفيما يوجبه الله اليهم فانها تدل على وضوح اليقين وثباته ، ومن هنا فالأولى أن تنصرف الى المعنى اللغوى الثانى ، والذى يدل على أنها من ارتفع ، وذلك لأن حديث الوحى لما ارتقى فوق أى احتمال للصدق والكذب ، وسما عما يحويه الخبر من الوجهين المذكورين جاز بذلك بل ولزم أن تتجه الكلمة الى المعنى اللغوى الدال على الرفعة وعلو المنزلة للكلمة ، وبمثل هذا الاستعمال جاء قوله تعالى(**وأوحينا اليهم لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**) ١٥ يوسف (**نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم**) ٤٩ احجر (**يحذر المنافقون أن ينزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم**) ٦٤ التوتة الى غير هذه الشواهد •

وللتأكيد على تسامى الغاية العليا الخاصة بالمؤمنين استخدم القرآن هذه اللفظة لتفيد اليقين ، وارتفاع درجة هؤلاء عن تلك الحال المنحدرة لدى الكافرين •

واللفظة الثانية التى سيقت للتعبير عن سمو الغاية العليا منبعا هى كلمة الخيرية فى قوله تعالى (**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم**) وانما كانت دالة على ذلك لأن اثبات الخيرية لجماعة يثبت عكسها للأخرى فاذا ثبتت الخيرية للمتقين فى غايتهم ثبتت الشرية لأرباب الشهوات فى أهدافهم بخلاف ما لو قال (أخير) التى هى أفعل التفضيل فانها لا تثبت الشرية لغير المتقين بل تجيز لهم الخيرية لأن أفعل التفضيل لا يلغى الاشتراك فى أصل الصفة بل يجوزه مع زيادة احداهما على الأخرى فيها ، والله سبحانه ينبه الى أنهما متقابلان من كل جهة فلا بد أن ترد كلمة الخير لا أخير •

ومن الجوانب التى أشاد بها القرآن ، وأعلى من شأنه الغاية العليا بها ما نراه من اعتبار الايمان والتقوى والقربات ، وكلها حقائق هامة فى مقابل الزينة التى يتزين بها أرباب الغايات الدنيا ، وكلمة

الحقيقة وان لم تأت هنا للدلالة على ما نسوقه فانها جاءت فى مواطن كثيرة من كتاب الله تدل على أن الايمان حق ، والعبادة حق ، والانصياع لأوامر الله حق ، والحق والزينة يتقابلان تقابل التضاد .

ويبقى تقابل الصنفين من الغايات فى النهاية أو السعادة ، فنجد أن التوجيه الربانى قـد سما بالغايات الدنيا لدى الصنف الأول ، ولم يحرم النفس المتقية حقها من الاستمتاع بها فى الدنيا ، وطبقـا لمـا حدده الاسلام ، فى الآخرة كذلك ، فيخبر تلك النفس المؤمنة انه أعد لها أزواجا مطهرة عوضا لها عن النساء فى الدنيا ، والبون شاسع بين نساء على أى شاكلة يرغب فيهـا طلاب الشهوات ، وبين أزواج مطهرة ينتظرون المؤمنين يوم القيامة ، وكذلك يتسع الفرق بين الرغبة فى أموال وخيل وأنعام وبين الحديث عن الجنات بالصفة التى تحدث عنها القرآن ، فالأولى متاع زائل والثانية نعيم مقيم ، وحول التأكيد على أبدية السعادة الأخروية فى مقابل فناء السـعادة المحدودة فى الغايات الدنيا يقول الحق جل جلاله مسجلا هذه الأبدية (خالدين فيها) وكثيرا ما ترد كلمة (أبـــدا) مع الخلود .

وفوق السعادة الحسية المشار اليها يزيد الله أصحاب الغايات العليا درجة أخرى من الرضوان عندما يقول (ورضـوان من الله) وفى آية أخرى ترد كلمة (أكبـــر) مع الرضوان [٤١] ، وهـذا كله هو (حسن المـآب) على وجه الحقيقة بكل اعتباراتها ، وهـو التسامى الراقى لمطالب الانسان الحسية والروحية ، يقول الكلبى فى تفسيره عن الرضوان : انه (زيادة الى نعيم الجنة ، وهو أعظم من النعيم الحسى السـابق) [٤٢] ويقول أبو السـعود (رضوان وأى

---

(٤١) التوبة ٧٢
(٤٢) التسهيل ح١ ١٠٢

رضوان ، لا يقادر قــدرة كائن ، وهو منحة من اللــه سبحانه) [٤٣]
أما القرطبى فيراه الرضوان المقابل للسخط ، وفى ذلك يقول (والرضوان مصدر من الرضا ، وهو أنه اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى لهم (تريدون شيئا أزيدكم) ؟ فيقولون : يا ربنا وأى شىء أفضل من هــذا فيقول (رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا) أخرجه مسلم .

نسأل الله أن يمنحنا حال الرضا فى الدنيا والرضوان فى الآخرة انه نعم المولى ونعم النصير .

---

(٤٣) التفسير ج١ ٤٥٢ وانظر تفسير القرطبى فى نفس الآية .

الفصل الثاني

أبرز الغايات الكونية

تمهيـــد :

قـد يقول قائل ما للكون ولغايات الدعوة ؟ خاصة اذا علمنا أنها تتجه لمخاطبة الانسان الذى تحمل الأمانة التكليفية بالعقل الذى ظفر به دون بقية الكائنات ، وأنه صار محلا للخطاب الالهى على اعتبار تلك الملكات الادراكية المنبثة فى كيانه ، ويختلف الخطاب بالنسبة اليه عن الخطاب العام الذى يخاطب الله به الكائنات الآخر وذلك من جهة كون الخطاب الأول مبنيا على التكليف الاختيارى ، والثانى قائما على الاضطرار والجبرية ، والانسان هو الكائن الذى يدرك غايته والطريق اليها ، من هنا صح للقائل أن يلقى اعتراضه السابق ، ما للكون وللحديث عن غايات الدعوة وهى موجهة أساسا للانسان دون بقية المخلوقات ؟

والمبررات التى تقدم للاجابة عن هـذا تتلخص فى أن الحديث عن الغايات الكونية يوضح أن كل موجود مرتبط بغاية معينة ، وله رسالة خاصـة يقوم بها فى الحياة سواء كان يدريهـا كما هو حال الانسان أولا كما هو الشأن عند بقية المخلوقات ، وأيضا فان اظهار الأهداف الكونية فى التسبيح والسجود ، وفى التسخير تؤكد للانسان حقيقـة هامة مؤداها أن كل مخلوق مكلف بطريقة تتناسب مع ايجاده كى يعبد الله وحده وكى يقوم بنشاط وجودى يتـلاءم مع طبيعته ، وليس الانسان هو الكائن الوحيد الذى ألقيت عليـه تلك التبعات ، وكذلك فان ابراز الأهداف الكونيـة يزيد الانسـان المؤمن ايمانا ، ويخرج المنكر من موقفه عندما يستخدم بيان الأفعال الكونية الهادفة فى اقناع هـذا المنـكر ، ومحاولة هدايته ، لهـذه الاعتبارات دخلت الغايات الكونية بين ثنايا الحديث عن الغايات الانسانية العليا ، ويلزم على الداعية معرفتها حتى يقف على أسرار الوجود المشاهد لا سيما فى نمط عبادته لله ، وهو فى حاجة الى تلك الدراية الواعية كى تكون مادة علمية له يستثمرها فى دعوته واقناعه وجدله ، وفى تثبيت ايمان

المؤمنين ، أو فى افحام الملاحدة والمــاديين ، وما من يوم كانت دراسة الكون للدعاة ألزم منه فى يومنا هذا لظروف تتعلق بالانقلاب العلمى الهائل الذى يعيشه انسان هذا العصر .

التســـمية :

بصرف النظر عن كون الأسماء توقيفية كما هو رأى الأشعرية ، أو وضعية كما يذهب المعتزلة فان البحث فى هذا المجال لا يكون مفيــدا من الوجهة النظرية الا عندما يكون الحديث مرتبطا بالذات الالهية ، أو بمسألة تخصها وحدها ، وذلك لدقة الاســتعمال وتعلقه بمســألة عقدية ، وتبعا لهذا فاننا يجب أن ننظر بعين الاعتبار الدقيق الى اطلاق الأسماء على الكون الذى نعيش فيه ، وأن نقف طويلا أمام الالفاظ التى نســتخدمها فى التعبير عنه أو عن فعل الله فيــه ، وألا نسمح لأنفســنا فى تجاوز التعابير التى سيقت فى المجال النصى ، والســبب يرجع الى أن النصوص الدينية راعت اعتبارات معينة تتعلق بالخالق جل جلاله ، وبالخلق وتكوينه ، وبنفس هذه الاعتبارات أطلق القرآن الكريم على مجموع المخلوقات ألفاظ محددة مثل : كلمة شىء ، والخلق ، والملك والسموات والأرض ، والعالمين جميعا لا مفردا .

وأما كلمة الكون المستعملة كثيرا على أفواه البشر فان استعمالها على ألسنة المسلمين يعود الى اللغة ، جاء فى القاموس المحيط (الكون الحدث ، والكائنة الحادثة ، وكونه أحدثه -- وكون — الله الأشــياء أوجدها) (١) وجاءت كلمة (كائن وكائنة فى السنة) (٢) بمعنى حادث وباق ، ولم ترد لفظة كائن ولا كون فى القرآن الكريم دلالة على فعل الله واحداثه للأشياء ، أو علما على المخلوقات .

---

(١) القاموس ج٤ : ٢٦٤.
(٢) معجم ألفاظ الحديث ج٦ ٧٣.

وبالنسبة للفظة العالم المادى نسبة الى المادة التى تعرف فى اللسان الاصطلاحى بكل ما له جرم ذو كثافة أو عمق أو طول أو عرض فلم تذكر بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، ولم ترد أى اشارة تدل على ذلك ، وذكرت كلمة مادة فى اللغة بمعنى الزيادة المتصلة (٣) ، أو الجماعة التى تمد غيرها وتزيدهم ، واستعملت فى السنة بنفس المعنى اللغوى (٤) هذا ، ولا ينسب اليها على اعتبار المعنى المتعارف بيننا اليوم •

وتأكيدا على درجة الايمان عمق اليقين فلنحرص على استخدام القرآن فى ذلك اقتداء بالنص وللأسباب التى سترد قريبا •

ثنائيـة العـالم

النظر الحسى والعقلى يشهدان معا أن العالم مؤلف من مـادة لها أبعادها وأطوالها وعمقها وامتدادها ومن نظام بديع له قوانينـه وسننه ، وحركاته وتغيراته •

ومن يقرأ القرآن الكريم يتضح له أن الله سبحانه تحدث عن المـادة وأشكالها المتعددة ، سواء كانت موجودة فى الطبيعـة الصامتة أو الحية ، ومن أمثلة التعدد فى الطبائع الصامتة ما نجده فى المـاء من مالح وعذب ، ومعتدل بينهما ، وما أخبرنا عنه القرآن من جبـال فيها من (جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)(٥) ، وما يقال فى الطبائع الصامتة يقال فى الحية كالنبات والحيـوان والدواب فهى متعددة الأشكال والألوان والأثقال (ومن الناس والدواب والانعام

---

(٣) القاموس ج١ ٣٣٧

(٤) فتح البارى ج٧ ٦١ ومسند الامام احمد ط١ ١٥ ، ج٦ ٤٦ ، ٢٣٩

(٥) فاطر من الآية ٢٧

مختلف ألوانه كذلك)(٦) ومن النباتات معروشات وغير معروشات ، ومتشابه وغير متشابه ومن الحيوان يمشى على بطنـــه أو على رجلين أوعلىأربع الىغير ذلك منتنوع الأشكال والألوان والأثقال والامتداد .

والمـــادة طعام الانسان وشرابه وملبسه ومسكنه كما أنها وعاء النظام ، وجسد الروح القانونى السارى فى هذا العالم ، فيكـــون للمـــادة فى القرآن الكريم ثلاث خصائص رئيسية :

هى متنوعة ، وتنوعها نوع من التكليف الضرورى مع الســـنن الجارية من خلالها ، فكل ظاهرة طبيعية تتخذ من الجسمية ما يتفـــق والقانون أو السنة التى تحكمها ، كى تحقق الفائدة المنوطة بها ، وهذا واضح جدا من خلال النصوص القرآنية .

والمـــادة الحيوانية ، وانتاجها من الصوف والوبر ، والمـــادة النباتية ، والمـــائية كلها تشكل طعام الانسان وشرابه وكساءه .

والهيكل الحسى الملموس بصورته المعدة هو المســـكن الطبيعى للنظام والسنن ، واقرأ فى ذلك كله قوله سبحانه :

(وهو الذى أنزل من الســـماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنـــا منه خضرا تخـــرج منه حبـــا متراكبا ، ومن النخـــل من طلعهـــا قنـــوان دانيـــة وجنـــات من أعنـــاب والزيتون والرمـــان مشتـــبها وغير متشـــابه انظـــروا الى ثمـــره اذا أثمـــر وينعـــه) ويقـــــول جل شـــأنه **(وهو الذى انشـــا جنـــات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرومان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وأتوا حقـــه يوم حصـــــاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، ومن الأنعـــام حمولة وفرشـــــا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم**

---

(٦) نفس الصورة من الآية : ٢٨

الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين)(٧) ٠

ويقول سبحانه (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ا وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) (٨) (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) (٨) ٠

وقال عز من قائل (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون) ويعبر الحق عن تقديره السارى فى الكون كله وفى كل ظاهرة كونية فيه

أما عن دلائل التقدير العام فكقوله (الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) الأعلى ٣ (ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا) ٣ الطلاق (وكل شىء عنده بمقدار) ٨ الرعد (انا كل شىء خلقناه بقدر) ٤٩ القمر (وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) ٢١ الحجر ٠

ومن أدلة التقدير الخاص قوله سبحانه (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ٣٩ يس (والله يقدر الليل والنهار)

---

(٧) الانعام ٩٩ ، ١٤١ — ١٤٤
(٨) النحل ٥ — ٨ ، ٨٠ — ٨١

٢٠ المزمل (من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) ١٩ عبس هذا وغيره كثير مما يشير ويصرح بسريان النظام فى جميع المخلوقات ، ونسبة هذا النظام بشكل واضح الى الله سبحانه .

مركز كل طرف فى تلك الثنائية

هذا هو الكون بثنائيته المعروفة ، تلك الثنائية التى لا غنى عنها لوجود العالم ، وذلك لأن المادة وحدها بدون سننها لا تنهض بعبء الحياة ولا الاستمرار ، ولا تتحقق منها فوائد على وجه الاطلاق والنظام يصير معنى غير متحرك ما لم يتجسد فى مادة ، وهو أمر بديهى .

والذى يتأمل القرآن الكريم يجد أنه لم يعط أهمية كبرى للمادة من حيث ذاتها بقدر ما أعطى لفكرة الابداع والنظام كل أهمية ، وبرز التقدير الالهى العام والخاص بروزا قويا ، ولا تكاد ظاهرة من الظواهر الكونية أو مخلوق من المخلوقات يذكر الا وبدور الحديث القرآنى عن دقته ، أو سننه ، أو حركاته ، أو حسبانه ، أو الفوائد التى تعود علينا منه ، وفى خضم هذا البيان الحركى الهادر ، وأمام كثرة الآيات التى تتناول الحكم الالهية المودعة فى الأشياء يتلاشى الجو المادى ، وتتوارى الكتل الكونية الصماء ، ويظهر العالم أمام الحس والعقل وهو يتحرك حركته الابداعية الرائعة ، واذا خطر على بال أحد فلا يخطر منه الا هذا العجب العجاب من القوانين والنظم المتعاقبة ، وقلما تستوقفنا كتلة مادية معينة ، وحتى فى تلك اللحظات التى نشاهد فيها مثل هذه الكتلة فان عقولنا لا تنحصر فى تأملها دون أن تتعداها الى التقدير السائد فى الكون وذلك مثلما نشاهد قطعة من الصخر تقف معزولة ، ونأخذ فى تغرسها فاننا ننجذب الى الحوادث التى فعلت فيها هذا التأثير الانعزالى ، والعوامل التى فصلتها عن بقية الجبل مثلا .

وانما كان اهتمام القرآن بهذا الجو الحركى الابداعى فائقـا لعـدة أسـباب :

منها أن النظام الكونى هو الذى يحقق الغايات الوجـودية ، ويحفظ للعالم كيانه واستمراره ، وأنه هو الذى يحقق المنافع النظرية والعملية المكتسبة من الموجودات ، وأنه هو الذى يحفظ الترابط بين الموجودات ويصـونه فى قوة واحكام •

وأيضا فاننا لا نجد المـادة الا مجموعة من العناصر التى تألفت بفعل النظام نفسه ، وفوق هذا كله فان الابداع والتقدير هما اللذان يدلان الناس على وجود الله ووحدانيته عندما يتجه العقل الى ذلك فى نمط صحيح من التفكير وفى رغبة اكيدة على كشف تلك المعرفة •

لهـذه الدواعى لا نتعجب اذا وجـدنا البيان القرآنى غاصاً بالحديث عن فعل الله وتقـديره وابداعه دون التعرض الى شىء من تكوين المـادة وعناصرها •

والفلاسفة وهم يتناولون تلك النقطة فى الثنائية الكونية : منهم من غالى فى مثاليته فاعتبر المـادة خيالا وأوهاما والعالم المحسوس ظلالا لحقائق وقوانين أخر ، ومنهم من اعتدل وتوسط فجعلها عله فى الوجـود من بين علل أربعـة هى الغائية ، والصـورية ، والفاعلية ، والمـادية ، وقرر أن العلة المـادية المنحصرة فى المحسوسـات التى يتكون منها الموجود هى أدنى مراتب العلل كلها ، وهى دون العـلة الصورية المتعلقة بالصورة والشكل الذى عليه الموجود ، وأقل من العلة الفاعلية الموجودة للشىء ذاته ، ومن الغائية التى يسعى نحوها الموجود(١٠) والعلماء المـاديون أنفسهم على الرغم من أنهم ينسبون

---

(١٠) انظر : برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية المجـلد الأول • وابن سينا : الاشارات مبحث الواجب •

عقائدهم الى الحسي والمحسوس ، وينتمون الى كل ما هو مادي الا انهم غارقون في معرفة العناصر المـادية ، والقوانين التي تسـيطر على العناصر وعلى الكون كله ، وهم لا يقررون صراحة صدور القوانين من المـادة ، ولا يتجرأون على هذا القول ، ويتوقفون عن القطـع بمصدرية تلك القوانين ، وان رفضوا أن يرجعوها الى تدبير اله حكيم.

وأحب الا يفهم أحد أنني أولك على وجهة الحديث القرآني في تركيزه الشديد على فكرة الابـداع بما ذكره الفلاسـفة المثاليون والمـاديون من الاستمام بنفس تلك الوجهة ، كلا انما سقت ما سقته لأوضح قوة الطرف الابداعي وتسامية على الطرف المـادي ، وأن هذا التفوق ظاهر لدى النص القرآني ، وفي اهتمام التفكير الانساني، وتبقى فروق دقيقة في معالجة المسألة بين حديث القرآن ، وحديث البشر.

فمن ناحية لم يسقط كتاب الله المـادة من الحساب كلية وانما اشار الى تنوعها وتشكلها وحاجة الانسان اليها كما سبق ذكره ، ومن ناحية أخرى فانه تناول السنن الابداعيـة بتفضيل واف ، ونسبها هي والمـادة الى خلقه وقدرته وذكر الانسان بذلك في كل لحظة ليلاحظ ويدرك ويعلم ما في الكون فينتفع ويستفيد ، وليؤمن بالله ويوقن أن هذا الابداع لا يمكن أن يكون من المـادة أو من الطبيعة ، ولا يمكـن أن يوجد بالصـدفة أو من المـادة .

وأما الفلاسفة فقد وقعوا بين افراط المثالية عندما اعتبروا المـادة خيالا وظلالا فحسب . وبين تفريط عندما جعلوها حقيقة ليس وراءها شيء ، وهي وقوانينها وجود لا يزول ، وحال الافراط والتفريط يوقفنا على حقيقة القصور الذي يتسم به الانسان في مداركه ، ويشـعرنا بالحاجة الشديدة الى أن نفكر ونعلم ونعرف في اطار القواعد العامة التي يقررها الدين ذاته ، وليس كل دين بل الدين الصحيح .

الكون عبارة عن مادة وابداع ، أو عن كثافة وسـنن ، والابداع والسنن هما الطرف الأقوى والأرقى فى تلك الثنائية ، والعالم يتجه الى غايات متعددة سنركز على أهمها قريبا ، والسؤال المطروح الذى يرد فى منتصف الطريق بين الحديث عن طبيعة العالم وغاياته هـو : هل يفعل الله لعلة أيا كانت تلك العلة أو أنه يفعل بلاهى كونة فاعلا مختـارا ؟

حول الاجابة على هذا السؤال تختلف أطروحات العلماء :

فهناك المعتزلة الذين يفررون ضرورة أن يكون لله حكمة من وراء أمره وخلقه ، وأن تلك الحكمة عائدة على العباد ، وهى تتمثل فى نفعهم والاحسـان اليهم .

ومن العلماء من يتفق مع المعتزلة فى اثبات الحكمة لكنه يختلف معهم فى عودها ، ويعترف بأنها تعود على الرب سبحانه لكن بحسـب علمه ، فمن علم ايمانه خلقه لذلك ، ومن علـم انكاره خلقه لحالته ، وهذا القول اختيار القاضى أبى حازم بن القاضى أبى يعلى ذكره فى كتاب : أصول الدين الذى صنفه على كتاب محمد بن الهيصم الكرامى ويرى الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم كالقاضى أبى يعلى والجوينى وابن الزاغونى والباجى أن الله يفعل مايشاء وأثبتوا له القدرة والمشيئة، ونفوا له الحكمة لظنهم أنها تستلزم الحاجة ، وهذا القول فى الأصـل يرجع الى جهم بن صفوان ومن اتبعه من المجبرة[١١] .

وأرى أن الله يفعل لحكمة تعود عليه وعلى خلقه ، فهو سبحانه يفعل الفعل لحكمة دائمة ، ولا يليق بذاته أن يفعل على غير تقـدير ، ويمكن أن نسوق أدلة على ذلك .

---

(١١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ح٨ ٣٧ — ٣٩ بتصرف .

الدليل الأول : وهو دليل الاثبات من الشواهد القرآنية يقول سبحانه (**وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق**) ٣١ **الأنعـام** ويقول جل جلاله (**هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون**) ٥ **يونس** ويرد هذا الدليل الاثباتى فى القرآن كثيرا[١٢] ، ويشرح القرطبى قائلا (أى ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك الا الحكمة والصواب ، واظهارا لصنعته ، ودلالة على قـدرته وعلمه ، ولتجزى كل نفس بما كسبت فهذا هو الحق) [١٣] ، ويقـول أبو السعود (أى ما خلق ذلك ملتبسا بشىء من الأشياء الا ملتبسا بالحق ، مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة ، أو مراعى فيه ذلك ، وهـو ما أشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعبادتهم)[١٤] .

وكلام كل من القرطبى وأبى السعود يفيد أن الله يفعل لحكمة أبدا ، والحكمة ترجع الى ذاته سبحانه ، فلا يليق به ان يفعل ما يفعل الا لحكمة تبرز عظيم صنعته ، ودقيق علمه وتقديره ، وتوجيه العبيد اليه فى طاعة وعبادة ، وهو سبحانه يفعل دائما ملتبسا بهذه الحكمة ، واشارة أبى السعود الى كلمة الالتباس تعنى أن جل جلاله يفعـل ما يفعل حال كونه متصفا بالحكمة الجليلة من وراء فعله ، لأن الحال وصف لصاحبه فى المعنى ، ولا يغفل المفسرون تأييد القول بالحكمة بما يذكره القرآن من اظهار القوانين الكونية النافعة للبشرية وسوقها فى معرض المنة ، وذلك مثل معرفة أحوال السنين والأوقات المفيـدة فى المعاملات والعبـادات .

---

(١٢) انظر الآيات ١٩ ابراهيم ، ٣ النحل ، ٤٤ العنكبـوت ، ٨ الروم ، ٥ الزمر ، ٣٩ الدخان ، ٢٢ الجاثية ، ٣ الاحقاف ، ٣ التغابن .
(١٣) تفسير القرطبى ح٨ ٣١٠ .
(١٤) تفسير ج٢ ٦٣٠ .

الدليل الثانى : وهو اثبات المطلوب بنفى ضده ، وهو من شواهد القرآن أيضا يقول سبحانه **(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين)** ٣٨ الدخان أى ما خلقناهما (عبثا وباطلا ، بل للتنبيه علي أن لها خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يجازى المسىء والمحسن ، وما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا ، ويكفر بعضهم ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا ، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ، ولا ينهوا عن قبيح ، وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة) [١٥] .

الدليل الثالث : وهو خاص بالمشاهدة العادية ، فالذى يراجع عقله قليلا يدرك أن العادة جارية بأن العبد لا يفعل فعلا بلا حكمة تدفعه على التفكير فيه أولا ثم تحفزه على النهضوض به ثانيا ، وليس من الضرورى أن تكون الحكمة عائدة على الفاعل فحسب أو على غيره وحده بل قد تعود عليهما معا ، وليست الحكمة مستلزمة للحاجة بل قد تكون افصاحا عن مقدرة ، وابراز النفع عام دون أن تكون هناك علاقة بين الفعل والذات بحيث يحدث النقص عند عدم الفعل ، أو يتأثر الفاعل بالكمال عند وقوعه ، وجريا على تلك العادة وما رتبناه عليها ، وعلى أن العقلاء لا يتصورن فعلا بلا غاية فان العقل لا يتصور فعلا لله بلا حكمة وهو الحكيم الخبير .

الدليل الرابع : ان حكمة الفعل . هى التى تحدد — بداية — نمط وجوده ، والطريقة التى يوجد عليها ، حتى يقوم بدوره على وجه لائق ومنسجم مع بقية الموجودات ، ومالم تحدد الحكم العامة لجميع الكائنات والخاصة لكل واحد على حدة ما استطعنا أن نتعرف على القوانين الجزئية ، وعلى السنن الثابتة فى هذا الوجود ، وبالتالى نفقد كثيرا من المنافع العلمية والعملية ان لم نفقدها جميعها يقول ابن تيمية

---

(١٥) القرطبى فى التفسير ج١١ ٢٧٦.

(**كل ما خلقه الله فله فيه حكمة كما قال تعالى « صنع الله الذى اتقن كل شىء » وقال « الذى أحسن كل شىء خلقه »** وهو سبحانه غنى عن العالمين ، فالحكمة تقتضى شيئين : أحدهما حكمة تعود اليه يحبها ويرضاها ، والثانى الى عباده هى نعمة عليهم يفرحون بها ، ويلتزمون بها ، وهذا فى المأمورات وفى المخلوقات)[١٦] •

أظهر الحكم الغائية وراء خلق العالم :

اذا كناقد انتصرنا لفكرة الحكمة من وراء الخلق والأمر فأى حكمة صاحبت خلق الكون ولازمته ؟ وأى غاية يسير دائما نحوها ؟

الذى يتجه بتأملاته فى الكون من خلال النصوص الدينية يرى أن الكون يسعى صوب غايتين بارزتين :

احداهما : قيام كل موجود بمهمة جزئية ضمن الاطار العام للنظام الكونى ، وهذه الحركة الجزئية والكلية سخرت لمنفعة الانسان فى معارفه ومعايشه ، والكون يقوم بتلك المهمة دون عصيان أو تمرد ، ولقد طولب الكائن البشرى من قبل الاسلام بالسير والنظر العلمى الجاد كى يكتشف كثيرا من قوانين الكون الخاصة والعامة ، وكى يستثمر هذه المعارف الكونية فى المزيد من سعادته الدنيوية ، وفى الحصول على يقين راسخ بمنشىء هذا العالم ومبدعه ، والقيام بحق عبادته وطاعته ، •

والحق يقال : انه ليس فى مقدور البشر اضافة شىء الى سنن الكون فضلا عن ايجادها أصلا ، وليس فى وسعهم ارغام الكون على تغيير مساره تغيرا ثانويا أو جذريا ، وليس فى استطاعتهم الاشراف الجزئى أو الكامل على حركة الكون ، ومنتهى طاقة الأفذاذ منهم أن

---

(١٦) مجموع الفتاوى ج٨ ص٣٥ — ٣٦

يكتشفوا شيئا من سننه السائدة ، ولما كان حال البشرية على هذا النحو فان الله سبحانه قضى على هذا العالم بالتسخير خدمة للكائن البشرى فى الجانب النظرى والعملى ، ولولا هذا الحكم القاطع لوقف الانسان عاجزاً عن التعامل مع أبسط الكائنات على هـذه الأرض ، واحوجه اليها فى الوقت ذاته ، فضلا عن الكائنات الآفاقية العليا فهو بالنسبة اليها أعجز •

وتتلخص تلك الغاية فى أن الكون مخلوق ومسخر للانسان •

ثانيهما : وهذا العالم الذى خلق جميعه للانسان ، وسـخر بالكلية له ، لا يقف خادما لمخلوق ، ولا ينصاع لنظير له فى الاحتياج والافتقار ، ولا يقدم نفسه منحة لغيره ، أو يسمح لهذا الغير باستغلاله مذلة وتواضعا ، أو ضعفا واستكانة ، وانما يقدم انصياعا لحكم قوى قادر ، واستجابة لأمر صدر اليه ممن خلقه وأوجده ، ولا يقف حال العالم الأكبر عند هذا الحد من التقديس ، والتنزيه بلسان الاستجابة الحالية ، وانما يتجاوزه الى غاية أسـمى ، والى مهمة أعلى شرفا ، وأرقى منزلة ، حيث يقوم الكون بالتسبيح والسجود لله سبحانه ، كل مخلوق فيه ينطق بلغته ، ويتعبد على طريقته ومنطقه ، ويهمنا الآن أن نلقى بعض الأضواء على الغايتين معا •

الغاية الأولى : التسـبيح الكونى ومعناه

لولا أن الله جل جلاله أخبرنا باللفظ الصريح بتسبيح وسجود المخلوقات ما تصورت عقولنا ذلك ، وما طرأ على أذهاننا نوع من تلك الطـاعة ، وكانت أبعـد ما يكون عن خيالاتنـا ، ولكن الحـق جل جلاله يحدثنا فى أربع عشرة آية أن السموات والأرض وكثيرا من الظواهر الكونية تقدم التنزيه والتعظيم طاعة لخالقها جل شـأنه ويسـجل القرآن تلك العبـادة على جميـع الكائنـات ، بينما

لا يفعل ذلك الانسان ، وتعرضه سورة الحج فى أســلوب توبيخ وتقريع للعقلاء الذين يستنكفون عن السجود لعظمة المولى عز وجل •

وكان نصيب التسبيح فى السياق القرآنى أكثر من الســجود بصورة بارزة ، فقد جاء الاخبار عن التسبيح فى احدى عشرة آية ولم يأت السجود الا فى ثلاثة مواضع فحسب ، ويمكن أن نعلل ذلك بكون لغة التسبيح أيسر بكثير من طريقة السجود على الكائنات المحسوسة ، فكل كائن يمكن أن يسبح بلغة ما لكن السجود بالنسبة اليه قد يصير أمرا مستصعبا ان لم يكن مستحيلا ، هذا اذا أخــذنا الألفاظ عــلى ظاهرها ، وقســنا اللفظين على ما هو موجــود عنــدنا من التسبيح والسجود ، بالاضافة الى أن التسبيح أعم من السجود ، وأنه يأتى كثيراً مع الانسان أيضــا •

وليؤكد الحق جل جلاله على قيام الكون بالأداء المطلوب منــه أخبرنا أن المخلوقات تؤدى الفعل المنوط بها جملة وتفصيلا ، بمعنى أن الاخبار القرآنى لم يقف عند حدود الاعلام العام الذى يطلعنا فيه بقيام الكون جملة بالتسبيح ، بل أكد على المعنى نفسه عندما أورد حديثا مفصلا عن سجود كائنات معينة •

وعلى سبيل المثال يقول اللــه سبحانه فى الاخبار عن التسبيح العام للكائنات كلها جملة **(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا)**(١٧) ، **(سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)**(١٨) ، وترد كلمة سبح ويسبح فى بداية سورة الحشر والصف والتغابن • وكلها تصرح بتسبيح الكائنات السماوية والأرضية بشكل

---

(١٧) الاسراء ٤٤ (١٨) الحديد ١

كلى واجمالى ، وبنفس الحديث العام يأتى قولة تعالى **(ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون)**[١٩] •

وفى مجال النص على تسبيح أو سجود كائنات محددة يقول سبحانه **(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)**[٢٠] **(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير)**[٢١] **(انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق)**[٢٢] **(والنجم والشجر يسجدان)**[٢٣] •

وأحيانا يرد النص على تسبيح أو سجود السموات والأرض ثم يخصص كائنات معينة ، ويكون من قبيل عطف الخاص على العام كما فى الآية (٤١) من سورة النور ، والآية (١٨) من سورة الحج •

نظرة فى الأسلوب القرآنى للغاية الأولى

هذا هو حديث القرآن عن تسبيح الكائنات جملة وتفصيلا فى مواضع متفرقة ، أو فى موضع واحد ، ومن يقف مع تلك النصوص يتبين له ظاهرة أخرى ، وهى أن الأفعال التى عبرت عن التسبيح والسجود جاءت كلها فى صيغة الماضى والمضارع ، ولم تأت لفظة واحد بصيغة الأمر (٢٤) ، بينما الحال على عكس ذلك مع الانسان ،

---

(١٩) النحل ٤٩ (٢٠) الرعد ١٣

(٢١) الأنبياء ٧٩ (٢٢) ص ١٨ (٢٣) الرحمن ٦

(٢٤) وتـد صيغة الماضى مع الكائنات فى ١ : الحديد والحشر ، والصف ، والمضارع يرد فى ٤٤ الاسراء ، ١٣ الرعد ، ٤١ النور ، ٢٤ الحشر ، ١ الجمعة ، ١ التغابن ، ٧٩ الانبياء ، ١٨ ص ، واما صيغة المضارع مة الالائكة فتجدها علاوة على ما ذكرنا أعلاه فى ٧٥ الزمر ، ٧ غافر ، ٣٨ فصلت ، ٥ الشورى ، ٢٠٦ الأعراف •

فقد جاء الحث على التسبيح أو السجود بلفظة الأمر أو بصيغة المصدر، ولم ترد بصيغة المــاضى غير مرة واحدة فى سورة السجدة .

وقبل أن نتلمس تعليلا لهذه الصــياغة نود أن نشــير الى أن المــلائكة تشترك مع الكائنات السماوية والأرضــية فى التعبير عن تسبيحها وسجودها بصيغة المضارع أيضا ، وبذا تكون صيغة المــاضى من نصيب السموات والأرض وحدهما ، ويكون المضارع صــيغة مشتركة بين كائنات السموات والأرض والملائكة ، ولم ترد صــيغة الأمر مع الثلاثة ، وجاءت مع الانسان هى والمصدر ما عدا آية واحدة كمــا أشرنا .

ولا بأس أن نسوق تعليلا ربما يكون منسجما مع سياق النصوص والآثار ، ومقبولا لدى العقل كذلك ، وملخصه أن صــيغتى المــاضى والمضارع ينسجمان مع طبيعة الكائنات السما أرضية ، كما ينسجمان مع الروح الملائكى ، وسر الانسجام فى كل من الموقفين يعود الى أن السموات عندما دعا ربها الى الاتيان طوعاأو كرها (قالتا أتينا طائعين)(٢٥) ومن وقتها وهى تستجيب فى طواعية لنداء ربها ، وتخضع له فى رضا كامل ، وتسبح أو تسجد فعلا وواقعا بمنتهى الخضوع والانصياع . وصيغة المــاضى والمضارع هما الصيغتان اللتان يعبران عن شىء واقع ، ولا ينشئان طلبا بايقاعه ، فهما انسب الصيغ لوصف حــال الكائنات فى الســموات والأرض ووصــف حــال المــلائكة الذين (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) والذين (يسبحونه وله يسجدون و (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) .

وهذا بخلاف الانسان فان طبيعته قد تكون غير مستجيبة ، أو مستجيبة ولكنها متقلبة ومتغيرة ، وهو كثيرا ما يكون مستكبرا وعنيدا،

---

(٢٥) فصــلت

وهو لربه لكنود ، وخصيم مبين ، وفى خسر ، ولربه لكفور الى آخر هذه الأوصاف التى وصفه بها القرآن الكريم ، فناسب أن تأتى معه صيغة الأمر بصفة غالبة(٢٦) لتطلب منه انشاء التسبيح أو السجود ، أو المواظبة عليهما والاستمرار فى أدائهما . ولا شك أن صيغة الأمر هى التى تقوم بمهمة الطلب هذه .

وبناء على هذه الفروق بين طبيعة الكائنات الأرض سماوية وبين الانسان نجد أن القرآن تناول الحديث عن عبادة هذه المخلوقات فى تسبيحها وسجودها أثناء الحديث عن الانسان وكفره وعناده لينبهه الحق جل جلاله الى أنه ان كفر وفجر ، أو عصى وفسق فان لله كائنات أخرى لاتعرف العصيان الى طبيعتها سبيلا ، وهى دائمة التنزيه والتمجيد له سبحانه وتعالى ، هذا بالاضافة الى أصالة الطاعة فى فطر الملائكة ، فليعد الانسان تقويم موقفه ، وليعد من سلوكه بعد أن يكون قد صحح تفكيره .

ما معنى العبادة الكونية ؟

الكون يسبح ويسجد هذا يقين باعتبار المصدر الذى أنبأنا عن ذلك ، ونحن نحتاج بعد هذا اليقين أن نعرف شيئا عن كيفية هذه الحالة ، ويبدو أن حصولنا على تلك المعرفة ليس أمرا سهلا ، بل يلزم معه أن نسلك طرقا متعددة لنجمع تحت أيدينا شيئا منها ، والذى زاد من عبء الحصول عليها اختلاف المفسرين حول معنى التسبيح والسجود على فريقين :

الاتجاه الأول : يذهب أنصار هذا الاتجاه الى أن التسبيح يراد به تسبيح الدلالة ، ذلك لأن الكون يدل الناس على الله من خلال نظامه وسيره وسننه ، وأحيانا يقولون ان الكلام عام أريد به خاص ،

---

(٢٦) تجدها فى ٤١ آل عمران ، ٩٨ الحجر ، ١٣٠ طه ، ٥٨ الفرقان ، ٥٥ غافر ، ٣٩ ، ٤٠ ق ، ٧٤ الواقعة وغيرها كثير جدا .

أو يراد بهذا الخاص الأجسام التى بها حياة ، ويدللون على اتجاههم هذا بأن التسبيح بالمعنى المعــروف لا يتأتى الا لمن له عقــل ولســان وجوارح وأعضــاء(٣٧) .

وواضح من أقوال هؤلاء أنهم قاسوا تســبيح الكائنات عــلى التسبيح المعروف لدى البشر قياسا تاما ، ومن ثم حكموا أنه بعينه لا يتأتى من هذه المخلوقات بالصورة التى يتأتى بها من البشر ، وبالتالى أولوا ، أو خصصوا ونسى هؤلاء أن الله سبحانه لم يجعله كتسبيحنا بل أثبت أنه من نوع مختلف ، ولذا لا نفقهه .

ومن ناحية أخرى فانهم أقاموا دليلهم المؤيد لوجهة نظرهم فى التأويل أو التخصيص على العقل وحــده ، مع أن التسبيح ثابت بالنص ، ولم يسوقوا طرفا من النصوص تفسر المراد ، أو تساندهم فى رأيهم ، واحتكامهم الى السند العقلى فحسب يجعلهم أقرب الى أصحاب النزعة العقلية الذين يتدخلون بعقولهم فى فهم النصــــوص ويشترطون عدم اصطلاحها مع مقتضيات العقل .

الاتجاه الثانى : وهو الغالب على رجال التفسير ، والســائد بينهم ، ويقررون فيه أن التسبيح واقع كما أخبر الله سبحانه ، وهو عام شامل لجميع الكائنات من جمادات وحيوانات ونباتات ، وبكل جنس ونوع وفرد منها يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، وتسبيحه تسبيح مقال بخلق الحياة فيه وانطاق الله سبحانه وتعالى له ، أو هو تسبيح شامل للمقال والحال منتظم لكل منهما ، وهذا هو المقــدر المشترك من الفهم بين أنصار هذا الاتجاه وان اختلفوا حول القــول بأن التسبيح حقيقة أو مجاز ، فبعضهم يرى أنه حقيقة عند الكائنات مثلما هو حقيقة عندنا طالمــا أن اللغة المستعملة غير واحدة ، فيصــير التسبيح عند اختلافها حقيقة فى كل منها ، والبعض الآخر يرى أنه

---

(٣٧) جاءت هذه الاقوال فى تفسير القرطبى كما حكاها عنهم ج١٠ ٢٦٦

مجاز عند الكائنات حقيقة في اللسان البشرى وحده ، ومع قوله بالمجازية اللغوية لكنه لا ينكر وقوع التسبيح وعمومه ، وكونه بالمقال ، أو به وبالحال ، وكأنهم نظر والى أن كلمة التسبيح وضعت أساسا في اللسان البشرى للانسان ، فان نقلت الى غيره كانت مجازا لدى المنقول اليهم ، فهى مجازية بحسب أصل الوضع لا بحسب النطق والأداء كما يفهم من أقوالهم •

وسنسلك في الاستدلال على وجهة نظرهم مسالك عدة :

منها مسلك الرد : وفيه يردون على أنصار الاتجاه الأول بمنع استحالة التسبيح على نحو ما خلافا لما تصوره الأولون ، وبمنع أن يكون تسبيح دلالة فحسب والا كان أمر مفهوما ، والآية تنطق بأنه لا يفقه ، ولو كان دلالة فأى تخصيص لسيدنا داود وقد سخر له الجبال ، وجاءته وهى تسبح ، والركون الى العقل وحده في الاستدلال لدى أنصار الاتجاه الأول ، ومدافعة عموم الآيات المثبتة للتسبيح بمجرد الاستبعادات العقلية ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بمن جاء من عنده ، هكذا رد الفريق الثانى على الأول [٢٨] •

ومنها مسلك الاثبات بالأدلة : وهو مسلك سنى وسلفى مشهور ومطلوب في هذا المجال بالذات ، لأنه وأمثاله من المجالات يتوقف العقل فيه عن فهمه بطريقة صحيحة ، فلا مناص مع عجزنا عن أن نستنير بنصوص موضحة ، تضىء السبيل أمام الفهم المناسب ، ولا بأس أن نورد أدلة تسند وجهة النظر الثانية والتى نتحمس لها كثيرا •

---

(٢٨) انظر القرطبى ح١٠ ٢٦٦ ، وتفسير ابى السعود ح٣ ٤٥٢ ، وتفسير ابن كثير (المختصر) ح٢ ، وتفسير الزمخشرى ح٢ ٤٥١ ، وفتح القدير ح٣ ٢٣٠ — ٢٣١ ، ومشكل اعراب القرآن للقيس ح٢ ٦٤٠ ، والقرطبى ايضا ح١٥ ٣٤٤.

وأول هذه الأدلة ما نعرفه جيدا من آيات الله سبحانه عن نطق السموات والأرض وقولها ، ومن نطق النملة أمام سليمان ومن نطق الأعضاء وشهادتها علينا يوم القيامة ، وهى أمور مشهورة ، كما نجد الحديث عند نطق بعض الكائنات فى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم،

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : صلى رسول الله عليه وسلم الصبح ثم أقبل على الناس فقال : (بينما رجل يسوق بقرة اذ ركبها فضربها ، فقالت : انا لم نخلق لهذا ، انما خلقنا للحرث ، فقال الناس سبحان الله بقرة تكلم ؟ فقال : أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وما هما ثم ، وبينما رجل فى غنمة اذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلبها حتى استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا استنقذتها منى ممن لها يوم السبع ، يوم لا راعى لها غرى ؟ فقال سبحان الله ذئب يتكلم. قال فانى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم) (٢٩) .

وذكر أبو نعيم فى دلائل النبوة أن ظبية كلمت النبى صلى الله عليه وسلم لكى يطلقها فترضع خشفيها أى ولديها ، وكانت قد صيدت وقيدت ، وساق (٣٠) أبو نعيم بروايات متعددة أخبارا من هذا القبيل.

وروى ابن ماجه فى سننه ومالك فى موطئه من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لايسمع صوت المؤذن جن ولا انس ولا شجر ولا حجر ولا مدد ولا شىء الا شهد له يوم القيامة) وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح) وروى البخارى بسنده عن علقمة عبد الله من حديث نبع الماء من أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم قال عبد الله فى النهاية (ولقد

---

(٢٩) فتح البارى ح٦ ٥١٢ — ٥١٨

(٣٠) أبو نعيم : دلائل النبوة ح٢ ١٣٠ — ١٣٥ وما بعدها .

كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث انى لأعرفه الآن) وفى حديث أبى ذر ان النبى صلى الله عليه وسلم (أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل) وكذا وقع لأبى بكر وعمر وعثمان (٣١).

وروى الامام أحمد عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم (اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكرا لله منه) .

وقال ابن مسعود (ان الجبل يقول للجبل يا فلان : هل مر بك اليوم ذاكر لله ؟ فان قال نعم سر به ثم قرأ « **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا** »(٣٢) وعلق عكرمة على قوله سبحانه (**وان من شىء الا يسبح بحمده**) فقال (الاسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال (ما من صباح ولا رواح الا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه هل مر بك اليوم عبدا فصلى لله ، أو ذاكر الله عليك ، فمن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فاذا قالت نعم رأت بذلك فضلا عليها)(٣٣) .

ويتضح لنا من خلال هذه النصوص أن أنصار هذا الاتجاه يؤثرون الاستدلال بالنص ، ويفضلون التسليم بما تضافرت عليه

---

(٣١) قال ابن كثير وهو حديث مشهور فى المسانيد .
(٣٢) مريم : ٩٠ — ٩١
(٣٣) هذه الأقوال مستقاة من كتب التفسير السابقة .

تلك النصوص ، وأيضا فان أدلتهم جاءت متنوعة تثبت للكائنات أقوالا وتسبيحا وسجودا وبكاء ، وعلى الرغم من أن بعض الشواهد السابقة جاء في صورة الاعجاز للنبى صلى الله عليه وسلم الا أنه يعطى مؤشرا على امكان قبول الكائنات للنطق أو التسبيح الى آخره ، هذا بالاضافة الى النصوص الكثيرة التى سبقت نصا على المطلوب من كون السجود وقع مقالا وحالا للكائنات .

ويضاف الى هذا أن كلمة التسبيح أو السجود قد تأتى مسنده الى الكائنات والانسان معا ، ولا يفرق القرآن بين اسناد الفعل يسبح ويسجد الى الكائنات وبين اسناده الى الانسان ، مما يفيد وحدة الاسناد فى كل منهما وان اختلفت لغة التعبير عن التسبيح أو السجود ، ومثال ذلك قوله تعالى **(ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)** فالفعل يسبح ويسجد فى الآيتين اسند الى من بعده من السموات والأرض والطير والشمس والقمر والنجوم والجبال ... والناس بدون فاصل يفيد أن السجود مع كل كائن مغاير عن سجود الانسان ، وبلا أدنى اشارة تفيد أن سجود الكائنات دلالة وحال ، وسجود الانسان خضوع بكيفية وهيئة خاصين ، الأمر الذى يجعلنا نتجه بطريقة شبة توكيدية الى أن السجود مقالى فى كل من الجانبين وان اختلف التعبير لدى كل كائن حسب حالته .

العجز عن ادراك تلك العبادة

حاول الانسان وما زال يحاول ويتقدم فى محاولاته صوب المعرفة الكونية ، ولقد ظلت معارفه محدودة ردحا طويلا من الزمن . واذا توصل فريق فى زمن ما الى معرفة استغلها لاحداث تطور مناسب

فى مجتمعه كما هو الحال فى الحضارات المصرية والبابلية والآشورية واليونانية فان تلك المعلومات كانت ضيقة جدا اذا قيست بحجم المعارف الكونية التى توصلت اليها الحضارة المعاصرة ، تلك الحضارة التى أفادت من سوابقها وتوسعت فى جوانبها العلمية عن الكون توسعا لم تصل اليه حضارة أخرى •

ومع ماوصلت اليه الحضارات القديمة من محدوديات ، وكل ماتوسعت فيه الحضارة الحديثة من جوانب علمية هائلة فاننا نلحس خصائص هامة لتلك المعارف كلها بضيقها وتوسعها •

وأهم تلك الخصائص غلبة الخيال على الحضارات القديمة ، وصياغة منتجات العقل فى قوالب أسطورية مشهورة ، وكذلك فان الحضارات العتيقة قد اتجهت الى الماهيات والحقائق الثوابت ، وتطلعت الى معرفة المبادىء الأولى للكون ، فجاءت تصوراتها فى هذا الصدد أضحوكة عجيبة فى نظرنا اليوم ، وحتى فى تلك اللحظات التى كانوا ينسلخون فيها من جو الأسطورة وطغيان المثالية ، ويتجهون الى الطبيعة والحس ، ويحاولون دراسة الكون من خلال النظرة المباشرة لم يتجوا الا تصورات فاسدة لاتلتقى مع الحقائق العلمية الواضحة فى شىء ، ولو أنها ظلت حافزة الى الغير على أن يتبع نفس الخطء ولك أن تتذكر حال الطبيعيين القدامى فى اليونان والهند •

ولقد أثارت هذه النظراتهمم المتأخرين من العرب ثم من الغربيين كى يواصلوا الرحلة ، الا أن جهودهم ظلت واقعة تحت سيطرة المثالية المتجهة الى معرفة الهايا الكونية ، وامتد هذا التأثير حتى عصر النهضة، ثم ارتفعت أصوات تنادى بدراسة الكون من واقع منظور حسى جديد، واستمرت تلك الأصوات تتعالى ، وتحاول بكل جهدها أن تحقق شيئا لم يحققه الأولون خاصة فى مضمار التعرف على المبادىء الكونية الأولى، وكان الاخفاق حليفها حتى الى وقت قريب جدا ، ولما لم يجد الانسان

منفذا للوصول الى مطمعه فى العثور على نقاط البدايات الأولية لاذ الى دراسة الظواهر الكونية وعلاقاتها ، وتنازل — مضطرا — عن رغبته الملحة فى التعرف على المهـايا الحقيقية للأشياء ، وبذا علا المذهب الظواهرى ، وكثر أنصاره ، ومازال الى اليـوم هو الاتجاه السـائد بين العلمـاء .

وحقا لقد توصل العلم الطبيعى الظواهرى الى كثير من المدركات الكونية ، ولكن هل عرف كل شىء ؟ وهل ثبتت معارفة التى توصل اليها ثباتا لا رجعة معه ؟ أو أن كثيرا من المجهولات مازالت تنتظر الكشف عنا ؟ وكثيرا من المعلومات تصير الى تغير عما كانت عليه الحقيقة تنطق بأن أمام الانسان مناطق شاسعة من المجهولات عليه أن يرتادها ، وأن معلومات وفيرة يجرى عليها بين الحين والآخر تعـديلات جـذرية . وهذا كله ابتداء من التصور الأسطورى ثم المثالى ثم الاعتراف بالنسبية الفكرية والعلمية فى عصرنا يدلنا على مدى القصور الذى يتسم به البشر فى مداركهم مهما بدوا علماء أجلاء .

واقرارا لهذه القصور ينبه القرآن الكريم الى أننا لانعلم الا قليلا، وأن علمنا يتصل بظاهر الحياة الدنيا ، ويتأكد هـذا الاقرار بالقـلة والظاهرية كلما بعدنا عن رحاب الوحى ويقينه واعتمدنا على ذواتنا

وانتهجنا الطريق الحسى والمـادى ، عنـدئذ تضعف مداركنا بالجوانب الروحية ، والحقائق العلوية الثابتة ، ويسـجل القـرآن الكريم هذا الاضمحلال فيقول **(ويسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العـلم الا قليلا)** (٣٤) **« يعلمون ظـاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »**(٣٥) كما يسجله فى مجال

---

(٣٤) الاسراء ٨٥
(٣٥) الروم ٧

التسبيح الكونى عندما يقول جل شأنه (**ولكن لاتفقهون تسبيحهم**) (٣٦)٠

وهذا يعنى صراحة أن عقولنا لا تستوعب تلك الحقيقة الكونية استيعابا دقيقا ، ولا تفقهها بشكل مفصل ، ولهذا لم يكلفنا البحث عنها والتوصل اليها ، ولم يجعلها فى اطار الأمر كالسير والنظر ، ولكن نفى الفقه المترتب على الضعف البشرى لا يعنى نفى العلم بالسجود ، لأن العلم يصير مقدورا وممكنا بمجرد اخبار القرآن به ، بخلاف حال الفقه الذى يعنى الدراية الكاملة بكيفية التسبيح جملة وتفصيلا فيبقى بعيد المنال عن الطاقة الادراكية للانسان ، وبالتالى يصح العلم ولا يمكن الفقه ٠

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان التكليف الشرعى يترتب على ما تسمح به الطاقة البشرية ، الأمر الذى يلزم معه الايمان بتسبيح الكائنات وسجودها بناء على الخبر من المعصوم وان كنا لا نفقه ذلك على وجه بين ، وليس بلازم — طالما نتسم بالضعف — أن يكون الايمان مبنيا على علم نكون نحن المصدر الكلى لهذا العلم ، بل قد تكون هناك حقائق كثيرة لا تستطيع ذواتنا الوصول اليها فيجليها الوحى ، ونعلمها عن طريقه ، ويترتب الايمان على هذا العلم القادم الينا من ساحة الوحى المستنيرة ، ويصير من الضرورى لدى البشر لا سيما المؤمنين أن يصدقوا بتلك الحقائق حتى ولو كانت عقولهم تتعجب منها لبعدها فى تصورهم ، كما حدث فى شأن كلام البقرة والذئب فى حديث أبى هريرة السابق ، وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد آمن بهذا هو وأبو بكر وعمر ولم يكونا موجودين ، وذلك ليحث الصحابة على اتخاذ موقف مماثل ، ويقال بصفة أساسية فى الوحى نحن نؤمن به وان كنا لا نفقهه ، ولا ندرى كيفية نزوله على قلب أى نبى من الأنبياء ٠

---

(٣٦) الاسراء : ٤٤

واذا كان الأمر كذلك فلا مناص من الرجوع الى الوحى لنعلم منه ما نجهل ، وما ليس واقعا تحت ادراكنا من غيبيات ، وما هو واقع ولكننا لم نتوصل اليه البتة ، أو نتوصل اليه بشىء من الاجمال ، ونحن فى حاجة شديدة الى الوحى فى تنظيم علاقاتنا وسلوكنا ، وتشريعاتنا ، كما أننا فى أمس الحاجة اليه حتى فى هذا المجال الكونى الذى نظن أننا ظفرنا فيــه بنصيب وافر من المعلومات ، لأن الوحى يحفظ من الانزلاق الى مهاوى المــادية والطبيعية بما يقدم من يقين ايمانى ، وبما يرسل من قواعد كلية يعمل العقل الانسانى فى اطارها فلا يشتط به المزار ، ولا يحيد به السير فى دروب الحياة •

الغاية الثانية : التسخير الكونى للانسان :

وكم يذهل الانسان وحق له أن يذهــل لو درى بيقين منفعل ، وعقلية شعورية أن هذا الكون الذى يفوق البشر بأضعاف مضاعفة ، يفوقهم فى الجرمية ، والطول والعرض ، والعمق والارتفاع ، والتنوع والتكاثر والحركة والانضباط خلق لغاية أخرى غير التسبيح هى خدمة الانسان ومنفعته ، ان هذا الكون بأحماله الهائلة وحركاته الهادرة ، وأجرامه الساحقة والدانية ، ونظامه الدقيق ، وقوانينه الثــابتة ، وكائناته المختلفة يتجه الى غايات محــددة لا يستطيع عنها انفكاكا ، ولا يحيد عنها حركة ، ولا يضل السير اليها قصدا ، وهذا الكون من حيث قوة النظام بديع متقن ، ولكنه ليس عبقريا ولا ذكيا ولا يدرك بعقلية ما أى حركة تقع فيه وليس له اختيار بين أن يتجه الى هــذه الجهة أو الى تلك •

ان كل شىء فيه يبدأ من أين ويسير الى أين ، ويتبجس فعله من تقدير عظيم واتقان رائع ولكنه لا يدرى ماذا يجوى عليه ولا يحس بذلك ، ولا يستشعر بحاســة مدركة حاجتــه الى ذاته أو الى غيره ولا يحصل منفعة من وراء فعله العجيب ، وكثيرا من حركاته تتعاطف

أو تتباغض مع غيرها دون شعور بالتعاطف أو بالبغض ، هـذا حكمنا نحن على هـذا العملاق الشامخ ، العملاق الذى يبدو جميلا يسترق جماله الحواس ويسحر الألبـاب ، ويدهش العقول ، ويبدو حينا آخر مظلما أو عاصفا أو مزعرا أو هائجا مائجا مضطربا مدمرا فيرعب النفس وتنهلع لهوله القـلوب •

وهو فى كل ذلك مخلص وفى ، وأمين صادق للمهام التى نيطت به فهو يسبح بأنغام وردية هادئة ، وهو يسجد فى جمـاله الكبريائى الساحـر ، وهو يسبح ويسـجد كذلك فى حلكته الداكنة ، وصمته الرهيب ، وضجيجه المخيف واحتدامه المرعب ، وما يدرينا لعل ظلامه وصـمته خلوة يومية يخلو فيها الى ذاته ليسبح ويسجد فى هـدوء واطمئنان ولعل ضجيجه واضطرامه أصوت ذكر عالية ، وأنفاس تسبيح مرتفعة هذه حقيقـة سبق أن أشرنا اليها فى الثـانية الأولى ، وتكمن وراءها غاية أخرى نقول فيها كذلك وما يدرينا لعله أظلم لنسكن نحن البشر ، ونروح فى نوم عميق يريحنا من عناء الرحلة اليومية ، ولعله أبصر فى النهار ، أو ارتفعت أصواته فى مظاهر كثيرة فى البر أو البحر فى الأرض أو فى السماء فى الليل أو النهار ليقدم للبشرية من وراء هذا الضجيج أو تلك الثورة خدمة رائعة ومنفعة جليلة •

والمهم أن الكون مخلوق لله ابتـداء فى كل مظاهره وأشـكاله وقوانينه ، ويتجه اليه مسبحا وساجدا وتلك وجهته الأولى ، وهو فى مواده وأنظمته وابداعه وحركاته يتجه الى الانسـان خدمة ومنفعة فى معاشه ومعاده ومعارفه وتلك وجهته الثانية ، والوجهتان أن الغايتان يسير نحوهما الكون فى جبرية الهية مطلقة ، فلا خيار له فى المـادة أو النظام ، ولا خيار له فى عملية التوافق بين المـادة وما تحوى من كيفية وقانونية ، ولا حرية له من أن يسبح أو لا يسبح ، ولا ارادة له فى أن يعطى للبشر أو لا يعطى ، أو فى أن يعطى هذا ويمنع ذاك بل هو مقهور على المنفعة ، ومسخر للفائدة بشكليها النظرى والعملى ، والغاية

الثانية هى موضـــوع حديثنا الآن بعد استيفاء الأولى على النحو السـابق •

وترد الغاية فى القرآن الكريم بأساليب ثلاثة ترتبط بألفاظ ثلاثة هى : الخلق والجعل والتسخير :

الأســلوب الأول :

هناك عدة أساليب للتعبير عن الجانب الثانى من الغاية الكونية ، وكلها تتجه الى التركيز على أن هذا العالم خلق للانسان ولمصلحته الدنيا والعليا ، ، البدنية والادراكية ، المعاشـية والمعادية ، ويظهر الأسلوب الأول فى استخدام لفظة خلق مثل قوله تعالى :

(هـو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) (٣٧) (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (٣٨) (ومن آياته أن خلق لكم من نفسكم أزواجا لتسكنوا اليها) (٣٩) (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) (٤٠) (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون) (٤١) (والأنعام خلقهـا لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) (٤٢) •

---

(٣٧) البقرة : ٢٩
(٣٨) نفس السورة ١٦٤
(٣٩) الروم : ٢١
(٤٠) الزخرف : ١٢
(٤١) يس ٧١
(٤٢) النحـل ٥

وتدور تلك المــادة على محورين أساسيين :

محور يهتم بنسبة الخلق جملة وتفصيلا الى الله سبحانه وتعالى ويبين أنه جل جلاله قــد أوجد هــذا الكون من عدم وأنه ينسب الى القدرة الالهية وحدها ، وهذا هو الطابع الغالب على مشــتقات مادة خلق فى القرآن الكريم ، وسيأتى لهذه النقطة مزيد تفصيل فى الحديث عن مناهج الدعوة :

ومحور آخر يعلن أن هذا الكون العجيب بكل مظاهره وتنوعاته خلق للانسان ، ويتسم هذا المحور من الناحية الشكلية أو العددية بأن اســتعمال صيغ الخلق للدلالة على أن الكون مخلوق للكائن البشرى قليل اذا قيس بالعدد الضخم المستخدم فى المحور السابق المعنى بنسبة الخلق الى الله ، وأيضا فان الصيغ الكثيرة الواردة مع اسناد الخلق اليه سبحانه تركز بشدة على هذا الاسناد الفعلى بينما تبرز الصــيغ الكثيرة الواردة مع اسناد الخلق اليه سبحانه تركز بشدة على هــذا الاسناد الفعلى بينما تبرز الصيغ القليلة الواردة مع المحور الثــانى الغرض من وراء تفضل اللحق جل جلاله باهداء الكون للانسان وهو الحاجة والمنفعة ، والاحتياج والانتفاع صفتان يلازمان البشر ، ويتنزه عنهما الحق جل جلاله ، فهو غنى عن العــالمين ، وحتى فى الوجه الذى يبدو فيه الكون دالا على عظيم الابداع الالهى ، ووحدانية المبــدع فان المستفيد من تلك الدلالة هو الانسان بالقدر الأعظم ، وبكل المعايير المعاشية والعلمية والعبادية فالكائن البشرى هو المستفيد الأول من الكون بمواده وقوانينه ودلالاته ، وهــذه الفائدة فى مقابل أن يهب حياته لربه ، وأن يقوم بطاعته صادقا مخلصا •

ونستطيع أن نقف على تغلغل ملكيتنا لهذا الكون لو ألقينا بعض النظرات السريعة على الآية الأولى من الشواهد السابقة ، فنجد أنه سبحانه أخبرنا أن كل ما فى الأرض مخلوق للانسان بعينه ومنفعته ، وبمحض هذا الاخبار الالهى يحق لنا بشرعية مفروضة أن نملك أعيان

الموجودات كما نملك منفعتها ، ودلالة الجواز على الملكية هذه ما نقرأه من قوله سبحانه (**خلق لكم**) بعكس ما لو قال خلق لمنفعتكم أو لمصلحتكم مثلا فانه قد لا يفيد الا اباحة المنفعة لا العين ذاتها .

ومع عموم الملكية العينية والمنفعية فانه سبحانه من خلال اللفظة السابقة المتمثلة فى الجار والمجرور قد أطلق الملكية بشطريها للانسان طائعا وكافرا ، ، فالكل يعمل ويملك وينتفع ، ومن سننه السائدة بين البشر أن هذا الكون يعطى من ذاته لمن يبذل أكثر ، ويتفنن بطريقة أجود ، ويتأمل الوجود فى جريانه وسننه ليكتشفها ويستفيد منها لا فرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون لا يتأبى فى اظهار ما لديه من قوانين على الكافرين بينما يفتح باعه للمؤمنين حتى ولو كانوا كسالى غافلين ، انما يعطى من يقترب منه ، ومن يعشق معرفته ، ومن يبذل كل طاقته كشفا عن أسراره ونواميسه ، والسيد فى الكون المادى هو الذى يملك من المعرفة الكونية ما يجعله جديرا بتلك الرتبة ، متميزا بها عن غيره .

ولا ينبغى أن يدعى بعض المؤمنين أن انزواءهم عن خوض غمار الكون سوف يعوضون عنه بديلا فى الراحة الأبدية والنعيم الأخروى ، كلا لأن التقاعس عن دراسة الكون وابداعه نقص فى المعرفة الالهية ، وقصور فى باب السير والنظر ، وهو اضعاف للروح اليقينية ، وكسر لشوكة المسلمين وقوتهم .

وأيضا فان الشواهد لفتت الأنظار الى بواطن الكون قبل ظواهرها ، وأفادت أن الملكية والمنفعة تغوصان فى العمق كما تنتشران على السطح ، لذا جاءت الظرفية فى قوله سبحانه (خلق لكم ما فى الأرض) كما جاءت مع حثنا على النظر فى السموات وفى الأرض وفى النفس ، والكشوف الحديثة فى باطن الأرض وفى السموات تبرز بوضوح دلالة الظرفية فى كل من الشواهد العملية والنظرية ، أى النصوص التى

تنبهنا الى منفعتنا العملية ، والى معارفنا النظرية المظروفة فى الأرض العقلى البحت. »

ومما ينبغى الاشارة اليه أن الله جل جلاله منحنا حق الملكية والانتفاع ، ولم يمنحنا حق التصرف فى هذا الكون بل ظل هو المالك الحقيقى والمتصرف الفعلى لكل ما يجرى ، ولم يتنازل الحق عن الكون بعد خلقه للانسان فى الارادة لعلمه بعجز الانسان عن ذلك ، وأن أى خطأ منه سيؤدى الى كارثة محققة ، وأباح فى الوقت نفسه معرفة سننه وربطها بالتقدم الانسانى فى المجال العلمى والحضارى ، ولم يبعث الأنبياء ببيان مفصل عن قوانين الحياة ، ولم يجعل الاكتشاف آمرا اعجازيا ، أو نوعا من الكرامات بل جعله قائما على الجهد العقلى البحت :

الأسلوب الثانى :

ويأتى هذا الأسلوب فى اطار الصيغة (جعل) وهى صيغة كثيرة الاشتقاق فى القرآن الكريم ، وتدور حول اسناد التصيير الى الله سبحانه ، وبيان منه وكرمه على عباده فى جعله مظاهر الكون خادمة للمنافع البشرية ، وتذكير الانسان بالنعم النفسية والكونية التى جعلها الله له ، وأيضا ترد هذه اللفظة بمشتقاتها مع المؤمنين وهم يدعون الله بتحقيق ما يرجونه منه ، كما ترد مع الكافرين فى تأنيبهم على ما يجعلونه آلهة من دون الله ، أو على ما يتخذونه من مواقف ازاء الخالق المصير جل جلاله من صد عن الدعوة اليه ، أو افتراء الكذب على رسله ودعاته .

هذا مجمل السياق الذى دارت فيه اللفظة (جعل) ومن الضرورى أن نشير فى وجازة الى أدلة توضح نسبة التصيير الى الله ، وتبين أن هذا التصيير يخدم الأغراض الانسانية ، ومثال ذلك قوله تعالى :

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (٤٣) (وهو الذى مد الأرض وجعـــل فيها رواسى وأنهارا) (٤٤) (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) (٤٥) (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (٤٦) (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) (٤٧) ٠

والجعل بمعنى التبصير أو الخلق جاء فى معرض المنة الالهية على الانسان ومنفعته ، وبيان أن هذه الكائنات جعلت الغايات تخدم الانسان فى ذاته وبقائه ، وتتعـــدد تلك المظاهر فى الأرض وما تحوى ، والسماء وما تشتمل ، والنفس وقواها ، والظاهر أن لفظة الجعل التى حملت الدلالة على أن الكائنات تتجه الى أهداف تخدم الانسان يأتى ذكرها فى القرآن بصورة كبيرة ، وأن معظم اشتقاقات تلك المـــادة قد جاء فى هذا الغرض الى حـــد ملفت للنظر ٠

ويمكن أن نضع ملاحظاتنا على هذا الأسلوب فى نقاط :

أهمها أنه سبحانه وتعالى خلق الكائنات ، وقدر سننها وحركتها تقديرا باحكام واتقان ، ولم يرد مع هذا أن يترك الكون يســـير طبقا لـــا أودع فيه من القوانين ، وكان من الممكن أن يفعل ذلك طالمـــا أنه خلق عن عليم حكيم ، وبقـــدرة مبدعة ، وبارادة مخصصة ، وطالمـــا أن النواميس التى أودعها الكون لها صفة الثبات والتطور ، ولكن الله

---

(٤٣) الانعـــام : ١
(٤٤) الرعـــد ٣
(٤٥) الفرقان ٦١
(٤٦) البقـــرة ٢٣
(٤٧) الانعـــام ٩٧

سبحانه لم يدع الحركة الكونية تتدفق من تلقاء ذاتها، ولا اعتمادا على النشأة الأولى وعلى ما تلقته من الابداع الالهى ابتداء ، بل ظل الحق جل جلاله ، يدير الكون ويدبره من سمائه لأرضه بحلمه وقدرته ، وهو الذى يحفظ على الكائنات بقاءها ، ويكتب للسنن الثبات والنشاط الدائمين ، ويخرج ظاهرة من أخرى ، ويحيل شيئا من شيء ، ولنفس هذه الأسباب عبر المولى سبحانه عن المرحلة الأولى بالخلق والنشأة ، وعن مرحلة التدبير المستمر بالعناية والتصيير ولا يخفى أن لفظة الجعل التى تفيد التصيير ، والتى استعملت فى القرآن بهذا المعنى غالبة تؤكد على استمرار العناية الربانية بالكون ، وتدبيره له تدبيرا شاملا لكل شيء مما صغر أو كبر ، وترد بعنف على الماديين الذين يقفون بنظرهم القاصر عند حدود القوانين الكونية ، ويرفضون ارجاع دقتها الى موجود وراء الكون ، كما يرفضون بالتالى اخضاعها فى حركتها لقوة غير مادية •

فاللفظة الأولى خلق ومثلها أنشأ تسند الكون الى الله ابتداء ، واللفظة الثانية جعل تسند التدبير والتسيير اليه سبحانه وهما معا يردان على كل زعم ينسب النشاط الكونى للطبيعة أو المصادفة هذ من ناحية •

ومن ناحية أخرى فان من بين الملاحظات حول هذا الأسلوب التصييرى أن الله علم أنه لن تتحقق الفائدة المرجوة من وراء خلق الكون لتحقيق منافع انسانية الا بعملية التصيير والاستخراج الدائبين، وهذه حقيقة ملموسة ، يدركها الصغير كما يدركها الكبير سواء بسواء ، فكلنا يحس أن حوائجنا تمر بمراحل تصييرية متعددة حتى تصلح لأن تكون منفعة حقيقية لنا ، وأن أدنى غرض بشرى يتجول عبر كائنات وجودية متنوعة حتى يستقر عندنا ، وحتى يكون أهلا لاستخدامنا المباشر ، ولو تصورنا أن الله خلق الكون كتلة واحدة ، لايتحول منها شيء الى شيء لتصورنا معه أن منفعتنا تضيق الى أقصى حد ممكن ، ولربما انعدمت تماما •

والجعل في ملاحظة ثالثة يفتح الآفاق العلمية أمام العقل الانساني ، لأنه يدلنا على كثير من الظواهر المترابطة ، ويلفت أنظارنا الى آيات كونية خرجت من أخرى وترتبت عليها ترتبا مباشرا ، وهذا في حد ذاته يجعل العقل يتساءل عن سر تلك العلاقة ، ويظل كذلك حتى يفترض الحلول ، ويستقر عند الاجابة المقنعة ، فالتركيز على الجعل من هذه الزاوية ينير الطريق أمام العقل الى العلاقات بين الظواهر الكونية ، وأنها محكومة بقوانين معينة ، وأحيانا يلمح القرآن الى أطراف من الحلول التي يمكن للعقل أن يبدأ منها ليصل الى الحقيقة ، فمن أسرار عظمة هذا الكتاب أنه لايقتصر على بيان الغيبيات المجهولة لدى البشر ، ولايكشف عن طبيعة العالم الماورائي فحسب ، ولا يتناول قضايا الألوهية وموقف البشر منها ، أو مسائل التشريع وضرورة الأخذ بها ليس غير ، ولكن يتعرض كثيرا للكون في نشأته واستمراره وعظمته ويستحث الانسانية على دراسته والنظر العلمي الجاد فيه ، ويشير الى قضايا علمية على غاية من الأهمية ، ويلمح في بعض المناسبات الى أطراف جيدة من الحلول ، والى يقينيات لا يسع العقل المنصف الا أن يأخذ بها .

الأسلوب الثالث :

ويظهر هذا الأسلوب في لغة التسخير الواردة في القرآن الكريم .

ولا بد طبقا لمقتضى الحكمة أن تأتي مرحلة أخيرة تتحقق بها تلك الغاية الثانية للكون ، فمجرد الخلق والتصيير في الأسلوبين السابقين لا يضعان الكون تحت يد الانسان كي يستفيد منه حوائجه ، لأن كثيرا من الكائنات تستعصي بطبيعتها أو ببعدها عن متناول الحيل البشرية ، وكثيرا من الظواهر لا طاقة ولا قدرة للبشر عليها ، من ثم اقتضت الحكمة الالهية أن يتمم عملية التوجه الكوني لصالح الانسان بالتسخير والتذليل ، فيسوق المولى عز وجل هاتين الصيغتين في معرض الحديث عن ترويض الكون ترويضا كاملا للانسان ، يقول سبحانه :

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (٤٨) **(وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه)** **(ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم)** (٥٠) ، هذا تسخير اجمالى واضح ، وفى سياق التفصيل يبين الرحيم جل جلاله أنه سخر لنا الشمس والقمر ، والبحر والأنهار ، والليل والنهار ، والدواب على اختلافها ، والسحاب والنجوم والطير ، وكلها جاءت مع لفظة التسخير (٥١) ، ولم يرد مع التذليل سوى الدواب والأرض وحدهما •

والذى يتأمل الفروق بين الأساليب الثلاثة يدرك أن أسلوبى الخلق والجعل تناولا نسبة الكون الى الله خلقا وتصييرا ، ونسبته الى الانسان منفعة ، أما أسلوب التسخير فجاء موجها الى الانسان فى الفائدة والحاجة ، ولذا لم تفارق لفظة **(لكم)** أو ما فى معناها لفظة **(سخر أو سخرناها)** ، بمعنى أن الله سخر الكون بمظاهره المتنوعة للانسان ، وركزت الصيغة على ذلك تركيزا شديدا •

واذا قيل ان آيات التسخير تبرز بجلاء كون المسخر للأشياء هو الله ، فتحقق نسبة الفعل اليه كما حققته لفظة الخلق والجعل سواء بسواء •

قلنا نعم ، لا ننكر ذلك بل نوضح أن المنفعة البشرية قد ترد مع الخلق والجعل حينا ولا ترد حينا آخر ، بخلاف لفظة التسخير

---

(٤٨) لقمان ٢٠
(٤٩) الجاثية ١٣
(٥٠) الحج ٦٥
(٥١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقى ٣٤٧ ، ٣٤٨

فالمنفعة ملازمة لها لا تفارقها ، وذلك من حيث الاستعمال فى القرآن ، ومن حيث الأصل اللغوى ، لأن اللغة تفيـد أن التسخير يعنى تسخير شىء لصالح شىء آخر ، فنقول سخرت فلانا وقهرته أو ذللته لفلان ضرورة (٥٢) ، وبناء على هذا فالفرق بين الخلق والجعل والتسـخير يعود الى ذكر المنفعة معها دائما كما هو فى التسخير ، او ذكرها حينا وحينا مع الخلق والجعل ، والا فكل فعل منسوب الى الله سبحانه .

والتسخير يعنى التذليل والانقياد ، والطواعية واللين ، طواعية الكائنات ولينها للانسان ، كما يعنى تقـدير الحركات المحققة للمنفعة فى الكائنات المسخرة ، وايداعها فيها بطريقة تجعل المصلحة البشرية فيها أمرا ميسور المنال ، ومن الظواهر الكونية ما لا امكان للانسان عليه ، فالتسخير يجعله سببا لحصول مراد البشر ، وذلك مثل جميع ما فى السموات من الأجرام التى نيطت بها مصالح العباد ، وأيضـا فان بعض الكائنات قـد تقع فى متناول الانسـان ، وبعضها لا يقع والكل لا يخرج عن تصريف الحق وحده ، ومهما كان المخلوق المسخر سهلا بالنسبة للبشر فليس لهم عليه سلطان التصريف والتسيير بل ذلك فى يد الله وحـده ، ومن تلك الزاوية تكون الموجودات مسخرة للـه تصريفا على وجه الحقيقة ، ومسخرة للانسان من جهة تحقيق المنفعة ، يقول العلامة أبو السعود فى ذلك :

(والمراد بالتسخير اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد .. أو لا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات من الأشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا ، واما جعله منقادا للأمر مذللا له على أن معنى لكم أى لأجلكم فان جميع ما فى السـموات والأرض من الكائنـات مسـخرة للـه مستتبعة لمنافع الخلق ، ومايستعمله الانسان حسبما

---

(٥٢) القاموس المحيط ج٢ ٤٦

يشاء ، وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى) ويقول فى منى قوله تعالى **(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره)** ١٢ النحل .

(وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاءوا كما فى قوله تعالى **« سبحان الذى سخر لنا هذا »** ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم ، وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم ، وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى ما فى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطب) (٥٣) .

وتحقيقا لهذه المعانى فاننا نجد لفظة التسخير ترد مع الكائنات ذات البعد والقدرة عن طاقة الانسان وامكانياته بحيث لا يحصل منها مصالحه الا بالتسخير من الله جل جلاله .

خاتمة الباب :

فى نهاية هذا الباب تتضح لنا حقائق هامة ، على الدعاة أن يبصروها : عليهم أن يدركوا الغاية فى حد ذاتها ، وأن يدركوا قيمتها النظرية ، وضرورتها بالنسبة لأى عمل ، وبالنسبة لرسالة الداعية بصفة خاصة تتوقف عليها أمور نفسية ، وأمور سلوكية ، وأخرى وسائلية ، والذين يدعون كيفما اتفق ، ولا يحددون غاياتهم العامة ، وغاياتهم المرحلية ، ولا يدركون كيفية الملاءمة بين تحقيق الغايات وواقع المجتمعات المحيطة بهم هم دعاة من الطراز المتبلد ، أو من الطراز

---

(٥٣) تفسف ابى السعود ج١ ٦٣ ، وانظر ج٣ ٢٦٣ وانظر أيضا ج٣ ١٩٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٩ ، ج٤ ٤١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٥٩٨ ، ج٥ ١١٢ وتفسير القرطبى ج٢ ٢٠ ، ج٩ ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ج١٠ ٨٣ ، ٨٥ ، ١٥٢ ، ج١٢ ٦٥ ، ٩٢ ، ج١٤ ٧٣ ، ٧٨ ج١٥ ٢٣٥ ، ج١٦ ٦٦ ، ١٦٠ ، وتفسير الزمخشرى ج٢ ٢٧٥ ، ٣٧٩ ، ج٣ ٤٢٢ ، ج٤ ١٥ .

الوظيفي الذى يعتبر الدعوة مجرد وظيفة يقتات من ورائها وليس غير ، ولا يدرك بوعى ثاقب أن الدعوة رسالة خاصـــة ، ومهمة شاقة تتطلب عقلا واعيا ، وفهما مســتنيرا ، وقلبا مدركا ، وحركة دائبة ، ونظرة فاحصة الى الأمور •

وعلى الدعاة أن يبصروا الكون المحيط بهم ، وأن يعلموا أن الغاية تتناوله ، وأنه لا يخرج عن دائرة العمـــل الغائى المنظم ، وأن غاياته تتجه نحو الله فى خضوع تام وتسبيح مســتمر ، وسجود لا يعرف الاستكبار وطاعة لا تعرف الرياء ، وعبادة بعيدة عن التملق والمنفعة أو الحرفية ، كما تتجه لاشباع الحاجة البشرية ومصالح العباد بطريقة جبرية وتسخيرية محضة ، وعلى البشر أن يدركوا ذلك ، وعلى دعاة المؤمنين أن يلفتوا الأنظار الى الكون ، وأن يفتحوا ابصار الخلائق الى ما يحوى من ابداع ، وما يجمع من سنن ، وما تنطوى عليه طبيعته من دقة وتقـــدير فائقين ، ولا ينبغى أن يكون تطلع الدعاة الى هذا الكون تطلعا فجا وساذجا ، ولا أن تكون نظراتهم فيه نظرات سطحية تثير السخرية والاشفاق أكثر مما تبعث على اليقين ، وتحدو الى الهداية والايمان ، أن الكون من تلك النظرة هو مادة دعوية جيدة لو اقتفى الدعاة بأثر التوجيه الربانى فى القرآن فأحسنوا استخدام تلك المادة، واستنفروا العقول نحوها ، وهو آيات الله المشاهدة الدالة عليه ، والتى تسير جنبا الى جنب مع آيات الله المتـــلوة ، كل نوع منهما له تأثيره النشط على النفس البشرية ولكن الصنفين من الآيات يحتاجان الى عقول منقبة ، والى طرائق عرض مستوعبة ، والى وسائل اقناع مبتكرة تتلاءم مع طبائع الأمور ، وتتفق مع الواقع المحيط بالدعاة فى كل عصر •

والحق جل جلاله وهو يطلعنا على تسخير الكون للمنفعة البشرية النظرية والعملية يذكر عقب آيات الخلق والجعل والتصيير العلة من هذا التسخير الكونى فيجعل أدنى درجات العلة هى أن يأكل البشر هم

وأنعامهم ، أو يلبسوا أو يسكنوا ، وأعلاها أن يعقلوا ويتفكروا ويفقهوا ويهتدوا فيؤمنوا ، تجـد ذلك كله عقب الأساليب الثلاثة السابقة .
ولكن البشر ازاء هذه العلة بدرجتيها مختلفون ، ومنهم من يقف بحدود نظره عند الدرجة الأولى فيجمد عند المغريات المـادية وما تدره عليه من متع وشـهوات غير عابىء بما وراء ذلك ، ودون أن يعير الدرجة العليا أى اهتمام ، ومنهم من ينظر الى الكون نظرة رهبانية ، فيراه ملهيا مطغيا ومفسدا للجو الروحى الخالص فلا يأخذ منه الا الكفاف .

وصـنف آخر أكثر دقة ، وأحكم نظرة ، يعطى لكل درجة من الدرجتين السابقتين حقها من الاهتمام فلا يحرم نفسه من متع الحياة وطيباتها دون أن تستغرقه تلك المتع وهذه الزينات ، وفى الوقت نفسه يأخذ من الفهم الكونى قسطا وفيرا يدخره لقوته المعنوية والمـادية والروحية ، فترتفع بالفهم معنوياته ، وتبنى على الوعى الكونى قوته المـادية ، وتعـلو باليقين والهـداية روحانيته وهـذا هو الانسان الكونى والربانى ، الانسان الكونى بفهمه ونشاطه ، والربانى بايمانه وطاعته ، انسان الكون الذى يتعبد الله بالنظر فى محلوقاته ومعرفة سـننه وقوانينه ، ويجتهد فى ذلك ويقوى ليثبت مكانته وجدارته ، وانسـان الربانية الذى يعبد اللـه على هدى من شرعه وتنزيل من أحكامه ، وبشعبتى الانسانية هاتين جاء التنزيل الحكيم ، ودعا اليهما الاسلام ، وبهما تتحقق القوة للمؤمنين ، تلك القـوة التى باتت من الضرورة بأقصى مكان لتتغير سحنة الواقع الشاحبة التى تبـدو على وجه مسلمى اليوم فى ضعفهم واستكانتهم ، وغلبتم على أمرهم .

والانسان الذى يفهم الكون المحيط به ، ويتخـذ فهمه وسـيلة لارتفاع درجة اليقين الايمانى ، ويفتح أبصاره على التغيرات الهائلة من حوله ، ويصغى فى صمت العلماء الواعى الى أنغام الكون البديعة وهى تبث اليه صور الاتقان ، ومناظر الاحكام الربانى الجليل ، تماما مثلما يفتح عينه وعقله وقلبه على كتاب الله يرتله ويتدبره ويقف عند

أوامره ونواهيه بالانصياع لمقتضى الأمر ، والاجتناب لمضمون النهي، هذا الانسان (هو الكائن الأعلى فى هذا الملك العريض والسيد الأول فى هـذا الميراث الواسع ودوره فى الأرض اذن فى أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول) (٥٤) وسوف نزيد هذه المسألة شرحا فى الباب القادم ان شاء الله .

---

(٥٤) سيد قطب فى ظلال القرآن ج١ ٥٤

الباب الثالث

الغايات الانســانية العليــا

تمهيـــد :

رأينا فى الفصل السابق مباشرة كيف سخر الله للانسان كل ما فى الكون ، وذلله له ، وكيف خضعت هذه الكائنات لحكم الله ، وانقادت لارادته فأحنت رأسها طواعيـة للبشر ، وآتت أكلهـا طبقـا لعـلم الله وتقديره لا طبقا لحساب الانسان وظنونه ، ورضخ العالم للبشرية فى انصياع وخضوع تامين باذن الهى وقدرة ربانية لا باشارة انسانية، أو رغبة بشرية ، وبذا بدا الانسان مالكا وهو مملوك ، وسيدا وهـو عبد ، ومطاعا وهو طائع على جهة الوجوب والامكان .

وهـذا المخلوق الذى سخرت له الكائنات يجمع فى طبيعته بين الضعف والقوة ، بين النزعات الخسيسة والرغبات الطموحة العليا ، وتعـود مناطق الضعف فيـه الى بنيته المـادية ، وبعض خصائصه الطبيعية والنفسية ، وأما منابع القوة لديه فترجع الى ما يمتاز به من صفات واعية ، وقوى ادراكية ، وعلى ضوء محتواه من ضعف وقوة عامله الحق جل جلاله وأبدع له من التدابير الربانية ما يتناسب مع تكوينه ، فمن جهة الضعف سخر له الكون ، ووالى التعليم الربانى بارسال الرسل حتى اكتمال تلك السلسلة العلمية على أيدى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن جهة القوة المتمثلة فى عقله وذكائه ولاه الخلافة على الكون ، وأناط به مهمة العبادة الادراكية المفصلة التى جاء بها تشريع الهى .

ويصور بديع الزمان الإمام سعيد النورسي هذا المزيج الانسانى بين الضعف والقوة ، وما يقتضى من عناية الهية ، وما ألقى على كاهل الانسان فيقول (ان الانسان من جهة الفعل والعمل ، وعلى أساس السعى المـادى حيوان ضعيف ، ومخلوق عاجز ... الا أنه من جهة الانفعال والقبول ، والدعاء والسؤال ضيف عزيز كريم فى دار ضيافة هذه الدنيا ، قـد استضافه من هو كريم الى حـد أنه فتح له خزائن

رحمته اللانهائية ، وسخر له خدمه ، ومصنوعاته البديعة اللامحدودة ، وهيأ لتنزهه واستجمامه ومنافعه دائرة عظيمة واسعة جدا) (١) ومرة أخرى يقرر أن الضعف منصب على الجانب الظاهر ، ولكن الباطن عامر ملىء بالطاقات الهائلة التى تعبر عن الكون بوعى ، وتترجم عنه بصدق الفم ، ودفء الأحاسيس ، ورقة الشاعر يقول مخاطبا هذا المخلوق البشرى العجيب .

انك (وان كنت بحسب نفسك وصورتك الظاهرية فى حكم اللاشىء الا أنك بحسب وظيفتك ومنزلك مشاهد فطن ، ومتفرج ذكى على الكائنات العظيمة ، وانك اللسان الناطق الذرب البليغ الذى ينطق باسم هذه الموجودات الحكيمة ، وأنك القارىء الداهى ، والمطالع النبيه لكتاب العالم هذا ، وأنك المشرف المتفكر على هذه المخلوقات المسبحة وانك فى حكم الأستاذ الخبير ، والمعمار الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة) (٢) .

وهذه التركيبة البشرية قصدت فى الخلق الانسانى ، وروعى فى هذا الموجود أن يكون على نحو يسمح له بالتعامل مع الكون ، ويعطى له خصائص جوهرية تتعلق بمهمته فى الخلافة ، وبتكليفه بالطاعة والعبادة ، وتجلت هذه العناية بتلك التركيبة فى النشأة الأولى لآدم ، وفى المراحل التالية لذريته ، وفى طرائق التعليم التى تلقاها البشر من الله .

ولقد كان من الحكمة أن يعطى الله هذا المخلوق تلك المميزات الأساسية ، خاصة اذا أراد الله له أن يعطيه مهمة الخلافة الواعية على هذا الكون ، واذا قدر سبحانه على البشر أن يعبدوه عبادة مبنية على وعى وادراك وشعور ، أو قائمة على تأمل عقلى ، وحس قلبى ، ونابعة من وجدان صادق وفطرة نقية .

---

(١) الانسان والايمان ١٢٨ — ١٢٩ .
(٢) نفسه ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٤٠ — ١٤١ .

وحول هذا كله ، حول الخلافة ومعناها ومهامها ، وكيفية الاعداد الربانى للذات البشرية بالخلق والتعليم ، وحول العبادة ومفهومها ، وعمومها لدى الأنبياء ، وأصولها فى الاسلام ، وشمولها لأنواع التكاليف الشرعية ، حول هذا سنقف بعون الله وقفات موجزة وملائمة لتلك الدراسة خلال عرضنا لمسائل الباب الثالث ، وسوف يتكفل هذا الباب بالحديث عن تلك القضايا معتمدا على النصوص الثابتة .

الفصل الأول

الخلافة الانسانية

بين المهمـة والاعداد

الاعلام الالهى المسبق عن الخلافة :

الحكم دقيقة ورائعة ، والتقــدير محسوب بالقسط ، والأمور تسير بميزان عادل ، فقبل أن يوجد اللــه الانسان يخلق له البيئــة الصالحة التى يعيش عليها من سماء وأرض ، ويقدر فيها أقواتها ، ويراقب جريانها ، وكان من الممكن أن يخلق اللــه البشر قبل أن يوجد العالم الغيبى والعالم المشاهد ، وهما البيئتان المعدتان لاســتقرار الكائن الانسانى حينا فى الدنيــا ، وأبدا فى الآخرة ، كان من الممكن ذلك ، ثم يحييــه الحق بكيفيات خاصة ، ويطعمه برزق اعجازى • فهذا متصــور وممكن الوقوع فى حق الذات الالهيــة ولكن الأعمال الحكيمة تقتضى أن يعــد الفاعل الخبير البيئات والملابسات والغايات قبل الأحداث الجسيمة •

ولا شك أن الكون المحسوس هو البيئة الحاضرة للانسان ، وحياته عليها مرتبط بأنشــطة وجهود تؤدى من خلاله ، وله فيهــا أهداف عمرانية ، وتكليفاته الشرعية منوطة بكثير من مظاهر هذا الكون وعلاقات البشرية ، والعالم الغيبى هو الآخر مترتب على جهود الانســان فى الدنيا ، ومدى التزامه بما ألقى عليه من مسئوليات دنيوية أو أخروية ، فمن الحكمة والحال كذلك أن يوجد الله البيئتين معا قبل أن يوجــد الانسان الذى سيتحرك على مسطح أحدهما وصولا فىالنهاية المحتومة الى الكون الغيبى والأبدى الآخر ، بكل ما فيه من مثوبة أو عقاب ، وهذا هو الذى فعــله العليم الحكيم جل جلاله ، لقــد خلق العالمين الدنيوى والأخروى قبل خلق البشر بمدة يقررها العلم الحديث ظنا وتخمينا للدنيا ، ولا يعلم مداها الا الله وحده للآخرة ، وأخبرنا فى محكم التنزيل أنه فعل ما فعل اعدادا لمنازل البشر فى العالم المشاهد ، ولأقدارهم الخيرة أو الشريرة فى العالم الغيبى ، وأنه قــدر فى كل منهما عطايا الانسانية حسب نصيبها فى الدنيا ، وطبقا لمــا قدمت فى الآخرة •

ولما هيأ الله كل هذا وخلق فيهما خلقا سابقا عن ايجاد الانسان بكثير ، وأوشك وقت اخراج البشر الى الحياة أحدث المولى عز وجل دويا هائلا بين المخلوقات المدركة الكائنة عن قرب وجود خليفة لله على الكون كله ، وجاء البيان الأول الذى ألقاه الحق جل جلاله على سمع الملائكة وغيرهم بصورة التأكيد **(انى جاعل فى الأرض خليفة)** (١) ، واذا كان من شأن الحوادث الجسيمة أن تكون لها ارهاصات بأشكال متنوعة ، أو مراحل تمهيدية بصور تلفت النظر اليها ، أو انباء قولى مؤكد يؤهل الأذهان لقبول الحدث الجديد • أو يعلن عن قيمته ومكانته فان الأمركان كذلك بالنسبة لاعلام الله عن خلق الانسان ، واستخلافه فى ملكه ولله المثل الأعلى ، ومن شدة وقع النبأ على أرواح الملائكة . واحساسها أن هذا المخلوق ليس من بين صفوفها وتطلعها الى هـذه المكانة راحت تواجه الخبر بطريقة يؤدى ظاهرها الى شىء من الاستفهام الانكارى ، وتبرز أرق المساوىء المرتقبة لهذا المستخلف . ولكن الأمر قضى بناء على حكمة فائقة ، ولا راد للقضاء •

ومما زاد من قيمة هذا الاعلان المسبق عن خلق خليفة صدوره من قبل الحق جل جلاله بطريق التكلم المباشر حسبما دلت عليه لفظة **(واذ قال ربك للملائكة)** ، ولم يقل وأوحى أو أنبأ ، مع أنه سبحانه يخاطب الملائكة فى معظم الأحيان بالقذف الملقى فى أرواحهم (٢) على غرار كيفيات الالهام الصادق للمؤمنين ، ويدركون جيدا مطلوب الحق ومراده من أوامره ، ويوعونه أشد الوعى ، وينفذونه كما أمر ، لم يلق الحق نبأ الخلافة بالقذف وفضل أن يلقيه بالكلام المباشر لمنزلة الخبر وقيمتـه •

---

(١) البقرة ٣٠ (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفـة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون) •

(٢) انظـر فى ذلك فتح المبـدى على الزبيدى للشـيخ الشرقاوى كتاب العلم : باب بدء الوحى •

وكذلك فان صيغة الاعلام لم تحمل أى دلالة تفيد أن الله قصد استشارة الملائكة فى هذا الشأن ، وهى ليست استفهاما بأى صـورة من صـور الاستفهام ، واذ صح أن النبأ أثار خواطر الملائكة الى ما يشـبه الاعتراض تحفزا لنوال تلك المنزلة فانما أثيروا الى ذلك ليقدم اليهم من المعرفة الدالة على قيمـة الخليفة الجديد ، وليتضح لهم عقب مواقف معينة أجريت عن علو المنزلة ، ودقة الاختيار الالهى ، ثم تكون موافقة الملائكة فى النهاية عن رضا وقناعة تامة خاصة وأن للملائكة علاقات كثيرة ستنشأ بينهم وبين أفراد الانسانية بصورة عامة فى مجالات الرزق والحفظ وتسجيل الأعمال ورفعها ، وبصفة خاصـة بينهم وبين الأنبياء والأولياء والمؤمنين فىمناسبات الوحى، والاستغفار والرحمة ، والسكينة والتثبيت والبشارة الى آخره •

جدارة الانسان بهذا المنصب :

الذى يتتبع القرآن الكريم يجـد أن الله سبحانه عندما يختار مكانا أو زمانا أو انسانا لحدث ما فلا يختاره الا لاعتبارات وصـفات ذاتية ترقى الى مستوى المهمة الملقاة عليه ، وتكون بينه وبينها مناسبات بارزة ، وملاءمات واضحة تجعله أهلا لها دون غيره ، وتنعدم معه جميع البدائل بالنسبة اليها ، نلحظ هذا بالنسبة لاختياره الملائكة المكلفين بمهـام معينة ، ونلحظه بالنسـبة لأشخاص الأنبياء وأزمان بعثتهم وأماكنهم ، وللمواقع المقدسة فى الأرض ، وللأشخاص الذين اختيروا لمهام معينة تخرج عن اطار النبوة كأهل الكهف ، وأصحاب القرية ، والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وذى القرنين ولقمان وطالوت والخضر ومريم وآسية وغيرهم ، وهو تعليم ربانى يوجهنا الى ضرورة وأهمية الأخـذ بمبدأ الجدارة عند اسناد المهام الى أفراد معينين بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى مثل اعتبارات القرابة والصداقة وغيرها •

وانما كان اختيار الحق للأشخاص أو الأزمان أو المواقع اختيارا

قائما على القصر وامحاء البدائل لأن وجود البديل المماثل ، واختيار النظير دون مناظره أمر يتنافى مع العلم الذى هو صفة احاطة . ومع القــدرة التى هى صفة تنفيذ ، والحق اذا أراد شيئا علم الظروف والمناسبات والأحوال والصفات والخصائص والعوارض التى تناسبه، وأحاط بها كلهــا ، واختار لهــا ما يناســبها من الأفراد أو المواقع أو المواقيت ، ونفذت القدرة ذلك تنفيذا يحار العقل فى افتراض أى بديل مع مراد اللــه سبحانه ، ويجد من المنطق السديد التسليم بدقة الاختيار الالهى وحــده .

واذا طبقنا هذا على اختيار الله للانسان خليفة وجــدناه حقا لا بديل معه ، وملائما لا منافس له ، وذلك لوجود التناسب التام فى الطبيعة والمصلحة ، فى التكوين والمنفعة ، فالكون مادة وقانون ، وجرم وسنن ، والانسان مادة وحركة جسم ونظام ، والكون منتج والانسان مستهلك ، والكون يحتاج لاستخراج ما فيه الى عمل وجهد ونشاط ، والانســان ذلك العامل المجتهد النشــط ، والكون قابل للاستعمار والانسان هو المســتعمر ، والكون عناصر وخامات ووســائل انتاج والانسان هو الزارع والصانع والمهنى ، والكون بمادته ونظامه مجال حيوى للدراسة والفهم والانسان هو ذلك العاقل والمدرك والمفــكر والباحث والمحصل ، وفوق هذا فلديه من الروح والقلب والشعور والوجدان والعاطفة ما يميزه عن غيره ، ونظرا للتشابه والمناسبة بين الانسان والكون فى العناصر والنظام ، والخضوع للنواميس الواحدة فان المرحوم ســيد قطب يذهب فى تفسيره قائلا (اذن فهناك وحدة أو تناســق بين النواميس التى تحــكم الأرض وتحــكم الكون كله والنواميس التى تحكم هذا المخلوق وقواه وطــاقاته ، كى لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكى لا تتحطم طاقة الانسان على صخرة الكون الضخمة) (٣) وسر هذا التوافق والانسجام المادى

(٣) فى ظلال القرآن ج ١ ص ٥٦

والمنفى هو الذى أخبر الله به الملائكة عندما قال لهم (**أنى أعلم ما لا تعلمون**) .

أعلم أنكم لاتصلحون لتلك المهمة لا فى طبيعتكم ، ولا فى منفعتكم، ولا فى علمكم ، ذلك لأنكم تختلفون تماماً من حيث التكوين فأنتم نورانيون والكون مادة ، فعناصر التكوين وما يترتب عليها من ائتلاف عنصرى وتوافق طبعى مختلفة الى أقصى حدود الاختلاف ، والسنن التى تحكم الطبائع متباعدة لا تلتقى فى قليل أو كثير ، والملائكة ليسوا فى حاجة الى الكون فى طعامهم وشرابهم لانتفاء ذلك بالنسبة اليهم أصلا ، وهم لا يتزوجون ولا ينكحون ، ولا يتعاملون فلسوف تنتفى كثير من العلاقات والأحكام التى تنظمها وتخصها ، وعلوم الملائكة تأتيهم قذفا من الله لا بوسائل ادراك حسية أو عقلية ، ولا بمدركات خارج ذواتهم فليسوا فى حاجة الى الكون لكى يجعلوه مادة لتفكيرهم، وحتى يحصلوا بذلك على معارفهم النظرية التى تحقق لهما كمالا مجردا أو ماديا ملموسا .

والجن هم الآخرون لا يصلحون لتلك المهمة لظروف تخصهم وتخفى معايشهم المحدودة ، وسكناهم المبسطة التى لا تخرج عن مجرد حفرة ، وانتقالاتهم كالريح بلاوسيلة ، فليس من بين المخلوقات من يحظى هذا المنصب سوى الكائن البشرى عن جدارة ومناسبة .

عناصر الاستخلاف :

لا نستطيع أن نتبين تلك العناصر ما لم نقم بفهم كلمة خليفة ، وعلى الأخص من الناحية اللغوية ، يقول الفيروز أبادى (والخليفة السلطان الأعظم ، ويؤنث كالخليف ، وجمعه خلائف وخلفاء ، وخلفه خلافة كان خليفته وبقى بعده) [٤] ، والخليفة على وزن فعلية اما بمعنى

---

(٤) القاموس المحيط ح٣ ١٣٧

فاعل ، فيكون الخليفة هو الخالف الذى يخلف من قبله ، واما بمعنى مفعول فيكون الخليفـــة بمعنى مخلوف أى يخلفه غيره ، وفى كل من المعنيين تقتضى تلك اللفظة اقامة آخر يقوم مقام المستخلف أو مقام غيره على شىء حســبما يقرر الراغب الأصبهانى ، وأما ابن قتيبـــة فيقول (يرى أهل النظر من أصحاب اللغة : أن الله جل وعز قال : انى جاعل فى الأرض خليفة يفعل ولده كذا ويفعلون كذا) (٥) .

وبناء على هذا فكلمة خليفة تستدعى مستخلفا وهو الســابق . ومستخلفا وهو النائب الذى حل محل السابق ومهمة محددة يقوم بها الخليفة المختار ، وتلك هى العناصر الثلاثة المستفادة من المعنى اللغوى للكلمة .

العنصر الأول : السابق :

تتعدد الآراء حول تحديد المستخلف الذى جاء الانسان خليفة له ، فيرى ابن عباس أن الســابق فى سكنى الأرض هم الجن نفاهم اللـــه ثم اختار خليفة لهم ، ويرى البعض أنهم الملائكة ، ويذهب ابن مسعود أن الخلافة عن اللـــه سبحانه ، وقيل أن السابق عام فيمن سلف أيا كان .

ونحن لا نعرف بطريق القطع شيئا عن وجود كائنات لهم صلات عمرانية بالكون نشأ عنها نوع من التحضر ، ولم يخبرنا القرآن بذلك ، كما أن الله جل جلاله لم يذكر شيئا فى كتابه يدل على أنه ولى أحـــدا على هذا العالم بأى صيغة من صيغ النيابة ، ولم يرد ما يشير الى أى صورة من صور الاســتخلاف لموجودات ما ، أو للملائكة أو الجن ، فاذا ما قال للملائكة (**انى جاعل فى الأرض خليفة**) فالأولى أن تنصرف عملية الاستخلاف الى الانسان فى نيابته عن الله جل جلاله ، لا سيما

---

(٥) تفسير غريب القرآن ٤٥

وأن المخاطبين من الملائكة لم يسألوا بأى شكل عما يفيد نقل مسئولية النيابة من كائنات محددة الى الخليفة الجديد ، ولو كان ثم استخلاف سابق عن الخلافة المعلنة لسألوا أولا عن سر وأسباب نقل المهمة من السابقين الى اللاحقين ، ثم جاز أن يقولوا بعد هذا السؤال **(أتجعل فيها من يفسد فيها)** الى آخر الآية •

أما وأنهم لم يفعلوا ذلك ، وانما فاجأهم الاعلان عن الخلافة الانسانية فقالوا ماقالوا فهذا يرجح أنها عن الله وحده •

وربما تثار مشكلة حول جواز اطلاق عبارة « الخلافة عن الله » بسبب رفض أبى بكر رضى الله عنه اطلاقها على نفسه عندما نودى عليه (يا خليفة الله فقال : أنا خليفة رسول الله) (٦) صلى الله عليه وسلم ، نحن لا نستبعد أن يكون هذا القول تواضعا من أبى بكر رضى الله عنه ، والا فالاطلاق ورد به الكتاب والسنة ، ولقد استدل المفسرون على جوازه بقوله تعالى **(يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق)** (٧) وروى أبو داود عن حذيفة قال (ان الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر فأحدقه القوم بأبصارهم فقال : اننى قد أرى الذى تنكرون ، انى قلت يارسول الله أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله أيكون بعده شر كما كان قبله ؟ قال رسول الله نعم ، قلت فما العصمة من ذلك ؟ قال ان كان لله خليفة فى الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه والا فمت وأنت عاص بجذل شجرة • قلت

---

(٦) رواه احمد فى مسنده ح١ ر ١٠ — ١١ •

(٧) سورة ص : ٢٦ ، وانظر تفسير الفخر الرازى ح١ ١٧٠ ، وانظر كذلك : تفسير الكلبى ح١ ٤٣ ، ح٢ ١٠٨ وزاد المسير لابن الجوزى ح١ ٦٠ ، وتفسير أبى السعود ح١ ١٤٢ ، وتفسير القرطبى ح١ ٢٦٣ • ح٢ ٨٨ ، ١٥٨ ، ٢٣٦ ح١٣ ٢٢٤ ، ح١٤ ٣٥٥ ، وتفسير الزمخشرى ح١ ٢٧٢ ، وتفسير الخازن والنسفى ج١ ٤٠

ثم ماذا ؟ قال : ثم يخرج الدجال معه نهر ونار فمن وقع فى ناره وجب أجره ، وحــط وزره ، ومن وقع فى نهره وجب وزره ، وحط أجره ، قال قلت ثم ماذا ؟ قال ثم هى قيام الساعة) (٨) .

وعلى هذا فليس هناك مانع شرعى من اطلاق الكلمة على النحو المشــار اليه ، بل على العكس هناك من الأدلة الواضحة والمستنبطة ما يؤيد اضافة الكلمة الى الذات العليا .

العنصر الثانى : اللاحق :

لا خلاف على أن الانسان هو المعنى بالخلافة ، وهى اما عامة فى أفراد الانسانية : آدم وذريته ، فكل فرد من أفراد الانســانية له نصيب من تلك الخلافة ، وهو مسئول عن نصيبه طبقا للتكليف الالهى فى الاستخلاف والاســتعمار وكل له نشــاط يؤديه فى نطاق المهمة الاستخلافية العامة ، وكل يخلف بعضه بعضا فيها .

واما خاصة فى حالة ما اذا اختير انســان ما خليفة على جماعة بعينها ، فهــذا المستخلف من قبل البشر قد حاز درجتين من الخلافة : درجة عامةباعتباره أحد أفراد الانسانية المكلفين بمهام الخــلافة عن اللــه ، ودرجة أخرى خاصة بصفة اعتبارية أسندت اليه بعقد الجماعة الخاص ، وتفويضه نيابة عنهم فى ادارة شئونهم وعلى هذا فجميع الأفراد خلفاء بالمعنى العام ، وتزداد التبعة على من ألقيت اليه درجة أخرى من قبل البشر أنفسهم ، واذا كان الاستخلاف فى الدرجة العامة باذن الهى ، وكانت الخلافة فى الاسلام بأمر شرعى ، فقــد صح أن الحالة العامة والخاصة خلافة من الله ، وصح معه أن الخلافة عارية ينتفع بها البشر ، والقيام على العارية نيابة ، وكل (فرد نائب عن ربه سبحانه فيما سخر له) (٩) .

---

(٨) مسند أبى داود ج٤ ٩٥ .

(٩) عثمان جمعة : التصوير الأسلامى للكون والحياة والانسان ١٠ .

وما دام الأمر كذلك ، فالانسانية فردا فردا نائبة عن اللـه ، والأنبياء بتفويضهم واصطفائهم الخاص نائبون عن الله ، وخلفـاء الأنبياء نائبون عن الله باعتبار النيابة العامة ، وباعتبار أن الله هوالموحى الى الأنبياء ، وهو المشرع الحكيم ، ونائبون عن الرسـل فى الوقت ذاته باعتبـار الاشراف على استمرار الدعوة وعلى تطبيق التشريع الالهى ، ولذا صح أن تضـاف خلافتهم الى الله ، وأن تضـاف الى الأنبيـاء ، وأما اضـافتها الى اللـه فقـد مرت فى العنصر الأول ، واما اضافتها الى الرسل صلوات الله عليهم فقـد وردت فى السـنة واضحة •

روى أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن ابنـه أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال ذات يوم (من رأى منكم رؤيا ؟ فقال رجل أنا رأيت كأن ميزانا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبى بكر ، ووزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر ، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ، ثم رفع الميزان ، فرأينا الكراهية فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية فاستاء لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خلافة نبوة ثم يؤتى الله الملك من يشاء) وفى حديث سفينة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله الملك من يشاء أو ملكه من يشاء) [١٠] وقال أبو بكر للمرتدين من بزاخة (تتبعون أذناب الابل حتى يرى الله خليفة نبيه صلى الله عليه وسلم والمهاجرين أمرا يعذرونكم به) [١١] هذا هو اللاحق بخلافته العامة والخاصة ، وهو فى الحقيقة نائب عن الله فى كل صورة استخلافية ، حتى ولو كان الاستخلاف بعيـدا عن التنصيب الدينى ، وحتى ولو لم يطرأ على أذهان المفوضين أو الخلفاء أنهم يقومون بمهامهم نيابة عن الله ، فالحقيقة شىء ، وعدم وضوحها أو الاعلان عنها شىء آخر •

---

(١٠) مسند ابى داود ج٤ ٢٠٨ •

(١١) فتح البارى ج١٢ ٢٠٦ ، ٢١٠ •

العنصر الثالث : المهمة الاستخلافية :

هـذا هو العنصر الهام فى تلك العملية ، وهو الغاية الحقيقية وراء الاستخلاف الانسانى من بدايته ، وتشير الدلائل الشرعية الى أن تلك المهمة تتجلى فى أمور :

منها أن التمكن والبقاء والانتشار الانسانى على هـذا الكون ليس سلبيا ، ولم يخلق الكائن البشرى بملكاته الواعيـة ، وطاقاته الهائلة ليعيش عالة على بقول الأرض وفطرياتها النباتية أوالحيوانية، ولا ليقتات ما يجده سهلا أو مصادفة ، ولا ليطعم فتاتا ، بل ولم يجعل الله سبحانه هذا الكون يخرج كنوزه ، ويكشف عنها بطريقة تلقائية، وإنما ارتبط البقاء الانســانى فى هـذا الوجود ، وارتبطت أرزاقه ومعايشه ومطالبه كلها فيه بالجهـد الشاق ، والنصب الدائم ، وهناك نصوص كثيرة تستحث الانسان ، وتستنفر همه نحو العمل والمشى فى مناكب الأرض ،والضرب فى فجاجها ، والتماس الرزق فى خباياها ، ثم بعـد أن يجمع من سعيه سلعا متنوعة فتسعة أعشـار الرزق فى تجارتها ، ويكفى أن تعلم أن الله سبحانه يأمر الملائكة أن تدرب آدم على الزراعة ، وأن تعلم نوحا التجارة ، وأن توقف داود على سر صنعة الدروع بعد ما ألان الحـديد له .

ويختلف العمل الانسانى عن الجهد الحيوانى ، فالحيوان عندما يقوم بعمل ما لا يستطيع التفكير فى طرائق بديلة عن الطريقة التى دربه عليها الانسان ، ولا يدرك غاية وراء عمـله ، بخلاف الكائن البشرى فان أعمـاله ذات طابع فكرى قبل أن تبـدو فى صورتها العمليـة المحسوسة ، وهى أعمال معلولة وغائية كما أسـلفنا ، ومن ثم فالنظر والتفكير من أدق الخصائص التى تميز هذا الكائن عن بقية الكائنات، والله سبحانه عندما يوجـد شيئا ، أو يمنح ميزة معينة لا يقبل أن تنزوى الموجودات فى أركان الدعة والكسل ، وانما يحب أن يقوم كل موجود بعمل يتناســب مع طاقاته وملكاته ، فالكائنات المحسوسة ،

والجسد الانسانى تؤدى عملا مشاهدا ، وحركة مستمرة وعلى وسائل الادراك الانسانى الحسية والعقلية والقلبية أن تقوم بمهـام النظر والتأمل والتفكر والتفقه كما هو منصوص عليه فى القرآن الكريم .

وبمقدار تسيير الطاقة الادراكية وتوجهها تكون الحركة البدنية من ناحية ، ويكون التحصيل العلمى من ناحية أخرى ، هذا التحصيل العلمى الذى يستقى مادته النظرية والعرفانية من الكون بشبع حاجات الكائن البشرى من جانب ، ويتجه به صوب رحاب أوسع من دائرة الكون الذى يعيش عليه ، ويبصره بالمصـدر الايجادى والقوة التى أبدعت الكون والانسـان جميعا ، وهـذه التبصرة هى أرقى أنواع المعارف المستفادة من النظر ، وأسماها منزلة ، وهى الغاية الحقة من وراء غرس المواهب الادراكية فى ذوات البشر دون غيرهم ، وعندما يعتدل الانسان ادراكا ، ويستقيم فكرا يصـل الى أحقية اللـه فى العبادة والتوحيد ، وعنده يكون قد استعلى فوق المـاديه ، وارتقى بفكره عن الرغبات الحسية .

واذ قد وصل الى هذه الدرجة ، واستمع بوعى ثاقب الى نداء الحق الذى يرسله مع رسله تقتضيه مهمة الخلافة عملا جليلا يتوج به هام رحلته فى الحياة ، ويظهر هذا العمل فى اقامة العـدل الالهى بين المخلوقين ، وفى (اقامة شرعه ودلائل توحيـده ... وفى اجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق ، لكن لا لحاجة به تعالى الى ذلك بل لقصـور المستخلف عليهم ، وعدم لياقتهم بقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيـه) (١٢) حسبما يرى ابن مسعود وابن عباس والسدى .

ولننظر بدقـة وتجرد ، ولنعط للأمور حقها الذى تستحقه ،

---

(١٢) ابن الجوزى زاد المسير ح١ ٦٠ ، وتفسير الفخر الرازى ح١ ١٧٠ .

ولندرك أن الله جل جلاله علم عجز الانسان عن خلق مجالات حيوية ووجودية يعيش فيها ، وعلم أنه لو خلق الانســان بدون كون مذلل ومسخر ما اســتطاع الكائن البشرى أن يوجد ذرة من هــذا العالم المشاهد ، وكثيرا ما يتحدى الحق جل جلاله العبيد وشركاءهم بذلك ، ولذلك خلق هذا الوجود وسخره له على نحو ما أشرنا سلفا ، وبنفس درجة العجز لدى الانسان علم المولى سبحانه عدم قدرته على ايجاد نظام للعدالة بين أفراد البشر وجماعاتهم ، وعدم قدرته على الوصول الى الحقائق الالهية من صفات وأسماء فأرسل لهم رسلا يبصرونهم عن اللــه ، ويدعونهم الى تشريعه ، واختتمت الرسالات بالبعثــة الخالدة ، وبكتاب بلغ من الاحكام حــدا لا يستطيع البشر معــه أن يحرفوه أو يغــيروه ، ومن هنا فان مهمة الخلافة حينئــذ تنحصر فى انصياع الأفراد لدين اللــه ، وقيام الخلفاء المفوضين بتطبيق النظام الالهى بين البشر وقسرهم على ذلك .

وأخيرا فان مراحل الاستخلاف ابتداء من العمل والجهد البدنى وانتهاء بالخضوع لدين الله الذى ارتضاه لعباده وألزمهم اياه ، واقامة شرعه سبحانه لا يتأتى للانسان أن يسير بين درجات هذه المهمة متنقلا فيها بمفرده أو مستندا على تفسكيره وحده بل لا بد له من الرسالة المبصرة ، والى الكتاب المنزل ، ولابد من خضوع الانسان الى قواعد الدين أثناء سيره العملى والنظرى معا حتى لا تضــل به خطاه أثناء سيره ، والتاريخ الفكرى والسياسى يشهدان أن التفكير الانسانى فى ضوء الدين الصحيح قــد أثمر حضارة روحية ومادية اتســمت بالاستقامة الأخــلاقية ، وبالعــدالة التشريعية، وبالنزوع الروحى السامى ، وبالقوة المــادية كذلك ويشهدان أيضا أن أى تفكير يبتعــد عن هذا الدين وان أثمر حضارة الا أنها جافة الروح ، مختلة العدالة . منحرفة المزاج والأخلاق ، ولنــا أن نعتبر بحضارة الاسلام فى القرن الثالث والرابع الهجرى ، وبالحضارة الغربية الحديثة ، وبما للأولى من مميزات وبما للثانية من مثالب وعيوب .

ولا يأس في انهاية من أن نجمع خيوط المهمة في أيدينا ، وأن نقول: ان اللـه سبحانه خلق الوطن الكونى للانسان وفرض الدستور الذى يتعامل به الخلق ، وكلف الخليفة البشرى أن يعيش على الوطن بالجهد والابداع ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف ما فيه من قوى وطلقات ، وأن يحكم بالنظام الربانى الذى بعث به رسله حتى تأتيه الرسالة الخاتمة فعليه أن يلتزم بها وأن يخضع لدستورها، وأن نقول معهذا ان خلق الوطن المسخر ، وانزال الدستور والنظام يتمشيان مع نقطة الضعف والعجز فى الانسان ، وان استخلافه بالعمل والتفكير واقامة النظام الآلهى يتناسب مع ملكاته وقواه التى زوده اللـه بها .

الاعداد الربانى للخليفة :

اذا كانت مهمة الخلافة على النحو السالف فماذا عسى أن يكون عليه الخليفة ؟ وما هى تلك الحقائق الذاتية التى يجب أن يتمتع بها ؟ وما هى الصفات التى ينبغى أن تحتويهاتلك الذات بطريقة أساسية ؟ هـذه هى الأسئلة التى سنجيب عليها فى المبحث الذى تحت أيدينا ، وبالطبع لا نعتمد فى الاجابة على مقورات العلم تجاه التكوين الانسانى فى الجانب الوظيفى العضوى (الفسيولوجى) ولا على الجانب النفسى (السيكولوجى) فاننى لا أتناول الانسان فى مرحلة الاعداد من حيث هو ذات انسانية قامت وتحركت كما هو حال العلم اليوم ، وانما أتناوله أولا من حيث هو ذات تتكون ، وبشرية تتخلق ، والعلم لا يقـدم لنـا نظرية مقطوعا بصحتها فى نشأة الحياة عامة ، وفى نشأة الانسانية خاصة ، وما قدمه أنصار نظرية التطور عن نشأة الأنواع ، ومنها الانسان هى فروض علمية لا نظريات وهى تهاجم بشدة من كثير من العلماء الماديين والروحيين على حد سواء ، فلا مناص مع عجز العلم عن القطع بشىء من أن نلجأ الى الدين فلديه التفسير الصحيح لنشأة الانسان ، ولديه الخبر اليقين عن التدرج

الخلقى لآدم وذريته ، وهو تفسير فوق أنه لا بديل به فى العلم يعطى الكائن البشرى أعظم قدر من التكريم والاحترام ، على حين أن الشذرات العلمية المنتشرة على ساحة التفسير لنشأة هذا المخلوق تتردى به الى سلالة الحيوانات ، والفارق كبير جدا بين تفسير الدين الذى يضفى على البشرية دقائق إلصنعة الربانية وبين التفسير العلمى الذى يجعلها حلقة من سلسلة الحيوانات العجماوية .

وسوف نتناول فى هـذا الموضوع نقطتين رئيسيتين : احداهما الاعداد الذاتى للانسان والأخرى التعليم بالوحى تعويضا له عن أوجه القصـور فيه .

أولا : الاعداد الذاتى للانسان :

الملائكة عباد مكرمون ، خلقهم اللـه من نور حسبما حدث مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ومع ذلك لم ترد اشارات قرآنية تبين مدى العناية التى لقيها هؤلاء فى مراحل خلقهم ، والجن تاريون لم يتحدث القـرآن عن كيفيات تكوينهم الا عرضا وفى سياق الحديث عن خلق الانس مع أنهم مكلفون بالايمان والطـاعة كأفراد البشرية ، وبقية الكائنات الأخر لم يحظوا بالتفصـيل المبين للخلقة الا بقدر محدد ، وجاء هذا القـدر فى مقام الاستدلال القرآنى لاقناع الانسان وهدايته ، ولم يأت بصورة أساسية ، وكل ما فى الكون من موجودات خلق بالأمر التكوينى المصاغ فى قوله سبحانه **(انمـا أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)** دون اشارات مبينة لطرائق التكوين المصاحبة للأمر .

ولم نر مخلوقا من المخلوقات حدثنا اللـه عن أصله ومنبعه ، والمادة التى خلق منها ، والظروف التى تضافرت على خلقه ، واليد التى أبدعته وصورته ، والنفخة التى حصـل عليها ، والتعليم الذى ناله مثلما نجد كل هـذا مع الانسان ، فهو الكائن المتميز الذى جاءت

خلقته بشكل مفصل فى أجزاء كثيرة منها ، ونستطيع أن نقف على مراحل خلقته مرحلة مرحلة ، ونجد الأدلة الكافية على ذلك ، ولا تكاد مرحلة من المراحل التى صاحبت بداية التكوين الانسانى تفلت منا •

وهـذا التفصيل فى حد ذاته يريحنا فى معرفة ذواتنا وتكويننا ، ويعتبر تكريما لنا من اللــه سبحانه ، وأيضا فلابد أن نعلم أنه لما كان الانسان هو المكلف ، والمطالب بالايمـان والعبادة فقد اقتضت الحكمة الالهية أن تخاطبه بتلك النشأة التفصيلية بداية ، وبالنشـأة التفصيلية التوليدية المتعاقبة مع ذرية آدم ، وبذا يكون هذا الحديث المفصل عن آدم ومن تناسل منه استدلالا يقـدمه اللــه للانسان كى يؤمن عن قناعة ، ويصدق عن برهان وحجة •

ويا عجبا والحال كذلك كيف ينفر الانسان من هـذا التكريم ، وينسلخ من تلك النسبة الربانية الجليلة ، ثم يرمى بنفسه فى أحضان القـردة ، ويحاول التأكيد على نسبته الى الســلالات الحيوانيـة ، والعجيب كذلك أن هـذا الكائن البشرى يتباهى بأنسابه وسلالاته العرقية والجنسية فى الحال الذى يجمع نفسه وحدوده وعروقه ليلقى بهم جميعا فى أطوار حيوانية صرفة ! ! الا ما أصدق قول الحق جـل شـأنه (**لقد خلقنـا الانسان فى أحسن تقـويم ثم رددناه أســفل سافلين**) [١٣] (**أن الانسان لربه لكنود**) [١٤] •

وسوف نتناول فى مرحلة الاعداد الذاتى العناية الربانية بخلق آدم ثم العنـاية المستمرة بخلق كل واحد من أفراد الذرية •

العناية الربانية بخلق آدم ومراحلها :

لا نستطيع هنا سوى أن نشير الى طرف يسير من الأدلة الكثيرة

---

(١٣) التين : ٤ — ٥
(١٤) العــاديات ٦

التى تناولت الحديث عن خلق آدم وتفصيل ذلك بصور متعددة ، وذلك طلبـــا للاختصار مع الوفاء بالمقصـــود ، ونستمع فى هذا المختصر الاستدلالى الى قوله تعالى (**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون**) [١٥] (**واللـــه خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا**) [١٦] (**هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقـــة**) [١٧] (**هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مســـمى عنـــده ثم أنتم تمترون**) [١٨] (**ولقد خلقنـــا الانسان من سلالة من طـــين**) [١٩] (**انا خلقناهم من طين لازب**) [٢٠] (**ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمـــأ مسنون**) [٢١] (**خلق الانســـان من صلصـــال كالفخار**) [٢٢] (**فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**) (**قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لمـــا خلقت بيدى**) [٢٤] .

ويروى الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم (**احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذى خلقك اللـــه بيده ، ونفخ فيك من روحه أغويت النــــاس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم وأنت موسى الذى اصطفاك اللـــه بكلامه تلومنى على عمل أعمله كتبه اللـــه على قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال فحج آدم موسى**) وفى رواية (**لقى آدم موسى فقال أنت آدم الذى خلقك اللـــه بيده ، وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة**

---

(١٥) الروم ٢٠
(١٦) فاطر ١١
(١٧) غافر ٦٧
(١٨) الأنعـــــام ٢
(١٩) المؤمنون ١٢
(٢٠) الصافات ١١
(٢١) الحجر ٢٦ ، ٢٨
(٢٢) الرحمن ١٤
(٢٣) ص ٧٢
(٢٤) نفس السورة ٧٥

ثم فعلت ما فعلت ؟ فقال : أنت موسى الذى كلمك اللـه واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر ؟ قال بل الذكر فحج آدم موسى) [٢٥] •

وحدثنا البخارى عن أبى هريرة قال (كنا مع النبى صلى اللـه عليه وسلم فى دعوة فرفعت اليه الذراع — وكانت تعجبه — فنهش منها نهشة ، وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون بمن يجمع اللـه الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون أنى ما أنتم فيه الى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون الى من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس أبوكم آدم : فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبوالبشر خلقك اللـه بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا الى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فيقول : ربى غضب على لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى) [٣٦] ويظلون ينتقلون من آدم الى نوح حتى يأتوا النبى صلى اللـه عليه وسلم •

وجاء فى رواية الامام أحمد بسـنده عن أبى موسى عن النبى صلى اللـه عليه وسلم قال (ان اللـه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك) [٣٧] •

---

(٢٥) ابن كثير البـداية والنهـاية ج١ ٨٩ — ٩٢ ورواه الترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وأبو داود كما رواه البخارى •

(٢٦) ابن حجر فتح البارى ج٦ ٣٧١ ، ومسلم بشرح النووى ج٦ ٣٧١ ، ومسلم بشرح النووى ج١٦ ٢٠١ •

(٢٧) ورواه أبـو داود والترمذى وابن حبـان فى صحيحه ، وقال الترمذى حسن صحيح •

هـذا هو حديث القـرآن والسـنة عن خلق آدم ، وانتقالاته الخلقية الأولى ، ولعلك تلحظ من السياق نفسه ثلاث مراحل ، لكل منها مغـزاها الخاص بهـا .

المرحلة الترابيـة :

وفيها يشير القرآن بوضوح الى المـادة العنصرية الأولى التى تكون منها ، وبين كيف انتقلت المـادة الترابيـة الى طينيـة ، والى صلصالية وحمئية ، وفخارية ، وهذا التنقـل ظاهر جدا فى الشواهد الدينية ، ولا يخفى على كل قارىء ، ولذا سنتجاوزه لنقف عند مدلول العنصرية الترابية والمـائية وتحولات هذه العنصرية المـادية .

ان التركيز الشديد على كون الانسان قد خلق من تراب وماء وتحولاتهما يؤكد على التناسب التام بين الكائن البشرى والبيئة التى سيعيش بينها ، هذا التناسب الذى كمن وراء اختيار الانسان خليفة كما قلنـا سلفا وهو العنصر الهام الذى يحقق التكيف والتفاعل بين المستخلف والعالم الذى استخلف عليه ، وبدونه يستحيل بقاء الانسان عليها لأن المتغايرين لا يتآلفان عيشا ، ولا يتعارفان كشفا يقول الأستاذ عثمان ضميرية :

(قد خلق اللـه هـذا الانسان من الطـين كمـا ان سـائر الأحياء فى الأرض خلقت من طين ، فمن الطين كل عناصرها من الطين كل عناصر جسد الانسان ، فهو من أمه الأرض ، ومن عناصرها تكون ، وهو يستحيل الى تلك العناصر حينما تفارقه الروح ، وهـذا ما يؤيده الواقع ويقرره العلم ، فلو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض وقطعة من جسم الانسان وأجريت على كل منها عمليات التحليل الكيماوى لوجدت العناصر التى يتركب منها الجسم مأخوذة من العناصر التى يتركب منها التراب مع اختلاف مقدار كل عنصر تبعا الأهمية الوظيفة التى يؤديها فى الجسم) (٢٨) .

(٢٨) التصور الاسلامى للكون والحياة والانسان : ٩٥

مرحلة العنــاية الالهية المباشرة :

وفى هــذه المرحلة لم يرد اللــه سبحانه أن يجــرى تحولات المرحلة بالأمر الكونى وانما أخبر أنه خلق وصــور الكائن البشرى بيديه ، ولم يخبر سبحانه عن فعل الهى تم بيديه سوى ما تعلق بخلق الانسان ، فهو الكائن الوحيد الذى جاء عن هذا الطريق المتميز مما جعل المفسرين يشتركون فى القول بأن الواسطة بين الحق جل جلاله وخلق آدم قد انعــدمت ، وأن هــذا التميز يفيــد كمال التــكريم والتشريف ، ويعبر عن هذا القرطبى فيقول (أضاف خلقه الى نفسه تكريما له وان كان خالق كل شىء •• وقد خاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم فان الرئيس من المخلوقين لا يباشر شــيئا بيده الا على سبيل الاعظام والتكريم) •

والتثنية فى قوله تعالى لابليس **(ما منعك أن تسجد لمــا خلقت بيــــدى)** (لابراز كمال الاعتناء بخلقــه عليه الصلاة والسلام المستدعى لاجلاله واعظامه) (٢٩) فأى تكريم بعد هذا •

مرحلة النفخة الربانيــة :

خلق الانسان من سلالات ترابية ، وصنعته يدا القدرة الالهيــة وسوته وهذا واضح من النصوص ومن الفقرتين السابقتين ، ولكن الخلقة المــادية مع مباشرة يدى الحق لتسويتها لو بقيت على هــذا الحال ما زادت عن كونها مادة محســـنة بفعل الهى خاص ، وما زاد الانســـان زيادة تسمح له بالتفوق فى امكانيات الوجود عن غيره من الكائنات الحية التى اشتركت معه فى العناصر التكوينية ، ولو لــم يتفوق ما صح أن ينـــال درجة الخلافة ، لهــذا أضيفت الى المرحلتين السابقتين شىء جديد ليس موجودا فى غير الكيــان البشرى ، شىء

---

(٢٩) تفسير القرطبى ج١٥ ٢٣٨ وتفسير ابى السعود ج٤ ٥٩٠ وتفسير الزمخشرى ج٣ ٣٨٣ والشوكانى ج٤ ٤٤٥ •

يبدل عمل العناصر ، ويميز طبيعتها ، ويفجر فيها طاقات مذهلة ويقلب الموازين بين أمومة الأرض وســيادة الانسان الذى ينتمى اليها .
وتتجلى تلك العملية التى تبدل العناصر الانسانية فى النفخة الربانية التى منحها للكيان البشرى ، والتى حصل بمقتضاها على ثنائية راقية ، ثنائية تجمع بين مادة مغلوبة وروح غالبة لهـا السيادة ، أو تجمع بين البدن والجسم والأعضاء وبين العقل المدبر والذهن المفكر ، ثنائيـــة حصل الكيان المـادى فيها على تيار رقيق من الروحية التى تحوى تدفق العاطفة ، وحـرارة الاحساس ، ودفين الوجدان ، ووفـرة المشاعر ، وصفاء القلب ، ونقـاء الفطرة .

وبهـذه النفخة تغـير كل شىء فى الانسـان عنه فى نظيره من الحيوان ، وبدا الفارق واضـحا بين أدوات الحس عنـد الحيوان ، ومثلها عند الانسان فالأولى لا تدرك سوى قـدر محدود من المرائى أو المسموعات ، والثانية ترى أو تسمع وتميز وتختزن وتحلل وتبتكر وتبـدع .

ان يدى الذات الالهية أبدعت الانسان وسوته ثم ألقت فى روعه معنى جميلا ، وسرا دفينا ، ونورا مشعا ، وقوة تغيرت معها جميـع الأوضاع المـادية التى تشكل منها الهيكل الانسانى الذى ظل طريح أرض الجنة منتظرا تلك اللحظة التى يسـعد فيها بالوجود المتميز ، والحياة الراقية .

وان هـذا الانقلاب الهائل الذى تحونت فيه الانسانية الى طورها الذى نشاهده هو الذى أعطاها منزلة وقدرا ، وبه صار الانسان له شأن (وله مناسبة بالحضرة الربانية) (٣٠) كما يقول أبو السعود .

وفى الحقيقة نحن نجهل كنه تلك النفخة ، ولا يمكن لنا أن نتخيل

---

(٣٠) التفسير ج٣ ٣٠٦ ، ج٤ ٣٨٨ ، ٥٨٩ .

تلك الكيفية التى حدث بها انقلابنا العظيم ، لأن المنطقة التى حدثت فيها هـذه النسمات الربانية السـارية الى الانســان ليست مجالا لأعمق الخيالات فينا ، ولا تمتـد اليها ظنوننا مهما أسرفنا فيها ، ولا ترتادها عقولنا وان استجمعنا كل قواها وطاقاتها ، ومع عجزنا عن ادراك حقيقتها وكنهها أو كيفيتها فاننا (نعرف آثارها ، فآثارها التى ميزت هذاالكائن الانسانى عن سائر الخلائق فى هذه الأرض • ميزته بخاصـية القابليـة للرقى العقلى والروحى ، هى التى جعلت عقله ينظر تجارب المـاضى ، ويصمم خطط المستقبل ، وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس ، والمدرك بالعقول ليتصل بالمجهول للحواس والعقول ، وخاصية الارتقـاء العقلى والروحى خاصية انسانية بحتة لا يشاركه فيها سائر الأحياء فى الأرض) (٣١) وبهـذه النفخة صار خليفة ، وتسلم زمام البحث فى هـذا العالم الفسيح •

وان ما تحت أيدينا من تفاسير يتسير الى أن النفخة عبارة عن انعاش الانسان بالحياة ، وجعله حاسـا ومتنفسا ، والأمر فى نظرهم لا يتجاوز مجرد الاحياء ، وفى اعتقادى أن الأمر أوسع من ذلك ، لأن مجرد الاحياء يجعل الانسان مساويا لكثير من الأحياء ، وهو متميز عنهم بالمشاهدة والادراك ، والأولى أن يظل النص القرآنى المعبر عن النفخـة على حاله من الاطلاق دون تخصيصه بتـأويل محدد ، لأن النصوص الدينية فى كثير من المواقف تعمل الأفاعيل فى النفس البشرية عندما تترك على حالها من المعنى دون تدخل العقل البشرى فى تحويل مجرى التأثير العام فيها الى كيف محدد ، أو فى تحويل الدفق المعنوى الواسع الى صورة عقلية معينة •

العنـاية المستمرة بخلق الذرية :

ربما كان من المفيد جدا أن ننبه الى أن مرحلة العنـاية بالخلق

---

(٣١) انظـر تفسير الكلبى ج٢ ١٤٦، ج٣ ١٣٠ وفى ظـلال القـرآن ج٥ ٣٠٢٧ •

الانسانى قد استمرت مع ذرية آدم ، ولم تقتصر على الجذر الأصلى الذى هو أبوها وكان من الممكن أن يبرز الحق سبحانه مدى عنايته بخلق آدم وحده ، ولا يظهر ذلك بالنسبة للذرية اعتمادا على أن ما يثبت للأصل يمتد منه الى الفرع ، وجميع الفروع ويرث الفرع من الأصول دائما عوامل الجنسية والنوعية والتمايز الفردى ، ولكن الحق جل جلاله قدر أن تستمر العناية لتشمل كل فرد من الانسانية تكريما وتشريفا لهذا النوع من المخلوقات ، وحتى لا تتقلص امكانياته الوجودية المستفادة من الجذر بتقادم العهد ، أو بحالات التطور .

وأيضا فان الافصاح عن شمول العناية لكل فرد مع الزمن كله يحمل ردا قويا على الماديين الذين يظنون أن الانسان يتخلق بالتوليد والطبيعة ، ولهذه العلة بالذات جاءت آية المؤمنين (**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**)[٣٢] .

فعملية تصيير النطفة منسوبة الى الله ، وعندما تقذف فى الرحم يتولاها الحق لا بالتصيير ، ولا بمجرد الاشراف على عمليات التحول ، وانما بالخلق ، فينقل كل مرحلة الى الأخرى بالخلق لا بالجعل تأكيدا على أن كل واحدة منها خلق جديد ، واظهارا بأن التنقل من العلقية الى المضغية الى آخره لا يتم بأى شىء خارج العناية والقدرة الالهية ، ويروى الامام مسلم والبخارى عن عبد الله ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم حدد زمن كل مرحلة بأربعين يوما (ثم ينفخ فيه الروح)[٣٣] فالنفخ المميز للانسان ملازم للانسان فى نشأته الأولى ومع كل فرد من ذريته .

---

(٣٢) المؤمنون ١٢ — ١٤ .

(٣٣) فتح البارى ج٦ ٣٦٣ ، ومسلم ج١٦ ١٩٠ .

ويحدثنا أنس بن مالك عن النبى صلى اللـه عليـه وسلم قال (وكل اللـه ملكا فيقول أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة فاذا أراد اللـه أن يقضى خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى ، أشـقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه) (٣٤) .

ثانيا : الاعداد التعليمى :

اللـه هو خالق الانسان بداية واستمرارا ، وهو الذى خلقـه بيديه ، ونفخ فيه من روحه فهل معنى ذلك أنه حصل على الكمال من وراء تلك العناية بحيث لا يعتريه ضعف فى ذاته أو فى تفكيره أو ماذا ؟ هـذا البحث سوف يجيب على هذا السؤال ، وسوف يحدد ما اذا كان الانسان ضعيفا يحتاج الى الذات الالهية دائما أولا ؟ واذا ثبت ضعفه فما منشأ هـذا الضعف ؟ وما علاجه ؟

الى أى مدى يصل البناء الانسانى ؟

الذى يقف مع النصوص الدينية يجـد حشدا منها يثنى على الانسان فى صورته ، ومنطقه ، وتفكيره ، وقلبه ، وروحه ويأتى هذا الحشد فى سياق بيان المنة الالهية على هذا المخلوق ، ويعتبره القرآن أكرم المخلوقات على الاطلاق ، ويشيد بالآثار الضخمة التى أحدثها على الأرض ، وفى الوقت نفسه يتناوله من جوانب نقص كثـيرة ، فيصفه بالغفلة والجهـل والنسيان ، والخضـوع لوساوس ومكائد العدو ، وبالغرور والهوى والاستكبار والوقوع تحت تأثير النفس الأمارة ، كما يسمه بعدم القدرة على ايجاد شىء فى نفسه أو فيما حوله مهما صغر هذا الشىء أو حقر ، ويظل القرآن فى سرده لمثالب البشرية حتى ينزل بها الى مصاف الحيوانات أو الحمير أو الكلاب ، ولا يتركه

---

(٣٤) البخارى ج١١ ٤٣٠ ومسلم ٢٦٤٦ متفق على صحته .

دون أن يقدم له شواهد صحيحة على ضعفه البدنى والفكرى ممـا يجعلنا نقول مع هـذا كلـه ان الانسان خلق ومعه من خصائص القوة ما يصعد به الى قمم شامخة من الفضل والمجد ، وفيه من سمات النقص ما يودى به الى قاع الهاوية ، وهو بمجموع الأمرين لا يعتبر مخلوقا يرتقى الى درجة مثلى من الكمال ، ويظل الضعف هو السمة الغالبة عليه ، ولهـذا يقول الحق فيـه **(يريد اللـه أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا)** (٣٥) .

والأولى أن يحمل الضعف فى الآية على العموم ، فيكون شاملا لضعف البنية ، وضعف المقاومة للهوى والشهوات وضعف الاصرار والاقدام ، والثبات والدوام على الطاعات ، لأن تخفيف العـزائم الشرعية بالرخص لا ينبع من مراعاة الضعف النفسى فحسب بل يتعداه الى الضعف الخلقى فى البنية كذلك ، وفى هـذا الصدد ذكر المولى سبحانه البشرية بذلك فى المثال الذى ساقه أثنـاء الحديث عن آدم فيقول (**ولقد عهـدنا الى آدم من قبـل فنسى ولم نجد له عزما ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنـا يا آدم ان هـذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظما فيها ولا تضـحى فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**) (٣٦) .

وضعف النسيان قصور فى قوة الذاكرة التى تتبع العقل المفكر ، وفتور العزيمة نابع من قصور الارادة التى هى خاضعة بدورها للعقل فى جانبه العملى والمدبر أو المنفذ ، والانصـياع لوسوسة الشيطان

---

(٣٥) النساء ٢٨ .
(٣٦) طـه ١١٥ — ١٢٢ .

واغوائه راجع الى غفلة القلب عن الأمر الالهى ، والعصيان زلات هذا المخلوق عن الاستقامة المطلوبة فى ساعات الحجب •

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن آدم لمـا عرضت عليه ذريته ورأى داود تنازل له عن أربعين عاما من عمـره ، ثم حاول جحدها عندما جاءه ملك الموت قال النبى (فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته) (٣٧) •

منشأ الضعف وضرورته :

ان منشأ القصور الانسانى يعود الى تلك الازدواجية التى خلق عليها البشر ، وهى الازدواجيـة المـادية والروحية التى جعلت منـه مخلوقا أرضيا يتعامل مع الكون المـادى بتحصيل معاشـه وكثير من معارفه ، ومخلوقا سماويا ربانيا يؤدى نوعا من العبادة ، ويتكيف مع الطاعة متى أراد ذلك ، وهى ازدواجية تجعل من البدن والروح انسانا ينزل ويرتفع ، انسانا يتردد بين التدانى والسقوط ، والارتفاع والعلو، وبين الخلود الى الأرض والركون الى الله • بين سيطرة البدن واستعلاء الروح بتـوقها الى العلى الـكبير ، بين الاستجابة لنداء الغـرائز والشهوات ، والاستماع لهمس الروح وسرها اللطيف ، بين الانصياع لمهالك النفس والترقى بنزاهة الروح وعفتها ، بين هذا كله تكون حياة الانســان •

وحول هذه الثنائية يقول الشيخ الغزالى (ان الانسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة ، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض) وأنه لكائن عجيب (يجمع النقائض فى تركيبه ، يقدر على التسامى وعلى

---

(٣٧) ورواه الحـاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ، ورواه الامام أحمد والطبرانى ومالك فى الموطا ، وقال الترمذى حسن صحيح انظر البداية والنهاية ج١ ٩٥ — ٩٧ •

الاسفاف ، يقدر على الاســتقامة وعلى الانحراف) (٣٨) ولمــا كان الانسان على هذا النحو فان الصراع فى جوانيته قائم ومحتــدم ، والثنائية الذاتية فى شجار مســتمر ، كل طرف يريد أن ينتصر على الآخر وجنود كل جانب مسلحون وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض على الطرف الآخر ، والمعركة دائرة داخل أســوار البدن ، وهناك ظروف خارجية تساعد أيا من الطرفين على الثانى ، وسيظل هذا العراك بين الخير والشر فى داخلنــا حقيقيا لا صوريا .

وعلى الانسان أن يفهم تلك الحقيقة المزدوجة لديه ، وأن يعى الجو المحيط به وعيا كاملا لو أراد أن ينتصر فى يوم ما على جند الشر فى نفسه . وعليه أن يبحث الدوافع جيدا ، وأن يراقب النشاط الداخلى مراقبة دقيقة وأن يعبىء كل طاقات الخير ليحدث معادلة ضرورية فى كيانه ، وكى يستقيم أمره دون طغيان فريق على فريق ومن ثم (ندرك أن الانسانية ليست كما ثابتا على الدوام . وانما هى قيمة متأرجحة تزيد وتنقص بمقدار الجهــد المبذول لأحداث التــوازن بين الطرفين المتناقضين فى الحياة وفى الوجود) (٣٩) .

فعلة الضعف فينا تخرج من تلك الثنائية ، ومن هذا الانقسام الخطير . فلسنا أشرارا أبدا ، ولســنا أخيارا على الدوام ، والشر الدائم يفسد طبيعتنا ، والخير المحض يشل كثيرا من أوجه النشاط فينا ، والمطلوب ايجاد حالة تعادلية فى غاية الدقة والانضباط ، ولاحداثها سوف يجاهد الانسان طويلا ، وسوف يضطر الى الاســتعانة بأمور تخرج عن حدود ذاته ، وبالطبع لا ينبغى أن تكون واردة من أشكاله ، وهم مكبلون مثله بأغلال الازدواج الذاتى ، فلابد أن تكون المعينات من ســلطة أخرى لا توصف ذاتهــا بأى حال من حالات التركيب أو الانقسام .

---

(٣٨) الغزالى : [illegible] وأدوية ١٣ ، ١٤ .

(٣٩) د/ عون [illegible] يف ، الرسالة الخاتمة ١٠ — ١١ .

وأما الضرورة من وراء تلك الازدواجية فتكمن فى أمور :

أهمها أن تلك الطبيعة ضرورية للمهمة الانسانية فى الخلافة ؛ فهو لن يستطيع القيام بمهمة مزدوجة فى الحياة : شطر منها يرتبط بالأرض وعمرانها ، وآخر يعلو فوق هذا الكون المادى ليعبد ربا خالقا ما لم يحمل ثنائية مناسبة لمهمته فى كيانه ، ولو أننا جبلنا على المادية ما ذقنا حلاوة العبادة ، ولاستشعرنا طعم الايمان ، ولو شفت أبداننا وامتلأت روحية فحسب ما وجدنا حاجة تحفزنا الى التعامل مع الكون •

نظرات فى حكمة الضعف الانسانى :

لنا أن نتصور ما حالنا لو خلقنا أقوياء بالذات على وجه تام ؟ هل كنا نبذل قصارى الجهد فى هذا الكون لنعثر على حاجتنا العملية والعلمية ؟ وما الذى يدعونا الى هذا البذل بأى شكل والحال أننا خلقنا أقوياء فى ذواتنا ، والقوه الذاتية تستغنى عن التقوى بالحاجات الضرورية ، والكمالية والعرمانية ، لوجود ذلك لديها بلا طلب ؛ فالقوة الذاتية والكمال الذاتى ، أو الكمال بالغير فى حال ما لو كملنا الله كمالا لاحتياج معه يشل حركة الانتشار فى الكون ويفسد أول درجةمن درجات الاستخلاف على الأرض •

واذا كنا لا نطيق الأقوياء المتجبرين من البشر وهم يستغلون قوتهم فى تحطيم الضعفاء منهم فى أيامنا ، واذا كانت الانسانية تكتوى فى عصورها المتوالية بجحيم الأقوياء فماذا عساهم يفعلون لو كانوا جميعا أقوياء يحبون السيطرة والتأله فى الكون ؟ لا نشك أن الدمار كان سيصير حليف البشرية منذ لحظاتها الأولى •

وعلى العكس من ذلك فان الضعف أو القصور يقتضى كثيرا من الطلب لسد الاحتياجات ، وكثرة الطلب تقتضى التفتيش والبحث ، وهما يتطلبان تفكيرا مستمرا ، وبالطلب والبحث والتفكير والحركة

يتحقق العمران والاستخلاف ، وبمقـدار القوة فى ذلك تكون درجة القدرة على الحياة ومجابهة مشاكلها ، والجماعة التى تتصف بالدأب فى هذه الجوانب هى التى يمكن لهـا فى أرضها ووجودها ، والجماعة المتكاسلة و المتقاعسة عليها أن تنتظر دورها فى المؤخرة لو جاء الدور !! ثم ان التفاوت فى القوة والضعف معا يترتب عليه قيام العمران على وجه صحيح ، وتقوم به أوجه النشاط المتعددة فى هذا الكون .

ومن ناحية ثانية فان الكمال الذاتى يباعد بين الخليفة وبين الذات الالهية حيث لا يجـد الانسان ضرورة تقتضيه أن يلجأ الى الله فى مطالبه البدنية أو النفسية لقيام الكمال مقام الطلب فى حال الضعف والقصور ، وربما يحجب الكمال الانسانية عن أن تتجه الى الله يقينا وخضوعا ، وطاعة وعبادة ، ولا ينبغى أن ينتهج كثيرا بحالة الكمال ، وندعى أنها قـد تكون عاملا قويا لتحصيل علاقة بين البشر وخالقهم على نحو أفضل من تلك العلاقة التى تنشـأ مع الضعف ، وذلك مبنى على أن القوة تجر الى الغرور أكثر مما تدعو الى التواضع كما نلمس ذلك كثيرا لدى الأقوياء ، وما نشـاهده اليوم وفى كل العصـور أن الانسان يتجه الى ذاته فى ساعات القوة الى درجة أن يؤله نفسه ، وقـد يصرف النظر عن الخالق ، وينظر الى الكون على أنه هو كذلك، وقـد كان أزلا وليس قبله أو وراءه ، ويرى نفسه مقياس كل شىء فى العلم والمعرفة ، كما هو حاصـل عند العلميين المـاديين فى عصرنا الحاضر .

وما دام حالنـا على هذا النحو فان الضعف الذاتى واستشعار ذلك ، والاعتراف به من شأنه أن يغذى علاقة الانسان بربه ، ويجعله دوما فى حالة افتقار ولجوء الى جنابه سبحانه .

الدروس التعليمية لعلاج الضعف الانسانى :

فما الحل لعلاج ظاهرة الضعف والقصور فى الانسان ؟ ما السبيل

الذى يغلب جانب الروحية على المادية ، أو يحفظ حالة التوازن بينهما ، ويجعل الكائن البشرى قادرا على عمارة الكون وعمارة الروح بالايمان والطاعة والعبادة والخضوع لله والاستسلام لحكمه ؟

ان الحل لتقويم هذا القصور قد برز من خلال عمليات ربانية ارتبطت بالانسان فى اعداده العلمى ، وتؤدى كلها الى أن العلم هو العلاج الأمثل لسد النقص الجبلى فى الانسان شريطة أن يكون العلم قائما على أصول الهية ، وأن يكون متصلا بالله اتصالا وثيقا ، وقد أراد الله سبحانه لفت نظر البشرية الى أن ذاته هى مصدر التعليم المباشر البشرية منذ نشأتها ، والى أنه جل جلاله هو مصدر العلم النافع على طول التاريخ الانسانى •

وأنه هو الذى ألقى أول درس علمى على آدم ، ألقاه عليه بلا سابق خبرة أو معرفة ما عن محتوى هذا الدرس لدى المخلوق الآدمى الجديد ، ثم ان المعلومات التى تلقاها لم تكن فى تلك البيئة التى عاش فيها ، وانما قدمت اليه بتعريف الله له من منطقة شاسعة لا عهد له بها ولا دراية ، قدمت اليه من الأرض والسماء ، من العالم المشاهد والمحسوس ، وقد كان آدم آنذاك ما زال يحيا فى سعادة وسرور هناك فى الجنة التى خلق بها ، ونظرا لأنه خلق لخلافة الأرض، وقدر عليه أزلا ذلك فمن الحكمة أن ننظر الى تلك الفترة التى قضاها فى الجنة على أنها مؤقتة ، وأن الغرض من بقائه بها مدة محددة هو الاستئناس عقب النشأة الأولى ، أو أنها كانت اعدادا وتجهيزا وتعليما للمهمة الملقاة على عاتقه والتى من أجلها خلق ، ولتعريفه على وجه يقينى وبالتجربة بأنه لا يصلح للحياة بلا أخطاء ، ولا يصلح للبقاء معتمدا على ذاته بل لا بد له من الرجوع الى الله فى تصحيح أخطائه ، وفى التعرف على الأشياء أو الأحكام التى لا تقع تحت مداركه •

١ — درس التعـليم الكونى :

فى هذا الدرس نجـد أن الله سبحانه ألقى الى آدم ما يحتاج اليه فى هـذا الكون قال جل شأنه : « **وعلم آدم الأسـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنـا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يآدم أنبئهم بأسماءهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقـل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون ، وماكنتم تكتمون** » (٤٠).

والآيات تشير الى أنه سبحانه هو الذى علم بنفسه بلا واسطة، وأن التعليم قد انصب على الأسماء كلها ، وينبغى أن نوافق ابن عباس فى القول بأن آدم تلقى علم الأسماء كلها ، وهى الأسماء التى يتعارف عليها النـاس : انسـان ودابة ، وأرض ، وسـهل وبحر ، وجبل ، والصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية ، ووافق ابن عباس فى القول بعموم الأسماء سـعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وغير واحد ، ويرى ابن كثير أن هذا هو التفسير الصحيح فقـد علمه ، (أسماء الذوات وأفعالها ، مكبرها ومصغرها) ، خلافا لقول الربيع : انه علمه أسماء الملائكة ، وقول ابن زيد أنه علمه أسماء ذريته (٤١) .

وانما رجح القول الأول الذى يفيد العموم لأن للفظة كل تأكيد ، فافادتها الشمول أولى ، ولو كان التخصيص مقصورا فى الآية ما كان حاجة الى التـأكيد المذكور ، وأيضـا فلأن آدم خلق ليستخلف فى الأرض فالأولى أن يكون عارفا بأسماء الأشياء التى سيجدها على أرض الخلافة .

وانما علمه ثم طلب منه الاجابة بعد عجز الملائكة ليظهر فضله ،

---

(٤٠) البقـرة : ٣١ — ٣٣ .

(٤١) انظر ابن الجوزى : زاد المسير فى التفسير ج١ ٦٣، والبـداية والنهاية لابن كثير ج١ ٧٧ .

وليكرمه أمام الملائكة الذين عارضوا فكرة وجود خليفة من خارج صفوفهم ، وليست تلك من قبيل المكر بالملائكة حيث يعلم الله آدم علما ، ثم يسأل الملائكة وهو يعلم تماما عدم اجابتهم مسبقا ، وهم لا يعلمون بغير تعليم منه ، وفى الوقت ذاته يسأل آدم نفس السؤال الموجه الى الملائكة ، ويطالبه بأنبائهم عن الأجابة ، ثم يجيب المسئول البشرى ولاحيلة له فى التعليم ولا فى الاجابة ، ويعتبرها القرآن من مفاخر آدم على الملائكة ، أقول ليست العملية هذه مكرا ولا مداهنة ، ولا اخفاء لحقيقة ، وانما هى اظهار لحكمة الله وعدله الذى لا يختار مخلوقا لمهمة الا اذا كان ملائما لها ، ومناسبا مع طبيعتها ، ولما كان آدم كذلك فانه علمه الأسماء التى سيتعامل معها ، والذى هو فى حاجة اليها ، واذا لم يعلم الملائكة فلأنهم غير محتاجين الى التعامل معها •

ويقول سيد قطب (ها نحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السر الالهى العظيم الذى أودعه الله هذا الكائن البشرى وهو يسلمه مقاليد الخلافة ، سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، سر القدر على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها — وهى الفاظ منطوقة — رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة ، وهى قدرة ذات قيمة كبرى فى حياة الانسان على الأرض ، يدرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الانسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، والمشقة فى التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه) كما يستحضر نخلة أو جبلا ، أو فردا عند التفاهم (أما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية لأنها لا ضرورة لها فى وظيفتهم) — لذا — (لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم) (٤٢) •

---

(٤٢) فى ظلال القرآن ج١ ٥٧

ويضيف عبد الرزاق فيما يرويه عن أبى موسى الأشعرى قال « ان الله حين أهبط آدم من الجنـــة الى الأرض علمه صنعة كل شىء، وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه ثمار الجنة غير أن هـــذه تتغير وتلك لا تتغير » (٤٣) وبهذا يكون قـــد علمه الأســـماء والصنايع ، والعلم بطرفيه هـــذين هو العلم النـــافع فى الخلافة بمعنى العمران والكشف عن السنن والسعى فيها على الحاجات .

٢ — الدرس التجريبى لعـــلاج المعصية :

وهو مسلك تربوى تجريبى ، وفى الوقت نفسه هو مسلك تصحيح وارشاد ، تعليم وتهذيب هو مسلك يثبت الـــه فيه للانسان ضـعفه الفكرى ، وقصوره الارادى ، وقـــد نذوق من خلال السياق القرآنى أن الله سبحانه قـــدر بقاء آدم فى الجنة لتلك الفترة التى قضـــاها آنذاك لكى يثبت يقينا وبالتجريب السلوكى والنفسى انه قاصر عن أن يعتمد على نفسه وقوته الارادية ، وأن يدله فى الوقت ذاته على مايجبر هذا الضعف ، ويهىء الانسان دائما لقبول الحق ويوجهه الى الخير ، وحول هذه التجربة ونتائجها يقول سبحانه متحدثا عن مخالفة آدم وأكله من الشجرة وانصياعه بوسوسة الشيطان ثم اهباطه من الجنة .

«فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، قلنـــا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبـــع هداى فلا خوف عليهم ولا يحزنون » (٤٨) وقال جل شأنه .

« فدلهمـــا بغرور فلمـــا ذاقا الشجرة بدت لهما ســـوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـــة ، وناداهما ربهما ألم انهكما

---

(٤٣) البداية والنهاية ج١ ٨٧

(٤٨) البقرة ٣٦ — ٣٨

عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنـا وترحمنا لنكوين من الخاسرين ، قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » (٤٩) وقال سبحانه :

« ولقد عهـدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجـد له عزما ، واذ قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنـا يآدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى ، ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبـلى ، فأكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعـا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هـدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقـد كنت بصـيرا ، قال كذلك أتتك آياتنـا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشـد وأبقى » (٥٠) •

هذه هى المواطن الثلاثة التى تعرضت للحادثة بتفصيل ، ولسنا بصدد شرح الآيات علىطريقة المفسرين التحليلية ، وانما بصدد تناولها على نحو اجمالى يظهر لنـا من خلاله عناصر التجربة ، وطبيعة الحياة الانســانية ، وعلى أى نحـو تكون ! ! وأطراف الصراع هـذه الأرض ، ثم العـلاج الذى رآه المولى سـبحانه وتعالى دواء ناجعا لمـا عيه الطبيعة الانســانية فى ذاتهـا وفى علاقاتها ، ولمـا تسعد به البشرية فى حياتها الفانية والأبدية •

(٤٩) الأعراف ٢٢ — ٢٥.
(٥٠) طـه ١١٥ — ١٢٧.

تحركت الأحداث بسرعة فائقة متجهة نحو الأهداف المرسومة والمعلنة سابقا ، وتصرف كل فريق في اطار الأحداث حسب طويته ، ودخيلة نفسه ، وأظهرت الوقائع المتلاحقة أن بعض أطراف الموجودات تكيد لأطراف أخر ، ولا تنتظر الفرص السانحة بل تحاول ابتداعها بشتى الوسائل ، كما أظهرت أن الطبيعة الانسانية قابلة للتأثر والوقوع في حبائل المكر ، وأنها ليست من القوة الى حد لا يسمح لها فيه أن تتأثر بالآخرين ، ودلنا سير الأحداث كذلك على أن الكائن البشرى يجب أن يدرك يقينا غفلات طبعه ، وأنه يمكن أن يخدع بأبسط الحيل ومن أقل المخلوقات ، وبأوهى الاغراءات .

فعلى الرغم من أن التحذيرات الربانية صدرت من الله سبحانه وتعالى لآدم بأن يتجنب الحاقد ابليس ، وألا يستمع لنصائحه مهما بدت موثقة بالأيمان والعهود ، وأن آدم قد شاهد بنفسه قبل حادثة الشجرة استكبار ابليس في عدم السجود ، واستعلاء بأصل الخلقة ، ولقد طرد من الجنة قبل آدم بسبب ذلك ، ونزل وهو يهدد ويتوعد البشرية بأجمعها ، ويعلن أنه لن يترك مكانا ولا مجالا الا وسيقتحمه عليهم ، ومع علمه المسبق بأن الأرض ساحة الصراع بينه وبين الآدميين الا أنه لم ينتظر مجىء آدم بطبيعته الى أرض الميعاد ، فحاول الصعود اليه بشتى الطرق كى يمارس مهمته في اغوائه ، وكأنه كان يستشيط غضبا لبقاء آدم في الجنة مع أنه أحدث خلقا ووجودا فيها منه ، وأنه — أى ابليس — أقدم منه خلقا واقامة في الجنة ، فكيف يزحزح الجديد القديم من مكانته ومكانه ، وهل يترك القديم الجديد يحيا في سعادة هانئا باله دون تدخل ، هذا ما أزعج ابليس فحاول بشتى الطرق أن يفسد على آدم مسكنه ، وأن يتوصل اليه في موطن سعادته بوسيلة لا نستطيع الجزم بها ، ولم يهنأ له بال حتى توصل الى مأربه ، وحقق أمنيته الكاذبة .

أقول على الرغم من علم آدم بعداء ابليس ، وتحذير اللـه له

منه الا أنه انخــدع بوسوسته ، واستجاب لاغوائه ، وتغلبت أوهام كاذبة على وعود الله المحققة ، وأيقن أبو البشرية أنه راح ضحية حيلة ماكرة وعمليــة غادرة ، واكتشف حقيقة ذاته ، وأنه مخلوق ضعيف تســتميله عناصر الشر وجنوده ، ويستهويه لمعان السراب وبريقه ، فيفقد ما بيده من حقيقة بحثا عن شيء متوهم ، أو عن أمل مظنون ، وتطلع حوله ، ونظر وتأمل فاذا الملك الأبدى سيضيع ، واذا حيــاة الرغد والهناء ستتبدل ، سيفقد عرشه على مملكة الجنة ، وسيحرم من نعيم بلا جهــد ، ومتعة لا منتهى لادراكها ، وفوق هــذا كله وقبله لقــد أغضب ربه وعصاه ، وخالفه فى أمره ، ولهذا فالوجود من حوله يضغط على أضلاعه ،ويكاد يكتم أنفاسه ، ويضيق رغم اتســاعه ، نعم لقــد ظهرت له مخالفة أخرى من العصيان •

ووضع آدم صفحته أمام عينيه وقرأها فاذا هى تتكون من البنود التــالية :

أمر ونهى وتحــذير ، أمر بالأكل من عموم الأشجار ، ونهى عن واحدة ، وتحذير من عدو ، ووجد نفسه أمام طبيعة ذاتية قاصرة وقعت فى المحذور وتعاونت مع العدو واستجابت له ، وخدعت دون دراية ووعى وخالفت مقتضى النهى ، فماذا يفعل ازاء هذه البنود ، كيف يعود الى ربه ؟ وهل لو عاد سيحتفظ بمكانه فى الجنة ومكانته لدى ربه ؟ أو ماذا ؟ وعلى فرض أن اللــه عفا عنه هذه المرة فهل يعفو كل مرة ؟ والشواهد ناطقة بأن المخالفات لن تقف عند هذا الحــد فهل سيعفو فى المستقبل ، ويتوب كلما ارتكب آدم ذنبا ؟ وما الطريقة لارضاء اللــه عند الوقوع فى الخطــأ وهل سيتركنا ربنا بلا أمر ولا نهى ولا حكم بعد أن خالفنا أمره أول مرة ؟ واذا تركنا فكيف نســير معتمدين على أنفسنا وهى قاصرة عاجزة خطاءة تنسى وتزل ؟

تلك هى الأسئلة التى ربما جاشت فى خاطر آدم وتلجلجت فى ضميره ، وهى التى تتحرك فينا بالطبيعة دائما فى مثل هذه الظروف ، وهذا موقفه وحاله مع ربه ، فماذا عن اللــه مع عبده الضعيف ؟

أول شيء فعله الحق هو رفع الحجاب النوراني عنهما ، وتعريتهما على حقيقتهما ، واشعارهما بمناطق العورة فيهما ، والاستحياء من ذلك ، بيانا منه جل جلاله على أن المعصية فعل فاضح ، وأن المخالفة سلوك مخــزى ، وأن العلاقة بين الخطيئة الناجمة عن هوى النفس والأثر الظاهر على بدن الانسان شيء وثيق •

وعلى الفور عندما أحس آدم وحواء بما جــد عليهما ، وعندما استشعر الحياء مما ظهر أخذا يستعيضان عن الســتر الالهى بورق الشجر ، ثم سمعا النداء من اللــه يبين بجلاء أن ما حدث لهما من عرى هوبفعل المخالفة وبالوقوع فيالمحظور **« ألم أنهكما عن تلكما الشجرة »** وكذا سيفعل مع ذريتهما عنــد الوقوع فى مثل ما وقع فيه أبواهم ، والكرة هى الكرة ، **« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »**(٥١) وقد أوضح لهم المولى سبحانه أن أثوابهم البديلة التى أعدها لهم فى الأرض ، تلك الأثواب الحســية القابلة للتمزيق والفناء ، والتغيير والتبديل ، والجــدة والبلى لا يمكن أن تضارع أثواب الســتر الالهى التى لا تبلى ولا تخلق ، ومهما بدت الأثواب الحسية قشــيبة جميلة فلن تدانى فى رونقها بهاء النورانية الربانية التى جلل بها بدن آدم وحواء قبل المعصية ، ثم ينبه المولى عز شأنه الآدميين الى أن أبدانهم لا تكسى بالأثواب المحسوسة على الحقيقة ، وأن كثيرا من الذين سيرتدون أفخر الثياب قد يظهرون عراة أوشبه عراة ، ومهما جللوا أبدانهم بالأثواب وعصوا ربهم فان أمارات السوء بادية عليهم ، ومن أجل هذا فلابد أن يعتمدوا على لباس التقوى فهو خــير •

الى هنا بات آدم يرقب تطور الأحداث ، وينتظر صدور أوامر جديدة ، ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا سيفعل فى الغــد ، ولا ما هى

---

(٥١) النور ٦٣

العدة التى يعــدها ازاء ما يطرأ من أوامر ، وليس لديه ما يمكن أن يضعه فى خرجه ، ولا أمتعة عنده يمكن أن يحزمها . فالأجدر به أن يستسلم ويخضع ، فمع كل أمر فرجة ، ومع كل خطوة زادها من عنده سبحانه ، المهم عنده فى هذهاللحظات وبأقصى درجة ممكنة هو كيف يرضى ربه ؟

وفعلا توالت الأحداث ، وابتدأت بأهم نقطة تشـغل بال آدم وهى الكيفية التى يصلح بها خطأه ، ويرضى بها مولاه ، ولأن اللـــه سبحانه يعلم يقينا الطبيعة الخطاءة لآدم وبنيــه فقد فتح بابا لا يغلق بينه وبين البشرية الضعيفة ، بابا يجعل الصـــلة بين الله وعبيـده لا تنفصم انفصاما نهائيا ، فليس هناك ذنب أو جريمة تكون فاصـــلا نهائيا لعلاقة العبــد بخالقه ، حتى الكفر ذاته وهو أشنع الذنوب فله مندوحة فى العودة هى قبول الايمان واعلان العبودية لله وحده (٥٢) .

لقد كان آدم يدرك أنه فعلا أخطأ لكن ماذا يفعل لاصلاح الخطأ ؟ هــذا ما كان يود لو وقف على تعليم أو طريقة تقوده الى ارضـــاء اللـــه سبحانه ، ويعلم اللـــه ذلك منه ، ويعلم أنه لا يدرى الكيفية ، ولا ما يقوله ليمسح عار الخطيئة عن نفسه ، فألقى اليه كلمات يعلمه بها كيفية الانابة والرجوع ، ويعرفه أن هذه هى الكيفية التى تستدر بها عطف الرحمة الالهية بعد الذنب ، سواء فى ذلك آدم أم ذريته ، وتسمى تلك الخطوة بالتوبة .

أن التوبة كلمات ألقـــاها اللـــه الى آدم فوعاها ونفذها ، وهى

---

(٥٢) انظر فى هذا الجزء كله : الثعالبى : التفسير ج٢ ٤١ — ٤٢ مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت ، تفسير البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الاندلسى — دار الفكر للطباعة والنشر ج٦ ٢٨٣—٢٨٥ ، تفسير القرطبى ج١ ٢٩٨ — ٣٢٩ ج١١ ٢٥١ — ٢٥٩ تفسير أبى السعود ج١ ١٥٩ — ١٦١ ج٣ ٦٧٤ — ٦٧٥ تفسير الكشاف ج١ ٢٧٤ .

عبارات تحمل من الخصائص النفسية والشعورية والعقائدية ما تجعل الحق سبحانه مغتبطا فرحا راضيا عن عبده عقب تطبيقها والقيام بها انها نداءات مكلوم ، ونفثات ضائق ، ورجاءات متطلع ، نداءات مكلوم جرحه الذنب ، وأدمته المعصية ، وحزت فى نفسه مخالفته لخالقه ، يستبشع الجريرة فى حق مولاه ، ويستعظم الخطـأ على مسمع من سيده ، ونفثات ضائق بعقله يظن أن الوجود قد طوى دونه ، ولـم يسعه فيه الا عفو ربه الكريم ، يظن أن الوجود ضاق عليه فلم يعـد يجد ركنا يلجأ اليه ، كما ضاقت عليه نفسه ، وبدا ذنبه ماثلا أمام عينيه ، لا يرى سواه ، ولا ينظر الا اليه ، ولمـا كان حاله كذلك توجه بالرجاء الى ربه ، وتحول بقلبه فى الملكوت الأعلى مخلـا ، منيبا ، مستغفرا ، راجعا ، مستقيلا اياه مما فعل ، نادما على ما اقترف ، عازما على عدم العود ، وعندما يطلع اللـه على حاله هذا يوفقه الى الكلمات التى يقولهـا فتقع منه جل جـلاله موقع القبول والعفو ، فالاخبات القلبى والندم النفسى ، والخوف الشـعورى سبيل الى استرضاء الحق واستعطافه ، واستعظام الذنب فى حق الجليل ، وفى حق القهار طريق استصغاره لدى المولى سبحانه ، والعكس بالعكس •

وتظهر آثار الخصائص النفسية والشـعورية والعقائدية لدى المذنب فى صورة اعلان واضح منه عن ظلمه لنفسه ، وضعفه أمام المغريات ، وتأسفه البـالغ عما بدر منه ، وان صاحب هذا بكاء حار ، ودمع ساخن فنعما هى ، والتسبيح والتوحيد والثناء الجميل على الله أمارات الانابة ، وعنوان الخضوع للالوهية الحقة والدعوات المناسبة فى هـذا الموقف ، والمعبرة عن الطابع النفسى والعقيدى هى تلك التى قيل ان آدم قد تلقاها ونطق بها مثل **« ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنـا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٥٣) » أو « سبحانك اللهم لا اله**

(٥٣) وهو رأى ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضـحاك ومجاهد .

الا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى انك أنت الغفور الرحيم » أو ماردده سيدنا يونس فيمابعد **« لااله الا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين »** أو **« لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على ، انك أنت التواب الرحيم ، لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت الغفور الرحيم ، لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت أرحم الراحمين »** (٥٤) .

بهذا المعنى النفسى والعقيدى تاب آدم ، وبه ينبغى أن يتوب كل فرد من ذريته ، وتلك هى الطريقة التى علمها الله للادميين جميعا ان أخطأوا ، وهى الأسلوب الأمثل فى معالجة القصور الذاتى ، والعودة بالنفس الى رحاب الله سبحانه ، انها معالجة للضغط الشعورى ، وشفاء من تمزق النفس ، ودواء من علل القلب ، وهى تصرف شخصى يقوم به الفرد بينه وبين ربه ، وعودة ذاتية الى صراط الله ، وبمجرد أن يقوم بها العبد تسقط عنه الذنوب ، وتتساقط الأوزار ، ويصير نقيا طاهرا ، طالما رد حق ربه توبة ، وسدد حقوق العباد معاملة .

والتوبة على هذا النحو تمحو الخطيئة ، ولا تبقيها عالقة فى عنق صاحبها ، ولا تورث لأولاده أو ذريته [« ان الخطيئة فردية ، والتوبة فردية ... ليست هناك خطيئة مفروضة على الانسان قبل مولده كما تقول نظرية الكنيسة ، وليس هناك تكفير لاهوتى كالذى تقول الكنيسة — به من أن عيسى بن الله — قام بصلبه تخليصا لبنى آدم من خطيئة آدم ، كلا خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة ، وخطيئة كل ولد

---

(٥٤) كما قال مجاهد ايضا ووهب ومحمد بن كعب (تفسير القرطبى ج١ ٣٢٤) .

من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة »] (٥٥) .

وهكذا رجع آدم وأناب واستراح وسعد الا أن الأحداث لم تتركه ينعم طويلا فى ظل العفو الجديد ، وكأن العناية الالهية أرادت أن تطهره من الذنب وتنظفه من الاثم ليكون مستعدا لبئولة من الحياة جديدة ، ولذلك فسرعان ما صدر اليه الأمر بالهبوط الاضطرارى من الجنة الى الأرض ، أو بالاهباط القسرى منها ، بلا تخيير أو استشارة وبلا تراخ فى التنفيذ أو أجل مضروب له : جاء الأمر مشمولا بالتنفيذ الفورى ، ولما كان من الممكن أن يظن آدم أن الاهباط عقوبة مؤقتة شأنه شأن بدو السوأة ، وأنه سيقضى فى الأرض فترة العقوبة ثم يعود الى الجنة قطع اللـه عليه هذا الظن ، وألغى احتمال طروه ، فأعلن له أن المستقر والاستمتاع فى الأرض ، وأن البقاء فيها لفترة معينة هى مدة الاستخلاف كلها ، ثم تعود البشرية الى اللـه فى موقف حسابى ينعم فيه المؤمنون بالجنة ، ويعذب الكافرون فى النار .

وكان الحق جل جلاله قد حذره فى بداية الخلقة ، وبداية الحياة فى الجنة من عدوه ابليس ، وهاهو سبحانه يعود فيجدد التحذير والتنبيه بأن العداوة ستتسع رقعتها لتشمل العداء بين الذرية بعضها لبعض ثم بينها وبين ابليس ، والعداء القائم بين أفراد الانسانية صراع تحكمه الشهوة ، أو تتسلط عليه نوازع الأنانية ، ورغبات الذاتية ، هو عداء بين أعوان الضلال والغواية وأنصار الحق والهداية؛ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالعداء القائم بين البشرية وابليس عداء تحكمه طبيعة شريرة ، صبغت على الحقد ، وطردت من منزلتها بسبب العنصرية الزائفة ، والعرقية المغرورة ، وهو عداء لا يقف عند

---

(٥٥) فى ظلال القرآن ج١ ٦١ .

حد ، ولا يقتصر على النقل من صفاء الفطرة والاعتراف بالحق الى نكران الخير ، والتخلى عن نور الهداية بل يتجاوز ذلك الى التدخل فى كل صغيرة ، ومحاولة افساد الانسان فى نفسه وقلبه ، وافساده مع غيره فى صلاته وعلاقاته ، ولتحقق وقوع هذا الأمر وخطورته نبه اللـه سبحانه الآدميين اليه ولفت أنظارهم الى مخاطره ، والى أن يقيسوا نتائج هذا السلوك فى كوكبنا على ما حـدث لآدم فى حياته الراقيـة الأولى ، وكما ترتب الطرد من الجنة الى الأرض على مسألة العداء فكذلك سيترتب الطرد النهائى من الجنة الى النار على الانصياع للشر ، والافساد بين الناس ، ومحاولات الوقيعة بينهم ، والاستجابة لزخارف القول من الشياطين ، والانسان هو نفسه فى ميدان المعركة ، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها وفى هذا ايحاء دائم له باليقظة ، وتوجيـه دائم له بأنه جندى فى ميدان ، وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب فى هـذا الميدان] (٥٦) •

٣ — درس التشريع :

وها هو قد تعرف على الطريقة التى يصلح بها ذاته وهى التوبة والانابة ، لكن من ينقل ذلك الى أجيال قادمة ومن يحفظها من الضياع والنسيان ؟ من يديم التذكير ؟ ومن يواصـل الترغيب والترهيب ، والتعريف والتهذيب ؟ ومن يفض مشاكل العداء ، وصراع الحياة بين الألداء من البشر ، وبينهم وبين اللعين الذى طرد بسببهم ؟ ومن يرسم الطريق واضحا للأشباه والنظائر من المتحابين كى يتعاونوا على الخير، ويتحابوا فى سـبيل الحـق ، ويقاوموا جميعا الباطل ؟ كل هـذا لايستغنى عن عون الله ، وامداده ، وفيضه وجوده ، ونواله وعطائه ، لهذا جاء الأمر بالهبوط مقرونا بنزول الهـدى الالهى وتتابعه حتى

---

(٥٦) نفسه ج١ ٦١ •

الرسالة الخاتمة ، نجده فى سورة البقرة وفى سورة طـه ، نجد الهبوط محوطا بالرعاية والعناية ، انه ليس هبوطا الى عالم الضياع والشتات والشرود ، وانما هو هبوط الخليفة الى ملك المستخلف ، ومن السنن البارزة أن من استخلف واحدا على شىء عين له حدود الخلافة ونوعها وغايتها ، وأوضح له طريقة القيام بها ، كل ذلك فى برنامج شـفوى أو مكتوب ، ان كان ذلك من البشر فلقد تعلموه من سنة اللـه مع خلقـه .

والشرط واضح « **فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » أو « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » أى أن اللـه تكفل بارسال الرسـل وأنزال الكتب حتى يتم الوحى ويكتمل برسالة خالدة شاملة ، والهدى المتمثل فى الكتب والرسل ضمان من زيـغ القلوب عن العقيـدة الصحيحة ، ودلالة وارشاد للصراط المستقيم ، وبرنامج مفصل للمطلوب من الطاعة والعبادة ، وخط فاصل بين الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وهو تبيان لكل شىء فى مجال العلاقات الانسانية المـادية أو الاجتماعية أو السياسية ، ولذا فمن تمسك به لا يضل عقيدة أو تشريعا أو خلقا ولا يشقى معيشة أو حياة أو كسـبا .

وعلى هذا جبر اللـه الضعف الانسانى بالتشريع الالهى والوحى المنقـذ ، لكى يقوم الانسان [بدوره فى الخلافة عن اللـه فى الأرض مزودا من اللـه الذى أخلفه بدستور من الهدى الربانى] [٥٧] وحول هـذه النقطة يقول الدكتور عون الشريف مبينا أن انسجام الانسان مع نفسه ومع الكون الذى يعيش فيه ، ومع ربه لا يتم الا عن طريق

---

(٥٧) محمد قطب : دراسات فى النفس الانسانية : ٣٢ وانظـر : التصور الاسلامى للكون والانسان والحياة عثمان جمعه : ١٠٤ — ١٠٥ .

الدين ، لأن التدين [قمة الوعى الانســانى الذى يفتح آفاق الوعى الكونى ، ويحقق التوافق بين الفرد فى دخيلة نفسه ، وفى مجتمعه ، وفى الكون المحيط به] .

ويقول [كلما رسخ هذا الوعى الكونى فى ضمير الانسان ووجدانه كان أقرب الى تحقيق ذاته ، وأكثر استعدادا لاستكمال انسانيته ، فان الانسان جزء من كل ، ولا صــلاح لجزء الا بوضعه موضعه الصحيح من الكل] والدين فى نظره [تعبير عن هذه العلاقات الكونية المتشابكة بين الجزء والكل التى تصل بين الفرد ونفسه ، وبينه وبين مجتمعه وبينه وبين الطبيعة والكون ، وبينه وبين خالق الكون ، فيتم التناسق والانسجام بين الفرد والوجود وذلك الدين القيم الذى يرتكز عليه نظام الكون ان فى شكله المــادى القــائم على قوانين الطبيعة . أو فى شــكله المعنوى القــائم على قوانين الاجتماع البشرى ، ولن يتحقق هذا التكامل بين الانسان والكون الا بنظرة شاملة للوجود ، ولمــا وراء الوجود تضع الانسان موضعه الصحيح من هذا النظــام الالهى .. الذى ان أدرك الانسان جزءا محدودا منه فمعظمه غيب عنه فى علم اللــه خالق العالمين ، وهذا الغيب الذى يشكل الجــزء الأعظم من هذا الكون الذى نعيش فيه فى هذه الحياة الدنيا ، ويشمل كل ألوان الحياة الأبدية فى العالم الآخر أمر بعيد عن عقولنا وادراكنا لأنه لا يخضع فى معظمه لتجاربنا ، ولا نتأتى لنا معرفته الا بفيض من اللــه] ويقــول :

[وهدى اللــه تبيان لكل ما غاب عن علمنا من علاقات الوجود اللازمة لتكامل الوعى الكونى فى نفوس البشر ، وكل هــذا لا يتم بالانغلاق على تجاربنا المحدودة بحدود حواسنا القاصرة ، وانما يتم بالانفتاح على دفق الوجود كما نحسه بعقولنا وأرواحنا ، وقلوبنــا ومشاعرنا تحدونا هداية اللــه التى أنزلها لخلقه عن طريق الرســل الذين بلغوا دين اللــه الواحد على تفاوت فى درجات التبليغ بحسب ظروف الزمان والمكان ، وبذلك يتعمــق وعينــا الكونى ، وتتضح فى

نفوسنا كل طاقاتنا الروحيــة والوجدانية والفكرية الكامنة ، فتزداد ارتفــاعا فى سلم الانسانيــة ، ويتقلص الحيــوان فينــا لحساب الانسان] (٥٨) .

٤ — درس الربوبية :

ويظهر تماما فى حديث الله ء الذرية ، وأخــذه العهد عليهم ، ولدقة هذه النقطة سندع النصوص تتحدث عنها ، يروى الامام أحمد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان اللــه أخــذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان — جبل بقرب عرفة — يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : « ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعــدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (٤٤) » واستأنس الجمهــور وهم القائلون بأخذ الميثاق على الذرية بما قاله الامام أحمد فى روايته عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجــل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتــديا به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قــد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قــد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شــيئا فأبيت الا أن تشرك بى » (٤٥) .

وعلق أبى بن كعب فقال « فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه الى يوم القيمة ، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم .. قال فانى أشهد

(٥٨) د/ عون الشريف : الرسالة الخاتمة ١٤ — ١٦ .

(٤٤) الأعراف ١٧٢ — ١٧٣ قال ابن كثير هو باسناد جيد قوى على شرط مسلم ، وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه (البداية والنهاية ح١ ٩٨) .

(٤٥) رواه الامام احمد ، واخرجاه من حديث شعبة فتح البارى ح٦

عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم، أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا اله غيرى ، ولا رب غيرى ، ولا تشركوا بى شيئا ، وانى سأرسل اليكم رسلا ينذرونكم عهدى وميثاقى ، وأنزل عليكم كتابى ، قالوا نشهد أنك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك ، ولا اله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة » (٤٦) وهكذا فان الله سبحانه (لم يترك الانسان نهبا للحيرة والتخبط فى الاختيار دون هداية بل دله على سبيل الرشاد وهو فى عالم الذر) (٤٧) .

الانسان حر منذ اللحظة الأولى :

لقد كان خلق الانسان بلا ارادته ، وكان شكله وهيئته وطبيعة تكوينه على نحو ما يريده الله فحسب وكان بقاء آدم فى الجنة بلا تخيير أو استشارة له ، كما كان هبوطه ونزوله ، أما أكله من الشجرة فكان بمحض اختياره ، وهذا معنى أن الأفعال التكوينية فى الانسان كانت ضرورية وبلا اختيار أو حرية ، أما الأفعال السلوكية فهى ارادية ، ويلعب عنصر الاختيار فيها دورا بارزا ، كما أن الحرية ظهرت مع الانسان فى كل تصرفاته الأولى ، صحيح ان الأمر قد صدر اليه بعدم الأكل من الشجرة لكن النهى لم يكن قيدا على تصرف آدم لا ينفك عنه الى المخالفة والضد ، ولم يكن النهى حاضرا منع الانسان من التصرف طبقا لتقديره الخاص ، سواء كان التقدير صوابا أو خطأ ، وبعد وقوع الفعل وتنفيذه لم يتذرع آدم بمشيئة الله وقدره بل نسب الفعل الى نفسه وبحث عن طريق لمرضاة الله سبحانه ، وفهم

---

(٤٦) رواه الائمة: عبدالله بن احمد وابن ابى حاتم وابن جرير وابن مردوية فى تفاسيرهم من طريق ابى جفر ، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف لسياقات توافق هذه الأحاديث (البداية والنهاية ح١ ٩٩) .

(٤٧) عدن الشريف : الرسالة الخاتمة ١٤

أن حرية البشر مبعثا للأفعال ولصيقة لهـا ، وان كان العلم الالهى والقدر الربانى قد سبق وقوع الفعل ، وعلم الحق ما سيقع من العبد طبقا لاختياره بعلم سابق أزلى ، وكتبت المقادير بناء على ذلك .

وبدون غوص فى هـذه المشكلة فان الواضح جدا أن آدم تصرف من فيض ارادته الحـرة المختارة ونفذ ما استقر عليه تفكيره وميله ، ولسنا نفهم غير هذا من نصـوص القـرآن ، اذ أنه لم ترد اشارة واحدة أثناءها تدل على أن الأكل كان قهريا أو قسرا كما كان الهبوط مثلا ، ثم ان الأفعال التى ترتبت على الأكل جاءت نتيجـة التصرف الانسانى البحت وجزاء وفاقا لمـا اقترفته أيدى الخليفة الجديد .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان اللـه سبحانه لا يعقـل أن يمنح الانسان هـذه المنح الروحية والعقلية ثم يشل حركة هـذه الأجهزة فى الكسب والاختيار ، ولا يعقل أن تكون ارادة الانسان ذات صفة واحدة ، أو وجه واحد هو الخضوع البحت للمقادير الغيبية دون تخيير لهـا ، والا فلم تحاسب على ما تفعل والحال أن فعلها صورى الى أبعد الحدود ؟ والأدلة القرآنية تؤكد هذا الاتجاه من أول لحظة ، ألم يقل اللـه لآدم وحواء ومن تناسل منهما « **فاما يأتينكم منى هدى فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** » مثلما حدثت سورة طـه ، وصرحت به سورة البقرة ، وفى هـذا الاسناد الى الانسان ، وفى هذا التخيير بين اتبـاع الهدى ، والاعراض عنه ابراز جلى لقوة التخيير وصفة الحرية ، وهو الوحى الالهى الذى ألقى على سمع آدم وحواء وهما يستعدان لمغادرة الجنة المطهرة ، ولقد أصغيا اليه فى اهتمام فائق ، وتحسر مرير .

والأمر بالهبوط الى الأرض كان عاما شائعا لم يحدد مكانا معينا ، أو جهة خاصة ، ولم ترسم الأوامر الالهية خريطة جغرافية لخط سير

الانسان على الأرض ، أو تحركه عليها ، ولم تحدد برنامجا مرسوما تلتزمه البشرية فى تعاملها الكونى والاستعمارى على الأرض ، واشترط المولى سبحانه ألا يحيد عنه البشر ، بل ترك أمر التحرك والتعامل مع الكون ، واكتشاف أسراره واستغلاله الى حرية الانسان وارادته وخبرته وتجاربه ، وأثابه على كل ذلك بشرط الايمان المصاحب له ، ومن ثم فقد نزل آدم فى مكان ، وحواء فى آخر ، وسعيا حتى التقيا ، واتخذا من الأرض مراحا ومستراحا ، وتصرفا بحرية فائقة ، كان من نتائجها ، ومن سوء استغلالها رفض قابيل لحكم شرعى يتعلق بالتزويج بينه وبين أخيه هابيل ، وانتهت تلك الحالة بقتل قابيل لهابيل (٥٩) بمحض اختيار القاتل واكتسابه ، والحوار بين الأخوين من جهة ، أو بينهما وبين أبيهما آدم كان ينم عن استعمال حق الحرية استعمالا كاملا ، وكل أحداث القصة تشير الى ذلك بجلاء ، ويتحمس الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالى لهذا المبدأ فى الانسان تحمسا شديدا ، وفى هدوء بالغ يقول أولهما :

[وفى التصور الاسلامى اعلاء من شأن الارادة فى الانسان فهى مناط العهد مع الله ، وهى مناط التكليف والجزاء ، انه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم ارادته . وعدم الخضوع لشهواته والاستعلاء على الغواية التى توجه اليه ، بينما يملك أن يشقى نفسه ، ويهبط من عليائه بتغليب الشهوة على الارادة ، والغواية على الهداية ، ونسيان العهد الذى يرفعه الى مولاه ، وفى هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه يضاف الى عناصر التكريم الأخرى ، كما أن فيه تذكيرا دائما بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة ، والرفعة والهبوط ، ومقام الانسان المريد ، ودرك الحيوان المسوق] (٦٠) . ويقول ثانيهما :

---

(٥٩) تفسير الكشاف ج١ ٦٠٦ .
(٦٠) الظلال ج١ ٦١ .

[ولا بد من توكيد هـذه الحقيقة . حقيقة الارادة الحـرة فى الصعود والهبوط ، فى التقوى والفجور ، فى اغضاب اللـه أو ارضائه ، فان الرحمن الرحيم يستحيل أن ينقم على انسان سعى فى مرضاته ، كما أنه لا يرضى عن انسان سعى فى اغضابه ، وبعض الناس يمارى فى هـذه الحقيقة من مكابرة أو تحمل أعذار ، وهيهات نقصة الوجود الانسانى تقوم على اختبار حقيقى لاكتشاف المحسن والمسىء] (٦١) .

والدعوة الى اللـه ، ومحاولة التـأثير على الآخرين ، وجذبهم نحو الحق ، وتعديل مسارهم أو تصحيحه كلها مبنية على وجود مبدأ الارادة ، وافتراض التحقق والاتصاف بالحرية ، وبدونهما تصبح الدعوة عديمـة الفائدة ، خاليـة من الأساس الذى ترتكز عليه فى المدعوين ، وبدونهما لابد أن نترك الأفراد يسيرون طبقا للمسار الذى فرض عليهم دون أن نحاول الاقتراب منه ، أو نحاول اخراجهم من الطريق المكتوب عليهم ، ولابد أن نعتبرهم منفذين لأحكام واتباعات أجبروا على تنفيذها وتطبيقها ، وما يقال فى مجال الدعوة يقال بالنسبة لكل موقف يفترض فيه أن يكون ذا طبيعـة تأثيرية على الآخرين ، ويتطلب منهم تغيير ما هم عليـه .

---

(٦١) علل وأدوية : ١٤ .

الفصل الثانى

العبـادة الغائية ومعانيها

المهمة الكبرى للانسان :

المخلوقات كلها ساجدة ومسبحة ، وهى مخلوقة للانسان ، والكائن البشرى مستخلف عليها بالعمران ، ولكن لا يمكن أن يكون هـذا الكائن قد نال تلك المميزات السابقة فى خلقته واعداده العلمى ، وقد سخرت له الموجودات لمجرد أن ينتفع بها فى حاجاته البدنية أو العرفانيـة فحسب ، بل العقل السليم يذهب فى تفسير تلك الحالة الى أن اللـه سبحانه قد كـرم الانسان بهـذا التكريم الجليل ، وجعل له الدنيا زادا يبلغه فيها الى غايات أرقى ومهام عليا •

فالكون المسخر ، والأرض التى بورك فيا ، وقدر فيها الأقوات لجميع الخلائق ، كل ذلك فعله اللـه للانسان لكى ينزع من نفسه القلق والانزعاج على مستقبله وأنماط معيشته ، وليطمئنه على أهم مطالبه وآماله وهو الرزق المكفول له ، كى يتجه بعد ذلك صوب غايته الراقية من عبادة اللـه ، وليفر اليه سبحانه فى ايمان صادق ، وطاعة مخلصة ، متجردا من هموم الحياة وشواغلها ، ومتفرغا من أثقالهـا وأحمالهـا •

ولشدة الاهتمام بتلك المهمة يبرزها الحـق جل جلاله مع خلق الانسان ، ويبين أنه ما خلق فى الحقيقة الا لتلك الغـاية العبادية ، وما سواه من ابداع فى الخلقة ، ونفخ فى الروح وتسخير للكون فهى معينات ومبلغات توصل الى أداء هـذه الغـاية على وجه مناسب • واستعداد لائق ، يقول سبحانه عن علاقة الانسان بالعبادة **[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون]** (1) فهى ليست علاقة واحدة من بين عدة علاقات آخر يقوم بها الانسان ، وانما هى العلاقة الوحيدة التى خلق من أجلها الانسان ، وهى مقصورة على خلقه •

وبهذا القصر يكون الاستخلاف الانسانى على الكون ليس غاية مطلقة ، أو غاية بعيـدة كما بينا فى تقسيم الغـايات وانمـا يكون

---

(1) الذاريات ٥٦ •

الاستخلاف غاية قريبة ، أو وسيلة موصلة الى الغاية الرئيسية والأساسية ، وهما بمعنى متقارب كما أوضحنا سلفا .

وسوف نتناول تلك الغاية الأولى من خلال الآية السابقة ، لما فيها من التصريح الواضح بالخلق المرتبط بالعبادة ارتباطا يجعل الأول ما خلق الا للثانى ، ويجعل الثانى مقصورا على الأول قصرا مؤكدا ، ولأن العبادة فى الآية تحمل معنى جامعا شاملا ، وهو المطلوب فى أداء تلك الغاية .

والحديث عن العبادة الغائية يطول وبطول ، ولكننا سنوجزه فى هذا الفصل والذى يليه ، وفى الفصل الذى تحت أيدينا الآن سنقف على المعانى المرادة من العبادة فى الآية مع ترجيح المعنى المختار ، وفى الفصل الذى يليه سنتناول أصول العبدة فى الاسلام وشمولها لجميع التكاليف الشرعية .

المعنى اللغوى للعبادة :

قال ابن فارس [العين والباء والدال أصلان صحيحان كأنهما متضادان ، والأول من دينك الأصلين يدل على لين وذل والآخر على شدة وغلظ] ومن الأمثلة يشتق عبد عباده لمن يعبد الله ، والمتعبد المتفرد بالعبادة ، وتعبد انفرد بالعبادة ، وتعبد دعاه للطاعة ، والعبادة الخضوع ، والعابد من يقيم على الطاعة والعبادة ، والعبودية الذل والخضوع ، والعبودة الرضا بما يفعل الرب سبحانه ، وتسقط العبادة فى الآخرة ولا تسقط العبودة لأنها أن لا يرى متصرفا فى الدارين الا الله ، والعبد المملوك ، والمتذلل لبارئه سبحانه ويقال عبد بين العبودة والعبودية ، والتعبيد التذليل يقال طريق معبد ، والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا ، وكذلك الاعتباد (٢) .

---

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج٤ ٢٠٥ — ٢٠٦ ، والزبيدى : تاج العروس ج٢ ٤٠٩ — ٤١٠ وابراهيم مصطفى : المعجم الوسيط ج٢ ص٥٨٥ .

والعبادة الطاعة والتنسك ، وتطلق على الشعائر الدينية وعلى طاعة اللـه فمعنى [ليعبدون] فى الآية من الناحية اللغوية ليذلوا ويخضعوا ويعبـدوا اللـه على شريعـة دينية مسـنونة ، والمعنى الاصطلاحى فى الشرع لا يخرج عن هذا المعنى الأخير •

ومن الأصل اللغوى واشتقاقاته يتضح لنـا أن الكلمة تحتوى على طرفين وحالة بينهما :

أما الطرف الأول ويرمز اليه بالعين فهو الأدنى ، وهو الطرف اللين العابد والمستعبد ، والذليل ، والخاضع والطائع والراضى بفعل المعبود فى الدنيـا والآخرة ، وهذا الطرف الأدنى هو الانسان وهو العبـــد •

والطرف الثانى ويرمز اليه بالبـاء الدالة على الشـدة والغلظ كما هو عند ابن فارس فيمكن من أن يشار به الى الذات الالهية ، وهو المعبود والمطاع والسيد والقوى ، والمستعبد بكسر البـاء •

والحالة التى تفرض من الأعلى على الأدنى ، والتى هى وسـيلة وصلة بين الانسان الذليل والرب المطاع تتمثل فى الخضوع والطـاعة والرضا ، والعبادة على شرع يرتضيه السيد للعبد الخاضع ، وبهذا تكون العبادة حالة تعبـدية وتنسكية مطابقة لشرع يقوم به العبـد طاعة للمولى عز وجل •

دلالة أسلوب القصر على تأكيد الغـاية العبادية فى الآية :

عندما يريد الحق جل جلاله تأكيد حكم من الأحكام يسوقه فى كتابه بأسلوب من أساليب التوكيد التى تتناسب مع الحالة المرادة من تشريع هذا الحكم ، وأساليب التوكيد مشهورة فى اللغة ، ومن أقوى هـذه الأسـاليب دلالة على المراد من الاهتمام بالمذكور أسـلوب الحصر أو القصر وهو [تخصيص شىء بشىء بطريق معهود من طرق القصر

نحو العطف والاستثناء والتقديم وانما] (٣) وأشد هذه الطرق وأثبتها الطريقة التى معنا ، تلك الطريقة التى تستخدم فيها ما والا كما جاءت فى آية الذريات .

والقصر فى نظر البلاغيين حقيقى ومجازى ، والحقيقى منه ما انحصر أحد الطرفين فى الآخر انحصارا لا يتجاوزه الى غيره ، والمجازى ما يفيد حصر أحد الطرفين فى الآخر على سبيل الاهتمام مع جواز التعدى الى غيره (٤) ، واذا كان الأمر كذلك فهل قصر الغاية العبادية على الانسان حقيقى أو مجازى ؟

لو أنعمنا النظر قليلا فى الآية ، واعتبرنا أن العبادة هى المهمة الأصيلة التى جاء الانسان من أجلها ، وهى الأمانة التى حملها الانسان، وكل ما سواها من مهام موصل اليها وحدها ، فهو بمثابة السبل والوسائل وليس غير ، وهى وحدها الغاية الحقيقية ، لو فهمنا ذلك كان القصرحقيقيا منتلك الوجهة وبهذا الاعتبار فلم نخلقجميعا الالنعبد الله وحده عبادة قائمة على التفكر ، وعلى الاتباع للتشريع الالهى الذى يسوقه الله على أيدى نبى من الأنبياء الى أن يأتى التشريع الخاتم .

ويمكن أن يتأكد هذا الفهم اذا حكمنا بأن كل فعل انسانى هو عبادة طالما يتم فى اطار الخضوع لله ، وفى اطار القواعد الدينية العامة ، أى طالما أننا نوسع دائرة العبادة لنجعلها شاملة لعبادة النسك التشريعية ، وللعبادة القائمة على العمران والاستخلاف فى

---

(٣) القاضى لأحمد فكرى : دستور العلماء فى اصطلاحات الفنون ج٣ ٧٠ — ٧٢ .

(٤) ابن الشحنة الجنفى : المنظومة فى المعانى والبيان والبديع ٣١٥، ومتن التلخيص ٣٤٥ ، والجوهر المكنون فى الثلاثة فنون ٤٢٣ — ٤٢٤ وكلها ضمن مجموع المتون فى مختلف الفنون .

الأرض من قبل اللـــه سبحانه ، فكل عمل يصير عبادة للـــه بحكم النية المنبثق منها ، عنـــدئذ لا مناص من القول بأن القصر حقيقى ، وهو الأولى .

وهذا الأسلوب يفيـــد قصر الصفة وهى العبادة على الموصوف وهو الانسان ، ويحدد الاتجاه الصحيح الذى خلق الكائن البشرى من أجله ، ويوقظ الانســـانية ، وينبهها الى تلك الغـاية ، ويلغى من ذهنها مزاحمة أى وجهة أخرى لوجهة العبدة ، وعدم التساوى بينها وبين أى صـــفة مهما كانت ، وبذا تظـــل العبادة هى الغاية الأولى والقصوى التى خلقنا من أجلها بلا أدنى اشتراك معها .

وأما اذا فصـــلنا بين العبادة التشريعية وبين أوجه النشـــاط الانسانى الأخرى ، وقلنـــا أن العبادة هى وحدها الغـــاية الأهم ، وبقية الأعمال التى يقوم بها البشر غايات مهمة فيكون القصر اضافيا لأنه لا يمنع من اتصاف الانسان بصفات أخرى غير العبادة ، وهذا الفهم مرجوح بالفهم الأول ، لـــا ذكرنا من أن كل فعل انسانى نابع فى الحقيقة من اذن الهى فهو عبادة من هذا القبيل .

أسلوب التعليـــل فى الآية ودلالته :

لم يتعرض المفسرون لمسألة القصر السابقة بشىء من التفصيل بقدر ما تعرضوا لمعنى اللام فى قوله سبحانه [الا ليعبدون] ولقـــد وقفوا من تلك اللام موقفين :

فريق يرى أنها للعاقبة والصيرورة ، وأن ما بعدها مترتب على ما قبلها ترتب شىء على شىء سابق بمحض السبقيـــة لا العليـــة ، ويقررون أن ما بعد اللام ثمرة لـــا قبلها ، وينفرون من القول بالعلية خشية أن تكون العلة غرضا باعثا لله على فعله ، والله لا يبعثه شىء على فعل شىء ، بل هو فاعل بالاختيار الصرف ، واختياره من ذاته لا من باعث خارج له عن الذات ، واليـــه يذهب الأشـــعرى وأتباعه

والقاضى أبو يعلى ، والقرطبى وأبو حيـان والعسكرى وربما قالوا بالتعليل المجازى فحسب .

ويذهب فريق آخر الى القول بأنها لا م كى الدالة على العليـة والغـائية الحقيقية لا المجازية ، ويرون أن العلة لا تقتضى أن يكون ما بعد اللام باعثا لـه على الفعل بل هو نوع من مقتضيات الحكمة الالهية (٥) ، وهو مذهب البصريين ، وهو الراجح ، وللتـدليل على رجحانه نسوق ما يأتى :

جاء فى حاشية الجمل ما نصه [اللام للغاية والعاقبة لا للعـلة الباعثة لـما هو معلوم أن الله لا يبعثه شىء على شىء] ويرد فى تفسير النيسابورى ما يشير ضمنا الى كون اللام غائية ، كقوله وهو يتأهب للدخول على تفسير الآية [ثم بين الغاية من خلق الثقلين وهى العبادة] ويصرح بأن العبادة [غاية صحيحة] من وراء خلق الانسان .

ويقول أبو السعود [أن استتباع أفعاله تعـالى لغايات جليلة مما لا نزاع فيـه قطعا كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضـل على عباده ، وانما الذى لا يليق بجنابه عز وجل تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لافضائه الى استكماله بفعله ، وهو الكامل بالفعل من كل وجه ، وأما بمعنى نهاية كمالية يفضى اليها فعل الفاعل الحق فغير منفى من أفعاله تعالى ، بل كلها جارية على ذلك المنهاج ، وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ، ويكفى فى تحقيق معنى التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هـذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام] (٧) .

---

(٥) د/محمد عبد الخالق عضيمة : دراسات لاسلوب القرآن الكريم القسم الاول ج٢ ٤٦٨ — ٤٨٤

(٦) نظام الدين الحسن بن محمد الحسين النيسـابورى ت ٧٢٨ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٢٧ ١٣ تحقيق ابراهيم عطوة الحلبى مصر

(٧) تفسير ابى السعود ج٥ : ٢٠٥

والزمخشرى يقول بالعلية الغائية الحقيقية ان كان ما بعد اللام علة مقصودة لما قبلها كالآية التى معنا ، والا فالتعليل مجازى ان وقع ما بعد اللام على غير المقصود قبلها كقوله تعالى [**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا**] (٨) وابن تيمية يرى [أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق ، فالعبادة التى خلق الخلق لأجلها هى مرادة له بالاتفاق.. وحيث تكون اللام للعاقبة لايكون الفاعل أراد العاقبة] (٩) بل تكون وقعت على جهة الترتب والصيرورة ، وينتهى شيخ الاسلام الى القول بأن العبادة هى [الغاية المحبوبة له جل جلاله والمرضية له التى خلق الخلق لها] (١٠) ويرى أن لام العاقبة لا تكون الا لجاهل أو عاجز لا يدرى عاقبة فعله ، والله منزه عن ذلك سبحانه .

فقد بان أن المذهب الراجح هو الذى يتجه الى العلية والغائية، واعتبار العبادة علة لخلقنا ووجودنا ، فما خلقنا الا لها ، وما جئنا الى هذه الحياة الا من أجل أن نقوم بأعبائها .

الاختلاف حول معنى العبادة فى النص القرآنى :

هناك منابع فكرية أحدثت الاختلاف حول معنى اللام أشرنا اليها، وتوجد هنا دواعى أخرى تعمل على تفريق كلمة المفسرين حول المراد بالعبادة ، هل يراد بها معنى عام يجمع المخاطبين من مؤمنين وكافرين، أو معنى خاص ينصرف الى المؤمنين العابدين وحدهم ؟ أو هل يراد بها المعرفة ، أو الأمر ، أو الخضوع للارادة الالهية سواء كان الخضوع عن طواعية أو عن اجبار ؟

بهذا كله قال المفسرون ، وكانت العقبة الكأداء التى حالت دون

---

(٨) القصص ٨

(٩) مجموع الفتاوى ج٨ ٤٤ — ٤٥

(١٠) ابن تيمية العبودية : ٨

جمع كلمة المفسرين حول معنى واحد هى انقسام البشر الى مؤمنين وكافرين ، ولقد دفعتهم الى أن يربطوا تلك الظاهرة الانسانية وبين تفسير الآية خاصة اذا نظرنا اليها من منظور أصولى يتعلق بذات الله ، ويرتبط بأمره وارادته ، هذا المنظور الذى دفع المفسرين وعلماء الكلام الى أن يتجادلوا حول المراد من الآية توفيقا بينها وبين ما يجب أن يكون لله من كمال وما ينبغى أن ينزه عنه من وقوع أفعال على غير مراده كما يتصور البعض ، حول هذه الاختلافات ستتابع السير مع كل فريق بأدلته ثم نتبين المذهب الراجح .

أولا : القول بخصوص العبادة :

يذهب فريق من المفسرين الى أن الغاية العبادية من الآية خاصة بالمؤمنين الطائعين ، وأنصار هذا الرأى مع اتفاقهم على خصوص الآية الا أنهم يختلفون حول القول بالحرية الانسانية فى اختيار طريق العبادة أو بخلق الهداية فى قلوب المؤمنين ، وطبعهم عليها .

والذين يميلون الى الحرية الانسانية يرون أن الله علم اختيارهم ذلك فأخبر عنهم بسابق علمه أنهم ما خلقوا الا للعبادة ، يقول ابن قتيبة فى تفسير الآية [يعنى المؤمنين منهم أى ليوحدونى] (١١) وجاء فى تفسير القرطبى ضمن ما جاء من أقوال متعددة حول المعانى المرادة للآية [قيل ان هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه سيعبده] (١٢) ولا نعثر على وفرة من النصوص تتجه الى الحرية الانسانية مثلما نجدها لدى القائلين بالجبلة والطبع ، فهؤلاء يقولون جبل الله السعداء على الطاعة فعبدوه ، وربما كان زيد بن أسلم أول من صاغ هذه الفكرة عندما قال فى معنى الآية :

[هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة ، فخلق السعداء من

---

(١١) ابن قتيبة تفسير غريب القرآن ٤٢٢
(١٢) ج١٧ ٥٥ — ٥٦

الجن والانس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للمعصية] وشاع هـذا الرأى لدى جمهـرة من المفسرين ، فذهب الطـبرى الى أن المعنى [ما خلقت السعداء الا لعبادتى] والأشـقياء الا لمعصـيتى] (١٣) وردد هـذا الرأى القـرطبى وأبو السـعود ، وأبو حيـان والثعـالبى والواحـدى والقشـيرى والشـوكانى (١٤) ، وهو نفس ما قرره البخارى فى صحيحه لـما تعرض للآية فى كتاب التفسير، وعلق البيهقى على قول البخارى هذا بقوله [يعنى ما شاء من عباده ، أو ليأمر من شـاء منهم بعبـادته ، ويهدى من يشـاء الى صراط مستقيم] (١٥) ، ويعزو المفسرون هذا الرأى الى ابن عباس وسفيان الثورى والضـحاك .

فهذه الشواهد للجمهرة الغفيرة من المفسرين تدل دلالة ظاهرة على أنهم يقررون أنه سبحانه طبع فريقا من البشر على السعادة ، وأخبر عن العلاقة بين هـذا الخلق الجبلى وقيامهم بحق الطـاعة والعبادة ، وهم لا يستطيعون فكاكا مما طبعوا عليه ، فمن هداه الله ووفقه وخلقه لذلك صار سعيدا مؤمنا مهتديا والا فهو الشقى الكافر أو العـاصى .

وواضح كذلك أن أنصار هذا الرأى قد أجروا عملية تحويل للفظ الآية من العموم الى الخصوص ، وصرحوا مرارا بأن [اللفظ عام أريد به الخصوص] وهم مضطرون لذلك لأن الآية عامة فى أسلوبها ، والارتباط بين العبادة التى هى علة غائية وبين الخلق جاء غير مقيـد

---

(١٣) أبو جعفر محمـد بن جرير الطبرى جامع البيان فى تفسـير القرآن ح٢٧ ٨ المجلد الحادى عشر دار المعرفة لبنان .

(١٤) تفسير أبى السعود ح٥ ٢٠٦ ، والبحر المحيط ح٨ ١٤٣ وتفسير الثعالبى ح٤ ٢١٢ وغيرهم .

(١٥) محمد بن ادريس الشافعى احكام القرآن هامش س ٣ وابن حجر فتح البارى ح٨ ٦٠٠ والعينى على البخارى ح١٩ ١٩١

بأى قيد ، فالضرورة المعنوية تقتضيهم من وجهة نظرهم أن يصرفوا اللفظ من العموم الى الخصوص •

أدلة القائلين بالخصوص :

ومن المعروف أن المفسرين لا يتحكمون فى تحويل اللفظ الى التخصيص ، أو فى نقل المعنى من العموم الى الخصوص دون أن يكون لهم سند يؤيدهم ، خاصة وأنهم بحكم أمانتهم وصدقهم العلمى يشعرون فى قرارة أنفسهم بالمسئولية الكبرى أمام أى اتجاه يذهبون اليه فى تفسيرهم لكتاب الله ، ولذلك قدموا لنا أدلة متنوعة منها النصى ، ومنها الاستنباطى •

ومن الأدلة النصية ما جاء على لسان القشيرى ونقله القرطبى وأبو السعود والشوكانى ، وملخصه أن الله سبحانه وتعالى يقول [**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس**] (١٦) قال [**ومن خلق** لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم] ويستعينون على تقوية هذا الرأى بقراءة عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب [**وما خلقت الجن والانس من المؤمنين الا ليعبدون**] •

ومن الأدلة الاستنباطية ما ساقه القشيرى أيضا بقوله [والآية دخلها الخصوص على القطع لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة] (١٧) ، ويرى ابن حجر والعينى أن سبب الحمل على التخصيص وجود من لا يعبده ، فلو حمل على ظاهره لوقع التنافى بين العلة والمعلول ، والتخصيص يصحح الملازمة بين العلة العبادية والمعلول الذى هو الانسان •

---

(١٦) من الآية ١٧٩ الاعراف .

(١٧) تفسير القرطبى ج١٧ ٥٥ وفتح القدير ج٥ ٩٢ ، وتفسير ابى السعود ج٥ ٢٠٦

نقض هذا الرأى :

ورد ابن تيمية على هذا الاتجاه بقوله : لو كانت العبادة خاصة بالمؤمنين لم يكن هناك فرق بين الجن والانس العابدين وبين الملائكة ، والحال أن الملائكة أكثروا من العبادة بدرجة تفوق ما عليـه مؤمنو الجن والانس ومن ثم فلا داعى لذكر الثقلين دون الملائكة مع تساويهم فى الأداء ، وأيضا فان سياق الآية لا يؤيد الخصوص لكونه جاء ذما وتوبيخا لمن لم يعبد ، ولو كانت خاصة بالعابدين من المؤمنين لحملت العذر لمن لم يعبد الله بأن يقول : لم لم تخلقنى لعبادتك ؟ ولو خلقتنى لهـا لعبدتك ، وما فعلت الا ما خلقت له فهذا كله [يتضمن أمر الانس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله ، واستحقاق من لم يفعل العقوبة فى الدنيا والآخرة] (١٨) •

وآية الأعراف التى وردت فى الاستدلال لا تقطع بالتخصيص لأن اعداد أجيال من الجن والانس لجهنم لا يعنى أن الله خلق خلقـا وألزمهم الكفر والنـار ، والعكس بالعكس ، بل قـد يكون الحديث عن فريق النار من الثقلين مرادا به ما سبق فى علم اللـه من اختيارهم طريق الغواية ، فجاء الاخبار عنهم من واقع ما سيكونون عليـه مع سبق الاحاطة سبقا يتفق مع علمه سبحانه الأزلى ، وأيضا فان القراءة التى استأنسوا بها لم تنل اجماعا من القراء ، وليست متواترة ، ومن ثم فلا تعدو وجهة النظر الخاصة •

ثانيا : العبادة تكليف عام مع الاختيار :

الآراء القادمة كلها تتفق على أن العبادة عامة لا خاصة ، فهى جميعها مقابلة للرأى الأول ، ومع ذلك فهم مختلفون حـول مقتضى

---

(١٨) ابن تيمية مجموع الفتاوى ج١ ٣٩ — ٤٣

العبادة المعنوى ، أى ما يفهم من معناها ، وما تهدف اليه ، ومن بين هذه الآراء التى تفيــد العموم رأى من يقول : ان الله سبحانه كلف العبيد جميعا بالعبادة على سبيل الابتلاء والاختبار ، ولا خيار لهم فى ذلك بل التوفيق الالهى هو العنصر الحاسم فى التوجه نحو العبادة أو عــدم التوجه ، يقول ابن حجر معبرا عن هذا الاتجاه (ان اللــه لم يخلقهم للعبادة خلق جبلة واختيار ، وانما خلقهم لها خلق تكليف واختبار فمن وفقه وسدده أقام العبادة التى خلق لها ، ومن خــذله وطرده حرمهــا ، وعمل بما خلق له كقوله صلى اللــه عليه وســلم « اعملوا فكل ميسر لمــا خلق له ») (١٩) .

نقض هــذا الراى :

النص السابق لابن حجر يشير بوضوح الى التكليف مع الاختبار فى ضوء التوفيق ، وهو يعنى أن الله كلف العباد بالعبادة واختبرهم فى مهمة القيام ، ولكن الاختبار لم يتم بناء على تمييز العقل الانسانى واختياره بل تم بناء على التوفيق الالهى فمن وفقه الله فاز فى الاختبار ومن خذله انحرف عن المطلوب ، واذا كان الأمر كذلك فأى معنى يكون للاختبار ؟ كيف يختبرنى على أساس يخرج عن ذاتى وطاقتى ؟ كيف يختبرنى على غير ادراك حرمنى ؟ ان الاختبــــار والامتحان يكون بالاعتماد على امكانيات الانسان وطاقاته ، فاذا ما تدخل عنصر التوفيق ليسدد خطأ هذا ويخذل اتجاه ذاك فلا معنى للاختبار مطلقا ، ثم ان عقولنا لا تطيق فهم تكليف بدون حرية على وجه ما ، ولا نكاد نصدق قولا يلغى اختيار العقل ، وتمييزه بين الأمر والنهى والخير والشر ، اننا لو فقــدنا العقل المفكر والمميز لفقدنا القـــوة التى هى أساس التكليف شرعا ، وبها يثبت الحكم للمكلف وبدونها يسقط ، وفقــدان العقل واختياره واحلال التوفيق وحده جبر مقنع ، وقهر على الفعل بأسلوب آخر .

---

(١٩) فتح البارى ح٨ ٦٠٠ ، وانظر عمدة القارى ح١٩ ١٩١ — ١٩٢

ثالثا : العبادة خضوع لتصريف القضاء :

وفى هذا الاتجاه تأخذ العبادة معنى اليقين والايمان بالقضاء ، والخضوع له ولحكمه ، وتكون الطاعة هنا حكما تكليفيا ساريا على جميع البشر من مؤمن وكافـــر ، وتكون غاية لخلقهم ، وكل صنف من البشر قائم بحق هـــذه الغاية ، وكل فرد من الأفراد منقاد للارادة الربانية ، وذلك بحكم حال الافتقار الذى طبع عليه البشر ، وبحكم سلطان اللـــه القاهر فوق عباده .

فالمؤمن ذليل خاضع ومقر عن رضا وطواعية ، والمشرك معترف بأن اللـــه فاعل قاهـــر خالق له القضاء والقـــدر فهما متفقان فى حال الخضوع والاقرار [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم] [ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللـــه] (٢٠) بخلاف الكافر المنكر للـــه أصلا فخضوعه بالجبر لا بالاقرار ، ويسأل الطبرى [فان قيل فكيف كفـــروا وقد خلقهم للتذلل لأمره] ؟ ويجيب بأنهم [قـــد تذللوا لقضـــائه الذى قضاه عليهم . لأن قضـــاءه جار عليهم لا يقـــدرون عن الامتناع منه اذا نزل بهم) (٢١) .

وبهـــذا الفهم يكون المؤمنـــون والمشركون والكافرون عابدين أذلاء للـــه طوعا وقسرا ، عن رضا وعن كره بالاقرار وبالحال ، فهـــو [سبحانه ربهم وخالقهم ، ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق لكل شىء ومدبره ومسخره الا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه ، وسواء علموا بذلك أو جهـــلوه] ولا يخرجون عن مشـــيئته وقدرته وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر فما شاء كان وان لم يشاءوا ،

---

(٢٠) الزخرف ٨٧ ، ٩ .
(٢١) تفسير الطبرى ج٨ ٢٧

وما شاءوا ان لم يشأه لم يكن (٣) [أفغير دين اللـــه يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكـــرها واليه يرجعـــون] ويقـــول الثعالبى:

[فجميعهم من مؤمن وكافر متذلل للـــه عز وجل ألا تراهم عنـــد القحوط والأمراض وغير ذلك يتذللون لـــه ويخضعون لـــه] (٢٣) ولا [يملكون خروجا عما قضـــاه الله عز وجل] (٢٤) فالانســـان كل الانسان مرغم على الخضوع والانقيـــاد [على غرار ذرة من الرمل ، أو قطرة من المـــاء ، أو غصن من الشجرة ، لأنه سواء كان يعتقد بالله أو لا يعتقد ، ويسجد له أو للحجر ، ويعبده أو غيره اذا كان يتبـــع قانون الفطرة ولا يحيا ولا يموت الا بحكمة فانه يعبد الله طوعا وكرها عن شعور منه أو على غير شعور منه ، وعلى قصد منه أو على غيرقصده ان كل وصلة من أوصاله ، وكل شعرة من شعراته لا تشتغل الا بعبادة اللـــه الذى خلقها حتى أن لسانه الذى يستخدمه لتكذيب اللـــه ، والتسبيح بحمـــد غيره لا يتحـــرك فى الحقيـــقة الا بعبـــادة اللـــه ليس غير] (٢٥) ٥

هذا هو تصوير العبادة بمعنى اليقين بالقضاء أو بمعنى الخضوع للـــه والانقياد لحكمه ، وقد جاء فى دعاء النبى صلى اللـــه عليه وسلم يوم عرفة ما يشير الى هـــذا المعنى قال [اللهم انك تسمع كلامى ، وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وذل لك جسده ، ورغم

---

(٢٢) ابن تيمية العبودية ١٥ — ١٦
(٢٣) تفسير الثعالبى ج١٤ ٢١٢
(٢٤) زاد المسير ج٨ ٤٢
(٢٥) المودودى مفاهيم اسلامية ١٥

لك أنفــه ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين] (٢٦) ٠

نقض هــذا الفهم :

على الرغم من أن هذا الفهم يتمشى مع النظرة الاسلامية لا سيما ما يتصل باصول الايمان الا أنه لا يتفق مع مفهوم العبادة المرادة فى الآية مع اجعل ابن تيمية يرى أن الآية فى غير هــذا المقام ، وأنهــا سيقت لحث الناس على عبادة الله وحده لا شريك له [والفرق ظاهر بين عبادتهم اياه التى تحصل بارادتهم واختيارهم واخلاصهم الدين له وطاعة رسوله ، وبين أن يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته] ، ويقطع فى النهــاية بأن العبادة بمعنى الخضوع العــام [ليست هى العبادة المــأمور بها على ألسن الرسل] (٢٧) ٠

رابعا : العبادة بمعنى القابلية والاستعداد ونقضه :

العبادةعامة وغاية جامعة ، ولكنها لا تعنى القيام بالشــعائر ، والانصياع للحكم الالهى فى تأدية النسك وتنفيذها تنفيــذا سلوكيا نابعا من أذعان قلبى ، وانما تعنى التهيئة والقبول بحسب التكوين الخلقى والصــفاتى أى أنهم خلقــوا ولديهم قابلية وتمكن بحيث اذا أرادوا تأدية التكاليف الشرعية اســتطاعوا ذلك بحكم طبعهم ، ولم تتأب عليهم جبلتهم ، ومن الذين فسروا العبادة بهذا المعنى ابن حجر العســقلانى اذ يقول : والمعنى فى العبادة باق [على عمومه لكن بمعنى الاســتعداد ، أى خلقهم معدين لذلك ، لكن منهم من أطاع ، ومنهم من عصى ، وهو كقولهم :الابل مخلوقة للحرث أى قابلة لذلك ،

---

(٢٦) رواه الطبرانى عن ابن عباس ٠

(٢٧)مجموع الفتاوى ح ٤٥— ٤٧ ، ج٨ ٤٩

لأنه قــد يكون فيها من لا يحرث] (٢٨) ونقل هــذا الرأى العينى فى كتابه عمدة القارى .

ولو أن هذا الفهم هو المراد من الآية وحده لمـا كان هناك توبيخ على اعراض من أعرض عن الامتثال الفعلى ، والسـلوك العملى ، والقرآن الكريم ملىء بالحديث عن العبادة بشتى الصيغ ، وليس من المعقول أن نحول الأوامر الربانية التى حثت البشر على العبـادة ، أو أخبرت عن عبادة جماعة الى مجرد القابلية والاستعداد حسـبما يفهم أنصار هذا الرأى .

وأيضا فان حديث القرآن عن القابلية والاستعداد جاء بصـور أخر مثل [أحسن تقويم] [ونفس وما سواها] ومثل الأخبار المتعلقة بالفطرة ، وهــذا كاف فى ابراز القابلية وأنسب من مصطلح العبادة

خامسا : العبادة بمعنى الأمر ورد ذلك :

أصحاب هذا الرأى هم المعتزلة ، ويذهبون الى أن العبادة بمعنى الأمر ، والارادة أيضا بمعنى الأمر ، ويرون أن الله [أمر بها الطائفتين فهؤلاء عبــدوه بأن أحدثوا ارادتهم وطاعتهم ، وهؤلاء عصــوه بأن أحدثوا ارادتهم ومعصيتهم] (٢٩) وارادة اللــه لا تتعلق الا بالخير دون الشر ، والعبيــد جميعا هم الذين ينشــئون أفعالهم بارادتهم الحادثة .

وبالطبع لا يحظى هذا الفهم بالقبول لدى العلماء خاصة جماعة السلف ، ويقرر ابن تيمية أن اللام فى الآية لام التعليل ، وهى لام كى

---

(٢٨) فتح البارى ج٨ ص٦٠٠ ، عمدة القارى ج١٩ ١٩١ — ١٩٢
(٢٩) مجموع الفتاوى ج١ ٤٣

التى اذا حذفت انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له ، وتسمى العــلة الغائية ، وهى متقدمة فى العــلم والارادة متأخرة فى الوجود والحصول ، وهذه العلة هى المراد المقصود من الفعل •

ويرى أنه لا مانع من ارادة الغاية العبادية من الخلق لكن يفوق بين الارادة الكونية المستلزمة لوقوع المراد ، والتى يقال فيها ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وبين الارادة الشرعية التى هى محبة المراد ورضاه ، ومحبة أهله والرضا عنهم مثل [يريد اللــه بكم اليسر] (٣٠)، ومثل [يريد اللــه ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم] (٣١) ، وتبعا لذلك فمقتضى اللام فى قوله تعــالى [وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون] هو [الارادة الشرعية ، وهذه قــد يقع مرادها ، وقد لا يقع ، والمعنى أن الغــاية التى يحب لهم ويرضى لهم ، والتى أمر بفعلها هى العبادة ، فهى العمل الذى خلق العباد له ، أى هو الذى يحصل كما لهم وصلاحهم الذى به يكونون مرضيين محبوبين ، فمن لم تحصل منهم هــذه الغاية كان عادما لمــا يحب ويرضى ، وعادما لكماله وصلاحه] •

ويرى أنه لا مانع من ارادة الغاية العبادية من الخلق لكن يفرق المبادىء ، وتآخذ المقدمات الموصلة اليها لا يمنع كونها غاية ، كما فى قوله تعــالى [**كتاب أنزلنــاه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النــور**] (٣٢) ، فالغــاية من انزال الكتاب اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومعلوم أن كل البشر لم يخرجوا ، ومع هذا فالغــاية فى الآية باقية الى يومنا ، والى يوم أن يرث اللــه الأرض ومن عليها •

---

(٣٠) البقرة من الآية ١٨٥
(٣١) النساء من الآية ٢٦
(٣٢) ابراهيم من الآية ١

سادسا : العبادة تكليف عام مع الاختيار :

يميل أكثر المفسرين الى أن العبادة المنوطة بخلق الانسان غاية عامة ، عامة فى معناها ، وعامة فى شمولها لأفراد الانســانية ، فالكل مخلوق بصفة أساسية لهذه المهمة الجليلة ومن أقدم الذين قالوا بهـذا الفهم الامام على رضى الله عنه ، فلقد جاء فى عمدة القارى عنه أنه قال فى معنى الآية [**الا لآمرهم بعبادتى ، وأدعوهم اليها**] (٣٣) ٠

وسئل ابن عباس مرةهل الآية خاصة أو عامة فقال [لا بل عامة] وما خلق الخلق الا لعبادته (٣٤) ، ورردده عكرمة ومجاهد (٣٥) ، وأكده الشــافعى والبخارى ، وقال الزمخشرى [ما خلقت الجـن والانس الا لأجل العبادة ولم أرد منهم جميعهم الا اياها] ويقول [أراد منهم أن يعبدوء مختارين للعبادة لا مضطرين اليهـا ، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضـهم ترك العبادة مع كونه مريدا لهـا ، ولو أرادها على القسر والالجاء لوجدت من جميعهم] (٣٦) ٠

التكليف مع العموم والاخيار أولى :

نستطيع بأدنى نظرة نلقيها على الآراء السابقة فى معنى العبادة وغائيتها ادراك أن هذه الفهوم التى تناولت القول بخصوص الآية ، أو القــول بالتكليف مع الاختبار ، أو بالخضوع لتصريف القضــاء ،

---

(٣٣) العمدة : ح ١٩١ وتفسير أبى السعود ح٥ ٢٠٦ ، والقرطبى ح٧ ٥٥

(٣٤) السيد هاشم بن السيد سليمان بن ســيد اسماعيل الحسينى البحرانى التوبلى الكتكانى : البرهان فى تفسير القرآن ح٤ ٢٣٩ الطبعـة الثالثة العلمية : قم ايران ٠

(٣٥) عمدة القارى ح١٩ ١٩١ وتفسير أبى السعود ح٥ ٢٠٦ واحكام القرآن للشافعى ح٢ ٣

(٣٦) تفسير الزمخشرى ح٤ ٢١

أو بمعنى القابليـــة والاستعداد ، أو بمعنى الأمر هى فهـــوم حاولت أن تتلافى مشكلة مذهبية ، سواء كانت تلك المشكلة عقائدية ، أم كانت واقعية كعدم خضوع البشر الى الأمر التكليفى ، وفى الحقيقة تغلبت المذهبية الأشعرية والاعتزالية فى مسائل الأصول على عقول أصحابها فجعلتهم يحورون فى الغاية تحويرا يتفق مع عموم المذهب ومبادئه ، وتلمس كل فريق لفهمه الأسانيد من أقوال العلماء الذين أدلوا بأكثر من معنى فى الآية ، وهو ما جعل لأصحاب المذهب مندوحة فى أن يأخذوا بأى منها ، ويسوقوه حجة تدعم مذهبهم وتقوى فهمهم بالاضافة الى الجانب العقلى .

ولقـــد وضح هذا التعدد فى الفهوم لدى بعض الصحابة كابن عباس الذى حكم مرة بأن الغـــاية خاصة ، ومرة يصرح بأنها عامة ، ونفس الشىء نجـــده عند البخارى وغيرهما ، الأمر الذى اتخـــذه أرباب المذاهب تكئة يستندون اليها فى اختيار فهم معين ، ولكن الفرق بين تعـــدد الفهوم عند الصحابة وعلماء السلف وبين المذهبيين يكمن فى أن الاختلاف عند الصحابة والسلفيين هو اختلاف تنوع فى الفهم بمعنى يصح أن يكون كذا ويصـــح أن يكون غيره ، بخلاف المذهبيين فانهم يصرون على مذهب وفهم واحد لا يحيدون عنه .

أما الفهم السادس الذى اختار طريق العموم والاختيار فهـــو الفهم الذى تعامل مع الآية ذاتها ، واستقى منها حكمه بالغائية العامة الشـــاملة للبشرية كلها ،ولم يضـــعوا أمام عقولهم وهى تفهم الآية محاذير أو اعتبارات أخر ، وهذا النهج الذى يقترب من رحاب القرآن فى قدسية فائقة ، واجلال كبير ، ويحاول أن يفهم الآيات بروح الوحى هو النهج الذى يتدبر النصوص بتجرد فائق ، ويستلهم المعـــانى من مدلولالتها الصحيحة لا بنوازل الفـــكر وأطروحاته .

وهو الفهـــم الذى يرفض أن يحول الدعوة العامة للعبادة الى

محل للنزاع ، وموطن للجــدل ، ويذهب الى أنه من الأفضل أن تظل كلمة العبادة بغائيتها على حالهــا فى الآية لتعمل عملها فى النفوس تأثيرا ، وتحدث فى القلوب ترطيبا ولينا ، ولكى يصغى كل انســان بسمعه ووجدانه ومشاعره لمقتضاها ، ويرى ابن تيمية أن هذا القول هو الذى عليه الجمهور ، [وهو المعنى الذى قصد بالآية قطعا ، وهو الذى تفهمه جماهير المسلمين •• ويعترفون بأن اللــه خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه] (٣٧) •

وفوق هــذا كله فالدعوة الى العبادة شائعة فى القرآن الكريم يقول سبحانه [**وما أمروا الا ليعبدوا اللــه مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**] (٣٨) ، وكانت نداءات النبى صلى الله عليه وسلم على كفار قريش والانسانية عامة ترتفع منذ البداية لتدعوهم الى عبادة إله واحد وأن لا يشركوا به شيئا ، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الصحيحين من رواية معاذبن جبل أن النبى صلى اللــه عليه وسلم قال له [يا معاذ : أتدرى ما حق اللــه على عبــاده ؟ قال : اللــه ورسوله أعلم قال : فان حق اللــه على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، أتدرى ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم ؟ قال : فان حقهم عليه أن لا يعذبهم] ويقول المصطفى صلوات الله عليه [بعثت بين يدى الساعة حتى يعبد اللــه وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم] •

---

(٣٧) مجموع الفتاوى ح١ ٥١ — ٥٣
(٣٨) البينــة : ٥

الفصل الثالث

العبادة الفائية — أصولها وشمولها

تمهيـــــد :

تناولنـــا فى الفصل السابق الغاية الانسانية كما وردت فى آية الذاريات ، واتضح من خلال التناول أن العبادة هى هـــذا العمـــل الغائى العظيم الذى نيط بالانسان ، ولكن العبادة ذات مدلول واسع وذات مظاهر متنوعة ، ولقـــد جاء كل نبى يدعو اليها ، فأى عبـــادة نريدها ، وندعو اليها على ضوء الاسلام ؟

وللاجابة على هذا السؤال يلزم أن نقـــدم بين يدى القـــارىء والباحث الأصل الذى تقوم عليه العبادة فى نظر الدعاة الاسلامين ، والمستقى من دين الله ذاته ، ذلك لأنه اذا اتضح هذا الأصل تحـــدد نوع العبادة المرادة ، وبان حدها الشرعى ، ومقصودها الدينى •

ثم بعد هذا ننطلق نحو ما تشمله كلمة العبادة ، وما يكون مرادنا لها فى اللفظ والمطلوب مثل الاســـلام والدين ، ونحو ما تعمه اللفظة من أنواع البر والخير والنسك حتى يظهر لنـــا جليا أن اختيار لفظة العبادة غاية للخلق الانسانى ، وهدف لكل نبى هو اختيار دقيق من الناحية اللفظية والمعنوية ، وهو اختيار يحوى فى طياته مرادات الدين ومراميه على وجه صحيح •

الأصـــل العـــام للغـــاية العبادية :

نحن خلقنـــا للعبادة هذا صحيح ، ولكن طوائف كثيرة يدعونها ، وينسبون فعلهم اليها ، فالفلاسفة الالهيون ، أى الذين يدينون بوجود اله يزعمون أنهم برياضتهم الفكرية ، وسبحاتهم الذهنية يقدمون نوعا من العبـــادة أسمى من هذا الذى يقـــدمه الشرعيون حتى بما فيهم الأنبياء ، ويرون أن نشاطهم مبنى على قواعد العقل السليم ، وأن

مقولات الأنبياء نابعة من التخيل ، والتعقل عندهم أرقى من التخيل[1]، الى هذا الحد يذهب فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا ، وقولهم يثير العجب كما يثير السخط والازدراء معا ، ذلك لأنهم يذهبون الى أن أرقى المعارف تلك التى ترد على العقل الانسانى من العقول المفارقة ، ويتحصل هذا النوع المعرفى من ترقى العقل الانسانى وتساميه فوق أطوار الحس والمحسوسات ، وتجرده كلية منهما حتى يصير عقلا صرفا عندئذ يلتقى بالعقول المفارقة ويأخذ منها ، وتلك أرقى عبادة .

ولم يبينوا لنا على وجه ظاهر طريق التخلص الرياضى من الحس والمحسوسات ، والرياضة العقلية مهما كانت دقيقة وحازمة فلن تخلص العقل كلية من علائق البدن والوجود المحسوس ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان طريق الصعود والأخذ عن العالم المفارق ليس مأمونا ، وهم أنفسهم لم يوضحوا لنا بطريقة ظاهرة الكيفية التى يتم فيها الاتصال ، فقولهم بأن طريقهم أسمى من طريق الأنبياء متهافت الى أبعد الحدود ، وليس هذا مجال الخوض فى تلك الترهات ونقدها أو نقضها ، المهم هنا أن نشير الى أن الفلاسفة من بين الطوائف الذين قرروا أن عبادتهم تقوم على التفكر العقلى الصرف ، والغاية عندهم منحصرة فى تحصيل الحكمة النظرية ثم العملية فى الدرجة الثانية ،ولم يعيروا العبادة الشرعية التفاتا يذكر .

وهناك فرق وطوائف أخر سلكوا فى أنماطهم مسالك تختلف عن مسلك الشرعيين فى قليل أو كثير ، وجاءت مزيجا من التفلسف والتشرع كتلك النحل التى شقت طريقها وهى تحمل زادا متنوعا من الدين

---

(١) راجع د/ مدكور : فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه : نظرية النبوة ، وانظر مجموع الفتاوى ج٢ ٦٧.

والفلسفة مثل جماعة اخوان الصفا ، أو كتلك الفرق التى خرجت على الأديان الشرعية وأصولها ، وتبنى أنصارها ألوانا من الفكر ، وضروبا من الشعائر لا هى تابعة لأهل الكتاب ولا للاسلام مثل فرق البهائية والقاديانية ، ويمكن أن نعتبر معها غلاة الفرق الاسلامية •

هؤلاء وهؤلاء اتخذوا لأنفسهم نماذج من العبادة دبجها زعماؤهم وغرروا بها السفهاء من المحيطين بهم لهذا كله كان لابد من بيان الأصل العام الذى تقوم عليه العبادة باعتبارها غاية انسانية دعا اليها الرسل جميعا ، ثم بيان الأصل الخاص الذى تقوم عليه العبادة فى الاسلام •

وتنطلق ضرورة تحـديد الأصل الشرعى العام من نقطة عدم تصور الانسان للطريقة الصحيحة التى ينبغى أن تكون عليها العبادة اللائقة بذاته سـبحانه ، وقصور البشر مهما كانوا تأليها عن ادراك الكيفيات التى يوقعون بها عبادة مناسـبة للحق جل جلاله ، فهؤلاء الفلاسفة الذين يدينون بوجود الله قـد تصوروا الفكر على أنه كل العبادة ، وتصل الينا أطراف من أخبار الحنفاء الذين تاقوا الى عبادة الله الواحد الأحد بعد ما أقلعوا عن عبادة الأصنام فلم يعرفوا طريقا صائبا يتعبدون عليه ، فكان الواحد منهم يركع أو يخر على راحتبـة وهو يقول :

« اللهم انى لو أعلم أى الوجوه أحب اليك لعبدتك بها » ولكنه لا يعلم ذلك ، وأنى له بالعلم والحال أن الوحى قد فتر لعدة قرون ، وشريعة ابراهيم قـد اندثرت ولم يبق منها الا خيوط رقيقـة من العقيدة رجع اليها هؤلاء الحنفاء (٢) ، وحفظ الله العرب من أن يتهودوا أو يتنصروا ، واستبقاهم حملة لأعظم دين وأخلد رسـالة ، ودعاة للاسلام ومؤازرين له بالقول والسيف •

---

(٢) انظر كتابنا : الحكمة العربية •

أقول لما كانت الانسانية بدون وحى عاجزة عن رسم خطة مناسبة لعبادة الله تكفل الحق ببيان ما يحبه من خلقه ، وبتوضيح الكيفيات العبادية التى يرتضيها للعبيد وهم يطبقون الغاية من وجودهم ويسعون نحوها وجاء البيان والتوضيح على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يقول الفخر الرازى (ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والاكرام لا يعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام ، فقد أنعم الله على عباده بارسال الرسل عليهم السلام ، وايضاح السبل فى نوعى العبادة) (٣) ووافقه الثعالبى .

والنوعان العامان هما التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلقه ، أى الاجلال والتقديس والمهابة لجنابه سبحانه ، والرحمة والبر والتعاون مع الخلق ، وهذه أمور عامة تتعلق بالعبادة ، لكن أما وأن تتحول هذه الأمور الى وجوه من الطاعة محددة ومكيفة فهذا ما يحتاج الى تشريعات وبعثات خاصة توفد من قبل المعبود جل جلاله وهو ما رحم الله به خلقه ، فأرسل الرسل ، وبعث الأنبياء ، وأنزل الكتب ، واعتبرت تلك العملية أصلا للعبادة .

دعوة الأنبياء الى الأصل العام ووحدته :

لما كان العقل قاصرا عن ادراك المطلوب الحقيقى من العبادة قام الوحى بهذه المهمة على نحو ما بينا قريبا ، وكانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هم الدعاة المبلغون عن الله ما يريده من خلقه ، وما يأمرهم به من طاعة ، واذ يستحيل أن يوحى الله الى كل بشرى مراده لعدم قدرة الجميع والمجموع على تلقى الخطاب الالهى فقد اقتضت الحكمة انتداب صفوة من الخلق .

---

(٣) الرازى : التفسير الكبير ج٢٧ ٢٣٣ ، وتفسير الثعالبى ج٦ ٢١٢

من لهم أهلية واستعداد خاص يكلفون بالتبليغ عن اللـه ، وارشاد الخلق الى طاعته على وجه لائق بجنابه •

ويتحـد الجميع فى الدعوة الى مطلق العبـادة ، والى جماع الطاعة ، وفى التحذير والنهى عن عبادة غير الله أيا كان •

وعن هذه الوحدة يعبر القرآن الكريم فيقول الله تعالى « **ولقد بعثنا فى كل أمة رسـولا أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت** » (٤) « **وما أرسلنا من قبلك من رسـول الا نوحى اليـه أنه لا اله الا أنا فاعبدون** » (٥) « **اذ جاءتهم الرسـل من بين أيديهم ومن خلفهـم الا تعبـدوا الا اللـه** (٦) « **واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقـد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله** » (٧) •

فهذه النصوص تدل دلالة واضحة على أن مهمة الرسل تنحصر فى الدعوة الى عبادة اللـه وحـده وترك كل معبود سواه من شيطان وصنم ووثن يقول الزمخشرى [ما من أمة الا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذى هو الايمان وعبادة اللـه وباجتناب الشر الذى هو طاعة الطاغوت] (٨) ويقول الرسول صلوات اللـه عليه « أننـا معاشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياء أخوة لعلات » وهؤلاء الرسـل لا يجيئون بالخلق قسرا الى رحاب الهـدى ، ولا يملكون من وسائل القهر ما يجبرون به العبيد على ما جاءوا به ، وانما يملكون وسـيلة البلاغ فحسب ، ويتركون العبيد لمـا أودع اللـه فيهم من العقـل

---

(٤) ٣٦ النحـل •
(٥) ٢٥ الأنبيـاء •
(٦) ١٤ فصـلت •
(٧) ٢١ الأحقاف •
(٨) الكشاف ج٢ : ٤٠٩

والتمييز ، وما أحاطهم به من دلائل قدرته وبديع صنعه وجميل عرفانه، وأداة التفكر وهى العقل ، ومجالهـا فى الكون ، ونشاطها فى الوجود وعند حسن الادراك يمكن أن تصل الى معرفة الحق جل جلاله .

ومع هذا فلعلم اللـه سبحانه بأن العقول حتى ولو توصلت الى معرفته فلن تدرك على وجه تفصيلى مراده فى العبادة ، لذا كان بلاغ الرسل ايقاظا لغفلة القلوب ، وتصحيحا لمسار العقول ، ودلالة على أفضل الطرق لعبادة المعبود جل جلاله ، أو على حد تعبير الأستاذ سيد قطب [انما شاءت ارادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة فى اختيار أى الطريقين ، ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين بعد ما بث فى الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار ، ثم شاءت رحمة اللـه بعباده بعد هـذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا فى شرائعه التى جاءت بها رسله ، يثوب اليه العقل كلما غم عليه الأمر ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طـريق الميزان الثـابت الذى لا تعصف به الأهواء ، ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس الى الايمان ، ولكن مبلغين ، ليس عليهم الا البلاغ ، يأمرون بعبادة اللـه وحـده واجتناب كل ما عداه من وثنيـة وهوى وشـهوة وسلطان] (٩) .

وأشار ابن تيمية فى كثير من المناسبات الى أن دعوة الأنبياء هذه تؤدى الى المعرفة الصحيحة باللـه ، والى عبادته عبادة حقة بحسب ما منحهم اللـه سبحانه ، وأن الأنبياء جميعا قد اشتركوا فى هـذا

---

(٩) فى ظـلال القـرآن ج٤ ٢١٧٠ — ٢١٧١ وراجع فتح القـدير للشوكانى ج٣ ١٦١ وتفسير ابى السعود ج٣ .

الأصل ، وفى هذه الغاية ، وأنهم نهضوا من أجل دعوة الخلق الى المهمة التى خلقوا من أجلها وهى عبادته سبحانه ، عبادة توحيد وذكر وشكر وخضوع واستسلام ، والعبادة فى دعوة الأنبياء لا تعنى معنى سهلا ضيقا انما هى تبعة شاقة تستوعب العقيدة ، والمعـاملة والسلوك ، وتكون مرادفة فى المعنى للدين والاسـلام العام ، وسيأتى لهـذه النقطة مزيد ايضاح (١٠) .

القرآن يفصح عن تلك الوحدة تفصيلا :

بان لنـا فى الفقرة السابقة أن القرآن قد أوضح واحدية الغاية لدى الأنبياء بصورة اجمالية ، ولم يكتف القرآن بهذا بل أفصح عن تلك المهمـة قرين كل نبى ، ففى حديثـه عن نوح تبرز الدعوة الى العبادة أول ما تبرز ، يقول سبحانه :

« **لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا اللـه ما لكم من اله غيره** » ٥٩ الأعراف ويتكرر هذا النداء بلفظه أو قريب منـه فى سورة هود (٢٥ — ٢٦) وسورة المؤمنون (٢٣) وفى السورة التى حملت اسمه (٣ نوح) كما تبرز مع هود فى قوله تعالى « **والى عاد أخاهم هـودا قال يا قوم اعبـدوا اللـه ما لكم من الـه غيره** » (٦٥ الأعراف ، ٥٠ هود) ومع صالح فى قوله لقومه « **يا قوم اعبدوا ما لكم من اله غيره** » (٧٣ الأعراف ، ٦١ هود ، ٤٥ النمل) وهى نفس عبارة شعيب لقومه مدين اذ قال « **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** » (٨٥ الأعراف ، ٨٤ هود ، ٣٦ العنكبوت) وهتف ابراهيم فى قومه أن « **اعبـدوا اللـه واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** »

---

(١٠) راجع : العبودية : ٨ ، ٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ومجموع الفتاوى ج٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٣ ، ١٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٤٥٩ ، ٤٩١ ج٣ ٣٩٧ ج٨ ١٢٩ — ٢٢١ .

(١٦ العنكبوت) واطمأن يعقوب على بنيـه قبيل موته اذ قال لهـم **« ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون »** (١٣٣ البقرة) ونفس الغاية هى التى آخذ الله لها الميثاق على بنى اسرائيل فقال **« واذا أخـذنا ميثاق بنى اسرائيل ألا تعبدون الا اللـه »** (٨٣ البقرة) ويستنكر عيسى ما فعله قومه من بعده من التثليث ، ويجيب الحق أمام الأشهاد **« ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبـدوا اللـه ربى وربكم »** (١١٧ المـائدة) وهى الدعوة التى أمر بها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى **« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مئاب »** (٣٦ الرعد) ولفت النبى صلى الله عليه وسـلم نظر أهل الكتاب اذ دعاهم الى الهدف المشترك فنادى **« ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا اللـه ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »** (٦٤ آل عمران) .

ماذا تعنى وحـدة العبادة بين الأنبيـاء ؟

العبادة غاية الرسالات ، وبلاغ الأنبياء ، وجهود العلماء ، ومهمة الدعاة ، وتلك حقيقة قـد ظهرت من خلال النصوص السابقة ، ولكن هل تعنى تلك الوحدة فى العبادة أن مفهومها الشامل عام لدى جميع الأنبياء ، وأن المقصـود منها واحد لديهم أيضا ، وأن المطـلوب من الأقوام أن يؤدوه متفق فى شرائع المرسلين جمعا ؟

أو أن الرسالات تتفق فى أصول العبادة وبعض أحكامها الفرعية ، ثم تختلف فى غيرها ؟ الظاهر من نصوص القرآن والسنة أن الاتفاق بين الأنبيـاء فى الدعوة الى العبادة منصب على الأصول فى الدرجة الأولى ، فالكل يدعو الى أن يؤمن الناس باله واحد ، ويدينوا بربوبيته وحده لا شريك له ، ويخضعوا له ، ويسلموا لعظمته ، ولا يتفرقوا فى ذلك ، وبذا تكون العبادة واحدة لدى الجميع ، وتكون بمعنى الدين ،

وبمعنى الملة ، أو شاملة لهما وللاســلام الذى هو بمعنى الخضــوع العــام .

فالأنبياء من هذه الوجهة متفقون فى دعوتهم ، ودينهم واحــد كما جاء فى الحديث السابق ، وهم وجميع الخلق أمة واحدة ، لهــا رب واحد يجب أن يعبد دون غيره قال تعالى : **« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »** ٩٢ الأنبيــاء « يأيها الرســل كلوا من **الطيبــات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »** (٥١ — ٥٢ المؤمنون) وســياق الآيتين فى ســورة الأنبياء ، وفى سورة المؤمنون يشير الى أن أمة الأنبيــاء واحدة وأمة الخلق ازاء الغاية العبادية واحدة ولكنهم تقطعوا زبرا **« كل حزب بما لديهم فرحون »** (٥٣ المؤميون) ، وأن تلك الوحــدة الجامعة بين الأنبياء والأقوام هى وحدة تقوم على أصل الدين وأساس المــلة وهو التوحيد الذى شرعه اللــه دينا ووصى به ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضــل الصلوات وأتم التسليم ، وخاطبهم جميعا قائلا **« أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيــه »** (١٣ الشورى) والى هــذا يميل ابن تيمية [١١] .

ولكن هذا الاتفاق فى الأصل لا يستلزم الاتفاق فى جميع الفروع والأحكام الشرعية التى اختلفت من نبى الى نبى ، حقا انه قــد يتحقق الاتفاق فى بعض الأحكام ، وقــد يستمر العمل بمضمونها لدى عدد من الأنبياء قــد توالت رسالاتهم ، ولكن الاتفاق التــام فى تفاصيل أحكام العبادة وفروعها لا يكون محققا ، ونتبين ذلك من خلال دراسة الشرائع السماوية التى تتضافر نصوصها تحت أيدينــا كما يظهر من

---

(١١) انظر مجموع الفتاوى ح١٠ ١٧٨ ، ح١١ ٢١٩ ، ح٤ ٣٢٦ — ٣٢٧ — ٣٢٨ .

خلال التطبيق لأربابها ، وأحكم ما يقطع بهذا الاختلاف قوله سبحانه **« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم »** (٤٨ المائدة) ويروى الضحاك عن ابن عباس قوله : [ان هذه الأمة واحدة فى الدين ومختلفة فى الشرائع] ، وكذا يرى قتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ، والى هذا يميل المفسرون كأبى السعود والزمخشرى والشوكانى والجصاص فى أحكام القرآن •

والحكمة الالهية تقتضى احداث هذا التنوع والاختلاف بين الشرائع فى الرسالات السماوية المتعددة وذلك لاختلاف الأزمان والأطوار التى يبعث فيها الأنبياء والمرسلون ، ولاختلاف الطبائع والأهواء والأفكار للأقوام المتعددين ، والحق سبحانه قادر على هذا التنويع والتغيير كما أنه قادر على وحدة الشرائع جملة وتفصيلا ، ولكن تنويعه بينها لمصلحة الأقوام وظروفهم ففعل ماتقتضيه الحكمة منفعة للخلق وتيسيرا لهم •

واذا كانت الآية القرآنية السابقة قد أظهرت أن الله سبحانه جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ليبلو خلقه فى التصديق والايمان والخضوع الى حد أن بعض المفسرين جعل ما بعد اللام من الابتلاء هو العلة فى احداث التنويع بين شرائع الرسالات ، حتى أخذ الشوكانى بظاهر الآية فقال **« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة »** بشريعة واحدة وكتاب واحد ، ، ورسول واحد ••• ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع ، فيكون **« ليبلوكم »** متعلقا بمحذوف دل عليه سياق الكلام ، ومعنى (فيما آتكم) ، فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسل هل تعملون بذلك وتذعنون له ، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته وتميلون الى الهوى ، وتشترون الضلالة بالهدى ، وفيه دليل على

أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة ، أعنى الابتلاء والامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص (١٢) •

أقول اذا كان ظاهر الآية قد حمل الشوكانى الى هذا المعنى من التفسير فان الله سبحانه لا يفعل هذا التنويع لمجرد الابتلاء فحسب دون أن يكون للاختلاف معنى وهدف غير امتحان الأقوام فى التصديق أو عدمه ، بل انه جل شأنه قد اقتضت سنته فى أفعاله أن يفعل لحكمة تنفع الخلق ، وأن يرسل الرسل متتالية رحمة بالعبيد ، فاللائق بجلاله ولطفه أن يكون التنويع للرحمة والمصلحة أو المنفعة ، ثم يأتى الابتلاء بعد ذلك ، ولا يكون هذا الابتلاء منصرفا الى ذات التنويع ، بل قائما على التصديق بحكمة الاختلاف أو انكارها ، فالمؤمن يصدق بان اللـه سبحانه أجرى الاختلاف فى أحكام العبادة مراعيا لحال الأمم ، فينتقل من شرعة سابقة الى شرعة لاحقة بناء على ما استقر عليه حسن ظنه فى اللـه ، ويقينه به جل جلاله ، المنكر يعارض الانتقال متجاهلا الحكمة الالهية ، ونافيا لها ، ويخضع فى هذا الانكار لهواه الخاص ، أو صده للجديد ، وان كان لا يظهر هذا بقدر ما يظهر انكاره للتنويع فى حد ذاته ، كما ينكر اليهود النسخ ليسوغوا لأنفسهم البقاء على شرعة موسى ، بينما لا ينكره المسيحيون لانتقال كثير منهم من اليهودية الى المسيحية ، فالابتلاء منصب على انكار الحكمة من التغيير والاختلاف طبقا لما يمليه الهوى ، ولذا يرى أبو السعود فى تفسيره أن (ليبلكم متعلق بمحذوف يستدعيه النظام ، أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ما عليه السنة الالهية الجارية فيما بين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم) (١٣) •

---

(١٢) فتح القـدير ح٢ ٤٨
(١٣) ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ح٢ ٦٨ ، ٦٩

وأخيرا فان الله جل شأنه قد ذكر الأمم عامة بالتنويع وحكمته ، وطالبهم بالانتقال من صورة شرعية الى أخرى اقتضتها حكمته سبحانه حتى يستقروا على الصـورة الخاتمـة التى جاء بهـا رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يقول أبو السعود فى معنى الآية أيضا :

(لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أى عينـا ووضـعنا شرعة ومنهاجا خاصـين بتلك الأمة ،لا تكاد أمة تتخطى شرعيتها التى عينت لها) ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى عليـه السـلام الى مبعث عيسى شرعتهم التـوراة ، والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الانجيـل ، وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القـرآن ليس الا ، فآمنوا به ، واعملوا بما فيه) (١٤) .

العبـادة كما نفهمها من الاسلام :

واذ قـد انتهينا من العبادة وأصلها كما هى لدى الأنبياء جميعا نأتى الى العبادة باعتبار أنها مفهوم شامل فى دين الاسلام يستوعب كثيرا من الألفاظ والمعانى ، ويدخل تحته كثير من الأحكام حتى يبـدو هذا المصطلح وقد انضوى تحته عدد من الأصـول والفروع تجعله غاية عامة ، ومعنى فسيحا يحوى فى طياته كثيرا من المطالب الدينية .

وسوف نتناول تحت مفهوم العبادة فيما يأتى : الأصول الخاصة التى تنبع منها العبادة حسبما يراها الاسلام ، ثم استيعاب المفهوم اللفظى لكلمة عبادة لغيره مثل كلمة دعا وكلمة دين واسلام ، ونظرا لأنها تستوعب هـذه الألفاظ فان الأمر باقامة الدين أو بالاسـلام

---

(١٤) نفسه وانظر الكشاف ح١ ٦١٨ ، واحكام القرآن للجصاص ح٢ ٤٤٢ ، وفى ظلال القرآن ٩٠٢ — ٩٠٣ .

أو العبادة يرد عليها جميعا بمعنى واحد ، كما تضم كلمة عبادة كثيرا من المـــأمورات الشرعية نشير اليها بإجاز •

الأصول الخاصة للعبادة فى الاسلام :

نعنى بكلمة الأصول الخاصة تلك التى تقوم عليها العبـــادة فى الاسلام ، واذا كانت الفقرة العامة السابقة قـــد أوضحت كما جاء على لسان الفخر الرازى أن العبادة التى هى غاية لابد أن تنبع من شرع الهى أيا كان الشرع فانها بالنسبة للاسلام لابد أن تصدر أساسا عنه وعن مصادره من الكتاب والسنة وحول هذه النقطة يقول ابن تيمية (وللعبادة أصـــلان : أحدهما ألا يعبـــد الا اللـــه ، والثانى ألا يعبد الابما أمر وشرع ، ولا يعبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع • قال تعالى **« فمن كان يرجو لقـــاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** [١٥]) •

واستند فى تقرير الأصلين على قول مأثور عن الفضيل بن عياض ذكر فى تفســـير قوله تعالى **« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »** [١٦] اذ فسرها بقوله أى [أخلصـــه وأصوبه ، قالوا : يا أبا على ما معنى أخلصـــه وأصـــوبه ؟ قال ان العمـــل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصـا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة] [١٧] بلا زيغ ولا ابتداع •

وبيانه للأصلين ، وتقـــريره لهمـــا نابع من صريح قوله سبحانه وتعالى **« ومن يطع اللـــه ورسوله ويخش اللـــه ويتقه فأولئك هم**

---

(١٥) الكهف ١١٠.
(١٦) الملك ٢
(١٧) ابن تيمية : العبودية ٢٧ ، ٤٠ ، ٤١

الفائزون » (١٨) وكذلك عموم الآيات التى وردت فيها كلمة الطـاعة لله ولرسوله ، كما يدلك بقوله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس على أمرنا فهو رد) ، وبما قاله فى خطبته [من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فانه لا يضر الا نفسه ، ولا يضر الله شيئا] وقال أبو بكر يا رســول الله [كيف ننجــو من الرياء وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقال صلوات الله عليه لأبى بكر : ألا أعلمك كلمـة اذا قلتها نجوت من دقه وجله ، قل : اللهم انى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لمـا لا أعلم] وكان عمر يقول فى دعائه « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحـد فيه شيئا » (١٩) .

وعلى هذا فالعبادة التى هى أمر شرعى جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون مستندة الى أصـل من الكتاب والسنة ، وأن تكون طاعة موافقة لأمره سبحانه ، وأمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى هديه ، وأن تكون بحيث يحبها الله ورسوله، ويرضى عنها الحق جل جلاله ، والنصوص كما سبق تدل على الاتباع، وعلى الموافقة ، وعلى الاستقامة طبقا للأمر الالهى ، ثم ان العقل يسلم بداهة أن أى فعل يتودد به شخص ما لآخر لابد أن يكون من أنواع الأفعال المحبوبة لدى هذا الآخر ، والا ماحدث الرضا منه على الفعل المبذول ، وكذلك الأمر من باب الوجوب بالنسبة للأقوال والأعمـال التى يتقرب بها العبيد الى اللـه سبحانه لابد أن تكون موافقة لأمره ومحبته وشرعه .

---

(١٧) النور ٥٢

(١٩) العبـودية ٩٩ — ١٠٠ ، ١٢٧ ، ومجمـوع الفتـاوى ج٣ ٣٤١ — ٣٤٢ ، وانظر : الشيخ محمد الغزالى : هذا ديننا ١٠١ ، وعدنان النحوى : المنهاج الربانى ١٢١

وهذان المنصران ضروريان ، لأن العنصر الأول يهتم بالاخلاص وحسن التوجه الى اللــه ، وعدم الشركة معه فى الطاعة ، ويركــز على خلو القلب والضمير والشعور من غيره سبحانه ، بحيث لا يكون هناك مقصود ولا معبود ، ولا مطلوب ، ولا يتوجه اليه بالدعاء والطلب والقصد والغــاية الا اللــه سبحانه وتعالى ، وأن يكون باعث حسن التوجه ، أو باعث الاخلاص هو المسيطر على مكمن الأعمال وتوجيهها ، وبهذا الأصل تتحقق العبودية ، هذا المعنى الذى يجعل الانسان عبدا حقيقيا للــه سبحانه ، لا يدين الا باللــه ، ولا يعتقد الا فى وحدانيته، ولا يركن قلبــه الا اليــه ، ولا تضرع خواطره الا له ، ولا يتحول قصده عنه ، ولا ترفع يده الا طالبة منه ، ولا تنطق عبارته الا ســائلة اياه ، فكيان العبد معمور بسلطان الحق ، وقلبه ومشاعره تجيش فيها رحماته وحبه ٠

وأعمال العبد التى تصــدر منه سواء كانت قلبية أو ظاهرة هى أعمال غير معلولة بعلة الحصول على النتائج والمكاسب المرغوبة لدى النفس البشرية ، وليست مرتبطة بوقوع مغانم يجنيها الانسان من ورائها ، وليست نتائج العبادة الخالصة موافقة لراحة الانسان ودعته، والعبودية الصحيحة التى تتحقق من الأصل الأول هى عبودية تبذل فى مرضاة اللــه ، وتطيع فى غير معصية ، وتحب ما يحبه اللــه ، وفعلها كلــه متوجه لذات اللــه لا لمنفعــة أو مصلحة عاجلة يقــول المرحوم سيد قطب :

ومن مقتضيات العبــادة [أن تصبح قيمــة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها فلتكن النتائج ما تكون ، فالانسان غير معلق بهــذه النتائج ، وانما هو معلق بأداء العبادة فى القيام بهــذه الأعمال ، ولأن جزاءه ليس فى نتائجها انما جزاؤه فى العبادة التى أداها ، ومن ثم يتغير موقف الانسان تغيرا كاملا تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال فينظر فيها كلها الى معنى العبادة الكامن فيهــا ومتى تحقق هذا المعنى انتهت مهمته ، وتحققت غايته ٠

ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك فهذه النتائج ليست داخلة فى واجبه ، ولا فى حسـابه ، وليست من شأنه ، انمـا هو قدر اللـه ومشيئته ، وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر اللـه ومشيئته ، ومن نفض قلبه من نتائج العمل والجهد ، وشعر أنه أخذ نصيبه . وضمن جزاءه بمجرد تحقق معنى العبادة فى الباعث على العمل والجهد فلن تبقى فى قلبه حينئذ بقيـة من الأطماع التى تدعو الى التكالب والخصام على أغراض هذه الحياة] (٢٠) .

وهذا الكلام حينما يصدر من سيد قطب أو نظرائه لا تخفى علينا حكمه ودقائقه وأهدافه ، أنه ينبه العباد الى حقيقة الباعث الاسنى ، والمقصد الأعلى وراء الفعل ، ويكشف لهم عن مغزى الاخلاص وحسن التوجه ، والصدق فىالعمل والدعوة ، والتمسك بالهدف والغاية والعمل من أجلهما دون ما ربط بين الأعمال والنتائج حتى لا تنهزم النفوس ساعة المحن ، ولا تستذل أوقات البـلاء ، ولا تستضعف اذا كانت الجولة عليهم لا لهم ، ويبين بوضوح أن نتائج الأعمال ليست حتما أو ضرورة أن تكون مصاحبة للجهد فى كل مرة ، ولكن عكس المطلوب قد يقع ، وقد يدخر المطلوب الى ساعة يشاؤها اللـه ويريدها ، فلتكن الأعمال كما هى ، ولتضاعف الجهود ، ولتبـذل المساعى ، ولنصرف النظر عن مخالفـات النتائج لمطلوب الأعمال ، ولنزدد ثقـة ويقينا بأن نصر اللـه آت لا محالة ، وأنه حليف الصادقين والمخلصين من أرباب النظر الثاقب ، والجهـد المستنير والعمـل الدءوب ، والخبرة الواعية ، والحذر الشجاع .

واذا قلنا ان الاخلاص يحقق معنى العبودية فان الاتباع والموافقة يحققان صحة العبادة لله سبحانه ، فالاخلاص وحده بدون اتباع لا يفى

---

(٢٠) سيد قطب : فى ظلال القرآن ج٦ ٣٣٨٨

بشرائط الصحة فى الطاعة بل لا بد من أن يكون العمل جاريا على مراد الله وأمره ونهيه ، وهديه وشرعه ، ذلك لأن الاخلاص بمثابة الدافع الأساسى ، والموافقة بمثابة الشرائط العامة والخاصة التى تجعل الفعل لائقا بكماله سبحانه ، وصحيحا من جهة الأداء ، والموافقة أو الاتباع أو الخضوع لأحكام الاسلام فى العبادة هى العنصر الثانى الذى يلزم لتحقيق العبادة الصحيحة من وجهة النظر الاسلامية •

شمول مفهوم العبادة فى الاسلام :

لا ينبغى أن نمضى فى الحديث دون أن نلتفت الى السر الذى من أجله كانت العبادة دعوة للأنبياء جميعا ، وغاية للدعوة بصفة أساسية ، وهذا السر ليس غامضا يستغلق على العقول والأفهام ، بل هو جلى واضح يؤخذ من صريح النصوص وتتبعها ، ويحدونا الى القول بأن العبادة لفظة جامعة ، ومعنى فسيح ، يحوى فى طياته الحقائق الدينية : أصولها وفروعها ، عقائدها وشريعتها ونظامها وأخلاقها ، تهذيب الفرد ، وتربية الجماعة ، تقديم النفس واصلاح المجتمع •

ولما كانت العبادة على هذا النحو صح أن ينضوى تحتها كثير من الألفاظ ، وعديد من الأحكام والمطالب الدينية •

وهذا الشمول نابع من المعنى اللغوى لكلمة العبادة ، كما أنه صادر عن حقيقتها ومغزاها فلو نظرت الى المعنى اللغوى الذى سبق ذكره فى الفصل السابق لوجدت أنه شامل للذل والخضوع كما أن العبادة تعنى الشعائر الدينية •

العبادة وحدانية وايمان :

ولما كان حال الكلمة كذلك فانها جاءت تعنى مذلة العبد للحق ، وخضوعه لربوبية واحدة ، وألوهية متفردة تملك نواصى العبيد

وأقدارهم ، وتتصرف فى أحوالهم وشئونهم ، فقوله سبحانه « **ايــاك نعبد وايــاك نستعين** » قصر العبودية والعبادة على الألوهية الواحدة، اياك نعبــد قصر الاخلاص والنية على اللــه ، واياك نستعين قصر التوجه والطلب عليه جل شأنه ، وترد كثير من النصوص حول هذين المعنيين .

يقول سبحانه « **يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى** فاعبدون » ٥٦ العنكبوت ، « **قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** » ٣٦ الرعــد « **وما أمروا الا ليعبــدوا الاها واحدا** » ٣١ التــوبة « **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبــدوه واصطبر لعبــادته** » ٦٥ مريــم « **أننى أنا اللــه لا الــه الا أنا فاعبدنى وأقم الصــلاة لذكــرى** » ١٤ طــه « **واليه يرجع الأمر كله فاعبــده وتوكل عليه** » ١٢٣ هود « **ذلكم اللــه ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه** » ١٠٢ الأنعــام ، وجاء فى الحديث « ما عبدتنى ورجوتنى فانى غافر لك » « انه ليس أحد يعبد من دون اللــه فيه خير » (٢١) ، وفى حديث أبى أيوب الأنصارى عن النبى صلى اللــه عليه وسلم قال [من جاء يعبد اللــه ولا يشرك به شيئا ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويجتنب الكبا ئركان له الجنة » (٢٢) والنصوص كثيرة ، وكلها تحث على عبادة اللــه ونبذ كل عبادة سواه .

والعبــادة بمعنى التذلل والخضــوع تعم الايمان باللــه وكل ما يرتبط بهــذا الأصل من ايمــان بكتبه ورسله واليــوم الآخر ، وتصرفه ، وتدبيره وأمره وارادته ، وهى تنص على توحيده جل شأنه توحيدا تمحى فيه كل أشــكال الشركة من الرياء والطواغيث ورؤية

---

(٢١) مسند الامام احمــد ج٥ ١٥٤ ، ح١ ٢١٨

(٢٢) سنن النسائى ج٢ : ٨٨

الخلق والنظر اليهم فعبادته سبحانه [هى أصل الدين ، وهو التوحيد الذى بعث به الرســل وأنزل به الكتب] (٢٣) ، وتتطلب العبادة فى شــكلها الايمانى والتوحيدى ايمان فى الظاهر والبــاطن ، والقول والعمل ، ومحبة فى القلب ، ورقة فى المشاعر والأحاسيس ، وخوف من الجليل ورهبة منه ، ورجاء فيه ، وتوكل عليه ، ورضا عنه ، وتوســل به واقبال عليه فى كل لحظة ، فلا يخطر فى قلبه سواه ، ولا يشتغل بغاية دونه ، ولايستعبد لغيره ، ولا يرى فاعلا أو قاضيا الا هو •

وهذا النوع من العبادة الايمانية والتوحيدية هو [غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه] (٢٤) وهو [تعامل جاد خطير بين طرفين : أحدهما الحى القيوم ، وعلاقة تشد المرء من أخفى أغواره ، وأبرز أحواله الى من نشأه من عدم ، ورباه من ضياع ••• والحياة الحقيقية هى هــذه الحياة التى تنشأ مع اللــه بعد معفته] (٢٥) •

والى هنا ننتهى عنــد حد القول بأن العبــادة التى هى تذلل وخضوع تعنى أولا الايمان بالله وحده ، وتوحيده توحيدا كاملا فى كل مظهر باطنى أو ظاهرى أو قولى أو عملى •

العبادة بمعنى جامع للشــعائر :

والعبادة بمعنى الشعائر الدينية تعم جميع الأحكام التى يتطلبها الدين ويقتضيها الاسلام وينطلق هذا التعميم من القضــية الأولى الايمانة اذ أننا طالمــا خضعنا للــه ، وذللنــا لعظمته ، وتعبــدنا بتوحيده ، فاننــا لابد أن نطيعه فى كل أوامره التشريعية ، وســننه

---

(٢٣) مجموع الفتاوى ح٣ ٣٩٧
(٢٤) نفسه ح١ ٢٥
(٢٥) الشيخ الغزالى : هــذا ديننا : ٧٩

التكليفية وأن نخضـــع له خضوعا كاملا فى جميع شـــئون حياتنا ، والا نفصل بين العبادة بمعنى الايمان والتصديق ، والعبادة التى هى خضوع العبد للمولى فى كل أحكامه التى يتطلبها منه ، فالعبد خاضع له فى اقامة الشـــعائر على وجه فقهى متميز ، وعلى معرفة مصححة للأعمال ، وخاضع لله فى معاملاته مع الغير ، وتصرفاته بين الآخرين ، وادارة البشرية ليســـت نابعة من تصوراتهم ومخططاتهم وانما هى صادرة من أحكام اللـــه وشرعه ، ودستوره ونظامه الذى ارتضـــاه لعبيـــده ، وذلك باجتهاد من عقولنـــا فى اطار النص لا يخرج عنه ، ولايتحول الى رأى ، أو ينحاز الى هوى ، أو ينقاد الى قبلية أوعصبية ، أو يتأول لعلة دنيوية ، أو مصلحة ذاتية للفرد أو الحاكم .

العبادة الصحيحة والمقبولة من هذه الزاوية هى التى ينصـــاع فيها الفرد ، وتلين الجماعة ، ويخشع الحاكم لقانون الله ونظامه ، وعدله وأمره ، وقضائه وحكمه ، وحجته وبرهانه ، ومنطقة وكلامه فى كتابه وعلى لســـان نبيه ، عندئذ يكون العبد عابدا ، وتكون الجماعة وأميرها محكومة بسلطان الواحدية الالهية ، ومسيرة بعدالة الربانية الحكيمة ، والا فهى زائغة ضالة ، حائرة تائهة ، متجبرة عابثة فاسدة طاغيـــة .

ولا بأس أن نتجول قليلا مع بعض العلمـــاء الذين نظروا الى العبادة تلك النظرة الحقيقية واعتبروها غاية جامعة شاملة ، ونلتقى فى بداية الجولة مع شيخ الاسلام ابن تيمية الذى يقول [العبادة اسم جامع لكل ما يحبه اللـــه ويرضاه من الأقوال والأعمـــال البـــاطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وصـــدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصـــلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنـــكر ، والجهاد للكفـــار والمنافقين ، والاحسان للجـــار واليتيم والمسكين وابن الســـبيل ، والمملوك من الآدميين والبهـــائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة وأمثال ذلك من

العبادة ، وكذلك حب اللـه ورسوله ، وخشـيته ، والانابة اليه ، واخلاص الدين له والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هى من العبادة لله] (٢٦) .

والخلق فى نظره قـد خلقوا لتلك العبادة الجامعة ، وحاجتهم اليه فى عبادته كحاجتهم اليه فى خلقه لهم ، وربوبيته اياهم [فان ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ، ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال من الأحوال] (٢٧) ويستدل على صحة ما يذهب اليه بما جاء فى الحديث القدسى من قول اللـه [يابن آدم خلقت كل شىء لك ، وخلقتك لى فبحقى عليـك أن لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له] .

ولم تظهر نبرات التنبيه على الخضوع للتشريع الالهى فى حديث ابن تيمية لقيام الأمة به مثلما نجدها فى كلام بعض تلاميذه المعاصرين الذين راعهم ضعف الأمة فى قوتها المـادية والروحية ، وخضوعها الذليل لأنظمة غيرها وقوانينهم ، فأخذوا ينفثون فى روعهم الطرائق الصحيحة ، ويبعثون فى رفاتهم الروح الطيب الذى يعيد رفاتنا الى أبدان صحيحة ، ويحيل ضعفنا الى قوة ، وذلنا الى عزة ، واستجارتنا بالغير الى منعة من ذواتنا .

من أجل هـذا يبين سيد قطب أن العبادة فى مدلولها الصحيح لابد أن تكون أوسع وأشمل من مجرد اقامة الشعائر ، انها ألوان من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض ، والتعرف على قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها (٢٨) ، ومعنى العبـادة التى هى غاية الوجـود

---

(٢٦) العبودية ٨ ، ١٤ ، ٥٠

(٢٧) مجموع الفتاوى ح١ ٢٣

(٢٨) فى ظلال القرآن ٦٣٣٨٧ ، واحمد فايز : طريق الدعوة ٣٦—٣٧

الانسانى أعم من أن تقتصر على بعض ألوان الشـعائر التنسكية ، وتهمل أسباب القوة فى الحياة ، وأساليب البناء الذاتى لطاقة الأمة ، انها بنـاء روحى ومادى بالاكتشـاف والاختراع مسـايرة للزمان واستقلالا عن التبعية والذيولة .

فلا شـك أن هذه النبرات تقتضيها طبيعـة ظروفنا الحاضرة فلو لم نفهم العبادة على أنها نسك وخلافة وعمارة وكشـف وابتكار واختراع فلن نخرج من ورطة الضعف التى تسيطر علينا فى المجالات الثقافية والروحية والاقتصادية والعسكرية .

والأستاذ سيد قطب وأبو الأعلى المودودى ومن شاكلهم يهتفون من أعماقهم ، ويلحون فى النداء على بنى جلدتهم ودينهم أن يستفيقوا من غفلاتهم ، ويستيقظوا من ثباتهم ، وأن ينفضوا عن عيونهم الكرى، وعن كواهلهم التراب ، وأن يخترقوا الضباب الذى صنع من حولهم ليحجب عنهم الرؤية الصحيحة ، ويوارى عن عيونهم شمس الحقيقة، ان ليـلا طويلا جثم على صدورنا ولبـد الجو من حولنا بالظلام ، ليل غابت نجومه وراء السـحب ، وخنقت أقماره بيـد عابثة جاهلة لم تذق طعم الهداية الربانية ، ورضى أرباب هذا الليل من وجودهم بأن يوقدوا بعض المشاعل كى يبصروا مواطن أقدامهم ، وهى لا تصمد أمام الرياح ، فلا تلبث الا قليلا لتطفـأ ، ويعيش هؤلاء فى تخبط مستمر ، وطيش دائب .

والشـمس أين هى ؟ أين مشرقها ومطلعهـا ، هل كسـفت ؟ أو توارت الى الأبد ؟ أو ماذا ان تلك الشمس ، وهذا الفجر ، أوالضوء الأبلج ، والصبح الأسفر ، والشعاع المتألق نستطيع الحصول عليـه بشىء من السهولة ، وبقليل من العناء عنـد صدق النوايا ، وحسن التوجه ، ومعرفة الأمر على حقيقته .

ان الأمة الاسلامية تعيش الآن منومة ، ومخـدرة ، وتقع تحت

تأثير المخدر بصفة يراد لها أن تكون دائمة ، وهذا التنويم والتخدير يأتيها من داخلها وخارجها ، من حكامها المتسلقين والجهلة ، وأصحاب النوايا الفاسدة ، والمبادىء الخسيسة ، ومن بعض مثقفيها المأجورين الأفاكين الذين لعبت بهم الأفكار ، وأطاحت بعقولهم وصوابهم المؤثرات الوافدة ، ومن أفراد الأمة أنفسهم الذين يدركون واقعهم ، ويعرفون مصائرهم ، ويعلمون جيدا ما يتنقلون فيه من هوة الى هوة ولا يرضون عن أنفسهم وأحوالهم ، وهم فى قرارة أنفسهم يدركون أن حياتهم غير آمنة ، وأن وجودهم ليس على الوجه المرضى، ويبصرون بعيونهم ما يجرى من فضائح ومخازى ويتندرون على ساستهم وولاتهم ، ويتباكون على الأمة ، ويحز فيهم التمزق الذى هى عليه ، ولكنهم لا يتحركون صوب التقويم الصحيح لمسارهم ، وصوب النصح الجاد بالوسائل الملائمة لمن يفسد عليهم وجودهم ويضيع حياتهم ؛ ويسجل عليهم الخزى بعد الخزى بين الأمم المجاورة والبعيدة ، اننا جميعا حكام ومثقفون وأفراد مسئولون عن هذا العار الذى لحق بالأمة الاسلامية وما زال .

ان القوة لا تستجدى ، ولا تنال من يد العدو ، وان من يريد الاضعاف لا يمنح وسائل القوة وان من يهدم بكلتا يديه لا يستشار فى وسائل البناء وكيفيته ، وليس أمينا فى المشورة ولا صادقا فى التوجيه والارشاد ، فعلينا نحن أن نعيد الأمر الى نصابه ، وأن نعتمد على أنفسنا ونحن نملك من وسائل القوة المادية والروحية ما يحققها بأقصى سرعة ممكنة ، ولابد من البدء والتآخى ، والتوحد ، والامتزاج القائم على دين الله وشرعه ، ولانتهم غيرنا بأنه يعمل على اضعافنا ونحن عاجزون عن مقاومته ، لأن هذا ما يريده .

لهذه الخواطر وغيرها نادى المثقفون المسلمون والمخلصون بأن الغاية الانسانية وهى العبادة ليست محصورة فى مسجد ، أومقصورة

على صيام أو زكاة أو حج ، أو بعض الصلات الانسانية الرحيمة ، فان العبادة المحدودة ، والمحصورة فى اطار المسجد ، أو بعض النسك هى التى يحاول أعداء الأمة من داخلها أن يرسخوه فى أذهان المسلمين كى ينطلقوا فى الحياة بآرائهم وأهوائهم بعيـدا عن ميزان الشرع وعدالتـه ، وكى يفلتوا من ضوابط الأحكام الربانية .

ليست هذه العبادة المضيقة والمحصورة هى الغاية الانسـانية التى كانت سببا وعلة لخلق البشر ، انما العبادة الحقيقية هى الايمان بالله وتوحيده والخضوع له ، والانصياع لأوامره فى كل حركة من الحركات الفردية والجماعية ، ان العبادة رباط يربط الفرد باللـه ، ويسلكه فى أمة ، وينظمه بين جماعة ، انها علاقة مباشرة مرهفة وحساسة باللـه ، منها ينبثق كل تصرف ، وبها يحكم كل فعل وقول ونية وعقـد وعزم ، وانها شعائر تؤدى كما أنها حكم ينفذ سواء بسواء انها قنوات ودعاء وذكر واستغفار وقراءة وتهذيب وترويض وأخلاق وبر وخير واجتناب للرذيلة والشر والفساد وسوء الخلق كما أنها بحث فى الكون ونشاط حسى فى الوجود لمعرفة أسراره والكشف عن قوانينه ، انهـا معرفة بأحكام اللـه فى الشعائر والنسك والقيام بها ، ومعرفة واعية بأحكام اللـه فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وتطبيقها ، انهـا مقاومة للنفس الفردية والنفس الجماعية، وتهذيب لهمـا معا ، هى مقاومة لنفس الفرد ونفس الحاكم ، وضرب على يد النفس الفردية فى ظلمها ، وضرب أشـد على يد الحاكم فى ظلمه وجبروته ، وانحرافه وسوء مزاجه ، وشططه وخروجه ، يقول المودودى :

[العبادة : أن يكون المؤمن خادما لمولاه مخلصـا له ، وفيـا ، لا يكتفى بتطبيق قوانينه فى نفسه فقط ، بل لا يألو جهـدا فى تطبيقها على غيره أيضا ، ولا يأتمر بأوامره فى حـد ذاته فحسب بل يستنفذ ما وسعه لتنفيذها فى العالم كله أيضا ، ولا يقتصر على العيش تحت حكومته بالأمن والوفاء والولاء والتزام الطاعة فحسب ، بل يستخدم

كل ما عنده من قوى القلب والعقل والعضد لنشر الأمن فيها واصلاح رعاياها المفسدين ، وقمع الظالمين الخارجين عليها أيضا ، ويستعد للتضحية فى سبيلها بكل غال أو رخيص] (٢٩) .

فعبادة المحكوم صـــدق واخلاص فى الطاعة ، واتباع الأمر فى نفسه ، ونشره بين غيره ، وحمل نفسه عليه ، وحمل الغير عليه ، وعبادة الحاكم طاعة للـــه فى ذاته ، وتقوى فيما بينه وبين مولاه ، وخوف منه فى أحواله الخاصة ، وخشية منه فى أحوال الأمة ، وقضاء بحكمه فى ذاته ، وتطبيق لأحكام اللـــه فى رعيته بذا [ينال الحق فى أن يحكم أرض اللـــه بأمره ، ولا يكون فى حكمه متغطرسا ومستبدا ، ولكن نائبا عن الله فى أرضه ، تحت أمره الكريم ، لا يحكمها الا بالحق] (٣٠) **« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلواة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وللـــه عاقبة الأمور »** ٤١ الحج ، **« وعـــد اللـــه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كمااستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبـــدلنهم من بعـــد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شـــيئا ومن كفر بعـــد ذلك فأولئك هم الفاسقون »** ٥٥ النور .

العبادة اســـلام ودين :

واذ قـــد وضح من خلال تناول كلمة العبادة لغـــة ، وأنها تعنى الخضوع والانقياد ، وأنها تشمل جميع الشعائر والنسك ، ويتسع معناها حتى يعم كل قول وفعل وحركة على نحو ما سلف فان العبادة

(٢٩ ، ٣٠) انظر المودودى : مفاهيم اسلامية ١٢—١٤ ، ٢٩—٣٢، تذكـــرة دعاة الاســـــلام ١٠ — ١٢ ، عدنان النحوى : المنهـــاج الربانى ١٢٠ — ١٢١ .

بهذا المعنى شاملة للاسلام ، أو هى اسلام من حيث انه يعنى الخضوع والانقياد ، فيرى ابن فارس أنه من سلم ، والسين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية ، والاسلام و [هو الانقياد لأنه يسلم من الاباء والامتناع والسلام المسالمة] (٣١) ، وهو استسلام وتسليم ورضا بما قدر الله وقضاه ، وانقياد للربوبية وللأوامر الالهية ، والظهار القبول لما أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتفويض الأمر كله للمولى عز وجل ، واذا أضفنا الى هذا ما جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبزيل عن الاسلام فأجاب بشموله للشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وما هو معروف من أن الاسلام هو الاسم العلم الذى يطلق على الدين الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع أصوله وفروعه خرجنا من هذا كله بأن الاسلام هو العبادة فى مفهومها اللغوى ومعناها الموسع ، أو هى اسلام حقيقى فى معناها ومقتضاها ، هى اسلام بالمعنى العام الذى دعا اليه جميع الأنبياء ، وهى اسلام بالمعنى المقصود الذى بعث رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولأنهما متفقان فقد قال أولاد يعقوب ردا على سؤاله « **ما تعبدون من بعدى** » « **قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون** » ١٣٣ **البقرة** ، فلما عبدوه صح بذلك اسلامهم فأخبروا بأنهم كذلك . وكذلك أمر النبى أن يقول « **أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** » ١٦٢ ، ١٦٣ **الأنعام** .

ويؤيد اتفاق الكلمة فى المعنى اللغوى والمضمون المطلوب فعله وتطبيقه ما جاء فى **تفسير الزمخشرى قال** : « ونحن له مسلمون »

---

(٣١) تاج العروس ج٨ ٣٣٧ — ٣٤٠ ، والمعجم الوسيط ج١ ٤٤٨ ، ومعجم مقاييس اللغة ج٣ ٩٠ .

[حال من فاعل نعبـد ، أو من مفعوله لرجوع الهاء اليـه فى له ، ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبـد وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة : أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أومذعنون](٣٢) ويقـول أبو السـعود : المجلة [حال من فاعل نعبـد أو من مفعوله أو منهما معا ، ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق](٣٣).

ونفس الشىء يقال عن الدين فهو خضوع واستسلام وشـعائر ونسك ، وأوامر وأحكام ، وهو نظام شامل لاسعاد البشرية ، فالعبادة بمعناها ومفهومها شاملة للدين ، أوهى دين ، والدين والتدين عبادة ، قال تعالى « **وأن أقم وجهـك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين** » ١٠٥ **يونس** « **فأقم وجهك للدين حنيفا** » ٣٠ **الروم** « **فأقم وجهـك للدين القيم** » ٤٣ الروم قال تعالى « **فاعبد الله مخلصا له الدين** » ٢ **الزمر** « **قل الله أعبد مخلصا له دينى** » ١٤ **الزمر** « **قل انما أمرت أن أعبـد الله مخلصا له الدين** » ١١ **الزمر** .

وأخيرا فقد بان اتسـاع كلمة العبادة ، وأن هذا الشمول هو السر فى جعلهـا غاية لخلق الانسـان ، وفى كونها أول مقولة يوجهها الأنبياء الى الأقوام ، وأنها كلمة تحوى الاسلام والايمان والدين معا ، أو هى كلمات تتوارد على مقصود واحـد ، قال صاحب تاج العروس فى مادة (دان) .

والدين الاسلام ، والدين العبادة ، والدين الطـاعة ، والدين الذل ، والقهـر والغلبـة والاستيلاء ، والدين السلطان والملك ، والدين الحكم ، والدين التوحيد ، وهو اسم لمـا يتعبد اللـه به ،

---

(٣٢) حقائق التنزيل ج١ ٣٢٤ .
(٣٣) ارشاد العقل السليم ج١ ٢٦٥ .

والدين الملة بمعنى الاعتبار والطاعة ، والدين الورع والدين القضاء ، فالدين جنس من الانقياد والذل والتعبد [٣٤] ، وهكذا تتفق الألفاظ دلالة ومفهوما ، وتكون العبادة أدقها وأقربها الى المطلوب .

ولما كانت العبادة على هذا النحو فقد جاءت كلمة الدعوة متعلقة بها اجمالا ، أى تتوجه كلمة الدعوة الى العبادة بصفة اجمالية عامة وشاملة مثلما ذكرنا من نصوص على لسان الأنبياء اتجهت الى أقوامهم ، وكذلك جاءت كلمة الدعوة تحث على الهدى (١٩٣ الأعراف ، ١٩٨ الأعراف ، ٥٧ الكهف) وعلى الايمان الكامل (٨ الحديد ، ١٠ الحديد) وسيقت فى مجال الأمر بالتشريع الالهى (٢٣ آل عمران ، ٤٨ النور ، ٥١ النور) والى الحث على الانفاق ووجوه الخير (٣٨ محمد) والى بيان أن الاستجابة منوطة بفعل هذا كله .

---

(٣٤) تاج العروس ج٣ ٢٠٨ ، ومعجم مقاييس اللغة مادة دان ، المعجم الوسيط ج١ ٣٠٧ .

الباب الرابع

رد الفعل البشرى تجاه الغايات العليا

الفصل الأول

اختلاف البشر حول دعوة الرسل

تمهيـــد :

تناولنا فى البـــاب الأسبق الغاية والكون ، ثم بينا الغـــايات الانسانية العليا ، وقلنا فيها أن انسان بحاجة ماسة الى الوحى لظروف الضعف التى تتفشى فيـــه من داخله ، أو تهجـــم عليه من خارجه ، ووضحنا الغـــاية الجامعة التى دعا اليها الأنبياء وما تشتمل عليه من أحكام ، وما تقوم عليه من أصول .

والآن يلزم أن نقف مع البشر المدعوين لننظر فى رد الفعل لديهم بالاستجابة أو الرفض ، هل أدركوا الحاجة الى الوحى فصدقوا ؟ وهل استوعبوا حقيقة ذواتهم فعلموا قصورها وضعفها فتعطشوا الى ما يسد هذا العجز ، ويجبر الضعف فركنوا اليه فى خضوع المحتاج ، وانقياد العاجز ؟ وهل أبصروا رقعة الوجود الفسيحة ، وما تحوى من أحكام ونظم فأيقنـــوا بأن لا قبل لهم بها فلما جاءهم البيـــان الالهى يحمل العلاج ويقدمه سهلا سائغا بأسلوب الأقوام ولغاتهم فتحوا له القلوب ، وأصاغوا له الآذان فى تعقل وتدبر ؟ وهل تأملوا حقب النبـــوة وما جـــد فيها من تقدم هائل فى العقيدة ، والروح ، والأخلاق ، والعلاقات الاجتماعية القائمـــة على العـــدل الالهى ، والطفرات الهائلة التى أحدثتها تلك الدعوات ، والتى انتقلت بهـــا مجتمعات من الحضيض الى أوج التقدم المؤسس على الحق والفضيلة، والحكمة والقسطاس ، هل تأملوا تلك الحقب ووازنوا بينها وبين حقب تحياها شعوب قديمة وحاضرة تنفر من الدين الحق ، وتنأى عن العدالة الالهية ، وما جد ويجد فيها من مثالب فكرية وأخلاقية ونظامية ؟

أم ماذا فعلت البشرية ازاء قضية الوحى ؟ وماذا كان جوابها ؟ هل استجمعت قواها ، وحزمت أهواءها وعقلت شهواتها ، وكبحت جماحها فلانت لأمر ربها وانقادت ، أم جنح بها الفكر عن الحق ، ومال

عن الجـادة ، وانحرف عن الصراط السوى فرفضت واستعلت ، وأنكرت وكفرت ؟ أم تأرجحت بين القبول والرد والطواعية والرفض ، فتفرقت أحزابا ، وانقسمت شيعا ؟ وعلى أى أساس بنى كل فريق مذهبه ؟ وشيد موقفه ؟

هـذا ما سنبينه فى هـذا الباب بمشيئة اللـه تعالى .

التفـرق العام فى ساحة الدعوات :

من يستمع الى الحديث السابق عن خلق الانسان ، ومدى العناية الالهية التى احاطت هذا المخلوق ، والتكريم الربانى الذى حظى به يتصور من أول وهلة أنه سوف يحنى رأسه اجلالا لكل صوت يأتيـه من قبل الله ، وسوف يطوطىء الهامة انصياعا لأى أمر يصدر اليه من لدن المنعم جل جلاله ، ولا يدور بخلد منصف تلك الانتكاسة التى يقـع الانسان فيها بين الحين والحين وهو يجابه النداء الالهى بنكران حاد ، واستعلاء بغيض ولم يحدث أن قابل هذا المخلوق البشرى جميلا بالجحود مثلما قابل نعمة اللـه عليه فى الخلقة ، وفى الدعوة المستمرة له بالهـداية .

والانسان مخلوق عجيب ، وحاله مع اللـه أعجب ؛ فكلنا يعلم أننا بأسرنا أقل جميل يقدم الينا من أقراننا البشريين ، وقد يكون جميلا بسيطا ومردودا على صاحبه بعد قليل ، ومع ذلك نغض الأبصار ، وتنحنى الجباه والظهور أحيانا لمن صنع مثل هذا الصنيع ، ولانستحى من اللـه حق الحياء وهو يدعونا الى ما يحيينا فى وجـودنا المستمر بعد ما منحنا الحياة أصلا .

ان التركيز الشـديد من اللـه على خلق الانسان ، والدروس التعليمية التى ألقاها عليه ؛ والتعليم المتواصل بارسال الرسل حتى البعثة الخاتمـة لدليل على علم اللـه الأزلى بحال هـذا المخلوق

البشري ، وتأبيه وعناده خاصة فى مضمار التدين والخضوع والانصياع الى الأوامر الربانيـــة •

والحق أن اللــه سبحانه يبعث فى الانسان منحه التى وهبــه اياها ، ويذكره بها ، ويفجر فيه الطاقات الكامنة ويعلى من شأنه وشأن امكاناته ومنزلته ، ويبصره بالفيض العميم الذى يفيض عليه فى ارسال الرسل وانزال الكتب ، والقرآن الكريم ملىء بالحوافز العرفانية التى تقوم من اعوجاج الادراك الانسانى ، وتهذب من سيره ، وتصحح له مساره كى يعى الحقيقة بوضوح ، فاذا لم يستجب كان التهديد والوعيد المؤجل والمعجل ، وهو أمر طبيعى ، وعدالة فائقة من اللــه سبحانه •

والكتاب الكريم وهو يصور الانسان من جوانبه المتعددة يصوره بواقعية شديدة شأنه فى ذلك شأن بقية الأشياء ، فهو يتناول الحوادث بتصــوير ذاتى وحقيقى وواقعى ، فالذاتى ركز فيه على الطبــائع الذاتية للأشياء ، والحقيقى يبرز كل الجوانب الصادقة فيها ، والواقعية تعنى وضع الأشياء فى صور ملموسة يكاد يحســها الانسان بنفسه ويلمسها بيــده لمسا ، وفى سبيل تحقيق تلك الواقعية المؤثرة يقرب البعيد ، ويحضر الغيبيات فى نماذج وأمثلة محسوسة كى يصــدق الانسان ، وينجذب الى المطلوب •

وتبعا لذلك فان اللــه يخبرنا أن البشر عاشوا جميعا ردحا من الزمن لا يعرفون الا الاسلام ، وقد اجتمعوا على ملة واحدة ، ودين توحيــدى واحــد ، وأغلب الظن أن هــذا الردح الزمنى كان فى تلك الفترات التى اتسمت فيها البشرية بطابع الجماعة الواحدة ، وتأثرت بمؤثرات دينية واحدة ، وخضعت لظروف اجتماعية ومعيشية واحدة ، من أمثال الحقبة التى اجتمع فيها آدم مع بنيه ، والتى تلت وفاته قبل أن تتكاثر الذرية وتسيح فى الأرض طالبة الانتجاع والرزق ، ومتناسية ما كانت عليه ، ومن أمثال حقبة البعثة الادريسية التى أعادت

الموازين الآدمية كما كانت في عهد أبى البشر (١) ، وكذلك المدة التى عاش فيهـا نوح مع جماعة مؤمنـة عقب التخلص من شرازم الكفر والضلال بما أحدثه الطوفان ، وفى تلك الحقب وأمثالها كانت البشرية تتمتع بوحدة دينية تنبع من تشريع قائم أو فطرية مغروسة .

ثم تلا تلك العصور أوقات أخرى ابتدع فيها الجهال الشرك ، وأحدث الغواة الشقاق بين الجماعة الواحدة وتبـدل حال الدين فى النفوس فوالى اللـه الرسل لاعادة الأمر الى نصـابه فما كان من البشر الا أن ازدادوا اختلافا حول دعوات الأنبياء ، وتحزبوا بسببها : فريق يؤمن ، وآخر يكفر .

ويصور القـرآن الكريم تلك الوحدة وما حدث فيها من انفصام وتفكك فيقول الحق جل جلاله [**كان الناس امة واحدة فبعث اللـه البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحق فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحق باذنه ، واللـه يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** (٢)] ويقـول [**وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا**] (٣) .

والمفسرون يرجحون أن تكون الأمة الواحدة هى أمة الاسـلام والتوحيد قبل اختلافها وتفرقها بالابتداع والشرك ، ويضعفون رأى من يقول ان الأمة الواحدة تعنى أمة الكفر (٤) .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج١ ٣٥٥ .
(٢) البقرة ٢١٣ .
(٣) يونس من الاية ١٩ .
(٤) أنظر تفسير أبى السعود ج١ ٢٢٤ .

والآيتان السابقتان تبينان أن الأمة المتدينة الراجحة ظلت كذلك حتى اختلفت فأرسل اللـــه الرسل ومعهم الكتب المبينة والموضـــحة لازالة الاختلاف ، وازاحة الشقاق ، وتمييزا للحق من الباطل ، وقطعا لدابر الأمر المختلف فيه ، فما كان من هؤلاء الا أن بغـــوا ، واستكبروا وتفرقوا من جديد حول الكتاب المنزل بالحق .

والاختلاف العام للبشر حول دعوات الأنبياء سيظل سمة عامة ، لقد كان كذلك أوقات الأنبياء وأزمان بعثاتهم ، وسيظل قائما حول الرسالة الخاتمة ، وحول الانصياع لكتاب اللـــه المحكم وهو القرآن الكريم ، ومنتظل المشيئة الالهية تسمح بجريانه وسريانه لأنه على حد رأى الزمخشرى [لم يضطرهم الى الاتفاق على دين الحق ، ولكنـــه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف] (٥) والنصوص صريحة فى الدلالة على ذلك عنده ، ومع أن الزمخشرى معتزلى ، ورأيه موافق لهم هنا الا أنه غير معارض من قبل المفسرين الآخرين ، يقول سبحانه [**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم**] (٦) .

وعلى الدعاة أن يفهموا تلك الحقيقة ، وأن يستوعبوها جيدا .

ومن جهة ثانية فالاختلاف حول الدعوات ليس اختلافا مذهبيا سلبيا أو صامتا على غرار اختلاف الفلاسفة ، ولكنه اختلاف عقائدى محتدم ، وصراع نفسى وشعورى ساخن ، تتصارع فيه الأطـــراف بالكلم والجدال أو التزوير والقاء التهم فى السلم ، وبالسيف وكافة أدوات التدمير فى الحرب ، والسبب فى ذلك يعود الى أن أنصار الباطل يكونون كثرة فى بداية عهد الدعوات ، ومن ثم يتجمعون فى قوة ليقضوا

---

(٥) تفسير الكشاف ج٢ ٢٩٨ — ٢٩٩ .
(٦) هـــود ١١٩ .

على الحق فى مهده ، ويجمعون لذلك كل امكاناتهم ، ويتجلد الحـق ويصبر فى البداية ريثما يشتد عود أتباعه ويصلب ، وتقوى سواعدهم وتفتـل ، ويكثر ناصروهم ومؤازروهم عندئذ يبدأون رحلة الدفاع ثم يطورونه الى الهجوم ، وفى الغالب تظل الحرب سجالا بين الحق والباطل ، ويبقى الصراع تحت الرماد حينا ، وبارزا ظاهرا حينـا آخر ، يقول المولى عز وجل :

[تلك الرسل فضلنا بعضـهم على بعض منهم من كلم اللـه ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وآتينـا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القـدس ولو شاء اللـه ما اقتتل الذين من بعـدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء اللـه ما اقتتلوا ولكن اللـه يفعل ما يريد] (٧) .

فاللـه قادر على أن يفض الخلاف ، ويرفع القتال المترتب عليه ، ولكنه يبتلى عباده ، ويختبرهم بارسال الرسل والتكليف مع الاختيار ، لينظر ماذا سيفعلون ، وقد منحهم قوة التمييز ، وآلات الادراك ، وأنزل عليهم الآيات الواضحة والدلائل الظاهرة الدالة على حقيقة الحق الموجبة لاتباعهم ، الزاجرة عن الاعراض والبعد عن دينـه الحـق .

اختلاف كل قوم على نبيهم :

سجل القرآن الكريم اختلاف البشر بصورة عامة وكلية كما ظهر من النصوص السابقة ، ثم أبرز اختلاف الأقوام مع أنبيائهم بصورة تفصيلية ، فذكر اختلافهم مع نوح وما أدى من حوادث الطوفان ، واختلاف عاد مع هود وما كان سببا فى تدميرهم بالريح العاتيـة ، واختلاف ثمـود مع صالح وما نجم عنه من اهلاكهم بالصاعقة ، ثم

ذكر اختلاف الوثنيين على سيدنا ابراهيم ، وكيف ألقـوه فى النـار فنجاه اللـه منها .

وأفاض القرآن فى الحديث عن بنى اسرائيل ، وعن تفضيله سبحانه لهم على الشعوب المعاصرة لهم ، وعن النعم المـادية والروحية من البينات والمعجزات التى حباهم بها ، وما صنعوه من تكذيب ببعض الرسل وايمان ببعضهم ، وقتل أو محاولة القتل للآخرين ، وتحريف الكتب وكتمان بعضها واظهار بعضها ، ونقضهم المواثيق والعهود ، وتبديل صفات النبى محمـد صلى اللـه عليه وسلم وهى مثبتة فى التوراة ، وكذبهم فى المشورة الخاصة بنبوته ، وصدهم عن سبيل اللـه ، وقتالهم مع أعداء اللـه وأعداء دينه ضد الحق ونبيه وكتابه ، واختلافهم الشديد حول أنبيائهم ، وحول النبى الخاتم صلوات اللـه عليه ، وفى بنى اسرائيل خاصة يقول اللـه جل جلاله : [**ذلك بأن الله نزل الكتـاب بالحق ، وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شـقاق بعيـد**] (٨) [**ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صـدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفـوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**] (٩) [**ولقد آتينا موسى الكتـاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وأنهم لفى شـك منه مريب**] (١٠) [**ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم أن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**] (١١) .

---

(٨) البقـــرة ١٧٦ .
(٩) يونس ٩٣ .
(١٠) هـــود ١١٠ فصلت ٤٥ .
(١١) الجاثيـــة ١٦ — ١٧ .

والظاهر للعيان من تاريخ بنى اسرائيل أنهم كانوا ماديين فى عقائدهم ، ومشبهه ، وأنهم كانوا ماديين فى طباعهم وأخلاقهم ، وأنهم وصفوا بالأنانية وحب الذات ، وفى سبيلها استحلوا كل شىء للغير ، وأن ظروفهم النفسية ومراحل تاريخهم السياسى والاجتماعى قد زاد من حدة الكراهية والبغض التى هى من شيمتهم ، ولقد امتد عداؤهم ليشمل الأنبياء والمرسلين ، وان تاريخهم ملطخ بالدماء حتى فى علاقتهم بالأنبياء الذين ينتمون الى جلدتهم وغير جلدتهم ، ومن يراجع القرآن الكريم يجد فيضا من الآيات تصفه حياتهم وصـــفا دقيقا وشاملا ، وتصفه نفسيتهم وطباعهم وذواتهم وصف العليم بسرها وجهرها .

وجاء دور المسيح عليه الصلاة والسلام ، وألقى اليه من الآيات والمعجزات ما ألقى ، وفاض دينـــه روحية لتخففه من كثافة المـــادية الاسرائيلية ، وترفق من مشاعرهم المتحجرة ، وقلوبهم القاسية ولتقاوم التيار المـــادى العارم الذى ساد حقائق الاعتقاد ، وفهوم التشريع ، ومظاهر السلوك ونظام العلاقات فما كان من أتباعه الا أن غلوا فيـــه غلوا ظاهرا واتقسموا حول حقيقته وجوهره ، ورفعوه الى مصـــاف الألوهية ، وأشركوه مع الذات العليا ، بل استنزلوا الحق من عليـــائه ليحل فى هـــذا المسيح ظلما من أتباعه وافتراء ، وكفروا وجحدوا بحق الربوبية فى وحدانيتها وتنزيهها ، وتخيلوا الاله المثلث وصوروه فى معابدهم ، واتحنت له ظهورهم ، وأعادوا شكلا من أشكال الوثنيـــة الى ساحة الأديان السماوية ، ودعوه بابن الاله ، وناقشهم القرآن كثيرا فى مسائل التثليث ، والصلب والقيامة والنبوة ، ورد عليهم بحجج ظاهرة ، ثم نادى عليهم بأن يأتوا الى كلمة سواء [**ألا نعبد الا اللـــه ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللـــه**] وكفرهم فى المســـائل السابقة وفى انكارهم لنبوة النبى صلى اللـــه عليه وسلم .

يقول القرآن الكريم واصفا ما هم عليه من اختلاف بعد دعوة عيسى الواضحة والقائمـــة على عبادة الـــه واحد [**ولمـــا جاء عيسى**

بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا اللـه وأطيعون ، ان اللـه ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحـزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم] (١٢) ولما انقسموا هم واليهود واختلفوا حول عيسى وحول مسائل من الحلال والحرام طالبهم الحق جل جلاله أن يستجيبوا لبيان القـرآن فهو حل لخلافاتهم [**ان هذا القران يقضى على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون]** (١٣) يقول الزمخشرى [اختلفوا فى المسيح ، فتحزبوا فيه أحزابا ، ووقع بينهم التناكر فى أشـياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد اليهود والنصارى] (١٤) ويقول أبو السعود [ركبوا متن العتو والغلو فى الافراط والتفريط ، والتشبيه والتنويه ، وانه — أى القـرآن لهدى ورحمـة للمؤمنين على الاطـلاق فيدخل بينهم من آمن من بنى اسرائيـل دخـولا أوليـا] (١٥) .

وجريا على قاعدة اختلاف الأقوام مع أنبيائهم فان القرشيين عندما أعلن فيهم النبى صلى اللـه عليه وسلم دعوته واستمعوا الى الكتاب الذى جاء به لم يكونوا بدعا من البشرية فيسلموا جميعا بل طبقوا العـادة الانسانية فى الانكار والجحود ، والصد والتعذيب ، واخترعوا من التهم ما سولت لهم به أنفسهم وشياطينهم فقالوا ساحر ومجنون وشاعر جاء ليسـفه أحلامنا ، ويحولنـا عن دين آبائنـا وأجدادنا ، فنزل قوله تعـالى [**وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم**

---

(١٢) الزخـرف ٦٣ — ٦٥ .
(١٣) النمـل ٧٦ .
(١٤) تفسـير الكشاف ج٣ ١٩٥ .
(١٥) تفسير أبى السعود ج٤ ٢٧٩ .

الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمـة لقوم يؤمنون] (١٦) أى أن القرآن بيان لمـا اختلفت فيه البشرية عامة وقريش خاصة من التوحيد والقدر، وأحكام الأفعال ، وأحوال المعاد ومسائل من التحريم والتحليل (١٧)، وما ينبغى للـه فى ذاته وصـفاته الى آخـر ما ورد فى الكتـاب الحكيم .

علة الاختـلاف :

لا نلجأ الى العلم لنستقى منه الاجابة عن علل الخـلاف بين البشر والدعوات حول أهم المسائل التى خلق الانسان من أجلها ، وبعث الأنبياء لبيانها مثل الألوهية ، والتشريع ، والبعث ، والنبـوة وقبول الحق والانصـياع له ، والخضوع والتذلل للـه فى عبادته ، ذلك لأن العلم لا يعطينا فائدة فى هذا المجال ، ولم تجعل الفلسفة التى هى صورة النشاط العقلى البارز قديما وحديثا ، ولم يجعل العلم الذى هو أسلوب الحياة الغالب فى عصرنا مسألة الخلاف وعلله ضمن القضايا التى تشغل بال الفلاسفة أو العلماء .

وبالعكس عندما تعرض الفلاسفة لمسألة النبوة والعلم القـادم عن طريقها أنزلها فلاسفة الاسلام عن درجة التعقل الفلسفى ، وقالوا : الفيلسوف يعتمد على عقله ، وعلمه محكوم بقوانين العقل ، والنبى يستقى من مخيلته ، وعلومه خيالية لا ترقى الى مستـوى العـلوم العقلية ، ولم يسووا بين النبى وهو يتلقى عن اللـه بصورة مباشرة ، أو بواسطة الملك ، وبين حالة الفيلسوف الاشراقية التى يتلقى فيها من العقول المفارقة ، وقضوا بتفوق الحالة الفلسفية على غيرها ، وان دل ذلك فانما يدل على زعزعة ايمان الفلاسفة بفكرة النبوة من أساسها ،

---

(١٦) النحـل ٦٤ .

(١٧) الكشاف ج٢ ٤١٦ وأبو السعود ج٣ ٣٧٦ .

وعدم تصديقهم للطريقة الصحيحة التى يتلقون بها عن اللـه ، والتى أفصح عنها الأنبياء للبشرية دائما ، ونسبوا من خلالها علومهم الى اللـه وحـده •

والعلم التجريبى فى عصرنا وفى كل عصر هو علم يعتمد على الحس والمحسوس ، ولا يعير المسائل الدينية اهتماما يذكر ، وقد ينكرها بشدة أو يهملها اهمالا مذريا ، ويتصرف لتسيير دفة الحياة بعيدا عن مقتضى الوحى والمطلوب الشرعى له •

لهذا لا نكلف أنفسنا جهـد البحث عن علل اختلاف البشر على أنبيائهم لدى المحيط الفلسـفى أو العلمى ونلوذ الى الدين ذاته ، ونسأل الأنبياء أنفسهم لمـاذا اختلف عليكم البشر ، وتحزبوا حول قبول الحق ورفضه ؟

لن يسكت الوحى عن الاجابة كما أهملت الفلسفة ، ولن يرفض الجواب كما رفض العـلم أدنى تعليق ، ولكن يفيض الوحى بالحديث عن القضايا المختلف فيها ، ويبين علل الاختلاف ، ولسنا بصدد تفصيل الأمور المتنازع عليها سردا حتى نبين علة كل مسألة قرينها ، ولكننـا بصدد البحث عن الجـذور الطبعية التى نشأ عنها الخلاف جملة • وفى هـذا الصدد نجـد الاسلام يعطى كثيرا من الاهتمـام لهـذه المشكلة ، ونلمح الحديث المستفيض عن الخلافات العميقـة والحادة بين الأقوام ورسلهم ، كما نلمح معه تشخيص العلل التى نشأ عنها الخلاف جملة وتفصيلا ، وقـد أشارت النصوص المشـعة من نور الوحى الاسلامى الى أن تلك العلل ترجع اما الى الجوانب النفسية مثل البغى والحسد والاستكبار ، وسوء الفهم ، وطغيان التقليد على التفكير الصحيح ، وقـد تقوم الأفكار الاجتماعية السائدة ، والعادات والتقاليد لتصنع حاجزا بين الأفراد وقبول الدعوة الجديدة ، وسوف نتناول العوامل النفسية ، والادراكية والاجتماعية التى ينشـأ عنها الخلاف والانكار فى الفصلين القادمين ان شاء الله •

ونكتفى هنا بالاشارة الى الجانب العنصرى الطبعى الذى خلق منه الانسان ، والذى يسبب له الانحراف بمزاجه عن قبول الحق ، وأعنى بالجانب العنصرى الطبعى تلك الحالة التى تشكل منها الانسان فى أصل النشأة .

لقد قلنـــا أنه تشـــكل من مادة ترابية وطينيـــة وصلصالية ، وفخارية ، وأنه أضيف الى تلك المـــادة عناصر هامة جـــدا بها تبـــدل كيانها وتحول الى شىء جديد للغاية هو الانســـان ، أقول نالت تلك المـادة الترابية عناية الله ، وحظيت بنفخة منه أو روح من أمره ، وبالعنساية والنفخة صار الكائن البشرى على نحو ما نراه من الذكاء والعبقرية ، وتدبير الحيـــل ، وابتكار المعانى ، واختراع الصنايع ، وبدا عملاقا فى ميادين الحياة ، ولكنه كما يستعمل الحـــيل فى الخير يستعملها فى الشر ، وكما ينصبها للمنفعة يقيمها للتدبير ، وكما يرى بفطرته وذكائه جانب الحقيقة الناصع يحاول بنفس الذكاء أن يطمس أنوارها بكل دهاء وخبث .

وما دمنا قد التزمنا الوقوف عند حدود العنصرية الطبعية هنا ، وأرجأنا العوامل المشار اليها لحديث قادم فما هو دخـــل العنصرية الطبعية فى منشأ الخلاف حول الدعوات لدين التوحيد ؟

سوف نصغى باهتمام الى النبى صـــلى الله عليه وسلم وهـــو يكشف لنـــا عن تنوع العنصر الانسانى من فرد الى فرد ، ومن جماعة الى جماعة ، ويبين لنـــا كيف ساءت العلاقة بين ثنائية الانسان ففشل الجانب الروحى فى السيطرة على الجانب المـــادى ، وانحدرت المعانى السـامية لتقبع خلف ركام العناصر المـادية وتتوارى ، وتبرز على السطح تأثيرات المـــادية الانسانية ومطالبها ، وفى الوقت نفسه تجـــد لدى جماعة أخرى أن تلك العلاقة قـــد تحسنت ، وبدت بشكل أكثر دقة واحكاما ، وتناسقا وانسجاما ، فاستطاعت الجوانب الروحية

والادراكية أن تتحكم وتسود ، وأن تشكل العناصر المادية فى الانسان تشكيلا راقيا ، وأن تخضع مطالب البدن لمنطق العقل والحكمة ، وأن تلين صلابته لشفافية الروح ذاتها ، وأن تسخره من أجلها ، وأن تحرمه أحيانا من أشد لذائذه فورة ، وأن تسهره ليلا خادما لمناجاتها وضراعاتها . وتكون القوة العليا فى مثل هذه الحالات هى صاحبة السيطرة الكبرى .

وفى الحالة الأولى التى خمدت فيها الجوانب الروحية ، وارتفع صوت المادة وطغى ، تفسد عناصر الانسان ، ويسوء معدنه ، وينكشف من داخله عن خبائث الأصل ، وسوء المحتد ، ونتانة الطينة ، وتفوح الرائحة الحمئية الخبيثة ، فلايستطيع الانسان بحالته هذه أن يشمروائح الخير ، وعبير الحق ، ولا أن يتذوق طعم الفضيلة أو أن يبصر أنوار الهداية ، أما فى الحالة الثانية التى احتفظ فيها الكائن البشرى بنقاء الفطرة وسلامة الادراك ، وسمو الروح فانه يستطيع أن يبتسم دائما عند أول اشراقات لفجر الهداية وهو يبزغ . وأن يفتح قلبه لعذوبة الحق وهى تمطر عليه بهدوء معانى الحكمة الربانية ، وأن يعرض صفحة النفس لكلمات الوحى كى تنقش عليها بفيض من الامدادات الالهية ، وأن يوجه العقل صوب النظام الالهى فى خضوع واستسلام ، وهذا الصنف هو الذى صفا معدنه ، وطاب أصله ، وتجاوز الطينية المنتنة الى الصلصالية الرنانة المتأثرة ، ثم سما بها الى زجاجية شفافة .

وبادارة العلاقة بين العناصر الطبيعية أو المادية فى الانسان وبين القوى الادراكية والروحية على نحو سىء أو فاضل تتوقف حالة الأصالة وعدمها ، وطيب الأصل وخبثه ، فالذين دربوا أنفسهم على معانى الحمد ومجالات الخير هم الذين صنعوا من ماديتهم عنصرية شريفة ، وصاغوا من ترابيتهم معدنية نقية ، والذين سفلت هممهم ، وخبثت نواياهم ، وقعدوا عن مطالب العلى هم الذين ألقوا بترابيتهم

فى مستنقع آسن أفسد الطينة ، وأنتن الأصل ، وأحال المعدن الى خسة .

وبهذا نفهم قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبوهريرة (تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا) (١٨) ويشرح ابن حجر قائلا [تجدون الناس معادن أى أصولا مختلفة ، والمعادن جمع معدن وهو الشىء المستقر فى الأرض فتارة يكون نفيسا ، وتارة يكون خسيسا ، وكذلك الناس] (١٩) .

ولا ينبغى أن تفهم عبارة ابن حجر على أن معادن الناس هكذا وجدت أصلا ، وهكذا خلق الناس منها ، والا يكون الله سبحانه قد وجد بعض البشر من معادن نفيسة ، وأوجد آخرين من معادن خسيسة ، ولا حيلة لأى من الفريقين فى تشكيله ، بل هكذا وجد ، ولا فضل لمن خلق من معدن شريف اذا أحسن الأدب وانصاع للحق ، ومن حق الآخرين الذين خلقوا من معادن أدنى رتبة اذا أساءوا الأدب ولم يستجيبوا أن يقولوا ما فعلنا الا ما يتناسب مع طبيعتنا التى لا حيلة لنا فيها ، وما أخرجنا الا ما رشحت به أصولنا التى لم نخيرفيها .

ولا ينبغى أن تفهم عبارة ابن حجر على نحو ما أشرنا بل تفهم بالطريقة المبينة سلفا ، ويفهم الحديث أيضا على أننا خلقنا جميعا من معادن متشابهة ، ولكننا نحن الذين نمايز بينها بوعينا وبمثلنا وبأمجادنا ، أو باهمالنا ودناءتنا وحقارتنا ، ورضانا بالدون من العيش . ولا يخفى علينا أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول

---

(١٨) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، ومسلم فى البر والصلة ، متفق على صحته .

(١٩) فتح البارى ج٦ ص٥٢٩ .

[تجدون الناس معادن] ولم يقل خلق الناس معادن ، والفرق كبير بين العبارتين ، فتجدون اشارة الى مانصنعه نحن بأنفسنا في عناصرنا وذواتنا ، وخلق الناس تصريح بالطبع والجبلة لو كان قــد قاله النبى صلوات الله عليه ، ولكنه لم يقله .

ويمكن أن تفهم الحديث بطريقة أخرى ، فيقال : نحن خلقنا من تراب الأرض وعناصرها المتعددة ، وطالبنا الله أن نرقيها وأن نهذبها بالتفكير الصحيح ، والخلق الحميد ، والتطلع الى المثل العليا ، فمنا من قام بتلك الترقية ، ومنامن قعد عنها ، فمن قام بها فقد نسب الى المعــدن الجيــد ، ومن قعد فقــد انحطت همته ، وسـفل معدنه ، ويترتب على الدرجتين أحوال التعلم ، والسؤدد ، والمنزلة والمكانة ، والشفاعة بين الخلق والسمعة ، وقبول الحق أو عدم قبوله ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

[مثل ما بعثنى اللــه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نغبــة قبلت المــاء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت المــاء فنفع الله بها الناس فشربوا أصاب أرضا فكان منها ثغبــة قبلت المــاء فأنبتت الــكلأ والعشب ماء ولا تنبت كلا ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأســا ، ولم يقبل هدى اللــه الذى ارسلت به] (٢٠) .

ولا يخفى علينـــا سر التعبير بالمعادن فى الحديث الأول ، وسر التشبيه بالأرض فى هذا الحديث لمــا بين الانسان والأرض من نسبة صحيحة فقد خلقنا منها بالأصالة .

---

(٢٠) اخرجه مسلم فى الفضائل والبخارى فى العلم ، وقال البغوى متفق على صحته : شرح السنة جا ٢٨٨ .

والاختلاف فى الانصياع لقبول الحق الذى جاء به الأنبياء أو عدم الانصياع راجع الى اختلاف العنصرية وفساد المعادن ، وسوء الطبع ، وانحدار المسالك البشرية ، وعدم الانسجام والوئام بين طرفى الثنائية التى خلق منها الانسان .

حصاد الاختلاف فى العرض القرآنى :

الاختلاف بين البشر قد يكون بعيدا عن الرحاب الدينى ، وفى هذه الحالة يقوم حول المصالح والاحتياجات ، وتعمل الأفكار عملها ، وقد تبدع فى ذلك ابداعا يثرى المجتمع البشرى ، ويعود عليه بالنفع والتقدم ، ونستطيع أن نلمس فوائد هذا التنوع الفكرى داخل المجتمع الواحد ، أو المجتمعات البشرية كلها ، ولا حرج فى هذا الاختلاف ما لم يقم على الاعتداء أو يدع اليه ، أو يسهم فى استمراره ، بل هو اختلاف محمود من حيث المنبع والثمار المحققة من ورائه .

وقد يكون الاختلاف ناشئا حول الفروع الدينية ، على غرار اختلاف المذاهب الفقهية ، وهو اختلاف محكوم بالقواعد الدينية العامة ، وبالأصول الاسلامية الأصيلة ، ثم هو يحقق السعة للفقه الاسلامى ويعود بالخير على المجتمعات التى يولد فيها ويستمر ، وهو رحمة للامة الاسلامية كما هو معروف .

والاختلاف المذموم هو الذى يولد ويستمر حول القضايا الأصولية فى العقيدة . وماتحوى من أسسها المعروفة كالايمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكثيرا ما نشأت الفرق الدينية من الاختلاف حول أصل واحد أو أكثر من هذه الأصول ، وقد يدعوها التفرق الى الغلو أو الافراط ، وهذا النوع يسميه الشهرستانى

بالخلاف تمييزا عن الاختلاف فى الفروع (٢١) ، وهو المنهى عنه فى الاســلام .

ولقــد كان من حصاد النوع الأخير بين البشر عامة أن توزعت عقائدهم بســببه ، وتفرقوا فى مللهم وأهوائهم من جرائه ، وتقلبت البشرية بين الايمان والـكفر ، وربما تقلب الفرد بينهما فى حيــاته الخاصة ، ولقــد وقف النبى صلى الله علية وسلم يوما يخطب بعــد العصر فما ترك شيئا الى يوم القيامة الا ذكره فى مقامه ذلك حفظ من حفظ ونسى من نسى حسبما روى أبو سعيد الخدرى ، وكان فيما قال رسول الله صلوات الله عليه ، [أن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى: فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا] .

وفى رواية [ان الناس خلقوا على طبقات : فيولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ، ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ، ويولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموب كافرا ، ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا] (٢٢) والرواية الثــانية أستوفت الأقسام العقلية فى تصور مسألة التقلب بين الكفر والايمان ، وسوف يبعث كل منهم يتبع معبوده فى الآخرة كما جاء فى رواية أبى هريرة عن النبى صلى اللــه عليه وسلم (٢٣) ، ولا يخفى علينــا أن هــذا الاخبار من قبيل الاعلان عن علم اللــه سبحانه بحال هؤلاء قبل أن

---

(٢١) انظر الملل والنحل ج١ المقدمات تحقيق محمد بن فتح اللــه بدران .

(٢٢) اخرجه الامام احمد ج٣ ١٩ ، ٦١ والترمذى فى الحديث ٢١٩٢ فى الفتن وقال الترمذى حسن صحيح وان كان فيه على بن زيد بن جدعان ضعيف ولكن رجاله ثقات : شرح السنة ج١٤ ٢٤٠ .

(٢٣) فتح البــارى ج٢ ٢٩٢ .

يختاروا طريق الايمان أو الكفر ، وهو اللائق بكمال الله فى اتصافه بالاحاطة العلمية الأزلية والأبدية .

والقرآن الكريم فياض بالحديث عن أصناف البشر ، مؤمنهم ومنافقهم على وجه العموم ، وعلى وجه الخصوص ، على وجه العموم مع الأقوام السابقين عامة ، أو عندما يتناول الطبائع البشرية ويتحدث عن اختلافاتها المتعددة ، وتقلباتها الكثيرة . ويرد الحديث القرآنى عن صفات البشر الخيرة والشريرة فى سياق التفصيل المبين وتستعمل لفظة من الناس ،أو ومنهم ، ولا يدع القرآن موقفا عقائديا أو أخلاقيـــا الا ويبين اختلاف البشر فيه .

وأما بيانه الخاص فانه يتعلق ببيان طبائع الفئة المؤمنة ذاتها ، وما تنطوى عليه قلوبهم من تفاوت فى درجات الايمان ، وتنوع فى تحصيل اليقين ، ومن تفاوت فى مقدار الأعمال التى يقتضيها الايمان ، ومن الاختلاف فى العزائم والإرادات والأخلاق والسلوك ، والبـــذل والتحمل والايثار والجهاد ، والتضحية فى سبيل الدعوة ، ومن تفاوت فى تحصيل العلم والفقه الخاصين بدراسة الدين وفهمه ، كما يتحدث القرآن عن التباين فى درجات المشـــاعر الدينية من الحب والاخلاص والاحسان ، والرضا والقناعة والتوكل والاســـتعانة والثقة فى اللـــه والركون اليه وحـــده .

وهكذا يوقفنا اللـــه أمام الحقيقة الطبيعية للانسانية بصـــورة واضحة ، ويعطى جوا من الفهم الخبير بجوانية التكوين الانسانى ، ومقدار تأثير الانطباعات والدفائن الداخلية على التصرفات المعلنة ، وحجم الضـــغوط الخارجية ، والمؤثرات المحيطة بالبشر على تلوين طبائعهم وتقلبها ، والقرآن الكريم من هـــذه الزاوية يكشف الطبيعة الانسانية ويجعلها معراة تماما ، واضحة كل الوضـــوح أمام الدعاة

لكى يتعاملوا معها بفهم ثاقب ، ووعى مستنير ، يستند الى الحقائق اليقينية لا الى الظنون والتخمين .

هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان القرآن الكريم أفسح المجال للحديث عن اختلافات البشر فى عقائدهم وأهوائهم وملهم ، وناقش الكافرين بالله وبالرسل والشرائع على تفاوتهم فى الزمان والمكان ، كما ناقش الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعضهم كاليهود والنصارى أو من يؤمن ببعض صفات الرسالة ويكفر ببعضها كالصابئة (٢٤) ، وأيضـا ناقش الزنادقة والملحدين على اختلافهم ، وانما أفاض القرآن فى ذلك لعدة أسباب :

منها وحـدة الطبيعة البشرية من حيث التقلب والاختلاف على الدعوة والدعاة ، ووحدة المسائل المتنازع عليها ، وغالبا ما تتحـد صيغة الرفض أو القبول ، كما تتحد أسسها النفسية والاجتماعيـة ، وكذلك فان التشابه فى المواقف بين السابقين والقوم الذين بعث فيهم ، رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بارزا وواضحا ويضاف الى هذا أن تلك الملل والنحل التى تعرض لهـا القرآن بالبيان والمناقشة كانت ما تزال موجودة فى عصر النبى صلوات الله عليه ، ونظرا لأن دعوته عالمية فمن الحكمة أن تشغل بمحاجة المسائل السائدة بين عموم البشر كى تدحضها بالبرهان ، وتفحم أصحابها بالدليل ، وكى نتعـلم نحن طرائق المجابهة لنفس المواقف التى سوف نجدها على طريق الدعوة ، وغنى عن القول بأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى تميز بتلك الطريقة الاقناعية القائمة على عرض الفكر ، وتحليلها ونقضها .

ومع تعرضه لمسائل الملل والنحل العامة فانه قـد ناقش بقوة المسائل الاختلافية فى البيئة المحلية التى نشأت فيها الدعوة ، مثل

---

(٢٤) انظر ابن تيمية مجموع الفتاوى ج١٢ ٣٣٤ — ٣٣٨ .

قضية الشرك والوثنية والنفاق ، والدهرية ، وانكار البعث ، واستبعاد أن يوحى الله الى بشر وغيرهما ، وجاء نقاشه موضوعيا مدعما بالأدلة المتعـددة .

ومن الواضح أن خطة الدعوة فى كشف أفكار الأقوام وشبههم التى اختلفوا بسببها ارتكزت على القرآن وحده ، ولم تتكفل السـنة الا بطرف يسير جدا منها ، وذلك لأن الله سبحانه أراد أن يتولى بنفسه تفنيد هـذا الزيغ ، وأن يبطل بطمه الاحاطى أفانين الباطل المتعددة ، وأن يقـدم للنبى صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجه من الدعاة النمط الدقيق فى الجدال والاستدلال ، وأن يلزمهم بمنهجه فى ذلك حتى لاينقلب الدعاة فلاسفة مجادلين بوجهة نظرهم الخاصـة ، والتى ان كتب لها الغلبة حينا على فرد أو جماعة فقد تهزم فى مواقف أخرى لدينا نحن عموم البشر العاديين .

مراحل الاختلاف حو الدعوة الاسلامية :

بدأت الدوة الاسلامية فى مكة كما هو معروف ، وابان ظهـورها كانت النصرانية واليهودية قـد استقرت فى أطراف يسيرة من الجزيرة العربية ، وفى بلدان كثيرة من العالم المحيط بهذه الجزيرة ، وكانت عبادة النجوم والكواكب ، والنيران ، والحيوانات سائدة فى ساحات شـاسعة من قارة آسـيا وغيرها من القارات وكذلك وجدت أفكار المـاديين المنكرين للرسالات ، وأفكار البراهمة المعتمدة على العقـل وحده ، ومنذ أن بعث النبى صلى الله عليه وسلم آثر أن يبدأ دعوته بمحاولة جذب النـاس الى التوحيد ، وعبادة اله واحـد ، دون أن يتعرض لهذا الخضم الزاخر من العقائد المتناصرة فان هو أفلح فى ذلك انتقل الى مراحل تالية ، وراعى مع هذه النظرة ألا يتعرض لعقائد القرشيين أو عقولهم منذ البداية ، وتلك حكمة فائقة ، ومنطق يتمشى مع طبيعة الأحداث ، فليس من اللائق لأى داعية أن يبـدأ نشـاطه

فالهجوم المباشر على الجو المحيط به قبل أن يستكشف رد الفعل لدى المدعوين تجاه دعوته ، ولذا فهو يرجىء كل مخططاته المستقبلية الى مراحل تلى مرحلة الاستكشاف وجس النبض التى تقع أولا ، وسوف يأتى تفصيل لهذه النقطة فى كتاب المنهاج القرآنى •

ولكن قريشا لم تمهل النبى صلى الله عليه وسلم طويلا بل قطعت عليه خط المسيرة الأولى ، واعترضت طريق الرحلة من بدايتها بالعصيان العقـدى والهجوم على شخص الداعية ، والتعرض بالتعذيب والتنكيل بمن اتبعـه ، وتكون فريق الاعتراض من القرشـيين ومن يكاتبهم أو يخشاهم أو يرسل لهم شحنة التأييد والتضليل من بعد كما فعـل اليهود وهم فى المدينة ، وبرز فى مكة فريقان يتصارعان ، فريق الدعوة من النبى صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه ، وفريق الكفر والصد من القرشيين ومن شايعهم أو مالأهم ، وهو الفريق الذى كان يلتمس القوة فى نفسه لمـا له من منعة بعدده وعدته وأعوانه ، وركز القرآن على دعاوى هؤلاء المنكرين فى محاولات عقلية حكيمة لاقناع هؤلاء وجذبهم الى الاسلام ، وبالطبع لمـا لم تجـد المحاولات الأولى بدأ النقاش مع المختلفين الجاحدين يتعرض لسـفاهة عقولهم ، ويتهكم بسخرية على معبوداتهم ، ويصفها بصـفات العجز الفاضح والصمم والبكم ، كما ناقش القرآن بعض مواقف المنكرين من الملك والنحـل خارج الاطار القرشى ، واتسمت السور المكية بالاسـتدلال الاقناعى للرد على دعاوى الكافرين ، وتعرضـت لقصص الأنبيـاء السابقين ومواقف الأقوام منهم •

وعندما انتقل النبى صلى الله عليه وسـلم الى المدينة أضيفت مواقف جحودية أخرى ، وتكونت أطراف الصراع بين الحق والباطل من : طرف المؤمنين وهـو القوى منذ نشـأته بمؤازرة اليثربيين وأشدائهم ، وطرف أهل الكتاب من اليهود ، وبقايا على الكفـر ، ثم ظهرت فئة أخرى أضعف من أن تعلن كفرها ، وأوهى من أن يستقر الايمان فى قلوبها فنافقت •

وجاءت السور المدنية تتحدث عن فريق الايمان ، وتبين أصـول العقيـدة ، وتربط الايمان بالعمل الصـالح والأخلاق المستقيمة ، والخضوع للتشريع الالهى ، وموالاة المؤمنين ، ومعاداة أعـداء الله ورسوله ، وتوضح العلاقة الوثيقة بين الايمان وجميع الأنشطة الانسانية من قلبية وظاهرية ، واجتماعية وسلوكية وسياسية ونسكيه ، وتعقد أواصر صلة وثيقة بين الدعوة والتفانى فى سبيلها بالكلمة والسيف ، وتميز تمييزا قاطعا بين سـمات الفرد المؤمن والجماعة وبين الكافر ومجتمع الكفر ، كما تنـاولت الآيات المدنيـة عملية النفاق فى مواقف طويلة استغرقت أجزاء كثيرة من بعض السور الطويلة مثل سـورة التـوبة .

وكانت النصوص الدينية فى مكة لا تضغط على أهل الكتاب فى مناقشة عقائدهم تفصـيلا ، وتكتفى بقصص أنبيائهم وما حدث لهم مع أقوامهم ، أما فى المدينة وبعـد أن كشفت عمليات العداء اليهودى عن خبث مؤازرة المشركين والكفار فى حربهم للدعـوة ، ثم القتـال بصورة سافرة ، ولما لم تنجح محاولات الاستمالة باللين ، ومحاولات الاقناع بالحجة ، ولم يسفر مؤتمر الأديان الثلاثة الذى عقد فى المدينة بدأت النصوص فى مناقشة دقيقة لأفكار اليهود وطبائعهم ، وأفكار النصارى وضلالاتهم ، وهـذا كله يعنى أن الدعوة واجهت طوائف المختلفين فى المدينة من : بقايا المشركين والكفار ، والمنافقين ، وأهل الكتاب ، واستخدمت ألفاظ هـذه المصطلحات الأربعـة ، أما كيفية المواجهة ومنهجيتها فلم يحن وقتها بعد .

وأما بعد الفتح فقد قويت شوكة المسلمين ، وآمن كفار قريش ، وانحسرت موجة النفاق بعـد أن نزلت الآيات تبين نواياهم وتكشف مسالكهم ، وقضى كذلك على اليهود فى خيبر ، ودانت معظم قبائل العرب ، وأسلم بعض نصارى نجران ، الأمر الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم يقف خطيبا يم الفتح قائلا :

(أيها الناس فان الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها ، يأيها الناس الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على الله ، وفاجر شقى على الله) (٣٥) وهذا يعنى أن فريق المشركين قـد انتهى واستسلم ، وأن فريق المنافقين بات وشيكا أن يصفى نفسـه ، ويبقى بعـد ذلك فريقان : فريق المؤمنين الذين يؤمنون بالله وبجميع رسله وبتشريعه ، وفريق الكافرين الذى يجمـع أصناف الملل الأخـرى من الصـابئة والمجوسية ، وعبدة الحيوانات والفلاسـفة المنكرين للنبـوة واليهود والنصارى الذين لا يقرون بنبوة النبى صلوات الله وسـلامه عليه ، وما زال الفريقان قائمين الى يومنا هذا ، وما زال التصنيف محصورا فيهما باعتبار أن الايمان خاص بمن آمن بالله وجميع رسله وملائكته وكتبه الى آخره وأن الكفر لفظة عامة اذا أطلقت شـملت النفاق والفسق والظلم والشرك ، ولا تقيـد الا اذا عطف عليها غيرها (٣٦) .

ويهمنا بعـد ذلك أن ندرك طرفا من الأسس التى يبنى عليهـا المؤمن ايمانه ، ومن الشبه التى يتمسك بها الكافر فى كفره ، وهـو ما سيرد فى الفصلين القادمين .

---

(٣٥) البخارى : فتح البارى ج٦ ٥٢٧ .
(٣٦) انظر فى تلك النقطة الفتاوى ج٧ ٣ — ٤ .

الفصل الثانى

مؤثرات الاستجابة عنـــد المؤمنين

التوجه الانسانى فى ضوء الارادة الالهية

نعنى بهذا العنوان بيان الجهد الانسانى ، أو العقد والاصرار على سلوك الطريق الايمانى مع العلم بأن الله يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، فهل لدينـــا اختيار ما لقبول فكرة الايمان تحت ســـلطان الارادة القاهرة ؟

ان معالجة هذه المسائل لا يخلو من صعوبة ومخاطرة ، واجتماع الآراء حولهـــا نادر وكثيرا ما يتم الاتفاق بطريقة حزبية ، كاتفاق المعتزلة على الحرية ، واتفاق الأشاعرة على الميل فقط ، ولأن النصوص التى تبرز الفعل الالهى وحـــده كثيرة فقـــد آثر فريق عدم الخوض فى هذه المسألة ، ولزم جانب الحذر الشديد ازاءها تورعا وسلامة •

ولكن مسالك الحذر تكون مفيدة عندما يواجه الانسان تلك المسألة مع نفسه فحسب ، ووقتها لا يكلف ذاته جهد التفكير ، ويكتفى بأن يحمد اللـــه أن وفقه لطريق الهـــداية ان كان مؤمنا ، وان كان كافرا فغالبا لا تكون مثل هـــذه الأفكار مثار اهتمامه ، وان كانت فنتيجـــة النتيجة على أى حال لا تؤثر فيه لقساوة قلبه •

وأما عندما يواجه الانسان المشكلة مع الآخرين خاصة فى مجال الدعوة فانه مضطر الى أن يتناولها فى شكلها الاختيارى ، ذلك لأن دعوة الآخرين الى الايمان تصير عديمة الفائدة ما لم يثق المدعو ويقتنع بأى شكل من أشكال الاقتناع أنه حر فى اختيار الطريق الذى يراه وضحا أمام تفكيره ، وما لم يدرك أنه قادر على التمييز بين عـــدة سبل معروضة ، ثم ان دعوتى للآخرين يم الاســـلام لا تكون مؤثرة وذات وجه ما لم أعرف أنا أولا أننى أدعو جماعة الى موقف معين من بين عدة خيارات هى قادرة على التمييز بينها ، وقادرة على الانحياز فى النهاية نحو الموقف الراجح أمامها ، والا فلو كانت الحرية الانسانية

معدومة تماما ، وأن الانسان يسلك طريق الهـداية بالجبر الارادى من الله ، ويقع فى الضلال بنفس الطريقة فأى فائدة ترجى من وراء الالحاح على الآخرين فى أن يؤمنوا بفكرة استقر عليها غيرهم ، أوطبع عليها هذا الغير ، ولو أننـا فعلنا ذلك وألحفنا عليهم فى الطلب لقالوا لنا دعونا ننتظر تلك اللحظة السعيدة التى تنفحنا فيها العناية الربانية بنعمة الشرح والهداية ، وانا لمنتظرون ، واذا لم تأتنا فقد أراد لنـا ذلك ونحن نعبده بتلك الارادة ! !

ويمكن أن نعتبر التكليف الالهى بدعوة الآخرين ، وارسال رسل متعددين ، وتقويم حجج وبراهين ، ومواعظ وآيات ، كلها من قبيل لفت أنظـار المدعويين الى أحقيـة طريق وبطلان آخر ، حتى ندفع رغباتهم الى الحق ، ونحفزهم الى ترك الباطل ، ولو لم يكن عنصر الاختيار قائما لكفى بنبى واحـد ، أو داعية واحد ، وأسلوب واحد ، ومنهج واحد ، لأن الكثرة فى كل من هذه الأمور عديمة الفائدة فى حال سلب الاختيار عن الانسان ، وفى حال عدم الاعتداد بقدراته ومواهبه ، تلك القدرات والمواهب التى أدعوه على اعتبارها ، وأنوع له الأساليب والأدلة معتدا بها ، مراعيا لهـا .

وفى هذا الصدد ، ولهذه الاعتبارات نفسها نجد أن الله سبحانه قـد علق هدايته حينا على انابة العبـد ذاته ، يقول جل شأنه (**قـل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من ينيب**) [1] ، وهنا تبرز الانابة من العبد لا أقول كسبب مباشر ، أو علة ملزمة ، أو قيد فى هـداية الله ولكن كحالة استعداد وتهيئة من العبد لتلقى الهداية الربانية ، والاستعداد والتهيئة ، والانخلاع من عقد الكفر توجه انسانى انبجس من نفسه أمام براهين الحق ، ووضوحه وأمام الالحاف عليه فى قبول

---

(١) الرعد من الآية ٢٧ .

الايمان ، وبهذا التوجه المنبعث من الانابة التى حركتها براهين الطلب صار العبد فى حال يستأهل به الهداية الالهية ، وتكون نفســه قابلة لذلك تمام القبول •

وتلحظ من تلك العبارات أن الانابة التى تحطم كبرياء النفس الزائف ، واستعلاءها الموهوم ، وتميل بالانسان ميلا شــديدا نحو الحق وقبوله قـــد لا تتولد فجأة ، وانما تولد بعـــد أن تكون الفطر قـــد تحركت من مكامنها ، وهتفت فى أعماق الانسان تناديه بالتوجه الصحيح نحو اللــه ، وتثير دوافع قوية فى النفس تتحرك على آثرها جوانب متعددة لدى هذا المخلوق ، وتتفجر فيه طاقات ظلت محجوبة عن رؤية الحقيقة بأستار الزيغ : وحيل الضلال ، وربما تتحرك الفطرة ، وتثار الدوافع ، وتتفجر الطاقات لأسباب ذاتية بحتة ، أو لأســباب خارجيـــة ، ومعينات جاءته الى الانســـان من بعـــد ودفعت به الى الموقف الايجابى الجـــديد ، ومن هنا تتعـــدد الأسباب التى تدفع الى الانابة والاستجابة تبعا للظروف النفسية أو المواقف الخارجية لكل شخص ، ويصير لكل مؤمن سبب دفعه الى أن يســلك هذا المسلك ، وأن يختار هذا الطريق •

على أنى بعـــد هذا لا أنكر وقوع الهداية الربانية بطريق العناية المطلقة دون أدنى سبب انسانى ، ودون أدنى توجه ، بل اعتبره طريق الاختصاص الالهى بهدايته لمن يشاء ، وهو أخصر طريق ، وأقربه الى رحاب الايمان ، وأقواه فى الوقت ذاته ، وتكون الحالة الايمانية معه آكد من الطريق الأول ، الا أننا مع هـــذا لو فتشنا فى نفس الانسان الذى نال درجة الهداية بالاختصاص لوجدنا سببا ما رشحه الى تلك المنزلة ، قـــد يكون السبب صفاء نفس أو فطرة نقية لم تكدر خلال رحلة البعد ، أو عقلية ثاقبة ، أو نزوعا الى الخير المستمر ، أو استقامة خلقية الى غير ذلك من الاستعدادات •

وفى هـــذا الجزء من الدراسة سنحاول أن نلم بأهم الأســباب

التى يمكن أن تبعث الفطــر ، أو تنهض بالدوافع أو تحول الملكات الادراكية نحو الوجهة الصحيحة حتى يستقر الانسان فى النهاية على طريق الايمان باللـــه وحده .

١ — التــأثير القرآنى :

هناك ثلاث سمات عامة يمكن أن نصف بها القرآن حسب علمى :

سمة الاعجاز ، وتطلق على الاعجاز فى النظم والبــلاغة ، وفى الأسلوب ، وفى الأخبار ، وفى العــلم والكون ، وفوق هــذا فى حفظ الله له ، ومن يتناول هذه السمة عليه أن يسلك الطريق الفنى الدقيق المتصل بها سواء من ناحية القواعد المرعية فى كل فن من فنون الاعجاز التى شملها القرآن الكريم ، أو من ناحية الشروط والتفاصيل الخاصة بالباحث أو المسائل المطروحة .

وهناك سمة التشريع ، وتلك هى التى تكفل فيهــا القرآن ببيان الأحكام المتعلقة بشــئون الفرد والأسرة والجمــاعة فى كل مجال من مجالات الحياة على وجه كلى حينا أو مفصل حينا آخر ، ونهض علم الاستنباط والفقه والأحكام بذلك .

وهناك سمة ثالثة هى سمة الهداية ، انه ليس كتابا اعجازيا فى كل ما سبق ، وليس كتابا تشريعيا يهتم بوضــع النظم والقوانين ، ويرسم العلاقات المحددة للفرد والجماعة فحسب ، ولكنه مع ذلك تماما هو كتاب هــداية ، يهدى الى الايمان ، وأصوله ، ويتناول جوانب العقيدة المتنوعة ، الجانب الذى يتحدث عن الله فى كمالاته الصفاتية الذاتيــة ، وكمالاته الفعلية والقهــرية ، والجانب الذى يتحدث عن الرسل وحكمة بعثتهم وسر تعــددهم ، وامكان ذلك ، وأحوالهم مع أممهم ، والجانب المتصل باليوم الآخر وكشف ما فيه ، وما غاب عنا منه ، وهو كتاب هداية يفتش عن النفس فى خباياها ، ويبين عوراتها

ومساوئها ويصحح لها مسارها ، ويعالج أسقامها ، وينشط فيها جوانب الخير ، ويغذى فيها مداركها ، ويبنى فيها معارفها على وجه منتج وصحيح ، ومثمر وفاضـــل ، ويقـــدم لها البراهين والأدلة لتصحح تصوراتها الفاسدة وعقائدها الضالة وأفكارها المنحرفة ، كما يبث اليها رقيقا من المواعظ التى تلطف النفس ، وترقرق العواطف وتثير الشجن نحو المطلوب ، ويرغبها بعذب الأمانى الصادقة ، وحلو الآمال الواقعة، ويعدها بملك أبدى تتمتع فيه بنعيم لا حدود له ، كما يرهبها من واقع خادع تعيشه ، ومن سراب آمال تلهث وراءه ، ويتوعدها بملك أبدى آخر تصلى فيه عذابا لا نهاية له •

والحقيقة أن السمات الثلاث لا يمكن فصلها عن بعضها ، ولاتعمل كل منها بعيدا عن الأخرى ، بل ان سمة الاعجاز تضفى على التشريع طابع القداسة والعجز عن وصول الانسان الى دقته وحكمته ووجازة منطقه ، وبراعة صياغته وقوة استيعابه وشموله ، وسمة التشريع لا تنفصل عن الاعجاز فى ألفاظها وأفانين أحكامها ، ولا تنفصـــل عن الهداية من ناحية تصريفها وتفصيلها ، فمن ينظر فى الجانب التشريعى لا يملك الا أن يحنى رأسه اجلالا وتقديسا لمن أحكم وفصل ، وعنصر الهداية لا ينفصل عن سابقيه ، فالهداية فى سطوع براهينها ، ووضع مقدماتها واستخراج النتائج منها ، وبلاغة الأمثال والمواعظ اعجازية الدلالة والصياغة معا ، وهى فى اقناعها للآخرين ودعوتهم الى الله ، والرضا به وحده انما تدعو هؤلاء الى العلاقة الوثيقة بين الهـــداية الايمانيـــة والخضوع للتشريع الالهى ، وهى علاقة لا تنفصـــم عند المؤمنين الجادين ، ودع عنك الهاذلين ، والساخرين بأنفسهم ورغباتهم ممن يفصلون بين كلمة الاسلام وتطبيق حقائقه ، والأخذ بتشريعه ، فكل جانب من الجوانب القرآنية مرتبط تمام الارتباط بالآخر •

واذا أردنا أن نركز على سمة الهداية قليلا للمناسبة بينها وبين موضوعنا وجدنا أن اللـــه سبحانه يبدأ الحديث عن هـــذه الســـمة

ببيان خصائص الأسلوب القرآني وأنه جاء عربيا ، وبلسان عربى مبين ، وأنه ميسر للقراءة والحفظ ، والغرض من هـذا هو أن يتعلم العرب معانيه ، وأن يفهموا ما فيه لا لمجرد العلم ولكن للتذكر والاعتبار والتعقل والادكار ، وترد كلمة لعل عقب الآيات التى تتحدث عن عربية القرآن ، كما ترد الألفاظ الداعية الى التعقل والتذكر والادكار والتقوى فى نفس السياق ، والمعانى مترتبة على بعضها ترتب المعلول على العلة (٢) .

ونزول القرآن الكريم بلسان القوم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه كتاب الدعوة العالمية وكتاب النبى الخاتم ، وانه دستور البشرية كلها فى كل زمان ومكان لأن هذا الانزال هو سنة الله مع أنبيائه ، فكل نبى يأتيه الوحى بلسان قومه [**وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم**] ومع أن هـذا الاختيار فى لغة الوحى لكل نبى يتمشى مع محدودية دعوته وقصرها على قومه ، فمن الحكمة والحال كذلك أن يرد الخطاب الالهى لكل نبى بلغة المدعوين ، لكن الأمر يختلف بالنسبة لدعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء الى كل أحمر وأسمر فى كل زمان ومكان [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين] [وبعثت الى الناس كافة] [وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا] فما وجه الحكمة فى أن يرد القرآن بلسان عربى ، وبلغة القوم المحيطين بالنبى صلوات الله عليه شأنه فى ذلك شأن الدعوات الخاصة ؟

ونقول أنه لا يتحقق أن ينزل الوحى بلغات متعددة على نبى واحد بعينه ، وعدم التحقق راجع الى الناحية الواقعية والأصولية :

---

(٢) يوسف ٢ ، طـه ١٣ ، الدخان ٥٨ والقمـر ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، وانظر فتح القـدير ج٣ ، ٣٨٩ ، ج٤ ، ٥٨٠ .

أما من الناحية الواقعية فان أى نبى لا يتوجه بدعوته مهما اتسع حجمها الى جمع من الأقوام مختلفين ، ولكنه يتوجه فى البداية الى القوم المحيطين به ممن يعرفونه ويعرفون نسبه ونشأته وأحواله ، ويستطيعون أن يفهموه فى لغته بلا مترجم ، فان هم آمنوا سلك بهم الى غيرهم فدعاهم •

ومن الناحية الأصولية فلابد أن يكون الوحى محدودا باطار لغة واحدة ، معروفة القواعد والجذور والاشتقاقات والتكوين حتى تبقى تلك اللغة بالاعتبارات المرعية مرجعا لفهم المعنى من اللفظ فى اطار السياق اللغوى ، فلا يتيه المعنى أو الحكم الشرعى بين لغات متعددة لكل منها خصائصها المستقلة ، وعلى فرض أن ترجمت معانى الوحى الى لغات أخرى فان اللغة الأصلية تظل فاصلا بين المعانى عند الاختلاف حولها فى اللغات المنقول اليها اللفظ الشرعى •

وبعد أن يتحدث الحق جل جلاله عن لغة القرآن العمومية وعلة ذلك مما يرتبط بالهداية يذكر خصائص الكتاب المعنوية ، وأنه نزل تبيانا لكل شىء ، وفصلت آياته تفصيلا لم يفرط معه فى حكم من الأحكام ، أو مطلب من المطالب ، وصرفت فيه الأمثال ، وأنواع الوعد والوعيد ، ومختلف الأدلة والبراهين ، وكل هذا البيان والتفصيل والتصريف لغايات خامة من أدقها الايمان والتذكر (٣) ، ولأنه مشتمل على ما سبق وعلى غيره فهو موعظة وشفاء لما فى الصدور وهو ذكرى وبشرى ورحمة ، وتثبيت وذكر ومبارك وبصائر ، ويهدى للتى هى أقوم ، وباختصار فملك الهداية تشفى قلوب الكافرين من أحقادها ، وتصححها من أمراضها ، وتبصر العقل بالمنطق الحق ، وبالبرهان

---

(٣) الانعام ١٢٦ ، الاعراف ٥٢ ، والنحل ٨٩ ، الاسراء ٤١ ، وفصلت ٣ وتفسير الشوكانى ج٢ ١٦١ ، ٢١٠ ج٣ ١٨٧ ، ٢٢٩ ج٤ ٥٠٥ •

الساطع كما أن تلك الملل ذاتها بشرى وتثبيت وتزكية للمؤمنين المحسنين أو هو يهدى الكافرين الى الايمان ، ويرفع المؤمنين الى درجات الاحسان ، وأدلة ذلك لا تحتاج الى ذكر لوضوحها .

ومن المعروف أن تلك الثمار العرفانية والايمانية والاحسانية لا تتأتى لطالبها من القرآن الا بشرائط حسن الاستماع والانصات ، وبالتدبر فى آياته ، ومحاولة العقل للانتفاع بمعانيه ، وفتح القلب على أذواقه ، ورقائقه ، وأنواره وفيوضاته ، والتسليم بالغيب الذى جاء فيه ، والذى لا تدركه عقولنا ، أو نصل اليه بأفهامنا (٤) ، ومن طبق هذه الشرائط ، وقام بحق القراءة ، وبحق العلم فى النزاهة والتخلص من الأهواء الصارفة والذين يتجردون مما علق بقلوبهم ونفوسهم ، ويتخلصون من الشبه التى تفسد عليهم مداركهم يصلون فى النهاية الى الايمان بالله ، وبصدق الرسالة الخاتمة ، وأحقية القرآن الكريم .

ويسوق الله جل جلاله فى كتابه بعض الصور والنماذج التى آمنت على هدى القرآن فيقول جل وعلا فى شأن بعض من أسلم من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وغيره [**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون**] ٥٢ القصص [**والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه**] ٣٦ الرعد وكل من أصغى اليه متجردا ومتدبرا فى آياته آمن سواء كان من أهل الكتاب أو من قريش [**وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون**] ٤٧ العنكبوت [**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**] ١٢١ البقرة [**ويرى الذين**

---

(٤) الأعراف ٢٠٤ ، ص ٢٩ ، محمد ٢٤ ، يس ١١ ، ق ٤٥ .

أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد] ٦ سبأ وهم عموم الذين أسلموا من أهل الكتاب والصحابة كما قال أبو السعود (٥) فى أحد آرائه .

وجاء فى روايات اسلام عمر على اختلافها أن السبب الرئيسى فى اسلامه هو سماعه القرآن فى بيت أخته أو خلف أستار الكعبة ، والنبى قائم يصلى ، وعندما استمع عمر الى القرآن قال : [**فجعلت اعجب من تاليف القرآن] وفى رواية [فسمعت شيئا لم أسمع مثله]** (٦) فوقع فى قلبى الاسلام ، أو فتبعته ، ولقوة تأثير القرآن ولأنه الدلالة على النبوة كان النبى صلى الله عليه وسلم يبدأ به دعوة الناس ، ويسمعهم طرفا منه ضرورة ، وكذلك كان يفعل دعاته الذين يوفدهم من قبله ، أو الذين قاموا بالدعوة بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، لقد أثر القرآن الذى تلاه مصعب بن عمير على اليثربيين أيما تأثير ، وبسماعه خضعت جباه رؤسائهم مثل أسيد بين نصير ، وسعد بن معاذ ، وحتى الجن عندما سمعوه انصرفوا وهم يهتفون من أعماقهم [**يا قومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به]** (٧) .

وعلى الدعاة أن يلتفتوا الى تلك الميزة وأن يعوا القرآن تلاوة وحفظا وتدبرا وفهما ، وأن يدركوا مراميه وأغراضه ، وأن يجيدوا عرضه على أسماع الناس وعقولهم ، فهو زاد الداعية الأول ، وهو بدونه كجندى فى ساحة الوغى بلا سيف ، هو زاد الداعية لذاته ،

---

(٥) التفسير ج٤ ٤٤٣ .

(٦) راجع المسند للامام احمد ، واسد الغابة ، والسيرة للذهبى ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٧) الجن ٢ .

يثقفه ، ويبصره بموجبات الأعمال ، ويحفزه اليها ويهذب من نفسه ، ويرقق من قلبــه ، وهو سلاحه الذى لا يبلى ولا يخلق ، وهو منهجه وطريقته فى الاقناع ، كما أنه مصدره الأول فى الافتاء ، وهو مركز الجــذب المؤثر فى نفوس الآخرين .

٢ — تأثير الشخصية النبوية :

هذا هو العامل الثانى فى جذب الآخرين الى الايمان ، وهو عامل هام للغــاية اذا أدركنا أن الكلمة التى تصــدر من شخص لا تنفصل عن شخصيته ، وأن ذات الانسان هى العمق الأصيل لفكره ومنطقه ، وهى القوة التى تطفو على الآخــرين فتؤثر فيهم عندما تمتاز عنهم بمميزات بارزة ، والناس ينبهرون دائمــا بالشخصيات المتكاملة فى شكلها وجمالها ، وحديثها ولفظهــا ، وتفكيرها وحكمتها ، وخلقهــا وسلوكها ، ومثل هؤلاء الأشخاص ينالون من التقدير والاحترام على قدر عناصر التكامل الذاتى لديهم ، ويحظون بالاعجاب من المحيطين بهم أو الدارسين لشخصياتهم وآثارهم حتى ولو كانوا من أعدائهم ، وما سمعنا أن امعة صار صاحب مذهب يتبعه الناس ، أو أن عربيدا التفت جماعة من حوله الا جبنا وهلعا ، وما رأينا فاحشا فى القــول أو دميما فى الخلقة أو ســيئا فى الخلق أطراه الناس وأثنوا عليــه وما قرأنا أن فكرة رديئة ومتناقضة صارت عقيدة مختارة بالحــرية الكاملة عند بعض الجماعات اللهم الا تحت تأثير السيف أو الارهاب.

من أجل هذا يصطفى اللــه رسله من الملائكة ومن النــاس ، والاصطفاء الالهى يقوم على الاحاطة العلمية ، وعلى كونه ســبحانه سميعا بصيرا خبــيرا عليما بخفايا النفــوس ودقائقها ومميزاتها ، والفوارق التى تفصلها بدقة عن بعضها ، والاصطفاء على هذا النحو لفرد ما يؤدى عن اللــه أمانة التبليغ لدينه لا يقــوم على المحــاباة أو المجاملة ، ولا يقــع على عامة الناس أو المغمورين فيهم ، ولا على

أهل الضعة فى الشخصية أو النسب ، ولا باعتبار الثراء أو الجاه ، أو المركز والمنصب ، وانما يقع الاصطفاء على ذوات تميزت فى شخصيتها تميزا ينعدم نظيره فى عصره ان كان نبيا لقوم وزمان مخصوص ، وينعدم النظير له فيمن سبق ولحق ان كان النبى خاتما للأنبياء ، وأظن أنه من أجل هذا اختار القرآن لفظة الاصطفاء ، ذلك لأن تكليف أحد البشر دون غيره ليس اختيارا فحسب بل انتقاء مقصود يرقى الى أدق أنوار الانتقاء ، الى المرحلة التى ينعدم فيها النظير والكفء والمماثل •

والله سبحانه عندما يعلن عن هذا الاصطفاء ليرد به على منكرى النبوة من البشر (٨) يلفت الأنظار أيضا الى ما يحمله هؤلاء المصطفون من مميزات فى شخصيتهم وقدراتهم ، تلك المميزات التى تجعل النبى فى درجة لا يدانيه فيها فرد أو مجموعة متراصة ، وفى الوقت نفسه يعلم الله حاجة النبى لهذه القدرات ساعات التبليغ فهى التى تجعله جديرا بالصمود أمام المجابهات العنيدة التى سوف يلقاها من قومه ، وهى أيضا القوة المؤثرة التى تفعل الاعجاب فى نفوس الآخرين فينجذبون اليها فى تصديق وتقدير متلاحمين ، كما تنجذب مجموعة الكواكب الى المركز الكونى وهو الشمس ، أى أن الشخصية النبوية البارزة هى صمود ومجابهة للعداء ، وقوة وتأثير فى المصدقين•

ومن يتأمل القرآن يجد أن الحق جل جلاله لم يكتف بلفت الأنظار الى التكامل فى شخصية الأنبياء من خلال النظرة العامة فى قوله تعالى [**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**] (٩) ومن خلال المدح الاجمالى للأنبياء وانما يشير بوضوح الى أقوى الصفات

---

(٨) أبو السعود ج٤ ٤٥ •

(٩) الحج ٧٦ •

البارزة فى كل ، فابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصـلاة والسلام أواه حليم . واسماعيل كان صادق الوعد ، وادريس يتميز بانه هو الآخر صديق ، وموسى قوى أمين ومخلص اصطنعه الله لنفسـه ، وأما يحيى فهو سيد وحصـور ، وعيسى فهو روح اللـه وكلمته ، ومحمد عليه الصلاة والسلام فهو الرءوف الرحيم ، والسراج المنير ، وقد مدحه اللـه فى منطقه وعقله وخلقـه عامة ، وهؤلاء الأنبياء هم الصوة الذين [أنعم اللـه عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح] (١٠) .

ولـما كان النبى على هذا النحو من البروز فى الشخصية والتسامى فى ملكاتها بشكل عام ، وبشكل خاص لدى النبى صلى اللـه عليـه وسلم فان اللـه قد جعله أسـوة لكل المسلمين [**لقـد كان لكم فى رسول اللـه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللـه واليوم الآخر وذكر اللـه كثيراً**] (١١) .

وفى الحقيقة لقد كانت شخصية النبى صلوات الله وسلامه عليه محل اعجاب وتقدير من قومه قبل البعثة وبعدها فهاهو قبل البعثة يحكم فى مسألة الحجر المشـهورة ، وكان أصـغر سنا عن كثير من الحاضرين ، ولكن التفوق الشخصى لا يعرف سنا ، وفى أشد لحظات الصدام بينه وبين قومه بعد البعثة ، وعندما أخذوا فى حمية البـاطل يرمون النبى صلى اللـه عليه وسلم بوابل من السخرية ، وعنـدما أدار النبى وجهه اليهم قائلا [لقد جئتكم بالذبح] قالوا له [على رسلك يا محمد ما عهدناك فحاشا] هـذه حقيقة .

وأخرى فان النبى صلوات اللـه عليه كان يستثمر تلك الثقـة

---

(١٠) مريم ٥٨ .
(١١) الاحزاب ٢١ .

فى محاولة جذبهم الى الاسلام ففى أول لقاء دعوى عام جمع النبى له كل بطون قريش ، وأعلن فيهم دعوته بدأها بالحديث المشهور [أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى] ؟ قالوا [نعم ما جربنا عليك كذبا] فلننظر الى حكمة الداعية كيف يبدأ من نقاط البروز فى شخصيته ، ومن مميزات تلك الشخصية وفضائلها ، ومن ثقة الغير ثقة كاملة بتلك الفضائل ، وكيف يطلب منهم التسليم بحقائق ذاته لينتقل من نقطة الاتفاق حول حقيقة قد اتفق عليها وهى الصدق مع الناس الى بقية المطلوب وهو الصدق مع اللـه فى التبليغ عنه والدعوة اليه مراعيا أن الفضيلة لا تتجزأ ولا تكون متحققة فى مقام وغير متحققة فى مقام آخر ، وأن الصدق الحقيقى هو الملازم للانسان بين الخلق فى الأمور العامة والخاصة ، ومع كافتهم فقيرهم وغنيهم ، قويهم وضعيفهم ، وهو الملازم له فى حال أخرى تتعلق بتبليغ رسالة عن اللـه ، وبدعوتهم الى دينه سبحانه ، وكذا يقال فى كل صفة أخلاقية أخرى •

ومع أن قريشا فى هذا الموقف لم تستجب الا أنها لم تنكص على عقبيها وترجع عن ثقتها فى صدق النبى صلى اللـه عليه وسلم مع استهانتها بالأمر الذى جمعها من أجله ، فقد آمنت بفضيلة الصدق بينها ، ولم تستوعب صدقه فى حمل رسالة عن اللـه •

وهذا الموقف يختلف عن مواقف أخرى أثرت شخصية النبى صلى اللـه عليه وسلم فى أفراده تأثيرا بالغا ، فها هى السيدة خديجة تختاره زوجا لها على أساس من فضائله ، ولما جاءها ببشائر الوحى هدأت من روعه ، وهى واثقة كل الثقة بنبوته ، ولسانها فى الحال يدل على نبوته لا بما أنزل عليه من قرآن ولكن بما أودع فى شخصيته من فضائل تقول [واللـه ما يخزيك اللـه أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ،

وتعين على نوائب الحق] (١٢) وهى نفس الفضائل التى لمسها أبو بكر فى صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فآمن لما لمسه فيه صلوات الله عليه .

وما التقى النبى صلى الله عليه وسلم بفرد أو جماعة الا تركت شخصيته انطباعا قويا فى نفس المجتمعين معه ، فان ننس لا ننسى أم معبد وهى تسجل انطباعاتها عن لحظة لقاء عابر معه صلى الله عليه وسلم فى أدق وصف وصف به رسول الله . وهكذا تستطيع الشخصية أن تكون ذات تأثير فى نشر الفكرة ، أو فى نشر الدعوة بين جمهور من الناس .

واذا كان الأمر كذلك فعلينا ونحن نعد دعاة أن نتخير أرباب البروز والملكات ، وأن ندرك أنها ليست تبعة العجزة والقعدة من البشر ، وليست مهنة القاصرين الذين قعدت بهم الحياة فى طموحاتها المادية ، ومنصبها المرتقبة وليست بيوت الاعداد للدعوة أو مدارسها ملاجىء يفد اليها من قصرت هممهم عن مواصلة الدراسة فى معاهد أخرى أو ضعفت ذاكرتهم عن استيعاب الدروس الدنيوية ، أو قعدت ملكاتهم العقلية أو البدنية عن الانخراط فى مجالات يتصورونها أرحب ، فرضوا بدور الدعوة ومهنتها سبيلا يوصل الى شىء خير من لاشىء ، هؤلاء وأضرابهم ليسوا من الدعوة فى شىء ، وليست الدعوة فى حاجة الى أمثالهم ، انها مهمة شاقة ، ورسالة صعبة بتكاليفها والتزاماتها فتحتاج الى تفوق خاص ، وقدرات متقدمة ، وشخصيات بارزة فى الشكل والصورة ، والعقل والذكاء والفطنة والحيلة ، والبراعة فى الفهم والمنطق ، والعرض والتقديم ، وقبل ذلك فى الخلق والسلوك .

---

(١٢) فتح البارى ج ٩ ص ٢٣ .

ان الدعـوة تواجه اليوم حياة مليئة بالصد ، زاخرة بالرفض ، عابثة بالجوانب الروحية والدينية ، مستهترة بمناهج الدين وشمولها ، ومتهكمة على رجاله ودعاته ، ونحن لن نقاوم هذا كله بتلك الصـورة المهلهلة من المنتسبين للدعاة أو الذين يرتدون أزياءهم ، ويلتحون بلحاهم والذين ان ساروا فهم محط جذب أنظار الناس بما يرتدون من أزياء ثملة ، وان تكلموا أثاروا الاستغراب والتعجب من تلك اللغة المتخلفة التى ينطقون بها ، أو من هذه الطريقة الفكرية التى ينتهجونها ، وان عوملوا نفروا الناس من حولهم لفساد أخلاقهم وسوء معاملتهم ولكننا نقاومها بنظافة فى الشـكل ، ودقة فى الفهم ، واستيعاب للمشاكل ، ومنهجية واعية ، وأخلاق فاضلة ، وهذه كلها جماع الشخصية المؤثرة فى الآخرين •

٣ — الصفاء النفسى

هناك صنف من البشر من الله عليه بنفس طيبة ، وروح نقية ، واستعداد مرتفع جدا لقبول الحق ، وأهلية فائقة للانصياع ، وقد تميزوا بشفافية رقيقة يخترقها نداء الحقيقة الى النفس فلا يجد فيها عائقا يعوقه عن الاستقرار والاستجابة ، والانفعال به ، ويصعد النداء الى منطقة التعقل فلا يلمس أى اعتراض لدى العقل ، ولايثير حول النداء أصوات التشويش والشبه ، وربما وجد عنده أسانيد تدعم درجة القناعة فيه ، وبعد أن يخترق نداء الحقيقة شفافية النفس الى العقـل يستقر يقينا فى القلب ، وتكون جوانب الانسان قد أفعمت به الى أقصى حد ، وتكون النفس والروح والفطرة شيئا متميزا بالنقاء متحدا فى الجوهرية والاتجاه ، ويكون العقل على أعلى درجة من القبول ، ويفتح القلب أبوابه لاستقبال الضيف العزيز ، أو للاستضاءة بالنور الجديد ، وكثيرا من أصحاب هؤلاء النفوس مايكون ايمانه ، أو قبـوله للحق على غير اختيار منه ولا ارادة ، بل تدفعه اليه طبيعته النقية الخالية من الكدر والحجب •

وأهم المميزات التى نجـدها فى استجابة هذا الفريق هى أنهم يتخلصون من المفاسد الخلقية التى عليها معاصروهم ، ويتجردون من الصوارف الموروثة ، ويحاولون أن يعيشوا أصفياء مهما كانت البيئة فاســدة والمجتمع ملطخا ، وقد يصارعون غيرهم على بقــاء حالتهم أو سريانها بين الآخرين .

وهم بحالتهم هذه لا يلاقون عنتا داخليا فى سبيل معرفة الحق ، بل يعتبرون دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لهم صوت ضمائرهم ، وخواطر قلوبهم ، ونجوى نفوسهم ، ولنتذكر عند هذا موقف بعض الحنفاء ، واندفاع ورقة عنـدما سمع حروف الوحى الأولى ليقول للرسول صلوات اللــه عليه [ان هذا الناموس الذى نزل اللــه على موسى يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيــا اذ يخرجك قومك فقال رسول اللــه أو مخرجيهم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا] (١٣) .

ولمــا كانت ضمائرهم وقلوبهم ونفوسهم على هذا النحو فانهم لم يثيروا حول الحق نقاشا ولا جدالا ، ولم يطلبوا أدلة أو براهين ، ولم يفتشوا عن معجزات أو خوارق للعادات ، وما دام حالهم هكذا فان الداعى قد لا يكلف نفسه عناء البحث عنهم ولايتتبعهم بل هم الذين يبحثون عن الداعى لأنهم على حد تعبير أمين أحسن اصلاحى [هــم العطشى فلا يفكرون قط فى أن يحضر لهم النهر أو البحر بل هم الذين يجوبون الهضاب والوهاد والســهول والجبال ، ويصلون الى العين الفائضة ، ويكاد زيتهم النظيف الصافى يضىء ولو لم تمسسه نار فهم أن يجد مسة من الكبريت الا ويشتعل] (١٤) .

---

(١٣) نفســه .
(١٤) منهج الدعوة الى اللــه ١٣٠ — ١٣١ .

ومن يقرأ هـذه السطور يتصور أن الحديث عن هذه النفوس خيال فى خيـال ، وهو من قبيل التنسـيق اللفظى والابداع الفنى لا الاخراج الواقعى ، والوجود الفعلى لمثل هؤلاء البشر الأصـفياء ، ومن ثم لزم أن نقـدم بعض النماذج الدالة على تحقق وقوع هـذا الصنف بين فئات المستجيبين •

ونلتقى أولا مع أبى بكر رضى اللـه عنه ، فقد روى عبد اللـه ابن الحصين التميمى أن رسول اللـه قال [ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة وتردد ونظر الا أبا بكر ما عتم حين ذكـرته ، وما تردد فيـه] وفى صحيح البخارى قال رسول اللـه [ان اللـه بعثنى اليـكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صـدق] (١٥) ، والحديثان واضحان فى أن أبا بكر استجاب بدافع الصفاء النفسى لا بالنظر العقلى ولا بغيره ، وينبغى أن نعلم أن حالة الصفاء النفسى لا تتعارض مع التأثير القـرآنى ولا مع تأثير الشخصية النبوية ، وانما تعنى حالة الصفاء أن صاحبها لا يتردد ولا يحتاج الى طويل نظر عقلى ، ولايطلب حججا ، ولا يثير شبها ، ولا يحتاج الى اعجاز كما سبق أن أشرنا فى المميزات ، وقد تنطلق نفسه الصافية الى الاستجابة بمجرد سـماع القـرآن ، أو بمجرد دعـوة من النبى صلى اللـه عليـه وسلم أو أى داعيـة •

ومن الذين سبقوا الى الاسلام بمحض الصفاء النفسى الزبير ابن العـوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد اللـه ، وسـعد ابن أبى وقاص ، وعبـد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعـون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم

---

(١٥) الذهبى : السيرة النبوية ٧٦ .

ابن أبى الأرقم ، دعاهم أبو بكر فأسلموا ، ثم انطلق بهم الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه (١٦) .

ولقد قطع أبو ذر القفار وصولا الى النبى حتى التقى به ، وتختلف الروايات حول اللقاء الأول أكان من أخيه أنيس ، ثم أخبر أبا ذر قائلا [بلغنى أن رجلا خرج يدعو الى دينك أو الى الدين الذى أنت عليه] أى الى الحنيفية التى مال اليها أبو ذر ، أم كان من أبى ذر نفسه وقد نزل مكة ، وقابل عليا ثم دله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء كان السابق الى القبول هو أنيس أم أبو ذر فان ثانيهم قد أسلم من أول وهلة ، ودعا أمه فأسلمت ، وأسلم أنيس ، وأسلم نصف قبيلة أبى ذر قبل الهجرة وأسلم الآخرون بعدها وأسلمت قبيلة أسلم باسلام أبى ذر الغفارى وقبيلته ، وكان عنصر الصفاء النفسى والتسليم العقلى والقلبى هو العنصر الحاسم والدافع فى قبول الايمان (١٧) .

ولا ننسى فى ذلك قصة اسلام سلمان الفارسى ، لم يقطع قفار قبيلة ، وانما قطع قفار أوطان ، وخسر تاج الحرية ، وبيع عبدا رقيقا فى سبيل الحق ، حتى وجد ما ينشد ، وحصل على ما يبتغى ، واستقر صوته الداخلى ، وهدأ روعه عندما فتح عينه يوما على النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأكد فقط من شخصيته لا من الحق الذى جاء به ، عندئذ استسلم مؤمنا ، وصدق خاشعا ، وأيقن موحدا ، ثم وهب نفسه للحق جنديا وفيا .

---

(١٦) البداية والنهاية ج٣ ٣٠ .
(١٧) نفسه ج٣ ٣٨ .

٤ ـ الايمـان بالآخرة :

ومما يسهل مهمة الدعاة ، ويجعل المدعو قريب الاستجابة ، سريع الانتقال من الكفر الى الايمان أن يكون واثقا بوجود العالم الغيبى ، معتقدا بيوم الآخرة ، وأن تكون تلك الحالة شاملة للجانب العقدى والشعورى ، وفى مثل هـذه الظروف يكون المدعو فى موقف يدنيه من ساحة القبـول •

ويشير القرآن الى هذه التهيئة فيقول [**وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون**] (١٨) ويقول جل شأنه [**وانـذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون**] (١٩) والايمان بالغيب أول وصف كاشف من أوصاف المؤمنين فى قوله سبحانه [**ذلك الكتاب لا ريب فيه هـدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**] (٢٠) ووصـف النبى صلى اللـه عليه وسلم سرعة استجابة المؤمنين عندما تحولوا فى قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة [**أولئك قوم آمنوا بالغيب**] على حين تردد فريق ونافق •

وقد يقال لمـاذا ارتبطت الاستجابة بالايمان بالغيب والآخرة ؟ أو لمـاذا كانت معهما أسرع ؟

---

(١٨) الانعام ٩٢ •

(١٩) نفس السورة ٥١ •

(٢٠) البقـرة ٢ـ٥ •

ويجاب عن ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أن من يؤمن بالغيب يؤمن بالله في المقام الأول ، لأن المفسرين يرون أن الغيب هو الله ، أو القضاء والقدر ، أو القرآن ، أو كل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا تهتدى العقول اليه من أشراط الساعة وعذاب القبر ، والحشر والنشر والصراط والميزان ، وابن عطية فى تفسيره يقرر أن الغيب يقع على هذه الأشياء جميعها ، وفى كل يكون الايمان بالله أول هذه الغيوب ، ولا يتحقق واحد منها قبله .

الوجه الثانى : أن من يؤمن بالآخرة ، ويعتقد ما فيها من جنة ونار ، وثواب وعقاب يتحفز دائما الى طريق يسلكه ليقربه الى الجنة ويبعده من النار ، وفى هذا الوجه يقول الشوكانى [ومن حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب ، ويصدقه ، ويعمل بما فيه لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس الى ما ينال به خيرها، ويندفع به ضرها] (٢١) وبه قال أبو السعود .

الوجه الثالث : والذين يؤمنون بالغيب والآخرة عادة ما تتسم قلوبهم بالرقة وسرعة التسليم ، ويكونون قد اجتازوا العقبة الكئود ، وهى التصديق بالبعث والاعادة ، ومن كان قلبه رقيقا ، وقطع نصف المسافة الايمانية يكون أسرع لقبول فكرة الايمان والتصديق بالرسالة الجديدة ، وعلى العكس من ذلك فالذين لا يؤمنون بالآخرة توصف قلوبهم بالقسوة والجحود والانكار يقول سبحانه [**الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**] (٢٢) ،

---

(٢١) راجع فتح القدير ج١ ٣٣ ، ٣٤ ج٢ ١٣٩ ، ونفسير أبى السعود ج٢ ٣٥٢ .

(٢٢) النحل ٢٢ .

ومثلهـا [وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون] (٢٣)
[واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة] (٢٤).

وبناء على تلك الحقيقة فعلى الدعاة أن يتلمسوا حال المدعويين فان وجدوهم مؤمنين بالآخرة ركزوا على صلاحيـة الرسالة لتحقيق الفلاح في الدارين ، وقدموا اليهم صورة صادقة عن الاسلام بما فيه من شمولية ، وما يحوى من حديث عن الطريق الموصل الى السعادة التى ينشدونها ويؤمنون بها فى الآخرة ، ومن العبث أن نسوق أدلة البعث وأن نعاملهم فى الاقناع معاملة المنكرين .

وأما ان كانوا جاحدين للغيب فعلى الداعية أن يسلك بهم طريق الاستدلال على وجود هذا الغيب ، وأن يربط بين اثبات وجود اللـه واقناع الآخرين به وبين ثبوت العـالم الغيبى ، وضرورة الصراط المستقيم الموصل بينهما ، أو الذى يسلكه العبد ليرضى اللـه ربا ، وليفوز فى الآخرة ثوابا .

والداعية النـابه هو الذى يتعـامل مع المدعو باعتبار حاله ، وما تكنه نفسه من دخائل ، وما تنطوى عليه من أفكار ، واذا لم يكتشف حال المدعو فيسظل فى تيـه من الأمر لا يتبين فيه البداية الصحيحة التى يدخل منها اليه ، وعلى سبيل المثال سيكون مضيعا لوقته لو أنفقه فى بيـان ضرورة الايمان بالآخرة والاستدلال عليها عند من يؤمن بهـا ، ولسوف يعكر الصفو النفسى لأرباب النفوس القوية لو أغرقهم فى استدلالات على وجود اللـه ، وهى فكرة قد أفعموا بها وليسوا فى حاجة الى دليل عليها بقدر ما يودون الانتقال الى ما بعدها .

---

(٢٣) المؤمنون ٧٤ .
(٢٤) الزمر ٤٥ .

٥ — حسن الادراك العقلى :

ان اللـه سبحانه أودع فينا من المواهب ، وغرس فينا من القوى ما نستطيع به أن ندرك الحقائق على ما هى عليه ، وأن نتبين وجـوه الصواب فى المسائل المتنازع عليها ، وهى قادرة على تجلية المواقف الصعبة ، وعلى الوصول الى حلول مناسبة للمشاكل التى تعترضنا ، وهـذه القـوى وتلك المواهب لا تعمل بطريقة غير ارادية ، وليس فى وسعها أن تتوجه الى الأشياء بتلقائية صرفة ، وأيضا فهى ملكات مرنة تقبل التـأثر بالظروف ، وتخضع لعوامل تخرج عن طبيعة تكوينها ، وهى تؤثر فى الجو المحيط بها أيضا ، ولابد أن تكون طبيعة تلك القوى على هذا النحو من التـأثر والتأثير لأنها خلقت لتعمل فى اطار الذات وغير الذات ، أى تفكر فى ذاتها لذاتها ، وفى غيرها لغيرها أو فى هـذا الغير لمطالب ذاتيـة ، ومن ثم فهى تتميز بمميزات ثلاثة عامة :

القـدرة على العمل والتفكير والتوجه ، هـذه القدرة الفكرية ليست قسرية ، وهذه الملكات تمتاز بالمرونة وقبول التأثر والتأثير لأنها خلقت لتتعامل مع أشياء أخر .

وما دام حالها بهذه الصورة فان الانسان هو الذى يوحى اليها بالعمل على أى شكل من أشكال الايحاء وان ارادة الانسان هى التى تدير تلك العملية الادراكية المعقدة ، والكائن البشرى هو الذى يسمح بادخال أشياء الى ذاته ، واخراج فكره منها ، وهو الذى يستطيع أن يحافظ على حجم التعامل بين قواه والعالم المحيط به ، وأن يوازن بين ما ينبغى أن يودعه خزائن أفكاره وما لا ينبغى أن يتأثر به مطلقا ، وهو الذى يحدد بطريقة قاطعة علاقة القبول والرفض ، هذا اذا كان الانسان يدير كيانه الداخلى ويوجهه الى الأشياء المحيطة به فى يقظة ووعى تامين .

وانطلاقا من تلك الحقائق فان الكائن البشرى منح فطرة نقية ،

وعقلا خاليا من المؤثرات فى البداية وقلبا صافيا كالصفحة البيضاء ، ويستطيع لو أراد بحزم أن يحافظ على نقـاء الفطرة وخلو العقـل من المؤثرات الفاسدة ، وصفاء القلب وطهارته ، وأن يهتم بدقة بقبول ما يلائم فطرته وعقله وقلبـه كى تبقى على الحالات النقائية التى خلقت بها ، وحماية الثلاثة من المؤثرات الفاسدة لا يحد من طاقاتها ، ولا يشل من فاعليتها وحركتها بل ينمى هـــذا كلـه ، وعندما يهمل الانسان فى المحافظة على ملكاته ، وفى الاهتمام بها ، وفى حمايتها من المضار يتعكر صفو الطاقات الثلاث الكبرى فى جوانيته •

ومن الناس من يظل حذرا فى المحافظـة والاهتمام والحماية ، ومنهم من يهمل ثم يكتشف اهماله فيحـاول الرجوع والعـودة الى الطهارة ، وطرد المعكرات ، ومنهم من يغفل عن الاهمال حتى تصير الخبائث فى داخله هى صورته الحقيقية وهى طبيعته الذاتية •

والصنف الذى تحت أيدينا الآن هو واحد من الفريقين الأولين : فاما أن يكون من النوع الذى حافظ واهتم بفطرته وعقله وقلبه حتى بقيت على حالة من الاعتدال والنصفة ، ومثل هـذا يستطيع أن يتبين الحق بمجرد سماعه ، أو فى اللحظة التى يعرض فيها على صــفاء فطرته ، واتزان عقله ، وصفحة قلبه ، وليست لديه معوقات تصرفه عن التبين الصحيح ، أو القبول المتحمس ، وقد يكون من النوع الذى يتغافل قليلا حتى يتسرب شىء من الفساد الى داخله ، ويتأثر بالجو المحيط به الى حد ما ، ولكنه فى وقت من الأوقات يقيم مراجعة دقيقة لمواقفه ، ويتخلص مما يراه غير مناسب ، وغير صالح ، والذين يتعودون تلك المراجعة مع ذواتهم ، ولا يغترون بما يكمن فى داخلهم أو ما يدور من حولهم يقدرون فى الغالب أن يتبينوا ضوء الحق عندما يلقى على أسماعهم ، وعندما يكونون معه فى موقف مباشر يدفع الى التفكير فى

الأمر الجديد ، وكثيرا ما ينتهى التفكير بالاستجابة للحق الظـاهر ، وطرد الصوارف والشواغل ، أو المكدرات التى تسربت الى أعماقه .

والنوعان معا يتميزان فى بقاء الفطرة والعقل والقلب على حال قوى من النقاء ، وفى القدرة على اخراج الموروثات المعطلة والفاسدة ، وفى نبـذ المؤثرات الحائلة دون قبول الحقائق الخيرة ، وفى اجتياز المـألوفات الأولى الى الموقف الجديد ، وفى الانتقال من حالة يراها باطلة الى حال يراه حقا ، وفى الاتصاف بارادة جارفة تحقق له ما رآه بثاقب فكره صوابا ، كما يتميزان بحالة شعورية ساخنة تعطى لمعتقداتها الجديدة درجة حرارة عالية ، ويكون الانسان معها مستعدا للتضحية بكل شىء فى سبيل دينه الجـديد أو الفكرة التى ملكت عليه عقله ، واستولت على قلبه ، وانقدت من أجلها مشاعره وأحاسيسه ، ورق لهـا وجدانه وعاطفته ، وذلك كله بعد أن تكون قد مازجت فطـرته واتحدت معها اتحادا عنصريا قويا .

ولو فتشنا فى المؤمنين بدين اللـه الحق وهو الاسلام لوجدنا نماذج واضحة لمـا قلنـاه ، نماذج توصف بسلامة الادراك ، وبالقدرة على عدم الخضـوع الدائم للمزيف من الاعتقاد ، أو البـاطل من التدين ، وبالتخلص الفورى أو البطىء نوعا ما من الحجب والموروثات، وباكتشاف الحـق وتبينه من خلال عرضه ، ومن خلال القـائلين به وشخصياتهم ومسالكهم ، وبالتوجه الصحيح نحو هـذا الاكتشاف والتثبت منـه ، وبالتركيز الواعى على نداء الايمـان ، وبقابلية مستعدة ، ونفس مهيأة لاعتناقه من مصدره الصحيح ، هؤلاء بصفاتهم تلك يصـيرون أتباعا للحـق مهما طال المدى ، لأن الفـكر الصائب [يستحيل أن يباعد عن اللـه ، انه يسوق اليه سوقا لطيفا] (٢٥) .

---

(٢٥) الغـزالى : علل وادوية ١٧١ .

وهم الأحياء على الحقيقة لا الظاهر المموه ، ومن ثم جعلهم اللـــه فى مقابل الموتى الذين ينكرون ولا يؤمنون فقال [**انما يستجيب الذين والموتى يبعثهم اللـــه ثم اليه يرجعون**] (٢٦) ، وهم أمة الحق دائما [**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**] (٢٧) .

والشواهد المثبتة لحسن اســـتخدام الملكات الانسانية كثيرة ، وسنحاول سوق بعضها من باب الاستئناس لا الرد ، ومن باب التطبيق لا الاحصاء ، ها هو على رضى اللـــه عنه يعيش فى بيت النبوة ، ومع رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم ، ويروى أنه كان يسمع سلام الحصى على النبى صلى اللـــه عليه وسلم قبل أن يبعث ، ومع ذلك عندما دعاه الرسول طلب مهلة يفكر فيها ، أو يعرض الأمر على أبيـــه لخطورة المسألة ، وعظم الحدث ، ويبدو أن عليا بات ليلته يفكر ، ولم يستشر أباه كما جاء فى بعض الروايات ، أو شاوره واتفقا على شىء ، المهم أن عليا احتفظ بالسر كما طلبه رسول اللـــه ، ولم يخبر أحدا من القرشيين سوى أبيه على رواية ، ثم ذهب فى الصـــباح غاديا على الرسول صلوات اللـــه عليه وطلب منه أن يعرض عليـــه الاسلام ، وأن يعلمه الدخول فيـــه (٢٨) ، وأظن أن عقلية على كان بمقدورها أن تتبين الحق فى أقـــل من ليـــلة لو لم يكن صغيرا ، لكن حداثة سنه هى التى جعلته يتروى قليلا ، ومع ذلك لم يزد على ليـــلة واحدة عقد العـــزم فيها على أن يعقد صـــلة اعتقاد وثقى بينه وبين الدين الجديد ، وأن يفتح قلبه لشعاعات الايمان تسقيه برعما صـــغيرا وتغذيه من لدن الحق نورا وضيئا .

وسأل أبو أمامة عمرو بن عبسة قائلا : يا عمرو [بأى شىء تدعى

---

(٢٦) الأنعام ٣٦ .
(٢٧) الأعراف ١٨١ .
(٢٨) البـــداية والنهـــاية ج٣ ٢٧ .

أنك ربع الاسلام فقال : انى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة، ولا أرى الأديان شيئا ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخبارا بمكة ، ويحدث أحاديث فركبت راحلتى حتى أقــدم مكة فاذا أنا برســول اللــه مستخفيا ، واذا قومه عليه جرآء ، فتلطفت فدخلت عليه فقلت ما أنت ؟ قال أنا نبى ، فقلت وما نبى ؟ قال : رسول الله ، قلت آلله أرسلك ؟ قال : نعـم ، قلت بأى شىء ؟ فقال بأن يوحد اللــه ولا يشرك به شىء ، وكسر الأوثان ، وصلة الأرحام ، فقلت من يتبعك على هذا الأمر قال : حـر وعبد ، واذا معه بلال وأبو بكر ، فقلت انى متبعك ، قال : انك لا تستطيع ذلك يومك هـذا ، ولكن ارجع الى أهلك فاذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى فرجعت الى أهلى وخرج النبى مهاجرا الى المدينــة وقد أسلمت] (٢٩) ثم هاجر الى المدينة وأخذ عن الرسول فى حديث طويل .

فانظــر كيف يتحول عمــرو بن عبسة من ملحد مادى لا يعترف بالأديان ، ولا يعرف شيئا عن النبوة أو النبى الى مسلم جيد ، ومؤمن صادق ، انه التعقل الصائب ، والسماع الواعى ، والادراك الثاقب .

وأسلم حمــزة فى ساعة غضب للعصبية القبليــة عنــدما أساء أبو جهل للنبى صلى اللــه عليه وسلم ، وقال لأبى جهل : [أتســبه وأنا على دينه] قالها حمية ، وقالها فورة عصبية ، ثم هدأ الموقف ، وانصرف الى بيته ، وأخذ يفكر أهكذا يكون الايمــان ؟ أهكذا يكون الرشد ؟ انه لم يتجاوز حنجرة حمزة ، ولم تنزل اللفظة الى سويداء القلب لتسكن السكن المريح ، وتستقر فى قرارها الأبدى العميق ، القرار الثابت القائم على الاقناع والصدق والاخلاص لذا دعا اللــه

---

(٢٩) رواه مسلم ٨٣٢ واحمد ج٤ ١١٣ وشرح السنة ج٢ ٣٢٢ حديث صحيح والسيرة النبوية للذهبى ٧٩ ــ ٨٠ .

قائلا [اللهم ان كان رشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، والا فاجعل لى مما قلت مخرجا] ، هكذا بات يفكر فى أمره ، وفى حاله الجديد ، انه لا يريد أن يؤمن بتلك الطريقة ، ان عقله يرفض ايمانا من هـذا النوع المتسرع انه لا يريد الدخول فى أمر دون أن تكون الجوانب الثـلاثة السـابقة : الفطرة والعقل والقلب قـد غمرت به وسالت ، وثبتت عليه واستقرت .

لهذا يذهب فى الصباح يلتمس ما ينشده فى السـماع من النبى صلى الله عليه وسلم ، سماع يقوم على الانصات ، والتدبر والفهم ، وطرح المخلفات الماضية ، انه يقـول للنبى [يابن أخى انى قـد وقعت فى أمر ولا أعرف المخرج منه واقامة مثلى على ما لا أدرى ما هو أرشد أم هى شديد ، فحدثنى حديثا فقد اشتهيت يا بن أخى أن تحدثنى فأقبل عليه رسول اللـه فذكره ووعظه وخوفه وبشره فألقى اللـه فى قلبـه الايمان بما قال رسول اللـه فقال : أشهد أنك الصادق شهادة الصدق ، فاظهر يابن أخى دينك فواللـه ما أحب أن لى ما أظلتـه السـماء وانى على دينى الأول] (٣٠) .

سيد الشهداء يفصح تماما عن تردده فى ايمانه تحت وطـأة العصبية ، ويريده لو كان ايمانا صادقا ، انه ليس من الأصناف التى لا يهمها منابع الفعل أو القول ، وأصول التصرف أو السلوك ، ومصادر الاعتقاد أو اليقين ، انه يبحث عن أصول الاقتناع ، وطريقة الرسوخ ، ونهج الايمان الصحيح ، ويقول بصراحة للنبى أن مثلى لا يقدم على ما لايدرى ، انه يحمل عقلا ذكيا ، وقلبا عبقريا فعلام يكسل عن طلب اليقين بمنهجه ؟ وهو يخفف على النبى المسألة ، أو هو فعلا قد اشتاق الى حديث النبى ، وأظمأ اللـه نفسه اليه كى ترتوى من عذوبة منطقه،

---

(٣٠) رواه البيهقى عن الحاكم ، البداية والنهاية ج٣ ٣٧ .

وصفى قوله ، وعندما رشحه النبى بقطرات من هذا السلسبيل رطب الجـاف ، وأيقن المتردد ، وراحت مصابيح الايمـان التى تأرجحت أمسية على الفم لتستقر بشعاعها الوضاء فى سويداء القلب ، ولتضىء ردهاته الفسيحة ، ولحظتها يشهد شهادة الصدق •

وقريب من استعداد حمـزة لقبول الحق يصنع الطفيل بن عمرو الدوسى ، لقد قدم مكة وكان سيدا مطاعا فى قومه ، وعبأته قريش ضد النبى حتى وضع قطنا فى أذنيه لكى لا يسمع الرسول الأعظم صلى اللـه عليه وسلم فلما ترامى الى سمعه شيئا من حديث النبى وأعجب به نزع القطن ، وأبعد الصـارف وقال [وأثكل أمى واللـه انى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسـمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته] (٣١) فلما سمعه أسلم وشهد شهادة الحق •

والآن قد اتضح لنا صحة ما قدمنا به هـذه الفقرة من أصناف البشر ، وأنهم يدركون بوضوح أو تحتجب عنهم الحقائق قليلا ثم يعودون ، لقد طـرح الطفيـل الحجاب وعاد يستخدم عقله بنصاعة وبتجرد ، فلما وضحت أمامه الحقيقة توجه اليها بكل عزم وارادة •

وسلامة الادراك ، وحسن استخدام الملكات العقلية ، ونبـذ الصوارف والمؤثرات هى المهمة التى أولاها القرآن عناية فائقـة فى مرحلته المكية بالذات ، لكى يصحح مسار العقل ، ويضعه على الطريق السليم لبصر الحقيقة بلا ستائر مزيفة ، وبلا حائل كثيف من البـاطل والظلم والبهتان •

---

(٣١) البداية والنهاية ج٣ ١٠٨ — ١١٠ •

التقدير الصحيح للموقف عند اليثربيين :

تلتحم هذه النقطة مع سابقتها التحاما وثيقا ، وتتصل بها اتصالا قويا ، ولذا أردفناها بها ، وانما آثرنا فصلها لمجرد الطول فحسب ، ذلك لأن تقدير الأوس والخزرج لظروفهم ، وللجو المحيط بهم هو ضرب من الادراك الجيد الذى عالجناه فى النقطة السابقة .

والذين يلقون نظرة ولو متعجلة على التاريخ القبلى لهذين الحيين من سكان يثرب يدركون أن هاتين القبيلتين كانتا أكثر القبائل لينا للدعوة ، واستجابة لها بمجرد تبليغهم ، وقد نلتمس لهذا اللين عللا بارزة أمام العيان ، وتتجلى فى أن نزعات الرئاسة الاقليمية العامة لم تكن موجودة بين اليثربيين كما هى عند قريش مثلا ، ولم يكن الأوس والخزرج من المنزلة الرئاسية فى الجزيرة على غرار منزلة القرشيين ، وبالتالى فلم ينافحوا طويلا من أجل رياسات قديمة كما نافح أهل مكة من أجلها .

ويقال هذا بالنسبة لمنبع الرئاسة ومجاله وهو الكعبة ، فلم تكن بداهة موجودة لديهم ، وأيضا فان أصنام اليثربيين لم تكن محل قداسة فائقة كتلك التى تتمتع بها وثنية مكة ، وربما كانت منزلة الأوثان الدنيا سببا فى ضعف الشعور الوثنى لدى الأوس والخزرج على عكس شعور المكيين ، ولا نستبعد مع هذا أن تكون علاقتهم باليهود وهم أهل كتاب قد أضعف من هذا الشعور كذلك ، وقللت من الثقة فى الأصنام ، كما هيأت أذهان اليثربيين لاستقبال دين جديد كان اليهود يفاخرون بظهوره واتباعه ، ثم قتال الأوس والخزرج تحت رايته ، الأمر الذى فتح عين يثرب لترقب ظهور هذا النبى ودينه ، هذا بالاضافة الى أن الخلافات الحربية بين الحيين تحت الدافع القبلى وتحريض اليهود جعلتهم يفكرون جيدا فى خلاص من أمرهم المشين ، ويبحثون عن طريق جديد يلم شملهم ، ويجمع كلمتهم .

كل هـذه الدواعى حفزت الأوس والخزرج على تقـدر الموقف تقديرا سليما ، واستعملوا عقلهم استعمالا حسنا وجعلتهم يرون الحق بوضوح أكثر من رؤية بقيـة القبائل التى أعمـاها الهوى عن رؤيته أصلا ، أو عرفته ولكنها خشيت على سـلطانها الضياع كما هو حال بعض القرشيين ، أو مالت عن الحق محاباة لأهل مكة كما حدث بالنسبة لعموم القبائل المجاورة لقريش أو غير المجاورة ممن لهم علاقة بهم .

نلحظ هذا التقدير ، وهـذا الوضوح ، وهـذا اللين فى معظم المواقف الدعوية التى وجهت الى أفراد أو جماعات تنتمى الى الأوس والخزرج وذلك من أول لحظة التقى فيها أبوالحيسر أنس بن رافع بمكة فى فتية من بنى عبد الأشهل مع النبى صلى الله عليه وسلم وقد قدموا يطلبون حلف قريش ضد قومهم من الخزرج فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى لقـائه بهم (هـل لكم الى خير مما جئتم له ؟ قالوا وما ذاك ؟ قال النبى أنا رسول الله بعثنى الله الى العباد ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال اياس بن معاذ وكان غلاما حدثا يا قوم هذا والله خير مما جئتم له) (٣٢) .

وفى اللقاء الثانى مع النفر الستة من الخزرج الذى ضم كلا من أسعد بن زرارة ، وعوف بن عفراء ، ورافع بن مالك الزرقى ، وقطبة ابن عامر السـلمى ، وعتبـة بن عامر ، و معوذ بن عفراء ، وجابر بن عبد الله كلهم النبى صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الاسلام ، ثم قال بعضهم لبعض [يا قوم تعلموا والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه فأجابوه وأسلموا ، وقالوا انا تركنا قومنا ، ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ،

---

(٣٢) الذهبى ، السيرة النبوية ١٩١ .

فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك به ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك] (٣٣) •

وبعـد أن اتسعت رقعة الاسـلام بها ، وذهب مصعب مقرئا ومعلما واماما ، وتحرش به فى البداية سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وأتاه أسيد مهددا ومتوعدا قال له مصعب [أو تجلس فتسـمع فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره] قال أسيد فى حيدة تامة ، وتجرد كامل [أنصفت] فلما سمع أسلم ، ثم ذهب الى سعد ابن معاذ ، وأتى به فكان من أمره ما كان من أسيد ، وتوجه سعد الى قومه بنى عبـد الأشهل فدعاهم فأسلموا جميعا رجالا ونساء فى ليلة واحدة ، وانتشر الاسلام فى يثرب ، وعم الملأ والضعفاء ، وكان كبار القوم أسبقهم الى الاسلام •

وهكذا تستقيم الأمور ، وتصح الأحوال عندما يحسن الانسان الفهم ، وعندما يستخدم مواهبه استخداما سليما ، وعندما يطرح عن كاهله عبء التقليد الفاسد ، ويجرد عقله من أوهام القبيلة ، وأوثان الكهف كما يحلو لبعض الفلاسفة أن يسميها ، يحدث هذا فى القديم كما يحدث فى المسلمين الذين اهتدوا الى دين الاسلام من أبناء عصرنا بعد دراسة مستفيضة ومتأنية ، وكلهم من خيرة المتدينين أو المفكرين أو المثقفين (٣٤) وأود أن أقول ان أى محاولة لتصحيح مسـار العقل الانسانى فى نظرته الى الدين الحق تتطلب منا نحن المسلمين جهـدا جبارا فى ميادين شتى •

---

(٣٣) البداية والنهـاية ج٣ ١٦٣ •

(٣٤) راجع : المستشار محمـد عزت الطهطاوى : فى الدعوة الى الاسلام بين غير المسلمين ١١٩ — ٢٨٥ •

٦ — **التقليد المفيـد** :

لقـد سبق أن قلنـا أن طبائع البشر مختلفـة ، واستعدادهم متنوع ، واذا كان بعضهم قـد تهيأ لادراك الحق عند سماع القرآن ، أو تأثر بشخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، أو استطاع بعقـله المتجرد أن يصل الى الايمان فان بعض المدعوين لا يحملون من القوة العقلية ، ولا من الجرأة النفسية وقوة العزيمة ولا من الصـفات الأخلاقية العليا ما يحملهم بسرعة على الاستجابة لنـداء الايمان ، ولا تؤثر فيهم تأثيرا نشطا عوامل الاستنفار العقلى بالاسـتدلال ، ولا ينبهرون كثيرا بما يحدث من خوارق ، وليست لديهم آمال عليـا يسابقون من أجلها الآخرين فى مواطن السباق الخيرة .

ومع كل هـذا فانه تبقى لديهم بقيـة من الوعى ، وأطراف من الفضائل ، وشىء من الاستعداد ، واحساس بمميزات الحق ، ويعجبون حينا لمـا يرونه من بسالة أنصار الدعوة ، والدفاع عنها باسـتمالة وصبر فائقين ، وتضحية من أجلها بأعلى ما يملكون من نفس وروح ومال وولد ، ولديهم كذلك شعور بفساد الوضع الاجتماعى الذى عليه أرباب الباطل ، واستياء لمسالكهم فى ذواتهم ، وتجاه الدعوة وأتباعها ، ومن هنـا فانهم يتحينون الفرص للانتقال من التبعية للبـاطل الى ساحة الحق .

ويظلون فى تردد وقـلق وانزعاج معا حتى تواتيهم الظروف ، وتتغلب البقية الخيرة فيهم على نوازع التردد ، وتحسم حالات القلق بدفعة قوية نحو الحق ، ولا تأتيهم الدفعة بملكات ذاتية غالبا بل تأتى عن طريق الاعجاب بشخصيات أخرى تملك من البروز والاسـتعداد والشجاعة ما تؤهلهم للافصاح عما يعتقدون ، فيقوم هؤلاء المترددون بتقليدهم واحدا اثر واحد ، يقول الأسـتاذ أمين أحسن اصلاحى فى وصف هذا النوع :

[عندما يرون أنه قد برزت هناك دعوة ، وقد تجرأ أناس فقبلوها ، وأصبحوا يجتهدون فى طريق التقدم بها ونشرها فى العالم ، ويجابهون الأخطار والأحوال فى طريقها فهذه المشاهد كلها تؤثر فى قلوبهم تأثيرا بالغا فيعودون يختبرون همتهم وقوتهم من أجل أن يقفوا بجانبهم ، وتتوزعهم أهليات متفاوتة ، وعوائق مستنوعة ، فيستغرق هذا الاختبار والصراع بين الهمة والعوائق مدة لا بأس بها لكن صدأ قلوبهم يزول شيئا فشيئا عندما يرون من الداعى همته التى لا تعرف الفتور ، ودأبه الذى لا تتخلله وقفة ، وصبره العجيب على المكاره والمشاق التى تواجهه فى طريق الدعوة ، فينفصلون جميعا واحدا اثر واحد من معسكر الباطل الى معسكر الحق] (٣٥) ٠

وعندما ينتقلون هذه الانتقالة العظيمة يدرك الداعى النابه أنهم أقل من الأصناف السابقة فيوليهم من عنايته الشىء الكثير ، ويعطيهم من وقته وملاحظاته ما يتناسب مع حاجتهم ، وما يتفق وطبائعهم ويدرك أنهم بحكم هذه الطبائع وما جبلت عليه من تأثر يمكن أن تزلزل الأرض من تحت أقدامهم بين الحين والحين ، ويمكن أن يترددوا من جديد ازاء فكرة القبول للدين الذى انتقلوا اليه ، وقد ترد الانتكاسة تحت أى عامل من العوامل ، ولذا وجب على الدعاة الفطنين أن يترصدوا مواقفهم لا حصرا لأخطائهم ولكن متابعة لهم ، كى يعطوهم من أهمية البناء لشخصياتهم الجديدة ، ومن أهمية التربية لنفوسهم ما تستقيم عليها أحوالهم ٠

وكذلك [يحتاجون الى أن يجلى لهم الحق بكامل أجزائه حتى لا يبقى لديهم غموض أو التواء فى أى جانب وأن تزول الشكوك والشبهات والتساؤلات التى تثور فى قلوبهم ، أو التى يبعثها أحد فى

---

(٣٥) منهج الدعوة الى اللـه ١٣٤ ٠

قلوبهم ، كما يحتاجون الى أن تتكرر لديهم أمثلة من العزيمة والهمـة حتى تتحرك عزائمهم ، وتصقل وتدفع الى الأمام وهذه الأمثلة هى التى تقوى قويهم ، وتقضى على وضع التردد فى نفوسهم ، وتضىء لهم السير على الطريق الحق فى ملابسات مناوئة حتى تستيقظ ضمائرهم ، وتصحو عقولهم] (٣٦) .

وأحيانا يطلقون على أمثال هؤلاء الفئة الوسط التى يقع مركزها بين المستجيبين المتحمسين والرافضين الظاهرين ، وهم محـل تركيز واهتمام الفئتين المتصارعتين ، فئة الحق تريد أن تنقذهم وتضمهم اليها وفئة الباطل تكشر لهم عن أنيابها ، وتهددهم وتتوعدهم ، والوسطيون يرقبون هؤلاء بعين وهؤلاء بأخرى وحتى لو انتقلوا الى الفئة المؤمنة وانضموا اليها فانه لا يؤمن عليهم ، ولا يكون الاستمرار ديدنا ما لم يقم الدعاة بما قلنـاه من تربية واعداد جديدين ، على أنه يمكن أن يقال : مهما بذل معهم من توجه وايقاظ فان بعض النفوس تظل على حالة من الضعف يمكن معه أن ترتد أمام مناسبات معينا ، كما حدث من ردة ثلة منهم بعد حادثة الاسراء والمعراج ، وعقب تحويل القبلة ، وأثر محنة غزوة أحـد ، ومع كل هذا لا ننفض أيدينا من أضرابهم ، ونعطيهم من الاهتمام وسعة الصدر ، وحسن التوجيه ودوامه ، ودقة الملاحظة واستمرارها ما يحقق لهم بمشـيئة الله انتصـارهم على وضعهم المتردى .

ومما هو جدير بالذكر أن انتقالهم بالتقليد المثمر نحو السـاحة الايمانية لا يكون فى بداية الدعوة ، لأن أنصارها آنذاك يكونون فى العـادة قلة ، وغالبـا ماتكون مستضعفة ، ومركزهم الاجتمـاعى لا يرشحهم لأن يكونوا مصدر تأثير قوى فى نفوس المترددين ، خاصة

---

(٣٦) نفس المرجع السابق ١٣٤ — ١٣٥ .

وأن هؤلاء المرتابين لا يتأثرون الا بذوى النفوذ والقوة وهـو الأمر الذى لا يحرزه أصحاب الحق وأنصار الدعوات فى البداية •

وأيضا لا يكون التقليد فى فترات الضعف للأمة الاسلامية حيث لا يجد هؤلاء ما يشجعهم على تقليد المسلمين وأعنى بالضعف الضعف العام الشامل للتمسك بأهداب الدين فى جميع المجالات ، وللجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وانما يقع التقليـد من الفئـة المذكورة للمسلمين عندما يكون الحق له صولة فى نفوس أربابه ، وعندما تكون الدعوة لها قوتها ورجالها ، ولها دولتها ونظامها ، ولها مؤسساتها وبرامجها الواضحة ، ولها دعاتها وشخصياتها المؤثرة ، ولها قادتهـا ونماذجها البارزة التى تصلح لأن تكون محل اعجاب الأشخاص الذين ذكرنا سماتم •

٧ ــ الاستجابة بالمماثلة :

وأعنى بهذا العنوان توضيح الركيزة التى استند اليها بعض أهل الكتاب فى ايمانهم بدعوة الاسلام ، وأنها تبرز بشكل جيد فى عمليـة المضاهاة بين أسلوبين متماثلين من أساليب الوحى ، أسـلوب النبى صلى الله عليه وسلم والأسلوب السابق عليه لدى أنبياء بنى أسرائيل وغيرهم •

ولقـد كانت هناك مرشحات عرفانية مقدسة استقرت فى أذهان أهل الكتاب : أحبارهم وعامتهم بأن نبيا سيظهر ، وأن دعوة جديدة وخاتمة ستبدأ رحلتها عبر العالم انطلاقا من مكة ، ثم من المدينة ، وأنه سيحملعبأها نبى عرف باسمه وصفته الخلقية وبعض سماته المميزة ، كما عرف أجداده ونسبه معرفة لا تقل عن معرفة الأب لابنه •

وهـذه المعرفة المحققة والمعلومة لدى جميع أهل الكتاب هيأت أذهان فريق منهم وشوقته للقيا النبى صلوات الله وسـلامه عليه ،

وجعلت من التقى به منهم يصغى باهتمام لكلماته ، وطريقته ، كما يتفرس بدقة العلامات التى يعلمون وجودها فيه ، ويعقدون عملية مضاهاة جادة بين ما يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو ما يقرأون من كتابه وبين ما يعرفون من كتبهم وما يعلمونه من وحى نزل على أنبيائهم •

والحق أن القرآن الكريم أثار تلك المسألة بتركيز شديد ، فأعلن أن النبى ليس بدعا من الأنبياء ، وأنه تلقى عن الله كما تلقى غيره ، ونزل عليه كما نزل على غيره ، وأنه اصطفى لذلك كما اصطفى الله غيره ، وأيد بالمعجزات وبالآيات كما أيد السابقون عليه من الأنبياء فقال سبحانه •

[انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ، لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا] (٣٧) •

فأنت تشترك مع النبيين فى أهلية التلقى عن الله ، وفى الوحى الفعلى الهابط عليك ، كما تشترك معهم فى الغاية والعلة من ارسال الرسل ، وهى التبشير والانذار قطعا للمعذرة ، وقضاء على التعلل بعدم الارسال ، وانما سقنا اليك بعض الرسل دون جميعهم من باب ذكر بعض أوجه المماثلة ، والتأكيد على أن الله سبحانه والى بين الأنبياء

---

(٣٧) النساء ١٦٣ — ١٦٦ •

رحمة بالخلق ، وهداية لهم ، واذا أنكروا الوحى الهابط عليك فالملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا .

وكثيرا ما عقدت المماثلة فى جوانب متعددة من العقيدة والأخلاق والتشريع مع بيان صحة العناصر المشتركة التى بقيت على وضعها كما أنزلها الله وفساد بعض التصورات التى أحدثتها الأقوام بعد أنبيائهم ، وكان القرآن فى هذا الجانب منبها الى الاشتراك العام فى صفة الوحى ، وملفتا النظر الى المسائل التى حرفت وخرجت عن حدود المراد الالهى لها ، وبذا كان القرآن [**مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه**] (٣٨) ، وهو دعوة لأهل الكتاب لأن يصححوا نواياهم ومسالكهم وأفكارهم وأن يستجيبوا لخطة الاصلاح الجديدة المعلنة فى الكتاب والدين الجديد ، وأن يصدقوا بنبى هذه الرسالة الخالدة التى أخذ عليهم الميثاق أن يصدقوا به .

وكما خاطب الله البشر جميعا وأهل الكتاب خصوصا بالمشابهة فى الوحى كما رأينا من الآيات السابقة فانه سبحانه أمر نبيه أن يدعوهم الى عنصر من عناصر المشابهة التامة والمساواة الكاملة التى لا يختلف حولها متدين منصف فأنزل عليه [**قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون**] (٣٩) .

وفى معرض التركيز على هذا الجانب ، وللرد على المنكرين من قريش للنبوة ، وللرافضين الجاحدين للحق من أهل الكتاب يقول الله

---

(٣٨) المائدة من الآية ٤٨ .
(٣٩) آل عمران ٦٤ .

سبحانه لنبيه قل لهؤلاء جميعا [**ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين ، قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهــدى القوم الظالمين**] (٤٠) ولنستمع لحظة واحدة للعلامة أبى السعود وهو يشرح لنا معنى الآية فيقول [أخبرونى ان كان ذلك فى الحقيقة من عنــد الله وكفرتم به ، وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى اسرائيل الواقفين على شئون اللــه تعالى وأسرار الوحى بما أوتوا من التوراة على مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة المطابقة لمــا فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فانهــا عين ما فيه فى الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعــالى « **وانه لفى زبر الأولين** » « **ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى** »] فالمثلية تعنى مطابقة ما سبق لمــا لحق ، ومطابقة اللاحق للسابق ، أو مطابقة التوراة وغيرها للقرآن ولمــا جاء فيه أو العكس .

والشاهد المذكور هو عبد الله بن سلام على اعتبار أن الآية مكية بمفردها دون بقية السورة وبه قال الكلبى (٤١) أو أن الشاهد موسى عليه الصلاة السلام بما فى التوراة من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وبه قال الشعبى ، وأقسم عليــه مسروق (٤٢) ، ولا بأس أن يكون الشاهد عاما شاملا لموسى ، ولكل اشارة فى التوراة الى بعثــة النبى صلى اللــه عليه وســلم ، ولكل من آمن من بنى اسرائيل ممن يدين بالتوراة فى أى عصر من العصــور فخصوص السبب لا يقيــد عموم الحكم أو الاستدلال .

ولنذكر بعض الشهود على صدق المثلية وأحقيتها ، والاعتراف

---

(٤٠) الأحقاف ٩ — ١٠ .
(٤١) كتاب التسهيل ج٤ ٤٢ .
(٤٢) تفسير ابى السعود ج٥ ١٢٤ — ١٢٥ .

بذلك مع التصديق الايمانى الحار ، وأبرز هذه الشواهد هو عبد الله ابن سلام الذى آمن بالنبى منذ قدومه المدينة فى قصة مشهورة ملخصها أنه سأل النبى عن علامات لا يعلمهن الا نبى وهى أول اشراط الساعة، وأول طعام أهل الجنة والولد ينزع الى أبيه أو الى أمه فلما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم ودعا قومه أمام الرسول وحاولا معهم الهداية (٤٣) ، وكان النبى لا يقول لأحد يمشى على الأرض [انه من أهل الجنة] الا لعبد الله بن سلام كما حدث سعد بن أبى وقاص •

ومن الشهود خادم يهودى للنبى صلى الله عليه وسلم ، مرض فأتاه النبى يعوده فقعد عند رأسه فقال له أسلم فنظر الى أبيه وهو عنده فقال : أطع أبا القاسم فأسلم فخرج النبى وهويقول (الحمد لله الذى أنقذه من النار) (٤٤) ، ولما مر النبى على يهودى يقرأ التوراة قال له [أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجدنى فى كتابك ذا صفتى ومخرجى ؟] فقال الرجل برأسه هكذا أى لا فقال ابنه الذى يحتضر آنذاك : اى والذى أنزل التوراة انا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك وانى أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله ، فقال الرسول [أقيموا اليهودى عن أخيكم] ثم تولى كفنه والصلاة عليه •

وأسلم وفد نجران من النصارى وكانوا عشرين رجلا بعد ما سمعوا من رسول الله وبعد ما سألوه فتبين لهم صدقه ، واتضحت المماثلة قوية بارزة (٤٥) ، وقد تتضح صيغة المماثلة واستخدامها

---

(٤٣) اخرجه البخارى ج٧ ٩٧ فى فضائل الصحابة ومسلم (٢٤٥٣) ، شرح السنة ج١٤ ١٨٩ وانظر السيرة للذهبى ٢٥٩ ، والبداية والنهاية ج٣ ٢٣١ •

(٤٤) ابو داود (٣٠٩٥) والبخارى ج٣ ١٧٦ •

(٤٥) البداية والنهاية ج٣ ٩٠ •

اتضاحا قويا فى حديث هرقل مع بعض تجار قريش الذين استدعاهم الى مجلسه بعد الحديبية ثم سأل أبا سفيان عن نسب النبى فقال هو فينا ذو نسب وسأله هل قال هذا القول أحد قبله ؟ قال أبو سفيان : قلت لا ، وسأله هل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت بل ضعفاؤهم ، قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيـه ؟ قلت لا ، قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا ، قال فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هـو فاعل فيها قال ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت الحرب بيننـا وبينه سـجال ينال منا وننـال منه ، قال فما يأمركم ؟ قال يقول اعبدوا اللـه وحده ، ولا تشركوا به شـيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسـل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله ، وسألتك هـل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هـل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضـعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فه فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل يغـدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم فقلت ما قلت فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقـد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فـلو أنى

أعلم أنى أخلص اليـه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه] (٤٦) .

وهكذا . مائك هرقل مماثلة تفصـيلية مستوعبة انتهى منها الى تقرير حقيقة هامة وهى أنه سيملك موضع قدمه ، ولقد ملك ، واستعد هرقل لغسل قدمه ، واذا كان لم يعلن اسلامه فى مجلسه فان رجلا آخر وازن نفس الموازنة بحضور نفس المجيب وهو أبو سفيان وجعفر ابن أبى طالب ، وكان السائل هو النجاشى ، وعندما ظهـرت المماثلة ظهورا بينا أعلن اسلامه ، وقصته مشهورة .

وينبغى أن نهتم باثارة عنصر المماثلة بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وأن نذكرهم بجدية وعقلية واعية وأن نخاطبهم باستمرار، هذا مع أننا ندرك أن اثارة هذا الدافع لن يحقق المطلوب من جذب فريق منهم بالدرجة التى حققها لدى بعض المتجردين القدامى فى عصر النبوة والعصور التى تلته لاسباب تتعلق بالحالة الراهنة التى عليهـا المسلمون من ضعف ومذلة ، وخضوع للكتابيين فى أفكارهم وثقافتهم ، وللنظر الاستعلائى الذى يعيش عليه الغربيون اذا قاسوا أنفسـهم بغيرهم ، وللتشبع الفكرى والثقافى ضد الاسلام والمسلمين واحداث حالة من الوقاية عن قبول الفكرة الاسلامية بما أحدثه رجال الدين ومن دار فى فلكهم من رأى سائد ضـد الاسلام ، وما قاموا به من عمليات تشويه واسعة النطاق شملت نبى الاسلام وبعض صوره التشريعية والأخلاقيـة ، وما عليه أهـل الكتاب من تعصب خاص واستكبار شديد ، أضف الى ذلك كله اهمال كثير من الغربيين للفكرة الدينية فى حـد ذاتها أو معاداتها ، والحاح الكل على تنحية الدين من مجالات الحياة واحلال النظر الانسانى محل القواعد والأحكام الدينيـة .

(٤٦) فتح البارى جا ٣١ — ٣٢ .

كل هـذه الدواعى تجعل اثارة عنصر المماثلة ضـعيف الأثر ، وتتطلب كما قلنا سـلفا عرضا للاسلام فى صورة جديدة ، واستيعابا لروح العصر وطريقته فى التفـكير والمنهجية ، ولا أقصـد بالصورة الجديدة عمليات التحوير أو الحذف والاضافة ، أو الاسقاط الفكرى على النصوص ، ولكن أعنى بالصورة أن تكون مشرقة الأسـلوب ، دقيقة المنهج واعية لظروف المدعوين وثقافتهم وأحوالهم وطرائقهم الفكرية ، وأن نغوص فى نفوس هؤلاء وهؤلاء لنعرف مناطق الجدب لديهم وأن نحاول التركيز عليها بما يقدمه الاسلام من حلول مرطبة ، ومن معالجات دقيقة وحاسمة ، انهم يعانون من جفاف روحى ، ومن فقدان للثقة العارمة فى العلم الانسانى ، وهم فى دأب من البحث عن الجديد بين الحين والحين ، ولا يتورعون فى قبول الرأى الصائب مهما كان مصدره ، لذا كان لزاما علينا أن ندرس حاضرهم دراسـة وافية ، وأن نتعرف على مناهجهم ، وأن نهتم بالمسـائل الملحة على أدمغتهم ، وأن نسـير اليهم فى قنوات الخلاء والخواء المفتوحة فى نفوسهم وحياتهم ، وأن نعرض عليهم الاسلام وحلوله بشكل مقنع لا بأسلوب خطابى أو انفعالى ، ولا بأسلوب الضغط على العقل وافهامه أن هـذا هو الحق فما شاء أن يؤمن فليؤمن ومن لم يشأ فليس له الا النـار والكفر والضلال والجحيم الى آخره .

ان تلك الأساليب الانشـائية والقائمة على القصور من الداعى وزجر المدعو لا تعرف سبيلها لدى انسان هذا العصر الغارق فى الثقافة والتفكير الى شحمة أذنيه ، والمشدود الى الأرض والمـادية والعلمية بروابط حديدية شديدة ، واذا كان النبى صلى اللـه عليه وسـلم قد قدم للانسانية فى أطوار أدنى من أطوارنا بمراحل أدلة من أرقى أنواع الأدلة واسـتيعابها أفلا نقـدم تلك الأدلة مع فهمها والوقوف على مراميها لانسان هذا العصر ؟ وأن نتابع السير على طريق الدعوة داخل أراضى هؤلاء البشر بالتحليل والنقـد ، والموضوعية والوصـف ،

والملاءمة الورعة بين الدعوة والمجتمع ، وتلك هى مناهجهم ملخصة فى عناوين فحسب •

٨ ـ التأثير الاعجازى :

انما أخرنا هذا المؤثر الايمانى لأن ترتيبه فى منطق الدعوة يأتى بعـد أن يكون الأنبياء قـد فرغوا من محاولات شبتية للاعلان عن دعوتهم وللاقناع العقلى والتذكير والموعظة والانذار ، ولمـا لم تؤت هـذه الطرق نتائجها الواسـعة ، أو تعسف المدعوون فى انكارهم ، أو طلبوا آية اعجازية فان الداعية من الرسل يضطر لتقديمها •

ومن يتتبع دعوة الرسـل لا يكاد يجـد أنهم قدموا معجزاتهم بمجرد دعواهم النبوة ، بل تبرز الدعوى ، ويظهر معها نداء المدعوين الى عبادة اله واحد ، وتتوالى عمليات اقناعية ملائمة لطبائع الأقوام، وينجذب الى الدعوة أرباب النفوس الصافية ، والعقول السليمة ، والقوب النقية ، ومن يحملون فطرا لم تلوثها حجب النفس العكرة أوالفاسدة ولا أمراضها الصارفة ، وتبقى هناك فئة كثيرة تنكر بشدة وتتحـدى بقوتهـا وعددها وسلطانها وسوء فهمها لطبيعة الوحى وامكانه ، ولا يدخل معها النبى فى صراع حربى قبل أن يستنفد آخـر محاولة سلمية واقناعية عن طريق التحدى بالمعجزة أو اثبات النبوة من خلال تأييد اللـه له بها ، أو استجابة لمطلب القوم فى الرغبة عن رؤية معجزة خارقة ، وقد تكون المعجزة ترويحا نفسيا لمن آمن ، وتثبيتا لقلوبهم ، وتطمينا لنفـوس جماعة منهم ، وربما كانت المعجـزة لمهمة عرفانية ، أو للتحقق من وجود أمر غيبى عن طريق العيان بعد البيان كما حدث فى الاسراء والمعراج •

معجزات أحدثت دويا لدى بعضهم :

تأكيدا على ما قلناه من أن المعجزات تقع فى أخريات المحاولات نشاهد أن بعضها يكون نهاية المطاف بالنسبة لحياة الأقوام أنفسهم ،

وأن الاهلاك والتعذيب الدنيوى يكون مصاحبا لوقوع المعجزة من النبى وانكارها من الأقوام كما حدث لثمود مع صالح ، وكما حدث لفرعون مع موسى .

وعن الأول يحدثنا الله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف فيقول [**والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا ان جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين**] (٤٧).

فى هذا النموذج يذكر الله سبحانه ثمود بما من عليهم به من نعم ، وبما استخلفهم فيه من ديار ، وما صار عليه زعماؤهم من ثراء حتى اتخذوا فى السهول التى ملكوها قصورا ، وما مكن به عامتهم من قوة حتى نحتوا من الجبال بيوتا ، وانما ذكرهم بذلك ليهيىء نفوسهم الى قبول الحق مع بيان المعجزة واظهارها ، ولقد استجاب الله لرغبتهم فى انزال الآية ، وجاءت استجابته مناسبة لأسلوبهم فى الطلب ، فلما تشددوا فى طلب المعجزة وتحديد نوعها وصفاتها ، وأنها ناقة عشراء تمخض تخرج من مكان معين أخرجها الحق لهم بنفس الأوصاف المطلوبة حتى لا يظنوا عدم الاستطاعة على توفية الشروط

---

(٤٧) الأعراف ٧٣ — ٧٨ .

الاعجازية المعلنة ، وفى نفس الوقت حذرهم من مسها ، ونبههم أن أى مساس بحياتها سيكون سببا فى عقابهم الشديد ، وقد أضافها الحق الى ذاته تشريفا وتكرما وبيانا لمنزلتها •

وكان من الممكن أن يجعلها الله آية لا تقبل عبث الأيدى البشرية ، فتكون ناقة اعجازية المنشأ واعجازية الحياة والنهاية ، ولكن الله رفع عنها الحماية الربانية فى حياتها وجعلها قابلة لأن تمتد اليها الأيدى امتحانا وابتلاء ، فاذا ما فعلوا ذلك أنزل عليهم من العذاب ما لا يطيقون •

ويتنوع القوم الى نوعين : نوع مؤمن قد استجاب لنداء الدعوة ، أو انبهر بالقوة الاعجازية فى الآية الظاهرة حيث يذكر لنا أبو السعود أن جندع بن عمرو عندما طلب من صالح الآية وحددها وحدد الصخرة التى تخرج منها قال له صالح [لئن فعلت ذلك لتؤمنن وتصدقن قالوا نعم] (٤٨) وفعلا لما دعا صالح ربه وجاءت الآية كما أرادوا آمن جندع ورهط معه فى أحد أقوال المفسرين ، وصار هؤلاء يمثلون أهل الاستجابة الصحيحة الذين انبهروا بالمعجزة فصدقوا بالرسالة ، ولقد تخلل الايمان قلوبهم ، وتأدبوا بأدبه ، وعندما قال لهم الفريق الكافر [أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه] ردوا بذكاء وفطنة وأدب جم [انا بما أرسل به مؤمنون] ولم ينطقوا بمضمون الجواب من السؤال وهو نعم نعلم أن صالحا مرسل من ربه بل ردوا بالاعلان عن الايمان ، ولو أن الجواب جاء يفيد ثبوت هذا العلم لكان كافيا فى نظر السائلين ، ولكن المؤمنين كانوا يدركون الفرق بين من يثبت العلم بصحة الشىء فحسب ومن يقرر الايمان به من حيث أن الايمان علم وزيادة ،

---

(٤٨) تفسير ابى السعود ج٢ ص٢٤١ — ٢٤٥ .

واثبات العلم وحده لا يثبت الايمان كحال أهل الكتاب فكانوا يعلمون صدق النبى محمد صلى اللـــه عليه وسلم ولم يؤمنوا .

وعندما بغى الفريق الكافر وعقر الناقة أنظرهم الحق ثلاثة أيام كأنها مدة الاستتابة الشرعية لعلهم يؤمنون ويرجعون ، أو هى زيادة فى ألم العذاب والضغط النفسى الشديد الحاصل بسبب الوعيد بالعذاب وقد كان .

وأما بالنسبة لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام فان المعروف عن طبيعة دعوته أنها استدلاليـــة الى حد ما ، اعجازية تهتم بالمعجزة فى الاقناع الى حد كبير ، وأن موسى بدأ يناقش فرعون أولا بالحجة ، ويثبت له أن اللـــه رب العالمين ، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب الخلق حاضرهم وتليدهم ، ورب المشرق والمغرب وما بينهما ، وفى كل دليل يذكر معه ما يناسبه من الحالات الادراكية كالايقان والاستماع الجيد والتعقل المفيد ، ولكن فرعون لم يطق هذا النوع من الاستدلال فعـــدل عن المجاراة الى التعجب أولا ، ثم الى الاتهام بالجنون ثانيا ، ثم بالتهديد والتوعد ثالثا .

واذ تأكد لموسى عدم صبر فرعون على النمط الاستدلالى ، وبان له خروجه عن منطقة الجدال الى حلبـــة التهديد من منطق القـــوة ، وأنه لا طاقة له بفرعون وجنوده لذا لجـــأ الى الاعجاز كعنصر مسكت لفرعون ومبهر له فى الوقت نفسه أملا فى ايمانه أو اسكاته ، ولذا قال له موسى بعد أن هدده بالسجن [قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله ان ان هذا لساحر مبين يريد أن يخرجكم من أرضه فماذا تأمرون] واســـتقر الرأى على أن يجمعوا جهابذة السحرة من جميع الأصقاع ، ولمـــا حضروا وبرز المشهد المرعب [قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم

وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن لغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين] ورغا فرعون وأزبد ، وهاج وماج وهدد السحرة بالتنكيل فما زادوا على قولهم [لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين] (٤٩) •

وأثمرت المعجزة ايمان هذا الحشد الضخم من السحرة بينما ظل فرعون على كفره حتى كان من هلاكه هو الآخر ما كان جزاء حسابا ، تماما كما أثمرت قوة سليمان ، وعظمة ملكه والكائنات التى سخرت له ايمان بلقيس ملكة سبأ فى قصتها المشهورة •

وقامت الدعوة الاسلامية على الاقناع بالدليل والحجة ؛ واعتبر القرآن بحق هو المعجزة العلمية للدعوة المحمدية وكان الاعتماد عليه فى المجادلة ، وفى كل موقف دعوى ، وان كان الأمر لم يخل أحيانا من وقوع المعجزات الحسية التى أثرت فى المخاطبين ، مثلما أثرت دعوة شجرة ومثولها أمام النبى صلى اللـه عليه وسلم ؛ وشهادتها بنبوته بعدما طلب منها ذلك فى ايمان أعرابى حتى قال للنبى صلى اللـه عليه وسلم سأعود الى قومى فان يتبعونى آتك بهم والا رجعت اليك فكنت معك(٥٠) ، وأخرج الطيالسى فى مسنده عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرعن عبد اللـه بن مسعود قال [كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبى معيط فأتى على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وقالا يا غلام هل عندك لبن تسقينا ؟ قلت انى مؤتمن ولست بساقيكما ، فقال هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ النبى الضرع فدعا فحفل الضرع ،

---

(٤٩) الشعراء ٢٢ — ٥٠ وانظر الأعراف ١٠٣ — ١٣٤ ، ويونس ٧٦ — ٨٢ ، وطه ٤٩ — ٧١ •

(٥٠) أخرجه الدارمى فى مسنده انظر السيرة النبوية للذهبى ٢٤٠ •

وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة فحلب فيها ثم شربا وسقيانى ، ثم قال للضرع اقلص فقلص ، فلما كان بعد أتيت رسول اللــه فقلت علمنى من هــذا القول الطيب يعنى القرآن فقال انك غلام معلم فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد] (٥١) .

وجلس يوما عمير بن وهب مع ابن عمه صفوان بن أمية يذكرون ما كان من قتلى بدر ، فقال عمير لولا صبية أخاف عليهم ، ودين أبغى سداده لذهبت الى محمد فى المدينــة وقتلته ، فتعهد صفوان برعاية الصبية وسداد الدين ، ولم ينسحب عمير مما زعم ، فسار حتى بلغ المدينة ثم قادوه الى النبى فسأله رسول اللــه عما أتى به فراوغ فى الاجابة وادعى أنه جاء يكلمه فى شأن أسير فقال له رسول اللــه كلا بل جلست أنت وصفوان فى الكعبة وقلتما كذا وكذا ، فقال عمير واللــه ما كان معنا أحد أشهد أنك رسول اللــه وآمن (٥٢) .

وحدثنا عمران بن حصين أنهم كانوا فى مسير مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ونفد ماؤهم فوجدوا امرأة سادلة رجليها بين مزادتين فأخذوا المرأة الى رسول اللــه ، فأمرهم أن يشربوا وكانوا أربعين رجلا ، وملأوا القرب والاداوات من المزادتين ولم ينقص منهما شىء ، ثم جمعوا لهــا من الزاد لكونها كانت ذات أيتــام وقال لهــا النبى صلى اللــه عليه وسلم [اذهبى فاطعمى عيالك ، واعلمى أنا لم نرزأ من مائك شيئا] فلما أتت قومها قالت [لقد جئتكم من عند أسحر الناس أو هو نبى كما زعموا فهدى اللــه ذلك القوم بتلك المــرأة فأسلموا وأسلمت] (٥٣) .

---

(٥٨) البداية والنهاية ج٣ ٣٦ .
(٥٢) نفسه ج٣ ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٥٣) البخارى ج٦ ٤٢٥ فى كتــاب الأنبياء ، باب علامات النبوة ، ومسلم (٦٨٢) فى المساجد باب قضاء الصلاة الفائتة .

وفى غزوة نجـد انفـرد النبى عن صحابته قليلا ثم اضطجع فرآه بعض أفراد العدو ، فذهب اليه ، ووقف على رأسه بالسيف ثم قال من يمنعك منى فقال النبى [اللـه] فوقع السيف من يد غورث ابن الحارث أو دعثور بن الحارث فأخذه النبى ثم قال [من يمنعك منى] ؟ فقال الرجل لا أحد وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأن لا أكثر عليك جمعا أبدا فأعطاه رسول اللـه سيفه ، ثم رجـع الرجل يحدث قومه بما جرى ويدعوهم الى الاسلام بحماس وقوة .

والأمثلة الدالة على قوة التأثير الاعجازى كثيرة ، والذين آمنوا تحت انبهارها جماعة أكثر من أن يحصوا ، ومع اعترافنا بأن للمعجزات تأثيرا فى نفوس بعض البشر الا أنه تبقى هنـاك نفوس طبعت على الضلال طبعا ، فلا تتأثر بأى نهج ولا بأى أسلوب ، ولا بأى خارق للعـادة ويعلنون عما بداخلهم ، ويتشبثون بموقفهم وعبر القـرآن عن اصرارهم فقال [**وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**] (٥٤) .

السمات العـامة للاعجاز وتأثيره :

المعجزة أمر خارق للعادة ، والعادة التى تخرقها الآية هى السنة الجارية المـألوفة عند البشر من العامة والخاصة ، واللـه سبحانه عندما يمـد نبيا بمعجزة معينة خاصـة ما يتصل منها بالكون انمـا يؤيد هذا النبى ويثبت صدقه عن هذا الطريق الاعجازى المشاهد أمام القوم المنكرين ، وفى الوقت نفسه يقطع جريان السنن المعهودة بتلك الحادثة الاعجازية ، وقطع السنن يعنى أمرا زائدا على اثبات الرسالة ، انه يعنى أن تلك السنن الجارية ليست ملزمة لقدرة اللـه ، وليست من

---

(٥٤) الاعراف ١٣٢ .

ذات المــادة ، لأنها لو كانت خارجة عن حدود القدرة الالهية ما استطاع الحق جل جلاله ايقافها بالأمر الاعجازى الكونى ، أما وأنه قد فعــل ذلك فهو قادر على التصرف فيها بقطع مألوفها وتبديله ، ومن فعل ذلك فهو القادر على جريانها ابتداء وهو الذى أودعها فى الأشياء منذ خلقها ، وهو الذى يبقيها سارية أو يوقفها لحظة ، أو يغيرها فى ساعة تأييدا لنبى وثباتا لنسبة الأفعال والسنن والأشياء الى ذاته سبحانه •

وعلى العقل أن يفكر لحظة واحدة من يستطيع أن يخرج ناقة من صــخرة ؟ وهل السنن المــألوفة توجد النــــاقة من الأباعر أو من الصخور ؟ وهل جرت العادة أن توجد ناقــة لأول مرة كبيرة يضربها المخــاض بدون فحل ؟ انها مجمــوعة من الخوارق فى آية واحدة ، وعليه أن يفكر فى معجزة اليد لموسى ، انها يد حقيقية لا تحمل أى قوة مشعة ، والجيب الذى توضع فيه خال تماما من أى قوة شحن كهربائية ، واليــد ليست مصقولة حتى تعكس الأضــواء المقــابلة لصفحتها ، واستخدامها قد يكون ليــلا ، ومع ذلك كلــه [تخرج بيضاء من غير ســوء] ، وعلى عقول البشرية اليــوم أن تفكر فى الخوارق تفكيرا علميا ، ولا أقصد بالتفكير العلمى دراســة الظاهرة من حيث أسبابها وحجمها وكيفياتها فهذا ما لا قبل لنا به ، وانما أعنى دراستها من حيث الرواية وحــدها وهــل وقعت أولا ؟ فان صــح وقوعها واستوثقت الانسانية من ذلك اتخذت منها نبراسا يضىء لهــا الطريق نحو الفاعل الحقيقى لهــذا الأمر الاعجازى ، وخرجت من الحوادث الجزئيــة الاعجازية بنتائج استقرائية عامة تفيد أن هذا الكون لا يعمل وحده ، وأن السنن قد تخرق وتتوقف أو تتغير ، وهــذا دليل على أنها ليست من ذات المــادة ، وليست مطردة بصفة أبدية قاهرة ، ولكن استمرارها بفعــل قاهر يخــرج عنها ، فهى مقهــورة لا قاهرة ، وهى ملزومة لا لازمة ، وقد ساق اللــه أدلة متنوعة على خــرق السنن لنفس الغــرض •

وعلى البشرية أن تفــكر بطريقــة صــحيحة فى تلك الشــواهد

الخارقة ، وأن تعى جيدا حادثة مثل : شــق القمر ، ماذا يحدث اليوم لو وضعنا شحنة على سطح القمر وقد وصلنا اليه ، ثم فجــرنا تلك الشحنة لتفصل هذا الكوكب الى نصفين ؟ ماذا يحدث من خلل فى هذا العــالم ؟ لقد تمت العملية زمن رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم وحفظ اللــه العــالم كما هو ، وبدون أى متفجرات وشاهدت قريش القمــر نصفين بين الجبل ، يعنى انحــدر الى مستوى النظر ، والى مستوى قمــة الجبل ليكون مرئيا بدقة لدى القوم ثم عاد والتــأم بالاقتدار الالهى المبهــر والمعجز ، وأيضا لقد جاءت الشجرة تخــد الأرض خدا ، وتمثل أمام النبى صلوات اللــه عليه وتنطق بلســان فصيح أنه نبى ورسول ثم تؤمر فتعود الى مكانها ، وتكلمت البقرة ، ونطق الذئب وعلم ماذا سيكون من أحوال الآخــرة ، ونطقت الشاة المطبوخة وأخبرت أنهــا مسمومة ، وأن الجذع وحن حنينا شجيا ، وسبح الحصى ، ونبع المــاء من الأصابع ، أى هذه العظمة ما سرها ، ما مغزاها ؟ ماذا تعنى سوى هداية البشرية ، واخراجها من ظلمــة التصور المــادى الى التعقل الشامل والراقى ، والى التأمل الصاعد فوق هذا الكون ليصل هناك الى رحاب القدوس الأعظم ، والى ساحة القــاهر الأجل •

ان المعجزة لا تبهر العقل أو تصيبه بالكلال والاعياء كما يفعــل ضوء الشمس فى حدقة العين ، ولكنها تضع العقل فى ميزانه الســوى ليفكر تفكيرا مثمرا من يستطيع أن يفعل ذلك الأمر الخارق للعادة ؟ وعندما يطرح هــذا السؤال على نفسه سوف يجيب فى النهاية باجابات توصله الى الايمان ، وسوف يصل من وراء الحوادث الاعجازية بتلك الطريقة التأملية الى يقين ينطلق من نقطة الاعجاز لكنه يمــر على التفكير ، ويستقر فى منطقة الشعور والادراك ، ويعتمل فى العقل ثم تخرج نتائجه فى أغلب الأحيان عقلانية مقنعة ، هذا لمن وفقه اللــه وأراد له الهداية ، ومقصودى من وراء هــذه العبارات هو أن الأمر الاعجازى فى الغالب لا يتم التأثير به بعيدا عن التعقل الصائب •

ان الحادثة الاعجازية ضربة سريعـــة ومباغتة تجعل الآخــرين يعيدون حساباتهم بدقة فى ضوء الأمر الطارىء ، ولكن هــذه الحسابات قد تختل ساعة وقوع الحادثة ذاتها وبعدها ، ذلك لأن انتشار فكرة السحر بين البشر كانت تشكل مخرجا لمن أراد أن ينكر حيث يســهل عليه بأدنى طريقة أن يتهم النبى بالسحر ويفلت من الاقرار بأن هذا الفعل اعجازى ، وبالتالى يفلت مما يترتب عليه من الايمــان باللــه وبالنبى الذى ظهرت على يديه الآية وقت ظهــورها ، وأحيانا يكون الخلل فى التفكير والحساب ناشــئا من ســوء استخدام الادراك ، أو البلادة الفكرية أو الشعورية التى تصيب بعض الطبائع فلا يحسون احساسا دقيقا بالحوادث الجسام وهى تمر أمامهم .

ونظرا لأن الحوادث الاعجازية يكون تأثيرها شــديدا على من يشاهدونها فحسب فقد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون طابع الرسالات السابقة يغلب عليه الاعجاز ، واذا هدأ تأثير الاعجاز لدى جمــاعة أدركهم نبى آخــر يغلب عليه نفس الأسلوب ، وهكذا ظلت البشرية ردحا طويلا تتقلب بين أنبياء لهم من الامدادات الاعجازية ما لهم ، ولكن التــأثير يكاد ينعدم لو طال الزمن بين النبى والنبى ، أو انقطع، ولذا اقتضت الحكمة الربانية من جديد أن يكون طابع الرسالة الخاتمــة استدلاليا ، وأن تكون أدلة الاقناع موجودة فى الكتاب المحفوظ وهو القــرآن ، بحيث يكون فى متناول يــد البشرية تقــرأه سهلا ميسرا وتقتنع بمــا فيــه من أدلة ، ويقــوم ايمانهــا على اليقين بالحجة لا الانبهــار المؤقت بالاعجاز المحسوس .

الفصل الثالث

دوافـــع الانكار

تمهيـــــد :

سنتناول فى هـذا الفصـل بمشيئة اللـه تعالى الدوافع التى حدت بفريق كبير من البشرية الى انكار الرسالة عامة ، أو انكار رسالة الاسلام خاصة ، والشبه التى حالت بينهم وبين الايمان باللـه وحده ، أو برسوله الخاتم صلى اللـه عليه وسلم ، وسنرى أن تلك الدوافع تنوعت الى دوافع ذاتية ودوافع خارجية ، أى دوافع نبعت من النفس الانسانية فى بعض صفاتها السيئة وجوانبها الشريرة ، أو من المجتمع المحيط بهم ، ومن العادات والمـألوفات الموروثة أو السائدة ، والتى أثرت على نفوسهم برفض الدين الجديد ، وبتلفيق التهم واختراع العلل لتبرير الانكار والكفر ، وأنهم كانوا ينتقلون من حيلة الى حيلة ، ومن تعلل الى آخر ، وكلما سدت حيلة ، ورد على شبهة لفقوا عوضا عنها ، وفى النهاية يعلنون بوضوح تام عدم انصياعهم مهما قدم لهم من براهين أو سيق لهم من آيات •

والذى يتعرض لتلك النقطة يجد أمامه صنوفا من البشر عدة ، لكل له معاذيره وعلله وأمراضـه ، ويجـد صنفين متميزين : أحدهما ما يطلق عليه المشركون أو الوثنيون ، والآخر هم أهل الكتاب الذين أنكروا رسالة النبى محمـد صلى اللـه عليه وسلم ، واشتركوا مع السابقين فى الكفر بالحق ، وعدم الانصياع والاستجابة لمقتضـياته ، ونظرا لاشتراك الأصناف كلها والصنفين المتميزين خاصة فى كثير من دوافع الانكار ، وفى الطبيعة النفسية ونظرا للرغبـة فى عدم الاطالة فاننا جمعنا المنكرين فى اطار واحد ، وتناولنا الأسس البارزة لديهم فى وحدة واحدة دون فصل لكل طرف عن طـرف ، وطالمـا أنه توجد عناصر اشتراك واضحة فانه من الأفضـل أن نركز عليها ، وسندع للقـارىء أن يميز الفوارق البسيطة بين تلك العناصر لدى كل صنف ، وعندما تتضح أمامه تلك العناصر ستكون من اليسير عليه أن يميز ما تبقى من فروق محدودة •

وضوح الحقيقة فى أذهان الجميع :

وقبل أن نذكر تلك الدوافع والشبه المثارة نقرر من واقع النصوص أمرا هاما هو أن معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه ودعوته كانت واضحة فى أذهان قريش ، ومستقرة فى عقول وأذهان أهل الكتاب ، وانما نضطر لبيان هذه المسألة اضطرارا لأننا لو لم نستشعر أن الحق كان واضحا ومعروفا لدى الفريقين ، وأن صدق الرسول كان ظاهرا كظهور ضوء الشمس فى رائعة النهار لجاز لبعض ذوى العقول أن يلتمسوا نوعا من المعاذير للمنكرين ، وأن يتصوروا أن نقص المعرفة للحقيقة ، وأن غموض الحق فى أذهان المدعوين هو السبب الرئيسى وراء عدم الاستجابة ، لأنه اذا لم تتضح معالم الحق فى التصور الانسانى لا يتحمس للخضوع له أو الايمان به •

وكذلك فان جهل الحق يترتب عليه وجود تعليلات تختلف عن تلك التى عثرنا عليها فى مخلفات الأصناف التى تعرضت لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، أما تلك الدواعى التى أثرت عنهم بسماتها الاجتماعية والنفسية فتقودنا فى حد ذاتها الى اليقين بأنهم كانوا يدركون الحق ، ويعلمونه جيدا ، وأن عقولهم قد توصلت بمحض الخبرة والمعاشرة للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو بما تسلم به عقول أهل الكتاب من علم مقدس يخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويصفه وصفا دقيقا •

ونحن عندما نقرأ صفحات الصراع بين الحق والباطل خاصة تلك التى دارت بين النبى وأعداء الدعوة على الساحة المكية قبل أن يتحول الصراع الى شكل مسلح بين الطرفين نعلم بشكل قاطع أن الملأ من قريش كانوا يتبينون الحق فى كل حركة قولية وفعلية تنبض بها حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وكانوا فى قرارة

أنفسهم يتناجون بذلك ، ويدركون الانفصام بين شخصيتهم الذاتية ومسالكهم العملية تجاه الدعوة الناشئة ، وان لم يعلنوا كثيرا عن هذا الانفصام فانهم لم يستطيعوا كتمانه أبدا بل غلبهم خاطر النفس حينا فباحوا بما يدور فى خلدهم ، وكانوا من الجرأة الجريئة الى حد أن يعترفوا بالحق ، وأنه مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع ذلك تراهم يردفون ذلك بعدم الاستجابة لأسباب لا تمت الى طبيعة الحق نفسه ، ولا الى عدم درايتهم به ، وانما ترتبط بروابط فكرية سائدة ، أو تتصل بالبنية الاجتماعية التى عليها العرب من حيث الصراع القبلى مع كل صعيد اقتصادى أو رئاسى مما سنبينه قريبا .

وان تلك الوقائع لتنطق أن زعماء قريش من أمثال الوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة وأبى جهل وأبى سفيان والأخنس بن شريق، عندما كانوا يسمعون النبى صلى الله عليه وسلم تحاصرهم الحقيقة من كل جانب ، ولا يجدون منها انفكاكا ، ويضطرون ازاءها الى الاعتراف بها اعترافا ذهنيا ولسانيا ، وهو اعتراف مجمل لا يخلص الى نتيجة التصديق القلبية واللسانية والعملية التى هى مطلوب الايمان ، لقد استمع الوليد الى النبى [فكأنه رق له] وعندما عاتبه أبو جهل فى هذا الاستماع وفى الجلوس الى النبى وما حدث بعده من رقة ، وطالبه أن يمحو ذلك من نفوس قومه بكلمة يذم بها النبى صلى الله عليه وسلم لم يجد عبارة واحدة تحمل الذم وتتفق مع ثغرة ينفذ منها الى دعوة الرسول صلوات الله عليه ، وأخذ يبحث فى الجوانب ، ويتحسس المداخل لعله يجد مدخلا يدخل منه حقيقة أو لعله يجد مطعنا صحيحا يجهز له عبارة تتفق معه يرمى بها الرسول ، فلم يجد ، وانتهى من بحثه الى أنه خبر أشعار العرب برجزها وقصيدها ، وأشعار الجن كذلك ، وعلم سجع الكهان ، وهذيان المجانين ، ونفث السحر وعقده فما قول محمد صلى الله عليه وسلم بواحد منها ، ثم يردف قائلا [وان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق ،

وان فرعه لجنى] وفى رواية [وانه ليعلو ولا يعلى ، وانه ليحطم ما تحته] (١) .

وبعد مناقشة بين الوليد بن عتبة والنبى صلى اللـه عليه وسلم حاول أثناءها الوليد أن يتفطن على النبى صلى اللـه عليه وسلم فلما فرغ تلا عليه الرسول أول سورة فصلت حتى وصل الى قوله تعالى [فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود] فقـال عتبـة [حسبك ما عندكم غير هذا] ثم رجـع الى قريش وقص لهم ما حدث وهو وجل خائف ويردد [قد علمتم أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب] ولقد نصح القريشيين بقـوله [واللـه لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، واللـه ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلو بين هـذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فواللـه ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسـعد الناس به ، قالوا سحرك محمد بلسانه قال هـذا رأيى لكم فاصنعوا ما بدا لـكم] (٢) .

وكان من فرط الرغبـة يذهب أبو جهـل وأبو سفيان والأخنس ابن شريق ليلا يستمعون من النبى وهو يقـرأ القـرآن فى بيته حتى اذا جمعهم الطريق تعاهدوا على عدم العـودة ولكنهم يعودون مرة ثانيـة وثالثة ، وعندما يسأل أبو جهل عن رأيه فيما سمع ، وفى دعوة النبى يقـول لسائله وهو المغـيرة بن شعبة [واللـه انى لأعلم أن ما يقوله حق ، ولكن يمنعنى شىء واحد ، ان بنى قصى قالوا فينـا

---

(١) السيرة النبـوية للذهبى ٨٩ — ٩٧ والبـداية والنهـاية ج٣ ٦٧ — ٦٨ .

(٢) البداية والنهاية ج٣ ٧٠ .

الحجابة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ، ثم أطعموا فأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبى والله لا أفعل] وفى رواية [تنازعنا نحو وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نسمع به أحدا ولا نصدقه] (٣)

واذا كان النبى معروفا بالصدق ، وعلمت قريش أنه على حق ، وأنه سيعلو وسيحطم ما تحته فقد جاءت معرفتهم بأحقيته من خلال خبرتهم المباشرة بشخص النبى صلى الله عليه وسلم وسلوكه ، وصدقه وأمانته ، وسيرته العقلية والأخلاقية كلها ، تلك الخبرة المباشرة التى أوقفتهم على جوانب شخصيته الفذة والعبقرية البارزة ، كما انبنى علمهم بالأحقية على درايتهم الكاملة باللغة وأساليبها ، وقدرتهم على التمييز بين أسلوب الوحى الذى تحدث به الرسول والأساليب السائدة على ألسنة الشعراء والكهان والسحرة ، واذا أقروا بأن النبى على حق فهذا اقرار مطابق للواقع تمام المطابقة ، واذا لم يحولوا هذا الاقرار الى تصديق ايمانى بشرائطه لاعتبارات مشهورة وبحثوا عن معاذير يتعللون بها أمام بقية القبائل واخترعوا تهمة السحر مثلا فهذا تواطأ على دعوى لا تطابق الحقيقة كما هى فى ذاتها ، وكما هى واضحة فى أذهان القرشيين ويختلف أهل الكتاب فى الأسس التى قام عليها علمهم بأحقية الدعوة الاسلامية وبالمعرفة الأكيدة بصاحبها وهو محمد صلوات الله عليه ، فلم ترد عن طريق الخبرة المباشرة بشخصه صلى الله عليه وسلم وحدها ، ولا بالدراية للأساليب اللغوية العربية ، وانما بنى العلم بالدين الجديد وصاحبه

---

(٣) نفسه ٧١ .

على بيـــان الوحى السابق فى التوراة والانجيل ، واستقرار هـــذا البيـــان فى العقول قرونا طويلة ، وتوارثه جيلا بعد جيل ، وانتشاره بين الأحبار والرهبان وبين الكبار والصغار ، ولقد أقسم على هـــذا العلم وسريانه عبد اللـــه بن سلام أمام اليهود ، كما حلف عمـــرو ابن سعد القرظى بالتوراة وباللـــه بعدما شاهد ما حدث لبنى النضير أن النبى على حق وأنهم يعلمون ذلك ، ثم قال لبنى قريظة [أطيعونى وتعالوا نتبع محمدا ، واللـــه انكم لتعلمـــون انه نبى وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبو عمير وابن حراش وهما أعلم يهود] وقد قدما من بيت المقدس يتوكفان قدومه ، وماتا قبل ظهوره ، فسكت الحاضرون ولم يحيروا جوابا ٠

وعلق الزبير بن باطا على كلام عمرو بن سعد القرظى فأقســـم أنه قرأ صفة النبى فى التوراة ، ونفس الدعوة نادى بها كعب بن أســـد القرظى أثناء حصار النبى لبنى قريظة بعد الخندق ، وقال : هيـــا نتابع هـــذا الرجل ونصدقه فواللـــه لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم (٤) ، والروايات فى هذا المجـــال كثيرة ، منها ما تحدث به أهل الكتاب قبل ميلاد النبى وبعده ، وقبل البعثة ، ومنها ما يتعلق بصفاته الخلقية ومكان ميلاده ومهاجره وطبيعة دعوته، وتكفى الاشارة الموجزة فى ذلك ، ومن أراد المزيد فليرجع الى الروايات التى ملئت بها بطون كتب السير والتاريخ ٠

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن تلك الدراية بالدعوة ونبيهـــا يستخدم لفظتين : العلم والمعرفة يقول جل جلاله [**الذين آتينـــاهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق**

---

(٤) أنظر السيرة النبوية للذهبى ٧ ، ٧٩ ، ٢٦٠ ، والبداية والنهاية ج٢ ٢٨٩ — ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٢٠ ، ٣٣٣ — ٣٤٢ ٠

وهم يعلمون] (٥) ويقـــول [الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كمـا يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون] (٦) ، واللفظتان ليستا مترادفتين تمام المرادفة ، ولايطلقان على جهة واحدة ، بل تنصرف كلمة العلم الى الحـــق الذى جاء به النبى صلى اللـــه عليه وسلم ، ومنبع هذا العلم هو الأخبار المقدسة وحدها ، وتطلق لفظة المعـرفة على النبى وصفاته ، ومصدر المعرفة يرد من طريق الوحى كالحق ، ويرد عن طريق الرؤية والملاحظـة المستمرة ، والتأكد من مطابقـة الصفات المبثوثة فى التوراة والانجيل على ذات النبى صلوات اللـه وسلامه عليه وحده ، ولقد دفعت تلك المعرفة واحدا كابن سلام لأن يقول عن معرفته للنبى [أنا أعلم به منى بابنى] فقال عمر له ولم ؟ قال [لأنى لست أشك فيه أنه نبى فأما ولدى فلعل والدته خانت فقبل عمـــر رأسه] (٧) ومعرفة الذين لم يسلموا لا تقل عن معرفة من أسلم ولكن النفوس حواجز والتوفيق لم يصب •

والعلم والمعرفة مستمران باستمرار الأخبار الصحيحة التى لم تحرف ووجودها فى الكتب المقدسة وبالمطابقة بين أوصاف النبى التى خلق وسار عليها وبين تلك الأوصـاف المذكورة لدى أهـل الكتاب ، ويستطيع النـــاظر اليـــوم أن يضاهى بينهما كما اســتطاع الرائى لرسول اللـــه أثناء وجوده أن يعقد تلك المضاهاة ، وذلك على اعتبار أن أوصاف النبى الحقيقية قد تواترت وعلى افتراض أن ما وصف به فى الأخبار السابقة لم يحرف •

---

(٥) البقـــرة ١٤٦ •

(٦) الأنعـــام ٢٠ •

(٧) تفسير ابى السعود ج١ ٢٨٢ •

ماذا بعد الاعتراف بالحق ؟

كان من الممكن بعد هذا الاعتراف بالحق أن يعرض الوحي صفحا عن بيان أسباب الانكار لدى هؤلاء الذين يعترفون بالحق ويعرفونه جيدا ، ولكن تعرض القــرآن الى دواعي الانكار وكشف ما في نفوسهم لابراز أن تلك الدواعي لا تتصــل بطبيعة الحق ذاته ، ولا بخلل في منهاجه وأسلوبه ، أو أحكامه وتشريعه ، وانما ترتبط بفساد اجتماعي سائد ، وبأفكار متوارثة ، أو بفساد نفسي وادراكي وقلبي : وأنت عندما تفتش في موقف معين لانسان أو جماعة لا يخلو تصرفها في هذا الموقف من أن يكون متأثرا بالجو الجتماعي المحيط ، أو بدوافع نفسية صرفة ، وفي كل من الحالتين يبقى التمييز بين مسلك الانسان أو الجماعة الفعلي وبين ما قد تستشعره هذه الجماعة أو ذاك الانسان من معرفة نظـرية بحقيقة هذا الموقف .

وأنه من نتائج هــذه المؤثرات الاجتماعية أو النفســية يغــاير الانسان بين ما ينكشف له من حقيقة وما يتبعه فعلا من قول وفعل ، وأحيانا يتبجح البشري في عناده مع ما يراه حقا تحت ضغط هـــذه المؤثرات ، وقد يصل التبجح إلى حد الاقتتال ، وهــذا أسوأ موقف انساني يمكن أن يكون ، وترجع حالة السوء فيه الى أن صاحبه يدرك الحق أو طرفا منه ومع ذلك يصعد عداءه معه الى حد المبارزة في ساحة القتال ، ولنفس هــذه الحالة يصف القرآن أمثال هؤلاء بالاجــرام وعدم العقل .

وسنشير الى تلك المؤثرات الاجتماعية والنفسية وما ترتب عليهما من خلل في الادراك ، ومن فساد في الفكر ، ومن ابتداع لا أساس له وأصــل .

اولا : التأثير الاجتماعى :

تشكل الآراء السائدة فى المجتمعات تأثيرا مباشرا على أفرادها ، ويكون للأنظمة المتعارف عليها أثر بالغ فى التفكير والسلوك معا ، وترسيخ الآراء واستقرار الأنظمة لفترة طويلة من شأنه أن يطبع أفراد المجتمع بطابع التحيز والتعصب لها أيا كانت تلك الآراء من الحق أو الباطل ، وأيا كان النظام من العدالة أو الفساد ، ولا مانع من أن تكون هناك درجة من الاقتناع بصحة مبادىء أخرى غير تلك التى تسرى بين المجتمع ، وأن يكون هناك شعور بسوء الأنظمة السائدة ومع ذلك يظل كثير من الأفراد يتهيبون الخروج عن المألوف أو الثورة عليه ، ويستمرئون البقاء تحت المظلة الاجتماعية القائمة مهما كانت مهلهلة .

والذين يحتلون مناصب رئاسية فى تلك الأنظمة المتعارف عليها يكونون من أحرص الناس على بقائها والدفاع عنها لما لهم من جاه وسلطان يحرصون على استمراره ، ويخافون أن تهددهم الدعوة الجديدة بزواله ، أو تحد من نزعاتهم الفردية ، أو توقف من تسلطهم على الغير ، أو تقيم علاقات الرئاسة على نمط جديد قد لا يسمح بأن يتسلق هؤلاء الى قمة السلطة طبقا لبنوده ، أو تضع من ضوابط العدالة ما يحول بين أرباب الرئاسات القديمة ومطامعهم ورغباتهم أو تسن من الأحكام ما يقلل من مكاسبهم ومغانمهم وثرواتهم ، كل هذا يجعل الملأ من الأقوام ، وأصحاب السلطة فى المجتمعات حتى الحديثة يخافون من الدعوة الناشئة ، أو تطبيق الاسلام وتشريعه .

وبجانب أرباب الرئاسات توجد فئات أخرى لها رغبات خاصة تتحقق فى ظل النظم السائدة ولا تتحقق بهذا الشكل المألوف فى ضوء النظام الدينى الجديد ، وقد تكون الرغبات شهوانية أو مادية ، أو كهنوتية ، أو اتجاهات فكرية معينة ، هؤلاء ينضمون الى قائمة المعارضين بوعى لمصالحهم الخاصة ، وبادراك لمطامعهم الذاتية بصرف

النظر عن اعتبار الحق فى ذاته ، ويدخل تحت هـذا الصنف فئـات البغـاة المنحرفين سلوكيا أو فكريا ، وبعض التجار ورؤوس الأموال والاحتكاريين ، وربما جر هؤلاء وهؤلاء وراءهم كثيرا من الغوغائيين الذين لا يدركون بنظر ثاقب طبيعـة الأمور المـاضية والحاضرة ، وليس لديهم تصور صحيح عن المستقبل ، ولا يميزون تمييزا دقيقا بين الواقع الحاضر وما تنشده الدعوة الجديدة من تشييده على أسس من النظام الالهى والعدالة القدسية ، فينساقون وراء أصحاب المطامع الرئاسية ، أو الرغبات الخاصة ، ويندفعون وراءهم اندفاع الأحمق الجـاهل ، والغـر الساذج ، ويكونون أبواقا لكبرائهم وأسـيادهم ومضلليهم ، ينفخـون فيهم فيحدثون الأصوات المطـلوبة ، ويلتف حولهم ، ويتجمع حول الصوت فئات المغفلين المتبقيـة ، ويتكون من الجميع طابور الضلال فى ساحة الانكار ، وعلى أرض الجحود والصد .

وفى البداية يستهين هـذا الطابور بالدعوة الجديدة ، ويتعامل معها برفق ولين ، ثم ينشط قليلا عندما يرى نمو الدعوة يتزايد فيقدم عروضا وتنازلات ، ويحاول بشتى الطرق احتواء الموقف من جهتين : جهة الشخصية القيادية التى تحرك الدعوة وتقع على عاتقها مسئولية البلاغ لهـا ، وبث الأحكام المتعلقة بها ، فيحاول بشتى الطرق اغراءها بالمـال أو السلطة أو التـأثير عليها من طريق المحيطين بها من أهلها وخلانها ، ونحن لا ننسى فى ذلك ما فعلته قريش مع النبى صلى اللـه عليه وسلم ابان المراحل الأولى للدعوة فى مكة ، والعروض التىقدمتها اليه مباشرة أو بواسطة عمه ، كما لا نغفل ما نشاهده الآن من احتواء السلطة لبعض الشخصيات الدعوية البارزة كلما أمكن ، ومحاولة ذلك باستمرار مع آخرين ، واغراء أرباب النفوس الضعيفة بمناصب مؤقتة حتى تخمد فيهم روح الحق ، وتموت روح الحماس ، أو يقتاتون على موائد السلطة فلا يرفعون عيونهم بعد ذلك فى وجوههم .

ومن جهة ثانية الضغط على أتباع الحق من الضعفاء أو العـزل

بالتعذيب والتنكيل ، والضرب والكى ، وذلك حتى يعودوا الى الدين القديم أو النظم السائدة ، أو حتى يرعوى من تسول له نفسه أن ينضم الى ركب الدعوة من جديد وكى يكون المعذبون عبرة للغير فلا يقدم على مثل ما أقدم عليه هذا الشجاع المستبسل ، قرأنا عن ذلك فى قصة بلال وعمار وياسر وسمية وخباب بن الأرث وغيرهم وما فعلته قريش معهم ، وما زلنا نقرأ عن بطش الجاهلين فى كل زمان وفى كل عصر وعلى كل أرض الى يومنا هذا ، والكرة هى الكرة ، والسبب لا يخرج عن رغبة المنتفعين بالنظام السائد فى الرئاسة أو المنفعة ، ولا يعدو حالة الخوف من العدالة الدينية الاسلامية التى تقيم الميزان والقسطاس المستقيم على تصرفات وسلوك هؤلاء الطغاة والمتجبرين والمنحرفين والطامعين •

وسرعان ما يتحول الطابور من اللين الى العنف ، ويواجه الدعوة بالتحدى الصارم ، والقسوة العارمة ، ويصب جام غضبه على كل من يلقاه من نبى كريم ، أو داعية فاضل ، أو مؤمن عزيز ، أو مسلم غيور ، ويستخدم فى ذلك وسائل تعذيبية تتناسب مع قوة الدعوة وانتشارها ، وطريقتها ووسائلها ، وتأخذه الحمية الجاهلية ، والحماس الضال من أجل الحفاظ على السياسة القومية السائدة ، والنظام الاجتماعى المتعارف عليه ، ويتذرع فى موقفه ضد الحق بحماية المجتمع والدفاع عن الثروات ، وبالحفاظ على عقول الناشئة وفكرها الموروث أو المتبع ، وعلى الكيانات الأسرية التى أثرت فيها الدعوة الجديدة وفرقت بين الابن المهتدى الى نور الحق والأب الذى آثر الضلال أو العكس ، وأثناء هذا العرض الهزيل لطابور الباطل فى الساحة الاجتماعية يحاول الملأ والرؤساء أن يظهروا بمظهر الفدائية الوطنية ، والولاء المخلص للمجتمع ، وهم فى الحقيقة مخدوعون واهمون فما والوا الا نزعاتهم وسلطانهم ، وما دروا أن فدائية الباطل انهزامية نفسية أمام الانصياع للحق ، وفرار جبان من ساحة الخضوع لمقتضيات العدالة ، وهروب نذل من سلطان الله وشرعه ومنهاجه •

ولقد سمعنا من قصص البطولة ومن مواقف الحمية الجاهلية أطرافا لا بأس بها قام بها أبو جهل وأبو لهب وأمية وزعماء ثقيف ، وما زلنا نشاهد أمثالهم وأضرابهم اليوم ممن يعتبرون البطولة ضد الحق شجاعة ، ويعتزون بالانتقام من أتباعه تحت عنصر التمويه المزيف وتحت دعوى الاجتماعية ، وأقول لهم بهدوء البطولة والشجاعة أن نعرف الحق وأن نبحث عنه ، وأن نعرف مشاكلنا وظروف مجتمعاتنا ، وأن نقوم فكرنا وثقافتنا ، وأن ننصف الحقيقة من أنفسنا ، وأن نقدم لأجيالنا حلولا ناجعة ، وزادا خيرا ، ولن نجد ذلك الا فى حكم الله ومنهاجه ، والبطولة أن نجتاز الحواجز النفسية التى ترهب العدل الالهى ، والعقبات الاجتماعية الموروثة أو المجلوبة من الغير التى تسد الطريق أمام شريعته ونظامه ، والشجاعة كل الشجاعة أن نقسر أنفسنا على الحق قسرا ، وأن نأطرها عليه أطرا .

ولا ضير من أن نستمع الى المنكرين وهم يتمسكون بنظامهم الدينى الموروث ، وبسلطانهم السياسى القائم ، لقد مر علينا ما قاله أبو جهل للمغيرة بن شعبة وهو يفصح عن معرفته للحق الذى جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم وما منعه من اتباعه الا لأن بنى هاشم ستتفوق على قبيلة المذكور بجاه النبوة ، وستظفر بمنزلة اجتماعية لا يتسنى لعائلة الحكم بن هشام الوصول اليها ، لقد حجبت النظرة القبلية ، وتوزيع المناصب بين بطون قريش نظر أبى جهل عن رؤية الحقيقة مع الانصياع ، ولم يفهم أن الدعوة الجديدة منحة ربانية لا فضل فيها لأحد ، ولا ترفع من منزلة أسرة على أخرى ، وأن الفضل بالبر والتقوى ، والطاعة والقربة ، والسبق الى الحق والدفاع عنه ، وأن أبا لهب من عائلة النبوة ومع ذلك لعن فى القرآن على لسان ابن أخيه النبى المصطفى ، وأن أبا طالب نصر الدعوة وكان له من اليد على النبى وهيئاته ما هو معروف ومع ذلك لا يشفع له كل ذلك الا بالتصديق والانصياع ، وهو فى ضحضاح من النار ، وينفض النبى يده من كل تحيز لقريب أو بعيد الا بالعمل [يافاطمة بنت محمد اعملى

فلن أغنى عنك من اللـــه شيئا] ويقول ذلك للقاصى والدانى ، ثم هو فى الوقت ذاته يرفع منزلة بلال فيقول [أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا] ومنزلة سلمان فيقــول [سلمان منا آل البيت] ويبشر أسرة ياسر بالجنـــــة •

أقول لقد حجبت النظــرة القبلية القاصرة ، والنزعة الرئاسية المقوتة أبا جهل عن رؤية الدعوة فى جوهرها التفصيلى الأصيل ، كما حجبت غيره من أمثال الوليـــد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميـــة ابن خلف من رؤساء العرب الفعليين ، وكما حجبت بنى عامر بن معاوية من كندة باليمن حينما دعاهم النبى صلى الله عليه وسـلم فى الموسم قائلا لهم [هل لكم الى خير ؟ قالوا وما هو ؟ قال تشهدون أن لا الــه الا اللــه ، وتقيمون الصلاة ، وتؤمنون بما جاء من عند اللـــه] فقالت كنـــدة : ان ظفرت تجعل لنـــا الملك من بعدك ! ! فقال رســـول اللـــه [ان الملك للـــه يجعـــله حيث يشاء] فقالوا لا حاجة لنا فيما جئتنا به(٨) ، وهكذا صرفهم التطلع الى الرئاسة فى المستقبل عن الاستجابة لدين اللـــه ، والأخبار تتوارد عن أن تلك الرغبة السياسية التى سادت المجتمع القبلى ، أو تمركزت فى المجتمعات المتحضرة كانت عقبة أمام دعوة النبى صلى اللـــه عليه وسلم ، كما كانت عقبـــة أمام الدعوات السابقة حيث تصدى الملأ لنوح وشعيب وصالح ووقف النمرود أمام دعوة ابراهيم وشايعه على ذلك ملأه ، كما وقف موسى أمام فرعون هو وبطانته (٩) ، والملأ هم الفئة المترئسة أو من تسير فى فلكها ، أو هم كبراء الأقوام والشعوب سواء برزوا عن جدارة أو قفزوا بالقـــوة ، أو تسلقوا بالنفاق والرياء •

---

(٨) السيرة النبوية للذهبى ١٩٠ ، والبداية والنهاية ج٢ ١٥٣-١٥٤ .

(٩) انظـــر الأعراف الآيات ٦٠ - ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٧ ، وهود ٥٩ . وانظر : أبو زهرة الدعوة الى اللـــه ٦٨ .

واذا كانت النظـرة السياسية ، والرغبة فى الاحتفاظ بالسلطان صارفا عن الاستجابة فان المعتقدات الموروثة مثلت حجابا تذرع من خلفه هؤلاء الذين لا يريدون الانضمام الى قافلة الحق ، وتعجبوا من كون اللـه يوحى الى بشر ، ومن كونه اختص محمدا صلى اللـه عليه وسلم بالذات ، وقالوا فى صدد التعجب [أجعل الآلهة الاها وحدا ان هـذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هـذا لشىء يراد ، وما سمعتنا بهذا فى الملة الآخرة ان هـذا الا اختلاق] (١٠) ، وعلى نفس الطريق تقوم البدع والخرافات ، وتقوم الأفكار السائدة بنفس الدور الذى يقـوم به التعدد الوثنى أمام الدعوة الى العقيدة الصحيحة .

ولـما تعجبوا من نبذ الآلهة وجعلها الهـا واحدا هو حق آثروا فى النهاية أن يستمروا على درب آبائهم فى عبادتهم ، وأعلنـوا أمام الأنبياء ، وأمام النبى صلى اللـه عليه وسلم أنهم لن يحيـدوا عن طـريق الآباء [**واذا قيل لهم اتبعـوا ما أنزل اللـه قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**] [**واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل اللـه والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون**] [**انهم ألفـوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهـرعون**] (١١) ، ولقـد ألح النبى مرارا على عمـه أبى طـالب أن يسلم حتى قال [لن أفارق دين آبائى ولكن لا يخلص اليك شىء تكرهه ما بقيت] (١٢)،

---

(١٠) ص : ٥ — ٧ .

(١١) البقـــرة ١٧٠ ، المـائدة ١٠٤ ، الصـافات ٦٩ — ٧٠ وانظر الاعراف ٧٠ ، يونس ٧٨ ، هود ٦٢ ، ٨٧ ، ١٠٩ ، الانبيـــاء ٥٣ ، ٥٤ ، لقمان ٢١ الشعراء ٧٤ — ٧٥ — ٧٦ .

(١٢) الذهبى : السـيرة ٧٧ .

وكان أبو لهب يتبع النبى وهو يعــرض دعوته على العرب فينهاهم أبو لهب عن أن يفارقــوا دين آبائهم ، وقال مروان بن الحكم يوما لحويطب بن عبد العزى وقد طال عمره فعاش ستين سنة فى الجاهلية وستين فى الاسلام ما منعك يا حويطب عن الاسلام وقد سبقك الأحداث اليه فقال حاطب [واللــه لقد هممت بالاســلام غير مرة وكل ذلك يعوقنى عنه أبوك وينهانى ويقول تدع دين آبائك لدين محمد فأسكت مروان وندم على ما كان] (١٣) •

الأفكار الموروثة ، والعقائد السابقة ، والتيارات السائدة كلهـا تكون سدا يمنع وصول الحق الى القلب ، وانفتــاح القلب عليه ، والقرآن الكريم يبين أن اللجوء الى التقليد الأعمى عجز عن الحجج السليمة فى مواجهة الحق وآياته الباهرة وهو توقف ادراكى مذموم ، واحالة للعلم والقبول على من لا يعقل ولا يعلم ولا يهتدى ، واذا كان السابق بهــذا الشــكل فلا يليق بالعقــلاء من اللاحقين أن يقلدوه والا تساووا معه فى درجة الجهل وعدم العلم والضلال ، وقد يعــذر السابق بعدم ظهور الرسالة أما اللاحق فلا عذر له وقد أدرك الدعوة ، وقدمت اليه الأدلة ، ناصعة الاشراق ، محكمة الاقناع ، بينة الدلالة ، ولا علة للمشركين أو الكفار من أهــل الكتــاب وقد دعاهم الرسول صلوات اللــه عليه بكل طريق ، وخاطبهم بأساليب اقناعية ممحصة ، أو تشبيهية مقربة ، أو بقصة زاجرة ، أو بعبرة وآية رادعة ، ومع كل ذلك حاول تحرير العقل وتجريده ونصبه أمام الحجة كى يدركها بنزاهة ويعيها بحيدة ، وحاول تخليصه من كهوف الأفكار ، وبراثن التقليــد كى يفكر بجدية ويقتنع عن جدارة وأهلية وصلاحية (١٤) •

---

(١٣) ابن الجوزى ، الأذكيــاء ١٢٩ •

(١٤) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى : المحــرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ج٢ ٦٠ — ٦١ ج٥ ٧٣ — ٤ ٥٥٥ ، وتفسير أبى السعود ج١ ٢٩٩ — ٣٠٠ ج٢ ١٣٢ ، ج٢ ٣٥٨ (فى تفسير آيات تقليد الآباء) •

وعلى الدعاة أن يسلكوا نفس الطـريق مع عبدة الأسـلاف ، وعشاق الفكر المجلوب ، وسدنة التقليد الغربى ودعاة التقاليد والعادات الاجتماعية المنـكرة ، ومع الذين يخافون على هياكلهم المحنطـة فى فى أماكنهم ، وعلى مراكزهم التى جاءتهم عفـوا ، أو حصلوا عليهـا بالسفك والفتك والتنكيل والتشريد ، عليهم أن يدركوا طبيعة الصراع بين الدعوة وهؤلاء ، وأن يغوصوا فى أعماق العدو ، وأن يتعاملوا معه بفهم لمواقفه وطبيعته ، وأن يتحلوا بالصبر على تلك الفئة كما فعـل الأنبياء ، وأن يقدموا اليهم الحجج تلو الحجج بدون ملل ولا سأم ، وبدون ضيق أو ضجر ، أو كـزازة فى الفهم ، أو تحجر فى التفكير ، وعليهم أن يبصروا الطـريق جيدا ، وأن يعرفوا الغـاية وأن يتعاون السائرون الى اللـه فى الفكر والمنهج والأسلوب والوسيلة كما يتعاون أعداؤهم عليهم [وبما أن الضلالات ترسخ فى النفوس كتراث قديم ، وتقاليد تليـدة ، وترتبط بها أغراض الناس أيضا يحوج القضاء اليها ومحوها من النفوس الى جهاد طويل وجهود بالغة] (١٥) .

ثانيا : العلل والأمراض النفسية :

مازلنا نعى باهتمام جيد وضوح الحق بدلائله أمام المنكرين ، وأنهم لم يستطيعوا نقضه ببراهين ضعيفة أو قوية ، وكم طولبوا من قبل الأنبياء ، واستحثهم النبى محمد صلى اللـه عليه وسلم على أن يقدموا حجة على انكارهم أو سلطان على دعاويهم ، أو أن يأتوا بكتاب هو أهدى مما جاء به ، وسوف يخضع لـما فيه لو جاء مطابقا للحق ناصع الحجة ، وعجز المنكرون على اختلاف ألوانهم من مشركين وأهل كتاب عن أن يدعمـوا موقفهم الجاحد بأى برهان أو أدنى دليـل ، وحين أفلسوا فى هذا المضمار لم يجـدوا أمام رفضهم سوى العلل

---

(١٥) أمين أحسن اصلاحى : منهج الدعوة الى اللـه ٤٨ .

المنافية لطبيعة الاستدلال والقائمة على غير حجة مثل التقليد للأسلاف والآباء ، ومثل الرفض لمجرد الرفض ، وازاء ذلك أوضح القـرآن مواقفهم التى لاتستند الى شرعية من وحى ، ولا الى حجة من عقل ، وهدم فكرة التقليد وبين أنها منافية للمنطق والفطرة ، علاوة على كونها مخالفة للآيات البينات التى نزلت على النبى صلى اللــه عليه وسلم •

وأيضا فقد أوضح العلل النفسية التى صدر عنها الانكار ، وهى علل تنم عن داء داخلى خطير مزق نفوس المنكرين وأفقدهم الاتزان والتفكير الصحيح ، وبدا هؤلاء مع تلك العلل أصحاب آراء زائغــة لا علاقة لهــا بالسند ، ولا صلة معها بالدليل ، وقد تحكمت تلك العلل فى ادراكهم وأنمــاط تفكيرهم ، وأغلقت عليهم حواســهم وعقولهم وقلوبهم ، كما أثرت فى سلوكهم العملى وتصرفاتهم الخارجية ، وبرزت لديهم أمراض نفسية أسهمت بنصيب وافر مع العلل العامة فى استمرار الاصرار على الجحود والانكار وعدم الانصياع للحق •

وتتلخص معاملة القرآن الكريم لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب فى كشف الأسس العامة التى قام عليها الانكار ، وبيــان الأمراض النفسية التى حالت دون القبول للحق ، والرد على المزاعم التفصيلية التى أثاروها بالبرهان والحجة ، وافحامهم بالدليل الذى لا ينقض ، ثم الافصاح التام عن أن المنكرين لا يستندون الى سلطان على أى شكل من الأشكال ، وفى هذا الصدد يضع القرآن أيدينا على علة واحدة عامة تمتد جذورها الى شبكات الادراك الحسى فتعطله عن الانتفاع بتأمل آيات اللــه الظاهرة والمحسوسة ، والى مركز القوة المفكرة فى العقــل فتحجزه عن التفكير السليم ، والى القلب فتغلق مسامه وأبوابه عن تصديق الحقيقة الواضحة ، والى النفس فتصيبها بأعضــل الداء •

أما تلك العلة العامة فهى الهوى ، وكم أثارها القرآن فى مواقف متعددة ، وألح بجلاء الى أنها مسئولة عن الميل نحو التكذيب والضلال

والصد واثارة الشبه بدون علم ، وأنها تتبع الظن الخالى من الترجيح البرهانى ، وتعتمد على الرغبة الشخصية ، واللذائذ الحسية ، وللهوى علاقـة مباشرة بسـوء الادراك الحسى والعقلى والقلبى ، وله صلة وثيقة بأمراض الحسـد والكبر والمـادية والغرور والمتع الحسية ، وباختصار يؤثر الهـوى على الجانب النظرى المفـكر فى الانسـان ، كما يؤثر على الجانب العملى الأخلاقى والسلوكى فيـه ، وسـوف نعرض لهـذه الوجوه بشىء من التفصيل المناسب .

١ — الأهواء وطغيانها :

الهوى هو العشق بطرفيه فى الخير والشر وارادة النفس[١٦] ، فحب الخير والحق والفضيلة هوى ، والميل الى الشر والباطل والرذيلة هـوى أيضا ، واتباع الدين الحق القائم على الدليل ميـل نفسى ، وعشـق قلبى ، وهـوى مبنى على الاقتنـاع ، والانقيـاد للنفس فى شهواتها ولذائذها وحبها للباطل وخضوعها للرغبات الفانية هـوى يعتمد على الغرور والاعتداد بالرأى دون الحجة والدليل ، والهوى الأول فى الخير تتفرع عنه لفظة الهوة بالضـم للرجل اذا صـعد وارتفع ، والهوى فى الشر يرد منه الهوى للرجل اذا سقط ، فمن عشق الحق بدليله علا مذهبه ، وسمار رأيه كمن صعد القمة المحسوسة ، ومن مال الى المذمومات ورغبها ، وهوى الباطل بلا برهان انحط قدره ، وسفلت منزلته ، وفسـد رأيه كمن انحـدر الى الهـاوية الأرضية المحسوسة .

والقرآن الكريم لم يستعمل لفظة الهوى مصدرا أو جمعا الا فى الميـل نحو طريق الباطل أو سبل الشياطين ، وآثر أن يخصـصها ويقصرها على الميل المذموم ، ومن ثم فقد وردت فى سياق الاتجاهات

---

(١٦) القـاموس المحيط ج٤ ٤٠٣ .

الخاصة بالمشركين والكفار من أهل الكتاب ، وايرادها مصدرا يشــير الى المنبع للانكار ، ومجيئها جمعا يدل على تفــرق السبل ، وتعــدد العقائد والنحل والاتجاهات المذهبية ، ويفضل القرآن استخدام لفظة الحب فى الميل نحو المطلوب الايمانى والشرعى ، وكأنه أقام مفاصلة لفظية ومعنوية بين الحق والباطل ، فجاءت كلمة الحب ضمن ما جاءت مع الحق ، واختصت كلمة الهوى والأهواء بنزعات الباطل والتوجه نحو الشرور والمفاسد والجنايات العقدية والشرعية ، وأفعمت كلمة الحب أثنــاء ورودها مع اللــه ورســوله وشرعه باليقــين العقلى والقلبى والامتلاء الشعورى والوجدانى ، وشحنت كلمة الهوى فى سياق الباطل بالخواء النفسى والادراكى والانفصام العــاطفى بين ما يدركه صاحب الهوى من معرفة بالحق وما تغلبه عليه نفسه من جنوح نحــو الآراء الزائفة والباطل •

والنصوص التى تحدثت عن الهــوى والأهواء كمنــابع للرأى والتفكير والميل شملت الكفار من الوثنيين وأهل الكتاب على حــد سواء ، ولفتت الأنظار الى أن رفض كل فريق يقوم على أهوائه لا على البرهان ، وبأقل تأمل فى هذه النصوص نعلم أن المفسرين ركــزوا على أن أرباب الأهواء جعلوا هواهم معيارا للقبول والرد ، فما وافق الهوى كان محلا للقبول ولو خالف الحق ، أو لم يرض اللــه ورسوله، وما خالف الهوى صار مرفوضا ولو وافق الدين الصحيح والعقــل الصريح ، وبنى على المنطق والحجة ، والسمة المميزة للهوى أنه تابع للنفس فى شهواتها وغيها وفسادها وتجاوزها لحدود الاستقامة المطلوبة شرعا والمحمودة عقلا ، وجنوحها نحو الملذات الحسية والفانيــة ، وأيضا فان أرباب الهوى يفضلون دائما الآراء الزائفة التى لا تعتمد على الأدلة ولا على البراهين ، ومن ثم فهى آراء ظنية فاسدة لا تمت الى العلم بأى صلة ، وهى بدع ضالة وابتداع نزق جاهل لا علاقة له بالحق والصواب •

وحول الآيات التى وردت فيها كلمة الهوى أو الأهواء يقـول أبو السعود [ان مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لهـا لا لشىء آخر] (١٧) وفى معنى قوله تعالى [**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم**]١٢٠ البقرة يقول [**أى آراءهم** الزائفة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسـهم] (١٨) أو هى [تجاوز الحق والاعراض عنه بلا أدلة مع اتباع الشبه] (١٩) فكل من كذب بآيات اللـه وصرف عنها [فهو متبع للهوى لا غير ، ومن اتبع الحجـة لا يكون الا مصدقا بها] (٢٠) .

وهكذا يريد القرآن أن يقيم قضية الحوار على أساس برهانى لا تخمينى ، ويدعو المنكرين أن يقدموا دليلا على دعاويهم والا فهى آراء نابعة من فساد نفسى لا يعتمد عليها ، ولابد من كشـفها أمام الجميع حتى يقف المتدينون وغيرهم على حقيقة الأمر ، ولقد صارت تلك الأهواء وما نبع عنها من آراء منحرفة سببا دافعا على التكذيب ، **يقول جل جلاله فى شأن كفار قريش وأضرابهم** [اقتربت السـاعة **وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر**] (٢١) [**قل انى نهيت أن أعبـد الذين تدعون من دون اللـه قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين**] ٥٦ الأنعام ، ويقول سبحانه فى شأن أهل الكتاب وكيف دفعتهم الأهواء الى المفاصلة التامة بين الحق والباطل والانحياز الى صف الفساد والبطلان فى العقيدة والشريعة والأخلاق والكفر بالدعوة الجديدة مع علمهم المسبق بمجيئها على أيدى النبى محمد صلى اللـه

---

(١٧) تفسير أبى السعود : الآية ٨٧ من سورة البقرة ج١ ٢١١ .
(١٨) نفسه ج١ ٢٨١ .
(١٩) تفسير الزمخشرى ج١ ٦٣٥ .
(٢٠) أبو السعود ج٢ ٣٠١ ، وتفسير الكشاف ج٢ ٦٠ .
(٢١) القمـر ١ — ٣ .

عليه وسلم [ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير] ١٢٠ البقرة ، [ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين] ١٤٥ البقرة ٠

[لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون] ٧٠ المائدة [قل ياأهل الكتاب لا تغلو فى دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل] ٧٧ المائدة [فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين] ٤٨ — ٥٠ القصص ٠

وفى هذه النصوص يبين الله تأثير الأهواء فى نفوس أهل الكتاب من تكذيب بالرسل أو قتلهم ، أو تحريف للوحى أو نقض للمواثيق ، ومن محاولة اضلال من آمن وصده عن سبيل الله ، فقد صارت الأهواء عنصرا حاجبا عن الايمان دافعا الى التكذيب عند المشركين وأهل الكتاب سواء بسواء ٠

٢ — الأهواء وعلاقتها بالاستكبار :

قلنا ان الأهواء ذات علاقة بالجوانب العلمية والنظرية فى النفس البشرية ، وفى هذه النقطة والتى تليها سوف ننظر فى تلك العلاقة من الناحية الصفاتية والسلوكية فى الانسان وآثار ذلك على تصرفاته

ومواقفه المعلنة ، والقرآن الكريم هو الذى أشار صراحة الى مثل هذ الصلة فقال [**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**] (٢٢) ، وهو بيان لما عليه الفريقان ، فالمؤمنون احتكموا الى عقولهم ، وضبطوا أنفسهم ، وألزموها الحجة فكانوا على بينة من ربهم وصدق فى السلوك الباطنى والظاهرى مع خالقهم، وأرباب الشرك آثروا الهوى والرأى الزائغ على البرهان ، وركدت قواهم النظرية ، واتجهت الى اشباع رغبات حسية وضيعة ، فساءت أعمالهم وفسدت مقاصدهم (٢٣) .

واذا كان القرآن فى هذا الموطن قد نص على الرابطة بين الأهواء والجوانب العملية فقد ذكر فى موطن آخر العلاقة بين الهوى والاستكبار [**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون**] (٢٤) ونظرا لخطورة العلة الاستكبارية ، وعظيم جرمها سنقف معها بالذات وقفة استقصاء لما تحدثه فى النفس البشرية من مفاسد داخلية وخارجية .

اننا نعلم أن الأمراض النفسية الممثلة فى الصفات المرذولة بالذات لايقتصر داؤها على الانسان ذاته ، ولا تمزق نفس الفرد فحسب ، ولا تجنى عليه جناية محدودة ، وانما تدمر نوازع الخير فى الذات الفردية ، وتقضى على حالة الاعتدال التى تتحكم فى ضبط الصفات والتوفيق بين مقتضياتها ، وتحدث خللا فى الميزان الأخلاقى وفى حال الاستقامة للانسان ، كما تؤثر على تفكيره وتجنح به عن الطريق القويم ، وعن المنهج المثمر وتفسد علاقة الفرد بما يطرح عليه من أفكار قد لا يراها ملائمة لتلك العلة المستقرة فى نفسه ، كما تقطع

---

(٢٢) محمد ١٤ .
(٢٣) أنظر تفسير أبى السعود ج٥ ١٤٣ والكشاف ج٣ ٥٣٣ .
(٢٤) البقرة ٨٧ .

أواشج الصلات بينه وبين الآخرين ، ويصير الانسان المعلول واقعا تحت تأثير علته ، محصورا فى دائرة تصوراتها وأوهامها •

والكبر بمعنى التجبر (٢٥) من أعظم تلك العلل ، وأقواها امتلاكا لناصية النفس وتحكما فى قبولها ورفضها ، وهو صفة يدعيها الانسان لنفسه وبالتالى ليست من خصوصياته ، بل من كمالات اللـه سبحانه حسبما جاء فى رواية مسلم عن أبى مسعود الخدرى عن أبى هـريرة قالا قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم [العز ازاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته] (٢٦) أو [العظمة ازارى ، والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النـار] (٢٧) •

وينبع هـذا الادعاء لتلك الصفة أساسا من الغبـاء والجهـل والاعجاب كما أشار الراغب الأصفهانى فى كتابه (٢٨) الذريعة كما ينبع من ناحية اضافية بتأثير الامكانات المتاحة للانسان فى الحياة مثل الجاه السياسى أو الوظيفى ، أو الاقتراب من أصحاب السلطان ولو لم يكن متوليا لأمر من الأمور ، أو الجاه المـادى والثراء والتمكين فى الأرض، وقد ينشأ من القـوة العددية ولو لم تحرز جاها سياسيا أو ماديا ، وتتضح هـذه المنابع لمن يقـرأ القـرآن الكريم خاصة تلك الآيات التى سيقت فيها لفظة الكبر أو مشتقاتها •

وهـذه الصفة تسمى الكبر عندما يظن الانسان فى قرارة نفسه أنه رفيع القدر ، وأنه أكبر من غيره فى الذكاء أو الثقافة أو القـوة

---

(٢٥) القاموس المحيط ج٢ ١٢٤ •
(٢٦) مسلم بشرح النووى ج١٦ ١٧٣ •
(٢٧) الحافظ ابن أبى شـيبة : الكتاب المصنف ج٩ ٨٩ وأخرجـه ابن ماجة فى سننه ص ٣١٨ من طريق أبى الأحوص عن عطاء بن السائب •
(٢٨) الذريعة الى مكارم الشريعة ٢٩٩ — ٣٠٠ •

أو الجـاه أو غيرها ، وبما أن أى صفة نفسية لا تود الانطـواء فى الأحشاء وبقدر ما تدفع صاحبها بقوة للافصاح عنها فان الكبر الدفين يحرك صاحبه للاعلان عنه فى صور وكيفيات ومواقف متعددة ، منها الشكلى الذى يتعلق بالهيئة والمشية ، ومنها العملى الذى يبرز من خلال مسالك الشخص واستعلائه على الآخرين مهما كانوا ، وعندما يفصح الانسان الذى يحمل فى طويته الكبر عما بداخله يسمى متكبرا أو مستكبرا ، أى يحمل جرثومة الكبر فى نفسه ، ويخرجها فى صـور استكبارية عديدة .

والقرآن الكريم يتناول الصفة أثنـاء حديثـه عن المنكرين ، ويبين أنها سبب رئيسى حال دون انصياع هؤلاء المستكبرين من الطغاة أو الملأ من الأقوام ، أو المتغطرسين المتجبرين من الأفراد ، ويؤكد على أن الكبر علة نفسية سرت فى جوانبهم وسيطرت على الصدور فأحنقتها على الحق من داخلها ، وهو ما جاء فى قوله سبحانه [**ان الذين يجادلون فى آيات اللـه بغير سلطان اتاهم ان فى صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ باللـه أنه هو السميع العليم**] ٥٦ غافر ولم ترد لفظـة الكبر فى غير هذا الموضـع ، فهى مخصوصة بالداخل كما أشرنا الى ذلك توا ، ولايخفى علينا ما فى الآية من معانى تدل على أن أرباب الكبر يتصرفون من واقع تلك العلة ، ويناقشون أو يرفضون دون ما دليـل يسند رأيهم شأنهم شأن أرباب الأهواء السابقين تماما .

وفى غير الآية السابقـة ترد اشتقاقات الكبر مثل تكبر ومتكبر واستكبر ومستكبر ، وتمثل الأغلبية الساحقة التى وردت فيها هذه المـادة ، ويرتبط ورودها ببيان الآثار الفكرية والسلوكية التى نبعت ممن يحملون الكبر فى خبايا صدورهم ، ونظرا لأن القرآن يبين مواطن العلة حينا ويتناول بكثرة بيـان الآثار المترتبة على العلل المشار اليها فانه قد سلك نفس المسلك ، فبين موطن الداء فى القلوب والنفوس ، وأعلن أن الكبر غرر بالنفس البشرية وأوهمها بأنها تعلو فوق الآخرين

ولو كانوا مبلغين عن اللـــه ، وخيل اليها معه أنها فى استغناء تام عما جاء به هؤلاء الأنبياء ، وتصوروا أنهم انما جاءوا لينازعوهم سلطانهم، أو ينتزعوا منهم رئاســـتهم ، أو ينزلوهم من عليائهم ، ولقد نظـــر هؤلاء المتكبرون الى الأنبياء والدعاة بعيون ترى الآخرين صورة مما يدور بداخلهم ، ولم يظنوا أن كثيرا من البشر يتوقون الى ســــيادة الحق ولو على حساب راحتهم وأمنهم وما تملكه أيديهم ، ولا يبتغون من وراء ذلك منزلة أو سلطانا الا فى حدود ما يدعم هـــذا الحق ويقـــويه •

ولمـــا فسدت تصورات المتكبرين ساءت عقولهم فلم تفكر بشكل جيد ، ووضـــعت أمامها آيات اللـــه المتـــلوة والكونية فلم تعـــرها التفاتا يذكر ، ولم تنل منها تلك الآيات الا الانكار والجحود والاستهزاء ممن جاءت على أيديهم أو دعوهم اليها ، وصرفوا عن تأملها بعقولهم ، كما صرفت قلوبهم عن الاعتبار والاتعاظ بها ، وكذلك ساءت مسالكهم العمليـــة ، وانحرفت ردود فعلهم ازاء دعوة اللـــه سبحانه لهم ، واشترك هؤلاء المتكبرون فى عدم الانصياع للأنبياء ، حيث تكبر أولا ابليس فى أن يسجد لآدم ، وتكبر قـــوم نوح وعاد وشعيب ، وتكبر فرعون وملأه على موسى وأخيه ، كما تكبر الأحبار على عيسى وتكبر رؤساء قريش واليهود والنصارى وكسرى وقيصر على الاستجابة للنبى محمد صلى اللـــه عليه وسلم ، وما زال صناديد الكفر من كل فريق يلوون رؤوسهم معرضين متكبرين ، وكان انكارهم المبنى على التكبر شاملا لتكذيب الرسل وماجاءت به من آيات ، ولانكار البعث عند فريق منهم ، وبمعنى آخر فان الانكار قد توجه الى القضايا الثلاث الكبرى: الألوهية والنبوة والبعث ، وهى القضايا التى دعا اليها الأنبياء أولا ، وانصب عليها القبول من المؤمنين أو الرفض من المنكرين •

ولقد تحدث القرآن عن شكوى نوح من قومه [**وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعـــلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا**

واستكبروا استكبارا] ٧ نوح ، وأما عاد [**فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون**]٥ فصلت وأعلن الثموديون الذين استكبروا من قوم صالح [**للذين آمنوا انا بالذى آمنتم به كافرون**] ٧٦ الأعراف ، وجاء موسى الى فرعون وملاه [**فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**] ١٣٣ الأعراف ، ٧٥ يونس ، وقال سبحانه فى شأن من دعاهم النبى صلى اللــه عليه وسلم [**ومن الناس من يشترى لهو الحــديث ليضل عن سبيل اللــه بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين واذا تتلى عليــه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيــه وقرا فبشره بعذاب أليم**] ٦ — ٧ لقمــان [**وأقسموا باللــه جهــد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا · استكبارا فى الأرض ومكر السيىء ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله**] ٤٢ — ٤٣ فاطــر [**انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا اللــه يستكبرون**] (٣٩) ٣٥ الصافات .

وهكذا وجدنا علة الكبر النفسى والاستكبار السلوكى داعيــة للتكذيب ، ودافعة على الكفر ، وصارفة عن التصديق فهى اذا علة كبرى لا تنخر فى تضاعيف الحسنات فتقللها كما تفعل علل وذنوب أخــرى ، ولكنها علة تحول دون وقوع الايمــان ذاته وتصنع حجابا بين صاحبها واستجابته لدعوة الحق .

---

(٣٩) وانظر الآيات : الانعــام ٩٣ ، الأعراف ٤٠ ، ابراهيم ٢١ ، النحل ٢٢ ، الفرقان ٢١ ، القصص ٣٧ — ٣٩ ، غافر ٢٧ ، ٣٥ ، الشورى ١٣ ، الجاثية ٨ ، ٣١ — ٣٣ ، المنافقون ٥ ، المدثر ١١ — ٢٥ ، والمؤمنون ٦٥ — ٦٧ ، والنساء ١٧٣ . وراجع تفسير ابى السعود فى شرح هــذه الآيات بأجزائه الخمسة .

فلا غرو بعد ذلك اذا رأينا رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم يحذر من الكبر ، وينذر بعاقبة المتكبرين فيقول عن الصفة معرفا لهــا [الكبر بطر الحق وغمط الناس] وأن محله القلب بدليل قوله صلوات اللــه عليه [لا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان، ولا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر] ويتحدث عن المتكبرين وصــفاتهم فيقول [لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم] وهو من أعتى الصفات المهلكة [ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات : فتقوى اللــه فى السر والعلانية ، والقول بالحــق فى الرضى والسخط ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأما المهلكات فهوى متبع ، وشح مطاع ، واعجاب المرء بنفسه وهى أشدهن] والمتكبر لا يرفع نفسه بين الخلق بكبره لأن [من تواضع للــه رفعه اللــه فهو فى نفسه صغير ، وفى أعين الناس عظيم ، ومن تكبر وضعه اللــه فهو فى أعين الناس صغير وفى نفسه كبير حتى لهــو أهون عليهم من كلب أو خنزير] والمتكبر من بين الثلاثة الذين لا ينظر اللــه اليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم وهم [شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر] ، والمتكبرون سكان النار [ألا أخبركم بأهل النــار كل عتل جواظ مستكبر] أو [كل جواظ زنيم متكبر] [٣٠] •

ونلحظ العلمية الفائقة فى كل من نصوص الكتاب والسنة ، حيث تبين كلها مكمن الداء فى علة الكبر وسببه ، وصفات المتكبرين ونفسياتهم وتصرفاتهم ، وأخيرا عاقبتهم السيئة •

---

(٣٠) العتل الجافى شديد الخصومة ، والجواظ الجموع المنــوع او المختال او التاجر ، والزنيم الدعى فى النسب ، وانظر الخطيب التبريزى: مشكاة المصابيح ج٣ ١٤١٣ — ١٤١٦ ، والكتاب المصنف ج٩ : ٨٩ — ٩١ والنووى فى رياض الصالحين ٣٣٤ — ٣٣٥ ، وشرح السنة ج١٤ ٣٠٨—٣٠٩ ومجموع الفتاوى ج٧ ٦٢٦ ، ٦٧٧ •

٣ — الحسد :

وهـذه علة ثانية تلبد النفس بغيوم سوداء ، وتجللها بأثواب قاتمـة ، وتمزقها أسى وحسرة على ما وجد عند الغير ولم يوجد لديها ، وتجعل القلب يموت كمدا لـما يرى من الرغائب فى أيدى الآخـرين ، ان تلك العـلة مرض خانق يتملك النفس ويفسدها ، ويستقر فى القلب ويميته ، ولا تنفع معه حيل الاسترضاء أو الاقناع لأن عقل الحاسد يقع تحت تأثير هذا الداء فلا يصيخ أذنا أو يفتح عينا ، أو يتقبل حجة.

والحسد تمنى زوال النعمة ، أو الأسف على من له خير بخيره ، وضن الانسان بشىء غيره وبما ليس فى يده ، والمتصف به يسـمى حاسدا ، وصاحب التمنى والأسف والضن السابق نراه قد يرغب فى زوال ما لدى الغير والحصول عليه لنفسه ، وقد يتمنى أن تذهب نعـم الآخرين ولو لم يحصل على شىء منها ، بل يستريح جدا وتهدأ نفسه الحاقدة عندما يرى تلك النعم قد ولت من أربابها ، والعجيب أن تلك الأيادى التى يستشيط الحاسد غضبا لوجودها عند بعض الخلق ليست من نواله ولا من بذله أو كده ، فهو لا يبخل على المحسود بما يعطيه له ، وانما يكره أن تصل النعم على اختلاف ألوانها الذكائية أو المـادية أو الروحية من أى مصدر كان : انسان أو خالق جل جلاله ، ولو استطاع بحيله ومكره أن يمنعها لمنعها ، ولو لم يستطع لتمنى زوالها فقط .

ولتلك العـلة الواحدة علامات وثيقة بأمراض نفسية أخرى ، فله ارتباط قوى بالبخل ، وبأشنع أنواع البخل ، ذلك لأن البخـل المشهور يقتصر على امساك الانسان لـماله عن غيره(٣١) ، وهذا البخل المرتبط بالحسد ارتقى حتى وصل إلى أن يبخل صاحبه بما لا يملكه ،

---

(٣١) الراغب الأصفهانى : الذريعة : ٣٤٨ — ٣٤٩ .

وبما لا حيلة له فى جلبه ، أو لا استطاعة له أصلا على الحصول عليه لنفسه أو لغيره ، والبخيل العادى يبخل بالمال الذى سعى اليه بجهده وأعطاه له ، والحسود يبخل بمال الله الذى يعطيه لمن يشاء ، والبخيل من الدرجة الدنيا يبخل ببعض المتع التى حققت له سعادة نفسية ، وحظوظا عاجلة ، والحسود البخيل من الدرجة العليا يضن حتى بالحقائق التى لا طاقة له عليها فى الحصول أو العطاء ، والتى تخدم من أعطاها الله له ، وتدر على الانسانية جمعاء خيرا عاجلا وآجلا وفيرا ، ويعم الخير حتى هؤلاء الحاسدين لو تخلوا عن حسدهم يوما ما .

للحسد من ناحية ثانية صلة بالحماقة ، لأن اغتمامه بالخير الذى يناله الأقارب ، أو المحيطون به ضرب من الجهل وانغلاق الأذهان ، ومن اغتم لخير قريبه فهو أشد غما لخير ناله البعيد ، ولو زال الجهل لحظة واحدة لعلم أن الخير الذى تحقق للقريب أو البعيد قد يعمه بجهة ما ، ولكنه غفل عن هذا فصار جاهلا بالأسباب ومحلها وعموم نفعها ، وأيضا لما حنق فى قلبه على عطاءات الآخرين مع احتياج الكل اليها ضرورة أن الخير موزع من الله على الأفراد بقدر استعدادهم واستحقاقهم وأن هذا الخير الموزع لا يقف نفعه عند صاحبه بل يتعداه الى المجموع وهكذا فى كل نوع من الخيرات حتى يتحقق للجميع عن هذا الطريق ما يرغبون ، أقول لما جهل هذه الحقيقة صح أن يوصف بالحماقة الواسعة ، وأن يموت الحسود كمدا بعلته فلن يتحقق له ما يصبو اليه قلبه المريض ، يقال هذا فى توزيع العطاءات العقلية والمادية ، ومن باب أولى فى الاختصاص بدرجات النبوة .

وفوق هذا كله فالحسود بحنقه على النعم لدى الآخرين وهى فيض عطاء البارى [ساخط على قضاء الله وقدره غير راض عن حكمته فى قسمته ، وهذا أول باب من الكفر والمعصية ظهر فى السماء ، وأول باب من الكفر والمعصية ظهر فى الأرض حسد ابليس آدم فأبى

أن يسجد له ، ثم حسد ابن آدم أخاه] (٣٢) على زواجه من الجميلة فقتله .

واذا نظرنا الى تلك العلة بروابطها ووشائجها المتمثلة فى البخل والحماقة والسخط على اللـه والخروج على قضائه وتأملنا مع ذلك القرآن الكريم وجدناه يتعرض لهذا السبب الانكارى الذى أدى الى جحود فريق من البشر أثناء حديثه عن أهل الكتاب خاصة ، وذلك لأنهم — دون بقية الكفار — يدركون قيمة النبوة ومنزلتها ، وتوالت فيهم الأنبياء ، ولديهم نزعات التعصب العرقى ، والتعصب العرفانى، وكانوا يتطلعون الى أن يكون النبى الموعود والمبين فى التوراة والانجيل بصفاته ورسالته من بينهم ، ولأنهم بطبيعتهم ماديون أنانيون بخلاء لهذا جاء الحسد علة لانكارهم على وجه متميز وواضح ، وسيق فى القرآن الكريم تعليلا نفسيا لكثير من مظاهر الفساد التى طبع عليها هؤلاء ، والتى من بينها الايمان بالجبت والطاغوت ، وافتاء الكافرين بأنهم أهدى سبيلا من المؤمنين ، وزعمهم الباطل أن الملك سيصير اليهم ، ولقد بلغ بهم القبح مبلغا جعلهم لا يقفون عند ضلال أنفسهم بل تعداه الى محاولة ارجاع المؤمنين كفارا ، فى هذا الجو كله يظهر الحسد سببا كامنا وراء هذه المفاسد ، كما يظهر كذلك علة لمفاسد بعض المشركين عامة .

يقول سبحانه [**ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل اللـه يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ، أنظر كيف يفترون على اللـه الكذب وكفى به اثما مبينا ، ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ، أم لهم**

---

(٣٢) د. محمد دراز : من خلق القرآن ١١٤ — ١١٨ .

نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللـــه من فضله فقد آتينـــا آل ابراهيم الكتاب والحكمـــة وآتيناهم ملكا عظيما] ٤٩ — ٥٤ النساء •

ويقول سبحانه [ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم واللـــه يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن اللـــه على كل شيء قدير] الى أن يقول [ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره أن اللـــه على كل شيء قدير] ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ البقـــرة •

وتحمل هذه الآيات دلائل هامة : منها أن اللـــه سبحانه اذ يكشف حال اليهود وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين ببيان علة الحسد ودائه المستشرى يوضح هذا للمؤمنين لينتبهوا الى مكائد العدو ومحاولاته ، وليحذروا من اغوائه وافساده وليطلع هؤلاء الذين وسموا بالحسد على حقيقة نواياهم ، وما انطـــوت عليه صدورهم من أحقاد ، وأن تمنيهم زوال نعمة النبوة عن النبى صلى اللـــه عليه وسلم ، وحنقهم على الفضل الذى أحرزه المؤمنون ممن انضموا الى دعوته واستجابوا له لن يغير من الأمر شيئا ، ولن ينقص من فضل اللـــه الذى اختص به نبيه ، ولن يزحزح من ثوابت الايمان الذى استقر فى قلوب الصادقين فى كل زمان ومكان ، ولن تنتقل تلك الميزة التى حبا اللـــه العالم كلـــه بهـــا ممن جاءت على يديه الى واحـــد منهم ، ولن يستجيب اللـــه للمشركين أو أهل الكتاب فى أن يكون النبى الموعود واحدا من أثرياء العرب أو شخصية يهودية ، ولن يفوز أهل الكتاب بأن يكونوا الحمـــلة المصطفين ، والصـــحبة المختارين لنبى ينتمى الى عرقهم وجلدتهم كما يودون •

وإنهم يعلمون يقينا أن النبى محمـــدا هو الرسول الموسوم فى كتبهم ، ويدركون دلائل نبوته ، وصدقه فى رسالته فاذا ما حسدوا وأنكروا فليس لديهم دليل واحد يقدمونه شاهدا لهم على الانكار ، ومن ثم فقد نبع الحسد من جوانية خبيثة ، ودخيلة مطوية على الشر ، وجاءت العلة الدفينة [من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبـــل التدبر والميل مع الحق] (٣٣) أو هى منبعثة من أصل الضمائر العفنة بالغة أقصى مراقيها ، قادمة من قلب مؤتفك مظلم ، ومنطو على بغض الخير وأهله ، ولا يستثنيون بدليـــل من عقل أو حجة [من كتاب ، ولا أمروا به فهو من تلقائهم ، ولفظـــة الحسد تعطى هذا ، فجـــاء « من عند أنفسهم » تأكيدا والزاما كما قال تعالى « يقولون بأفواههم » و « يكتبون الكتاب بأيديهم »] (٣٤) وجاءت لفظة « حسدا » تعليلا لمواقفهم ، وبيـــانا لدوافع تصرفاتهم ، أو فعلوا ما فعلوا من أجـــل الحسد ، أو حال كونهم متلبسين به .

ونجد هذا العلائق الايمانى فى أخبار وردت على لسان بعض أهل الكتاب أنفسهم ، فقد قال بحيرى الراهب المعروف عندما شاهد النبى قبل البعثة مخاطبا عمه [ان اليهود حسد والنبى أخشاهم عليه] (٣٥) وقال الراهب الشامى (عيصا) الذى كان يقيم بمكة فى جوار العاص ابن وائل عن النبى [انه لم يحسد أحـــد حسده] (٣٦) وسأل النبى صلى الله عليه وسلم أحد علمائهم واسمه عبد اللـــه بن صوريا ، وكان من خيرة أحبارهم بعدما ناشده بدينه وما أنعم اللـــه به عليهم

---

(٣٣) تفسير أبى السعود ج١ ٢٣٨ .

(٣٤) ابن عطية : المحـــرر الوجيز فى تفســـير الكتاب العزيز ج١ ٤٤٥ — ٤٤٦ .

(٣٥) البداية والنهاية ج٢ ٣١٠ .

(٣٦) نفس المصدر ج٢ ٢٩٥ .

[أتعلمنى رسول الله قال اللهم نعم ، وان القوم ليعرفون ما أعرف ، وان صفتك ولغتك لمبين فى التوراة ولكنهم حسـدوك] قال النبى له [فما يمنعك أنت ؟] قال [أكره خلاف قومى وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم] (٣٧) وقال أنس بن مالك عنـدما مر على ديار بعض أهـل الكتاب وصوامعهم الفانية [هـذه ديار قوم أهلكهم البغى والحسد ، ان الحسد يطفىء نور الحسنات ، والبغى يصدق ذلك أو يكذبه] (٣٥) ، والكفر بالعناد والحسـد مع العلم جائز عند فريق من علماء أهـل السنة (٣٩) وجوازه مبنى على غلبة الطبع القلبى ، والظلمة النفسية على تلك الحقائق العلمية الموثوق بها ، أو هو قائم على أساس اختفاء التأثير العلمى وقوته تحت أكوام الظلمات النفسية وركامها •

ولم يقتصر البيان القرآنى مع ما جاء من شـواهد أخرى على كشف الدافع الانكارى أمام المؤمنين ، وأمام أصحابه ، ولا على خلوه من الاستدلال وقيامه فحسب على الحظوظ النفسية بل رد القـرآن على الحاسدين فقال لهم ، لم تحنقون على النبى صلى اللـه عليـه وسلم وصحابته فى النبوة والهداية والحـال أننا قد **[آتينا ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما] ؟**

يقول ابن عطية [لم تحسدون العرب على هذا النبى صلى اللـه عليه وسـلم وقد أوتى آل ابراهيم صلى اللـه عليه وسلم — وهم أسلافهم — أنبياء وكتبا كالتوراة والزبور ، وحكمة وهى الفهم فى الدين] (٤٠) ويقـول أبو السـعود : [فقد آتيتنا ••• تعليل للانكار

---

(٣٧) نفسه ج٢ ٣٥٠ •
(٣٨) سنن ابى داود ج٤ ٢٧٧ •
(٣٩) المحـرر الوجيز ج١ ٤٤٦ وهامشها •
(٤٠) نفسه ج٤ ١٤٤ •

والاستقباح والزام لهم بما هو مسلم عنـــدهم ، وحســم لمــادة حســدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لمــا أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر] (٤١) .

ولخطورة هذه العلة بين الأقوام السابقين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطهر المجتمع الاسلامى من داء الحسد فقال [لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعــوا وكونوا عباد اللــه اخوانا] (٤٢) وقال [اياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب] (٤٣) وقى اللــه نفوسنا وقلوبنا وسلوكنا منه .

مدى العناد فى هاتين العلتين :

يتبين لنــا من خلال الفقرتين السابقتين مدى عظم علة الحسد والاستكبار ، والمشاهد فى علاقات الناس أن عللا كثيرة يمكن مداواتها بخلاف هاتين العلتين فانه من العسير أن يعالجا ، والصعب أن يتخلص منهما صاحبهما الا بعد جهد جهيد ، ومن ثم فقد لزم على الدعاة مراعاة هاتين الخصلتين ، والصبر على من يحملهما ، مع المداومة على التذكير والوعظ ، واتباع المنهج القرآنى فى المطالبة بالأدلة لو كان معهما ، ولو استطاع كل مستكبر أو حاسد أن يجد دليــلا يقــدمه .

ثالثا : المــادية المفرطــة :

المتتبع لتاريخ الفكر البشرى يجد أنه فى الأحقاب التى يسيطر فيها الدين على أى شكل من الأشكال كان فان الأذهان تمتلىء بالفكرة

---

(٤١) تفسير ابى السعود ج١ ٧١٧ .
(٤٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ ١١٥ .
(٤٣) سنن ابى داود ج٤ ٢٧٦ ورياض الصالحين ٦٩٧ .

الدينية ، ويسيطر الدين على اهتمامات الانسان الذهنية ، والسلوكية ، وربما نشأت حضارة عريقة وقوية فى حضن المعابد كما هو الحـال عند الفراعنة والكلدانيين واليونانيين ، ومن الجائز أن يسيطر الدين على الحياة والنشاط العقلى والأخلاقى ، ويكون محور التفكير فى كل وقت ومناسبة ومع ذلك لا تقوم حضارة ما كما هو الشأن عندما سيطر الدين المسيحى على أوربا فى القرون الوسطى ، ولذلك ظروفه وأربابه التى ترجع الى عدم ملاءمة الدين لمطالب الحياة ، ووقوفه فى وجـه المحاولات الانسانية الرامية الى فهم الكون ، وظلم رجال اللاهوت الى آخر ما هو معروف (٤٤) ، الأمر الذى أودى بأوربا الى نبذ فكرة الارتماء فى حضن الدين كليـة •

وفى الوقت الذى ينهار فيه السلطان الدينى وتهتز قيمه ، وينعدم تأثيره أو يضعف يصاب الانسان فى هذا المكان أو ذاك بخواء فكرى وروحى ، وتدنو اهتماماته الذهنية ، وتسفل مثله أو تنحط ، ويتجـه التفكير عادة من المثل العليا الى صغائر الآمال ، وتوافه الرغبات ، ويحصر الكائن البشرى نفسه فى نطاق ضيق من الوعى ، ومجال محدود من الادراك ، وكثيرا ما ينظر حوله فلا يسترعى انتباهه الا المـاديات والعـالم المحسوس ، هـذا العالم الذى يبـدو بهـديره الحركى والوجودى كالطوفان الكاسح ، وينبهر الانسان به فى عظمته ، ويفتتن بمظاهره ومتعه ، ويقدس زينته وحدها ، وتدعوه الحاجة الى هــذا العـالم لأن ينسى كل شىء وراءه ، أو ينكر ما سواه ، ويستغرقه

---

(٤٤) لا احب ان يفهم القـارىء اننى اهدف الى نشأة الحضارة عند الفراعنة والكلدانيين لتعايش الدين الوضعى مع الفكر وارتقائهما بالانسان على عكس الدين المسيحى ، وانما الغرض هو ان سلطان الفكرة الدينية ايا كان يمكن ان يحدث ملاء ذهنيـا ، وبفقدانه ينتج الخواء والاقبال على المـادية •

العالم استغراقا يجعل من هذا الانسان المفتون عابدا لتلك الطبيعة الفسيحة .

وفى هذه الحقب التى تسودها المادية ، وترمى بثقلها على الانسان تتنوع المشاعر ازاءها ، وتختلف الأفكار أمام بريقها ، فهناك الفريق المغتر الذى توارت عنده أحاسيس التدين ، وظهرت على نفسه النزوات الدنيوية ، وخفتت أصوات الحقائق العليا ، وارتفعت هتافات الخطوط العاجلة ، وانطمست عين بصيرته وتفتحت أعين رأسه على كل براق خادع ، وهناك فريق آخر ماتت فيه نهائيا أحاسيس التدين ، وانعدمت بالكلية نداءات الحقيقة ، وطبع على قلبه وادراكه فلم يعد يفهم موجودا وراء هذا الكون ، ولا يتصور حياة تعقبه ، أو قوة تديره وتدبره ، فأنكر كل ما سوى المحسوس ، وكفر بغير العالم المادى ، وبذا يقع الانسان وهو بعيد عن التدين الصحيح نهبا للغرور والافتتان بالدنيا ، أو فريسة للمادية والكفر والعناد ، ويفتقد هذا وذاك الكيان الحقيقى للانسان ، والشعور بالتسامى الراقى ، ويضمر منطقة من ألذ مناطق التفكير ومساحة من أغنى ساحات السعادة وبقاعا من أثرى البقاع امتاعا للوجود الانسانى العاجل والآجل ، وتضيع منه معانى عذبة لا يجدها بلورة بين ظلمات التفكير المادى ، وتتفلت من يديه أنظمة لا يجد عدالتها مهما أجهد التفكير عقول العباقرة للحصول على طرف مناطق لها .

والماديون اذ يقرأون تلك العبارات لا يتصورونها حقائق بقدر ما يحسبونها تراشقا لفظيا ، أو أساليب انشائية ، ولا يتذوقون مثل هذه اللغة وما تنادى به من حقيقة وجيدة متمثلة فى الدين الصحيح الذى ارتضاه الله لعباده ، وهذا هو ديدنهم المستمر مع الأنبياء ، لم يرق تصورهم ليستوعب لغة النبوة وحالها ، ولم يدر بخلدهم صدق ما جاءوا به ، والسبب يرجع الى ما قلناه من انسداد

المنافذ الصحيحة للتفكير ولنغلاقها على المادية ، وعدم السماح لأى فكرة غير قادمة الا من الطبيعة ، أى أنهم فقدوا الطريقة السليمة للوعى والتفكير ، وضلوا السبيل الجيد لمعرفة الحقيقة الشاملة للكون وما وراءه ، فلا عجب بعد ذلك أن يعتبرهم القرآن فى مصاف الحيوانات الذين لا يعقلون ، أو فى عداد الموتى الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ولا يهتدون ٠

وحول الذين اغتروا بالحياة الدنيا ، واتخذوا موقفا ساخرا من الدين الحقيقى وهو الاسلام ، وأنسوا بمتع الحياة ، ورضوا بزائف من التدين الوثنى ، وبمعتقد بال من الشرك بالله يقول المولى عز وجل : [زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب] (٤٥) ، [وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون] (٤٦) [الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون] (٤٧) [ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون] (٤٨) ٠

وعن الذين اتخذوا المادية اعتقادا ، ولم يروا غير الكون المشاهد ، ولا قبلوا فكرة الوجود الغيبى ، ولم يقتنعوا بابداع الله لهذا العالم ، بل ظنوا الكون هكذا وجد ، وهكذا يسير ، أو هكذا تخرج حركته من

---

(٤٥) البقرة ٢١٢ ٠

(٤٦) الأنعام ٧٠ ٠

(٤٧) الأعراف ٥١ ٠

مادته ، وتتطور من تلقـــاء ذاتها ، عن هؤلاء قديما وحديثا يقول اللـــه ســبحانه [**وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**] (٤٩) [**وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيـــا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون**] (٥٠) . واستوعب الرد على هؤلاء وهؤلاء مساحات شاسعة من النصوص فى الكتاب والسنة وهى أشهر من ذكرها أو أعلم من أن تذكر • وكم حذر النبى صلى اللـــه عليه وسلم المسلمين من الدنيا وهوان شأنها على اللـــه ، وأنها حلوة خضرة وأن اللـــه يستخلفنا فيها لينظر ماذا نفعل ، وأعلمنا أنه لا يخاف الفقر علينا ولكن يخشى بسطة الدنيا فتهلكنا كما أهلكت من قبلنا (٥١) •

وتتسم نفس المـــاديين بالذاتية وحب المنفعة ، ويدور نشاطهم الاجتماعى حول مبدا النفعية ، وهم دائبو البحث فى المجتمع عن عنصر الاستحقاق لأنفسهم بمقابل وبلا مقابل ، ومهما فتشنا فى ذواتهم فلن نرى غير ركام من حب المصالح والمنافع الخاصة ، وتخلو نفوســـهم من المثل العليا والفضائل النبيلة كما يخلو تفكيرهم من المعانى والحقائق الخيرة ، ويسيطر عليهم منطق الحس والمحسات ، ولهذا كله يقفون من الدعوة موقف الانكار والمعارضة لعدم تصورهم ما جاء به الأنبيـــاء ، ولخوفهم على مطامعهم ورغباتهم ، وتنطوى معارضتهم على الخبث والنذالة ، ويحتاجون من الدعاة أن يفاصلوهم عند اليأس منهم ، وأن يميزوهم أمام الجميـــع ، ليعـــرف الناس طبائعهم فلا ينساقوا الى سبيلهم •

---

(٤٩) الانعام ٢٩ .
(٥٠) الجاثيـــة ٢٤ .
(٥١) راجع : سنن الدارمى ج٢ ٢١٦ ، ٢١٩ ، وفتح البـــارى ج١١ ٢٢٩ وما بعدها .

رابعا : الفساد العقلى والقلبى :

الجهاز الادراكى بأدواته الحسية كالسمع والبصر والذوق ، والعقلية والقلبية جهاز نفسى من الدرجة الأولى ، وهو تابع للنفس تبعية مطلقة ، وينتسب اليها انتسابا كليا ، وليس يخرج عنها أى جانب من جوانبه ، وتبعيته هذه تجعله خاضعا لها فى ظروفها وكيفياتها المختلفة ، فان صحت قواها ، وسلمت دوافعها ، واستقامت صفاتها ، وخلت من العلل والمؤثرات الداخلية والخارجية استطاعت أدوات الادراك أن تعمل فى نصفة واعتدال ، ولهذا اشترط علماء المعرفة أثناء نقد الوسائل الحسية والعقلية أن يخلو الانسان من أى مؤثر يفسد سير العملية المعرفية ، خاصة التقليد ، والوقوع تحت الأفكار الجمعية السائدة فى المجتمع ، أو التأثر بنزعاته الشخصية ، أو تدخل الهوى والمزاجية •

وهذه العلل النفسية كالكبر والحسد والهوى ، وتلك العوامل الخارجية كالتقليد للسابقين فى أفكارهم أو عقائدهم أو الخضوع بوعى وبدون وعى للتيارات السائدة تطمس فى الانسان نداء الفطرة الخفى الذى يدعوه بصوت خافت جدا لأن يؤمن بالله ، وتضيع الهمسات الفطرية النقية بين صخب المؤثرات الخارجية ، وتدفن تحت ركام من المفاسد التى تتحول اليها النفس ، وتتغير تلك العذوبة الطاهرة بين مرارة الصفات المرذولة التى تؤثرها بعض النفوس فتتصف بها وتسير عليها ، وكما تتغير الفطر بالعلل والمؤثرات كذلك يفسد الادراك بفعل هذه الأسباب نفسها ، وتصير القوى المدركة فى الانسان مستجيبة الى نداءات تلك النفس العليلة ، وأغراضها الدنيئة فتهتم جدا بما يرضى النزوات ويمتع الشهوة ، ويرضى الهوى ، وتعمل جاهدة لاشباع ما تبتغيه الجوانية المريضة ، وتفكر فى الحيل المتاحة من أجل الحصول على متطلبات الدخائل التى لا تمل الطلب والالحاح على الشهوات ، كما تفكر فى صد وعرقلة كل فكرة أو دعوة تقف فى

وجه رغباتها وأطماعها ، وتصير ذاتيتها هى معيار القبول والحماس لديها ، وبالتالى تنصرف عن الحقائق الهامة ، وتتخلى عن الدعوة بحجة واهية أو بلا حجة أصلا ، وتختلق المعاذير لتبرير اتجاهها ، ولذلك تظهر دائما بمظهر الأنانية والانغلاق على حدود الذات ، وتصم الآذان وتغمض العيون ، وتذهل العقل عما سوى ذلك ، وكأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، أو كأنها قد طبع على قلبها ، ولما أعرضت عن قبول الدعوة الحقة مع ما عندها من أصوات ادراكية ، ومع ما هو أمامها من آيات وحجج وبراهين نبه القرآن الكريم الى أنها فى عداد الموتى أو الأنعام ، والى أن أصحاب هذه النفوس صم بكم عمى لا يعقلون وللعلاقة بين العلل النفسية والعمل الادراكى عقد الراغب الأصفهانى فقرتين هامتين عن العلاقة بين الهوى والشهوة وبين العقل ، وانتهى فيهما الى أن النفس هى الوالى على البدن ، والقوى والجوارح صناع وعمال ، والشهوة عبد سوء جالب للميرة ، والحمية كصاحب شرطة والعقل هو المستشار الأمين ، واذا انتبه الوالى للشهوة وجاهدها بالحمية ، وأخضعها لنصيحة المستشار تأدبت الشهوة وقمعت ، واذا هدأت الحمية ، وطغت الشهوة وتسلطت أفسدت المملكة ، ولم يجد المستشار العقلى مكانا لنصيحته ، بل قد يضطر هو الآخر أن ينصح بما يرضى الشهوة ، وينسى مهمته الرئيسية فى النصح بالحق واللجوء اليه ، وتقديم الزواجر ولفت النظر الى العواقب ، وعندها يكون كالعدم سواء بسواء .

ومن سمات هؤلاء أن لا يفكروا فى الأفضل والأصلح من القريب والبعيد فى الآجل والعاجل بقدر ما يؤثرون دفع الأذى فى الوقت ، وأنهم بعقولهم القاصرة لا يفكرون فيما لهم وما عليهم وانما ينظرون الى ما يوافق هواهم فى الحصول على ما يبتغون من الدنيا فهم يتطلعون الى ما لهم فحسب ، وكذلك فاننا نراهم لا يفضلون الحجة والبرهان

بل يميلون الى الرأى الدبرى المفاجىء والمتغير حسب متطلباتهم(٥٢) ، وبهذا يفقدون ضوابط الحكم العقلى ونتائجه السليمة ، ويضلون الطريق الصحيح للادراك والفهم ، وينتهجون مسالك تتفق مع ميولهم ورغباتهم وأهوائهم النفسية والطبعية ، وعللهم الدفينة فى داخلهم •

وعندما نقرأ آيات القرآن الكريم نجد أنها نبهت البشرية الى ظهور تلك العلل وافسادها للنفس والسلوك والتفكير معا ، وأنها جعلت الانسان انسانا بمعرفته للحق واتباعه ، وانصياعه للايمان بالله والاستجابة له ، وبطاعته لله وعبادته ، وخضوعه واستسلامه ، والتصديق بالدعوة الحقة التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ما سواها ، وكما سبق بيانه فان الانسان خلق لمهتمين : الاستعمار الكونى ، والعبادة الحقة لله ، فاذا منح قوى ادراكية فلا بد أن تتجه تلك القوى الى الكون لتأخذ منه ما يبقى على حياتها ويحفظ قوامها ويلبى حاجاتها ، ولتنال منه علما ومعرفة تمخر على متنه عباب الماديات الى ما فوقها ، وتقطع بجلائه شبه الكون المحسوس الى الحقائق الربانية المستنيرة ، وتعلو به فوق زخارف الدنيا الى أبديات الآخرة ، وتسمو بتلك المعرفة فوق مطالب البدن الى مطالب الحق جل جلاله ، وفى الحقيقة لقد ركبت الأجهزة الادراكية فى الانسان ليحصل من ورائها على قوته ، ثم يتزود بها فى معرفة الله وطاعته ، معرفة تقوم على شرع الله ودينه الحنيف ، فان قصر الانسان فى استخدام هذه الأجهزة عن أداء رسالتها على الوجه المطلوب ، ولم يستجب لنداء الله فى كتابه وعلى لسان نبيه فقد تعطلت قواه الادراكية عن مهامها العليا ، وغاياتها السامية ، وصح فى تلك الحالة أن نحكم بفقدانها وعدمها ، وأن نعتبرها موجودة فى الظاهر وغير موجودة فى الحقيقة والأداء المثمر ، والانتاج المطلوب •

---

(٥٢) الذريعة الى مكارم الشريعة ١٠١ — ١٠٧ بتصرف شديد •

وهذا هو الحكم الذى صدر من اللــه على تلك الأجهزة اذ يقول [**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**] ١٧٩ الأعراف ، [**ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، ان اللــه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**] ٤٢ — ٤٤ يونس [**ما يأتيهم من ذكر من ربهم الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا بشر مثلكم أفتــأتون السحر وأنتم تبصرون**] ٢ — ٣ الأنبياء [**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**] ٤٤ الفــرقان [**انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**] [53] ٨٠ — ٨١ النحــل ، ٥٢ — ٥٣ الروم [**ويل لكل افاك أثيم يسمع آيات اللــه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيــه وقرا فبشره بعــذاب اليــم**] ٧ — ٩ الجاثية [**ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصــارا وأفئدة فما أغنى عنهم ســمعهم ولا أبصارهم ولا أفئــدتهم من شىء اذ كانوا يجحــدون بآيات اللــه وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**] ٢٦ الأحقاف .

ان أدوات الادراك من سمع وبصر وعقــل وقلب موجودة فى الحقيقة ، ويمكن أن تحقق معرفة بما تحتاجه النفس ، أو ينفع البدن ، أو يلبى حاجات الهوى ، ولكنها لا تتخذ طريقها الى الهداية ، ولا تسلك سبيل المعرفة نحو الحق ، ولا تبصر آيات اللــه وتتأملها ، أو تسمعها وتتدبرها ، أو يفكر المنكر فيما يبصره أو يسمعه تفكيرا يهــديه الى

---

(٥٣) وانظر ٦، ٧ لقمان ، ١٨ — ٢٢ فاطر ، ٤٠ الزخرف .

الدين الصحح والدعوة الحقة ، فقد انسدت منافذ ادراكه الموصلة إلى الايمان بالله ورسوله ، والكتاب الذى جاء به ، وتبع ذلك انغلاق للبصيرة ، وانسداد لمسام القلب وأبوابه ، فصاروا بذلك كالأنعام، لهم سمعهم وأبصارهم ولكنهم لا يعقلون بها شيئا ، ولا يتوصلون بها الى معرفة حقيقية سوى أنهم يرون بها مواضع أقدامهم على الأرض، أو يسمعون بها أصوات الأمر والزجر التى مرنوا على سماعها ، أو كأن المنكرين أموات يسمعون ولا يستطيعون الاستجابة ، وكذلك الكافرون يرون ويسمعون وقد يفهمون شيئا ولكنهم لا يهتدون .

خامسا : الطبع والرين والصرف :

اننا يمكننا أن نفهم العلاقة بين العلل النفسية والمؤثرات الخارجية وبين فساد الادراك ، والانحراف عن التصور الصحيح ، ولكننا نواجه نصوصا أخرى تتحدث عن أن الله سبحانه ختم على قلوب الكافرين وطبع عليها ، أو صرفها عن آياته ، أو أصابها الرين والغلف فلم تعد تفقه شيئا ، وهنا تنشأ مشكلة ، هل أغلق الله قلوب بعض البشر فلم تعد تقبل نداء الدعوة لما طبعت عليه من الرين والصرف ؟ واذا كان كذلك فالانكار هو نتيجة لفعل الهى فى تلك القلوب حال بينها وبين الايمان ، أو أن الختم والطبع وما شاكل ذلك جاء نتيجة التوجه الانسانى نفسه ، وبسبب الاستكبار والحسد والهوى والمادية وانكار البعث ، والفساد الادراكى والسلوكى ، والصد عن دعوة الحق ، كل ذلك أصاب القلوب بسياج من التصلب والقساوة ، وكساها بغلاف ظلمانى حالك ، وأحاطها بستار من الذنوب انسدت معه فتحاتها فصارت كأنها مغلقة ، وأضحت مطبوعة على الاثم ، موسومة بالكفر ، مختومة بخاتم الضلال والزيغ ؟

وقبل الاجابة على هذه الأسئلة نسوق لكل حالة من الحالات القلبية شاهدا واحدا ، يقول سبحانه فى الختم ومدى تأثيره فى البعد

والانغـــلاق [ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم اللـــه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصـــارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم] ٦ — ٧ البقـــرة [وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم اللـــه بكفرهم فقليـــلا ما يؤمنون] ٨٨ البقرة ، [ومنهم من يستمع اليك وجعلنا عى قلوبهم أكنـــة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه وأن يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون] ٢٥ — ٢٦ الأنعام ، [ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون] ١١٠ الأنعـــام [أو لم يهد للذين يرثون الأرض أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبـــع على قلوبهم فهم لا يســـمعون] ١٠٠ الأعـــراف [سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشـــد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين] ١٤٦ الأعراف [واذا قرأت القـــرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخـــرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم اكنـــة أن يفقهوه وفى آذانهم وقـــرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولو على أدبارهم نفـــورا] ٤٥ — ٤٦ الاسراء [طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ، فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها] ٢١ — ٢٤ محمـــد [كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون] ١٤ المطففين ، هـــذا وغيره كثير .

فكل نص من هذه النصوص أشار الى حالة من حالات القـــلوب المنكرة ، فهناك القلب المختـــوم ، أو المغلف أو المصاب بالأكنـــة ، وأصيبت معه الآذان بالوقر ، أو القلب الذى قلبه الحق فلم يثبتـــه ،

أو الذى طبع اللـه عليه ، أو صرفه عن الآيات ، أو جعل بينه وبينها حجابا لا يفقهها ، أو جعل عليه قفـلا لا يفتح للحق أو أصيب بالرين ، أو شل نشاط العين والسمع فأعماها وأصمها •

وهذه الأحوال نتاج الفعل الانسـانى ، والاكتساب البشرى ، السلوكى أو الادراكى ، وهى أغلفـة تطرأ على القلب من جـراء الذنوب والمعاصى والجحود التى مال اليها المعارضون ، أو بنحـو نحوها الفساق ، ولمـا كان كل حال منها عقابا من اللـه على موقف انسانى معين فقد جاءت فى القرآن الكريم مرادفة لعللها الصادرة من الانسان نفسه ، وذلك على جهة الغلبـة ، فيرد الختم عقابا للاصرار على الكفر ، ولمـا قال اليهود قلوبنا غلف أى بذاتها كان الرد عليهم [**بل طبـع اللـه عليها بكفرهم**] ١٥٥ النساء ، ونفس الشىء أصاب الكفار بالذنوب فطبع على قلوبهم [**فهم لا يسمعون**] ، وحين غفـل الساترون للحق عن آيات اللـه ، ولم يتوجهوا الى الادراك الصحيح صاروا كالأنعام وذرأهم لجهنم ، وذلك بسبب غفلتهم ١٧٩ الأعراف ، ولو علم اللـه فيهم خيرا ما ذرأهم ولأسمعهم ٢٣ الأنفال وهكذا يطبع اللـه على قلوب المعتدين والكافرين ، وعلى قلب كل متكبر جبار ، وقلوب الذين لا يعلمـون ، كما يطبـع على قلوب المنافقين الذين يستأذنون من الجهـاد مع قدرتهم وغناهم ، والذين يستمعون الى رسول اللـه فيخرجون وهم يسألون [ماذا قال آنفـا] ، ولا يصم اللـه الآذان ، أو يعمى الأبصار الا لمن أفسد فى الأرض أو قطـع

---

(٥٤) **الختم** مصدر ختمت الشىء ومعناه التغطية ، **والغلف** اى أوعية للحكمة لا تحتاج الى علم محمد كما قال اهل الكتاب أو هى بمعنى الغطـاء والاكنـة والطبع ، **والاكنـة** الاغطية جمع كنان اى كننت الشىء فى كنـه اذا جعلته فيه واكننته اخفيته ، **والوقـر** الصمم ، **والطبـع** عليه كنـع وختم ، **وران** عليها كثرت عليهم الذنوب واحاطت بهم مثل غلب عليها من ران رينا وريونا ، وكل ما عليك وعلاك فقد ران بك وران عليك .

الأرحام ولم يطع الرسول ، أو يقل معروفا ، والرين على القلوب بما كسبت أربابها ، هكذا بين القرآن .

ومما يؤكد كون تلك الأحوال عقابا على انحراف ادراكي أوسلوكي ما جاء في قوله تعـالى [**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**] ١٠٤ الأنعام وقوله سبحانه حكاية عن قوم موسى معه [**فلما زاغوا ازاغ اللـه قلوبهم واللـه لا يهدى القوم الفاسقين**] ٥ الصف ويستدل في هذا المقـام بمـا رواه أبو هريـرة قال : قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسـلم [ان المؤمن اذا أذنب ذنبا كان نكتـة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستعقب صقل قلبه ، وان زاد زادت حتى تغلق قلبه ، فذلك الران الذى قال اللـه فيه « **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** »](٥٥)، واذا كان حال المؤمن مع ايمانه فمن باب أولى يكون حال الكافر .

ويقول ابن جرير الطبرى في تفسيره [أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب اذا تتابعت على القلوب أغلقتها واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل اللـه سبحانه والطبع فلا يكون اليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو الختم الذى ذكـره اللـه سبحانه] في كتابه ، واذا كان الأمر كذلك فيميل كثير من المفسرين الى القـول بأن الأحوال التى تصيب القلب من الرين والقفل والطبع الى آخره من قبيل المجاز ، وهى كنـاية عن الاعراض والكفر والضلال الصادر منهم ، وهم المتسببون فيه بما قاموا به من اهمـال في التفكير ، ومن انصياع للهوى والرغبات النفسية ، أدى الى النكران والجحـود ، وأسند الطبع والختم الى اللـه لكونهم كفروا به كما نقول أهلك المـال

---

(٥٥) رواه من هذا الوجه الترمذى وصحح والنسائى كذلك .

فلانا ، وانما أهلكه سوء تصرفه فيه وحده (٥٦) ، ويقول الشـــوكانى [والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان ، أى لمــا كانت قلوبهم غير واعية لمــا وصل اليها ، والأسماع غير مؤدية لمــا يطرقها من الآيات البينات الى العقل على وجه مفهوم ، والأبصار غير مهدية الى النظر فى مخـــلوقاته ، وعجائب مصـــنوعاته جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختما حسيا ، والمستوثق منها استيثاقا حقيقيا والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلا] ويرى أن ارجاع تلك الأحوال الى الأسباب الانكارية ، والانصراف البشرى عن الحق هو الصحيح عنده ، فكل فعل أدى الى حال ، وكل جرم أدى الى عقاب من جنسه ويلائمه ، ولمــا تعـــددت الأفعال والجرائم تعددت أنواع العقــاب والأحوال التى تصيب القلب من ورائها ، وما فعل اليه فعلا عقابيـــا يصيب السمع أو البصر أو الأفئـــدة أو القلب الا مجازاة لهم على كفرهم واعراضهم ، وهذا بنـــاء على أن الأحوال من قبيل الحقيقة لا المجاز كما هو حال الرأى الأول .

وحتى فى تلك النصوص التى يرد فيها العقاب الالهى غير مسبب بفعل انسانى يذكر الشوكانى أنه سبحانه [علم ما هم عاملون قبـــل كونهم] (٥٧) فعاملهم على ذلك ، وأخبر بمـــا سيصيرون ، وباعتبار ما سوف يختارون من أفعال أو يميلون من تفكير ، وهذا الفهم الذى فهمه الشوكانى مأخوذ من قول النبى صلى اللـــه عليه وسلم عندما

---

(٥٦) تفسير ابن عطية ج١ ١٥٥ .

(٥٧) تفســـير الشـــوكانى ج١ ٣٩ — ٤٠ ، ١١١ — ١١٢ ، ٥٣٣ — ٥٣٤ ، ج٢ ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤٩ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ٢٩٨ ، ٣٩٣ ، ٤٦٣ ، ٤٩١ ، ج٣ ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ج٤ ٧٧ — ٧٨ ، ١٥٠ — ١٥١ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٣٤٦ ، ٤٩٢ ، ٥٠٥ — ٥٠٦ ، ٥٥٧ ج٥ ٥ ، ٨ — ٩ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠٠ وتفسير ابن عطية ج٤ ٢٨١ ، ج٥ ١٦١ — ١٦٢ .

سئل عن أولاد المشركين فقال [اللـه اذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين] رواه ابن عباس وأبو هريرة ، وصححه البخارى ، ومن ثم عامل اللـه الخلق بالعدل المطلق ، ونفى عن ذاته أن يفعل ذلك فيهم ، أو يخلق فى ذواتهم الضلال ابتداء ، أو يصيبهم بالختم والطبع والصمم والعمى دون ما سبب منهم فيقول جل شـأنه [**ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليـك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ان اللـه لا يظلم النـاس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**] ٤٢ — ٤٤ يونس وفى النهاية فان تلك الأحوال التى تصيب القلوب جاءت نتيجة التوجه الانسانى وبسبب العلل والمؤثرات التى تصيب القلوب وتفقدها صفاءها ، نجانا اللـه من ذلك وجلى قلوبنا .

السمات الفكرية والعملية للمنكرين :

من الناحية النظرية تركزت المعارضة فى عدة قضايا أهمها وأكبرها خطرا ثلاث : الألوهية ، والنبوة والبعث ، ودار الجدل النظرى بين المنكرين والدعوة حولها لمسافة طويلة ، واستغرق الحوار وقتا تجاوز نصف المدة المقررة لنزول الوحى ، واستوعب طائفة كبيرة من الآيات القرآنيـة ، وما زال الجـدل يدور رحاه بين المستمسكين بالحـق والمتشبثين بالباطل الى يومنا هذا ، ولا أمل فى تحقيق النصر النهائى للحق على الباطل بوضعنا هـذا ويبدو أن المعركة ستظل سجالا ، ويلزم لأرباب الحق أن يتكاتفوا بكل قوة ، وأن يجندوا أنفسهم بالفكر والعتاد ، وأن يكونوا على أهبـة الاستعداد لخوض معارك ومعارك فالبـاطل متحفز ومتربص ، وله أساليبه وحيله ومكره ودهاؤه ، وله فلسفته الزائفة ، ومنطقه الخادع ، وقد ينخدع به السذج ، أو يقع فى شراكه الضعفاء .

وبالنسبة للألوهية فالمشركون لا ينكرون الاله خالقا للسـموات والأرض ، بل يقرون به ويشركون معه أوثانهم التى سموها وصنعوها

بأيديهم ، وغير المشركين من عبدة الكائنات لا يقرون باله منزه مجرد عن الكون بل يتصورونه فى آلهتهم من النــار أو الكواكب أو النجوم أو الحيوانات ، واليهود يقولون باله له صفات الألوهية الواحدة ولكنهم أهــل تشبيه ، ويلصقون به من الصــفات البشرية ما لا يليق بكماله ويتجرأون عليه بالكلمات والعبــارات بما لا يتفق مع ورع المؤمنين وقداســة المعبود الحق جــل جلاله ، وهم لا يتحرجون فى تغيــير الوحى الذى نزل على أنبيائهم ، وتبديل الآيات التى لا تتفق وهواهم، كما لا يتحرجون فى تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها •

والنصارى هبطوا فى مضمار التقديس للاله الواحد الى حد أن تصوروه محتاجا الى بشرى ليحل فيه ، وتوارثوا نظرية التبنى من الفكر اليهودى الذى نسبها لعزير فادعوا أن عيسى هوالآخر ابنا وحيدا للاله ، وأنه قد اختاره موئلا لذاته حيث التحم الجوهران التحاما كليا، أو مكانا لصفاته فالتقت أقانيم الحق وصفاته بطبيعة المسيح فبدلته وصيرته قادرا على أفعال الاله بما حمل من صفاته ، وعاثت عقولهم فى العقيدة الصحيحة فسادا جلب اليها من الساحة الفلسفية جلبــا مقصودا ، والعقيدة السماوية منه براء •

وفى المــاضى كانت هناك فئة كبيرة من البشر لا يتصورون الاله بأى صــــورة ، وينسبون الأفعــال للزمن ، ولا يرون غير المــادة ، وما زالت تلك الطائفة الى يومنا هذا بل نشطت وتمذهبت واكتسبت أنصارا وأعوانا ، وبنت قوة ودفاعات فكرية وعسكرية استفحل أمرها، وبات جند الحق أمامها صغارا ، وأضحوا يتزلفون لهــا ، أو يخطبون ودها ، أو يتقون شرها ، أو يصابون أحيانا كثيرة بنارها ، وقد تلتهمهم التهاما شديداً ، وما ذلك الا لتفريطهم فى الحق الذى هم عليه ، وتمزقهم فيما بينهم ، واهمالهم ازاء وحدتهم وبنــاء القوة اللازمة لنهضتهم وحياتهم ومقتضى الحق الذى هم عليه •

وأما فكرة النبوة فقد غابت صورتها الحقيقية عن ذهن المشركين ، ونسوا نبوة ابراهيم واسماعيل وهود وصالح ، كما غفلوا عنها لدى اليهود والنصارى المجاورين ، والواضح جدا أن الأفكار التى أثاروها حول النبوة مثل استبعاد أن يوحى اللـه الى بشر ، والتعجب من ذلك ، ومن كون النبي يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وأنهم لن يؤمنوا حتى تأتيهم الملائكة أو يأتيهم اللـه فى ظلل من الغمام ، ان مثل هـذه الأفكار مع سابق الرسالات على أرضهم ، ومع ثقتهم بعض الشىء فى علم اليهود وهم أهل كتـاب تدل على الجهالة الفائقـة ، والسذاجة والسطحية وعدم الرغبة فى اعمال الفكر بالقياس والمماثلة ولو أدنى لحظة ، وتدل أيضا على الاصرار على الكفر وعنادهم للحق واختراع الشبه الكاذبة سندا فى مسلكهم ، وركيزة واهية يرتكزون عليها ، ويقدمونها لمن حولهم من أبنـاء وثنيتهم .

واليهود والنصارى لا ينكرون النبـوة أصلا ، ولا يستبعدونها للبشر ، وانما حسدوا النبى محمدا عليها كما سبق أن قلنـاه ، وغيرهم من السادة والملوك المجاورين أنكروا حفاظا على الرئاسة والجـاه واستعظاما لشأنهم واستهانة بشأن العرب وشأن الرسالة التى أشرقت من بلدانهم ، والمـاديون المعاصرون لا يعترفون بعلم يخرج عن حدود الحس والمحسوسات والخبرة والتجربة الانسانية .

وكان لكل فريق من اليهـود والنصارى تصـوره عن البعث والخلاص ، كما كان لكل أرباب دين وضعى نظراتهم الخاصة فى الحياة الآخرة ومن البشر من أنكرها جملة ولم يعترف بحياة وراء هـذه الحياة الدنيا وما زالت هذه الفكرة مسيطرة على أدمغة المـاديين الى وقتنا الحـاضر .

والقضايا الثلاث هى مثار اهتمام الأنبياء ، وهى التى استغرقت جهدا طويلا من الدعوة الاسلامية ابان نشأتها ، وما زالت تمثل عناصر

الرفض الحقيقية عند المـاديين والطبيعيين وان لم يقدموا أدلة واضحة تساند أفكار المعارضة لديهم ، وعاشوا معها على الظن والحسبان ، وأسسوها بلا علم ، وأقاموها على مجرد الزعم والافتراء ، واذا قدمت لهم الحجج والبراهين عليها حال دون تفهمها ما دوناه سلفا من علل نفسية ومؤثرات خارجية ، وعندما يتصورون عدم قدرة النبى صلى الله عليه وسلم على التأييد بالآيات فيتشددون فى طلبها ، ويلحون عليها فتأتيهم نراهم يرفضون فى بجاحة ، وينكرون فى بلاهة ، ويستبدلون الانبهار والخضوع لمـا تقتضيه المعجزة من التصديق بسيل من التهم التى يوجهونها الى النبى مثل ساحر وشاعر ومجنون الى آخـر هـذه المفتريات •

وبالنسبة لمسلكهم العملى فانه جرى على وتيرة واحدة ، وما زال يجرى عليها ، فى البداية لا يعبأون بالأمر ، فاذا ما رأوه نشط حاولوا احتوائه بشتى الوسائل ، واذا ما قوى واجهوه بحدة وقوة وجمعوا له كل ما لديهم ، وجندوا له جنودهم ، واستنفروا همم المنكرين ليقفوا صـفا واحدا ضد الحق ، وفى تلك اللحظات التى يأخذ فيها الصراع شكلا عسكريا يصبح لا مجال للاقناع ، ولا فسحة نفسية أو زمنيـة للمحاورة المنطقية ، ولا بقية من فؤاد يمكن معها تفهم الحق وبراهينه ، وتغلق النفس دونه غلقا ، ولا ترقب سوى من سينتصر ، ولا تعمـل الا لذلك ، وبالتالى فالكلمة هنا هى كلمـة الحق والصبر والاستماتة والشجاعة والبسالة والتضحية والبذل والايثار الى آخر هذه العبارات التى هى زاد الساحة العسكرية لا الحلبة الفكرية ، ويتراءى للناظرين الذين يطلون بعيون رؤوسهم على سير المعارك أن كل فريق يتصـور الحق معه بسبب استبسالهم فى ميدان المعارك ، ولكن النتيجة المحتومة تكون دائما لصالح الحق المؤكد لا البـاطل المموه ، ولا المزيف الذى يترسخ فى الأذهان حتى يخيل اليها أنه حق ، خاصة عندما تتضافر على ترسيخه وساوس النفس والشيطان معا •

وهذه المسالك العملية بجميع متناقضاتها ما زالت موجودة بين الماديين وعبدة الكائنات وأهل الكتاب من جانب وبين المتمسكين بالدعوة الاسلامية الصادقة من جانب آخر ، والأمر يتطلب وحدة فكرية وسياسية وقوة عسكرية واقتصادية ، وفهما اعتقاديا ، وتطبيقا شرعيا ، وعدالة بين الرعية ، وجنودا يدافعون عن حقهم ، وينافحون الباطل بعقيدتهم واستقامتهم وتآخيهم وتآزرهم ، وأمة واحدة تأخذ على عاتقها حماية الاسلام وكتابه وسنته وتشريعه ، وتعمل جاهدة بعد ذلك على نشره ودعوة الآخرين اليه ، وأملنا كبير فى اللـه أن يخرج لنا الفجر ، وأن يشق النور من بين طبقات الدجى ، وأن يحيى من بيننا قوادا ينفخون فى صور الأمة فيبعثونها من رقدة العدم ، وثبات الغفلة ، وشتات الضياع وفرقة الضعف ، وجهالة التصور ، ونير الاستعباد ، وحكم الفساق الى حياة النور ، ويقظة العلم ، ووحدة الغاية ، وجماع القوة ، وربانية التصور ، وحرية الامارة والخلافة ، وعدالة التشريع ، وتقوى الحاكمين ، ونزاهة القائمين على الأمر ، وغيرتهم على محارم اللـه ودينه ، وأرض المسلمين ودستورهم وأعراضهم ودمائهم وثرواتهم ، واذا عاد اليهود من شتاتهم بالجهد والتفكير والسهر والتدبير مع قلتهم وباطلهم أفلا يعود المسلمون من شتات الفكر وخلاء العقيدة ، أفلا يعودون الى أوطانهم ودينهم وهم ينتسبون اليه ، ألا فهل من مجيب ، هل من مجيب ؟ ؟

وسوف نسمع ردودا مفحمة ، وحججا باهرة محكمة على تلك القضايا الثلاث وما آثاره المعارضون من شبه أثناء عرض المنهج فى الكتاب القادم ان شاء اللـه .

[تم بحمد اللـه وتوفيقه]

اولا — المصادر الاصلية : القرآن وعلومه :

القرآن الكريم :

المؤلف	الكتاب
المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم	
معجم الفاظ القرآن	
ابن الجوزى	تفسير زاد المسير
ابن العربى	احكام القرآن
ابن عطية	التفسير — المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز
ابن كثير	تفسير القرآن العظيم
ابن قتيبة	تفسير غريب القرآن
ابو السعود	التفسير — ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم
ابو حيان	التفسير — البحر المحيط
الثعالبى	التفسير
الجصاص	احكام القرآن
الخازن	التفسير
الزمخشرى	الكشاف
السيوطى	الاكليل فى استنباط التنزيل
سيد قطب	فى ظلال القرآن
الشافعى	احكام القرآن
الشوكانى	فتح القدير « التفسير »
الطبرى	التفسير
الفخر الرازى	التفسير

المؤلف	الكتاب
القيسى	مشكلات اعراب القرآن
القرطبى	التفسير
الكتكانى	البرهان فى تفسير القرآن
الكلبى	التسهيل « تفسير »
الكيا الهراس	احكام القرآن
النسفى	التفسير
النيسابورى	التفسير — غريب القرآن ورغائب الفرقان
عضيمة	دراسات لأسلوب القرآن الكريم

ثانيا — المصادر الاصلية : الحديث وعلومه :

المؤلف	الكتاب
ابن حجر	فتح البارى شرح صحيح البخارى
ابو داود	السنن
الامام احمد	المسند
البخارى	الصحيح
البغوى	شرح السنة
الحافظ بن ابى شيبة	الكتاب المصنف
الخطيب التبريزى	مشكاة المصابيح
الدارمى	السنن
الشرقاوى	فتح المبدى
العينى	شرح البخارى
النسائى	السنن

المؤلف	الكتاب
النـــووى	شرح صحيح الامام مسلم
النـــووى	رياض الصالحين
مســـلم	صـحيح مسـلم المعجم المفهـرس لألفـاظ الحديث

ثالثا — المعـاجم اللغـوية :

المؤلف	الكتاب
ابراهيم مصطفى	المعجـم الوسيط
ابن الشحنة الحنفى	مجمع المتون
ابو الحسن احمد بن فارس بن زكريا	معجم مقاييس اللغـــة ، تحقيق عبد السلام هارون
اسماعيل بن حماد الجوهرى	تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمـد عطا — بيروت
محب الدين ابو الفضل محمد مرتضى الحسينى الزبيدى	تاج العروس من جواهر القاموس
القاضى عبد النبى عبد الرســول الأحمـد نكـرى	جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون او « دســتور العـلماء »
ابو الفضــل جمال الدين محمـــد ابن مكرم بن منظــور	لسان العـرب — بيروت
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى	القــاموس المحيط
مجمع اللغة العربية	المعجم الفلسفى
مصــطفى بن عبد اللــه الشــهير بحاجى خليفـــة	كشف الظنون عن اســامى الكتب والفنـــون

رابعا — المراجـــع :

المؤلف	الكتـــاب
ادم عبدالله الانورى الشيخ	تاريخ الدعـــوة الى الله
ابراهيم مدكور	فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه
ابن تيمية	مجموع الفتاوى ٣٧ جزءا
ابن تيمية	الحسبة فى الاسلام
ابن تيمية	العبودية
ابن تيمية	الاستقامة
ابن الجوزى	الأذكيـــــاء
ابن كثير	البداية والنهاية
ابو الاعلى المودودى	تذكرة دعاء الاسلام
ابو الأعلى المودودى	مفاهيم أسلامية حول الدين والدولة
ابو نعيم الاصفهانى	الحليـــــة
ابو نعيم	دلائـــل النبـــــوة
احمد غلوش الأستاذ الدكتور	الدعوة الاسلامية اصولها ورسائلها
احمد فايز	طريق الدعوة
البهى الخولى — استاذ	تذكـــرة الدعاة
الذهبى	السيرة النبـــوية
الراغب الاصفهانى	الذريعة الى مكارم الشريعـــة — تحقيق د/ أبو اليزيد العجمى
الشهرستانى	الملل والنحـــل
أمين احسن أصلاحى	منهج الدعوة الى الله
محسن عزب الطهطاوى	فى الدعوة الى الاســـلام بين غير المسلمين

المؤلف	الكتــاب
برتران رسل	تاريخ الفلسفة الحديثة
بديع الزمان — سعيد النورسى	الانسان والايمان
عبدالله الشاذلى	الحكمة العربية
عثمان جمعه	التصور الاســلامى للكون والحياة والانسان
عدنان النحــوى	المنهاج الربانى
د / عون الشريف	الرسالة الخاتمة
د / فاخر عقل	طبائع البشر — كتاب العربى
فتحى يكن	مشكلات الدعوة
محمد ابو زهرة	الدعوة الى الاسلام
محمد الغزالى — الشيخ	مع الله
محمد الغزالى	علل وادوية
محمد الغزالى	هذا ديننــا
محمد بن حسين	الكشكول
محمد درازز	من خلق القرآن
محمد قطب	دراسات فى النفس الانسانية
يوسف الصديق	المفاهيم والالفاظ فىالفلسفة الحديثة

الفهـــارس

الموضوع	الصحيفة

الفصــل الثالث : الحكم والأقسام

الفصل الرابع : فضل الدعوة ومنزلتها

الموضوع | الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع الصحيفة

الفصل الثانى : العبادة الغائية ومعانيها

الموضوع | الصحيفة

الفصل الثالث : العبادة الغاية أصولها وشمولها

البـــاب الرابع

رد الفعل البشرى تجاه الغايات العليا

الفصل الأول : اختلاف البشر حول دعوة الرسل

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع ٢٢١٦ / ٨٧١